الجمهورية الجزائرية الديمقراطية والشعبية

وزارة الجامعات
جامعة باتنة
معهد الآداب واللغة العربية

التشبيه صوره وألفاظه

دراسة تطبيقية في القرآن الكريم

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي القديم

إعداد الطالب
أحمد لزهري بلخضر

إشراف
الدكتور خالد أبو جندي
الدكتور عمار زعموش

سنة 1412 هـ - 1992 م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــــداء

الى كل أحرار الجزائر المكبلين بالقيود.

الى كل الأشاوس الرابضين خلف قضبان المحتشدات والسدود.

الى شيوخ الاسلام ودعاة الحق والسلام.

الى قائد هذه الأمة ومربي أجيالها الشيخ الدكتور الفاضل عباسي مدني.

والشيخ الفقيه والمفتي النبيه علي بلحاج حفظهما الله.

المقدمـــــة

لقد حظيت البلاغة بعامة والقرآنية بخاصة ، منذ فجر التأليف إلى يومنا هذا ، بدراسات كثيرة ومتنوعة من قبل الدارسين ، بغية منهم لفك أسرار الإعجاز البياني القرآني ، الذي أبهر عمالقة فصحاء العرب في جاهليتهم وإسلامهم إلى يومنا هذا؛ وحبا مني في المساهمة لإثراء هذه الدراسات البلاغية ، اخترت جانبا من جوانبها الهامة وهو (التشبيه) الذي يعد من أبرز عناصرها البيانية ، التي لقيت اهتماما خاصا من قبل النقاد والدارسين ، وذلك لكثرته في أشعار العرب وكلامهم ، وكذا لتنوعه وبلاغته في القرآن الكريم . وقد ألفت حوله كتب كثيرة ، وفي مراحل مختلفة ، ولم تخرج هذه المصنفات - حسب ما يبدو لدارس البلاغة - عند ما يتصفح مثل هذه القواعد وتداخلها ، الأمر الذي يدفع بالقارئ - كما بيّنا في التمهيد - إلى الملل والتذمر ، عندما يتصفح مثل هذه الكتب والمصنفات .

كل هذا وغيره من عوامل شجعتني إلى طرق هذا الموضوع بطريقة تبدو مغايرة نوعا ما لِمَا سبقها من دراسات ، وذلك مساهمة مني في إثراء البلاغة العربية القرآنية من جانب ، وتحريك قوالبها وقواعدها - التي جُمِّدت منذ عقود من الزمن - من جانب آخر ؛ والخطة التي سلكتها في هذا البحث توضح ولو جانبا بسيطا مما يمكن فعله في ميدان الدراسات البلاغية على وجه العموم والقرآنية على وجه الخصوص ، فقد قسمت البحث إلى تمهيد وأربعة فصول هي كما يلي :

1- التمهيد: تناولت فيه الإشتقاقات اللغوية للتشبيه، فتطرقت فيه إلى أصله النباتي والمعدني، ثم عرّفته لغة واصطلاحا وبعدها عالجت بعض وظائفه كـ(الإيضاح والمبالغة والإيجاز والتوكيد). ثم انتقلت بعدها إلى تناول بعض جهود السابقين نحو التشبيه، انطلاقا من اهتمام الشعراء به في أشعارهم، ثم إلى اهتمام النقاد الأوائل به أثناء تقويمهم لهذه الأشعار، ثم إلى اهتمام الدارسين به، ابتداء من ملاحظات أبي عبيدة، والفراء، والجاحظ، وابن قتيبة، في إشاراتهم العابرة في موسوعاتهم المختلفة، إلى ذكر أهم الكتب البلاغية التي تناولت التشبيه في أبواب مستقلة؛ مثل الكامل للمبرد، والصناعتين لأبي هلال العسكري، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز لفخر الدين الرازي، ومفتاح العلوم للسكاكي، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، والتلخيص في علوم البلاغة للقزويني، وأنهيت هذه المجموعة بالإشارة إلى بعض الجهود التي تناولت شرح كتاب المفتاح والتي تسمى بشروح التلخيص. ثم تناولت بعد ذلك الكتب التي انفردت بتناول التشبيه بعامة في ميدان الأدب، مثل كتاب التشبيهات لابن أبي عون، وكتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لمحمد بن الكتاني الطبيب وبعدها أنهيت هذه الجهود، بذكر أهم الكتب التي تناولت

التشبيه في القرآن الكريم، مثل : الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي، والتشبيات القرآنية والبيئة العربية لواجدة مجيد الأطرقجي. فبعد عرض مطول لمادة هذين الكتابين، وتوجيه بعض الملاحظات إليها، خلصت في الأخير إلى القول، بعدم مطابقة هذه الدراسة التي أقوم بها الآن مع ما جاء في هذين الكتابين. هذا عن محتوى التمهيد.

2. الفصل الأول : فقد تناولت فيه عنصرا جديدا أطلقت عليه مصطلح (التشابه)، فحاولت فيه التفريق بينه وبين (التشبيه) في المجال اللغوي الإصطلاحي، معتمدا في ذلك على ما ورد في المعاجم اللغوية والقرآن الكريم، من اشتقاقات لغوية مختلفة لهذا المصطلح، ودعمت ذلك بما ورد من تعريفات وأقوال علماء البلاغة في هذا المجال؛ أمثال: الرماني، والسكاكي، والخفاجي، وغيرهم. ثم أعطيت تعريفا يحدد هذا النوع من (التشابه)، الذي أردت تتبعه في القرآن الكريم فلخصته بالقول: (هو كل تعبير وردت فيه إحدى أدوات التشبيه، أو ما يدل عليها، ولم يرد فيه ما يدل علي إقامة أي صورة تشبيهية، تكون العلاقة فيها متفاوتة القوة والضعف بين عناصر طرفيها) فأدخلت في ذلك كل نموذج يقر ويؤكد بوجود تطابق بين الطرفين، أو يطلب إيجاد وتطبيق هذا التطابق، أو ينكر إمكانية وجوده على الإطلاق. فعالجت هذه النماذج ضمن ثلاثة أنواع أساسية هي: (التشابه المؤكد، والتشابه الطلبي، والتشابه الإنكاري)؛ فتناولت في النوع الأول كل النماذج التي تقر بوجود تشابه بين الطرفين المتقابلين، سواء كان ذلك قولا وواقعا، أو قولا دون الواقع المعيش. وتناولت في النوع الثاني كل النماذج التي تحتوي على أساليب تحث على وجوب تطبيق المماثلة بين العناصر التي تشير إليها أدوات التشبيه؛ وأما النوع الثالث فتناولت فيه جل النماذج التي تنص على عدم وجود أدنى إمكانية التشابه والمماثلة بين عناصر الطرفين المتقابلين، وذلك عن طريق الأساليب المختلفة، مثل: (الإستفهام الإنكاري، والنفي، والنهي، وأسلوبي التحدي والدعاء)، اللذين كانا خاتمة هذا الفصل الأول.

3 ـ الفصل الثاني: فقد تناولت فيه (صور التشبيه في الجانب النظري)؛ فبعد توطئة تطرقت فيها إلى أهم التعقيدات التي دارت حول قواعد التشبيه، وإلى التداخل البيّن بين أقسام التشبيه وأنواعه عند علماء البلاغة أنفسهم، توصلت إلى تقوية مصطلح (الصورة) في الجانب البياني، الذي تبنيته عنوانا لهذا البحث بعامة، وهذا الفصل بخاصة. ثم بينت في رسم توضيحي للصور الأربعة، مع الأنواع التي ستتناولها بالتمثيل والإيضاح. وألحقت هذا الرسم بشروح

للمصطلحات التي وردت فيه، لأسهل على القارئ بعد ذلك تتبع ما سيأتي من نماذج في ذلك ؛

فعلى سبيل المثال، تأخذ الصورة الأولى التي أعطيتها المثال المبسط (محمد كالأسد في الشجاعة ثم ألحقتها بالأنواع المختلفة التي يمكن أن تبرز عليها وهي: (الإفراد: المطلق والمقيد المتعدد والتركيب: المزجي والتقابلي - ثم القلب أو العكس - ثم النوع الدلالي للألفاظ: الحسي والمعنوي وهكذا الأمر مع بقية الصور الثلاثة المتبقية، مع التمثيل لكل هذه الأنواع من الشعر والنثر، إلى نهاية الصورة الرابعة، ونهاية الفصل الثاني.

4 - الفصل الثالث: تناولت فيه صور التشبيه - التي سبق التنظير لها في الفصل الثاني - عن طريق النماذج القرآنية، مستعينا في ذلك بالقواعد الأساسية للتشبيه، في اختيار النماذج واستخراجها وتحليلها، وكذا بآراء وشروح المفسرين، في فهم كنهها وإدراك معانيها، وتصنيفها بعد ذلك تحت الصورة والنوع المناسب لها، وذلك طيلة هذا الفصل الثالث.

5 - الفصل الرابع: فقد تناولت فيه ألفاظ التشبيه في تشبيهات القرآن الكريم، وخصصت بالذكر الألفاظ المشبه بها- واستثنيت من ذلك لألفاظ المتعلقة بنماذج (التشابه) وذلك لعدم تنوعها وتكرارها في معظم الطرفين المتقابلين - والتي صنفتها بحسب العوامل المشتركة في محاور أساسية هي: (الألفاظ المتعلقة بأعضاء الإنسان وأمراضه وجوانب أخرى في حياته - وألفاظ الجن والشياطين - وألفاظ النبات - وألفاظ الحيوان - وألفاظ الحشرات والهوام - وألفاظ السوائل - وألفاظ بعض الظواهر الطبيعية - وألفاظ بعض العناصر الطبيعية - وألفاظ تشبيهية مختلفة) وبينت من خلال تناولي لهذه العناصر أهميتها، ودلالاتها في حياة الإنسان بعامة، والعربي بخاصة. كما التمست في ذلك بعض الأسس التي يمكن أن يكون القرآن الكريم قد اعتمدها في توظيفه لبعض هذه العناصر.

ولم يكن تناولي لهذه القضايا في هذه الفصول الأربعة بالأمر الهين، بل واجهتني صعوبات جمة منذ بداية هذا البحث إلى نهايته؛ فقد كان البحث في بادئ الأمر يعتمد الإحصاء منهجا وهدفا، ولكن لصعوبة تحقيق هذا الغرض - وذلك لتداخل أقسام التشبيه وأنواعه من جهة، وتطبيقها في القرآن الكريم من جهة أخرى - دفع بي إلى تغيير عنوان البحث - بعد فترة طويلة من عملية الإحصاء والفرز - إلى صيغته التي هو عليها الآن مصطلح (الصورة).

ولما استقر العنوان بهذه الشاكلة تحتم علي القيام بدراسة وافية لجل تشبيهات القرآن الكريم الأمر الذي سبب لي صعوبة في فرز ما هو تشبيه، وما هو ليس كذلك. الشئ الذي أفرز الفصل

الأول بهذا العنوان (تشابه) لأول مرة في دراسات التشبيه الأكاديمية، حسب معلوماتي إلى حد الآن. ولعدم وجود مصادر ومراجع، تناولت هذا النوع بالدراسة - وبخاصة في القرآن الكريم - فقد وجدت صعوبة كبيرة في تحديد هذا النوع (تشابه) للتفريق بينه وبين (التشبيه) المعروف وطبعا هذا الإقتراح مبادرة لم تخرج إلى الواقع إلا بعد صعوبات كبيرة ، استمرت وقتا طويلا بعد عملية الفرز والتمحيص.

والصعوبة الأكبر التي واجهتني في هذا البحث، تتمثل في كون القرآن الكريم ليس كغيره من كلام البشر، فما نظنه مجازا في صورة، قد يكون حقيقة، والعكس وارد؛ وبخاصة في النماذج التي تحذف منها الأداة، فتجتمع فيها الحقيقة مع المجاز، والتقرير مع التصوير.

والصعوبة الأخرى التي واجهتني في هذا البحث، تتمثل في صعوبة فرز الألفاظ التشبيهية، في التشبيهات المركبة، لأن الطرف المركب منها يتألف من عدة ألفاظ، ولاختيار لفظة بعينها وتصنيفها في إطار عنوان معين يحتاج إلى فكر دقيق وبصر ثاقب وتأمل طويل.

ورغم كثرة الكتب البلاغية التي تناولت التشبيه في إطار التقنين، إلا أنها قليلة في مجال الدراسات المستقلة، وبخاصة في الدراسات التطبيقية في القرآن الكريم؛ فمن مجمل ما ذكرت من جهود السابقين - كما سيتضح في التمهيد - لم تنفرد بدراسة التشبيه إلا كتب قليلة، وقعت على أربع منها فقط، إثنان منها في الجانب النظري، تضمنا تشبيهات شعرية ونثرية مختلفة، هما: كتاب (التشبيهات) لابن أبي عون، وكتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) لصاحبه ابن الكتاني الطبيب. وقد اعتمدت عليهما في اختيار النماذج التي تنطبق عليها خصائص الصور التشبيهية الأربعة، بأنواعها المختلفة في الجانب النظري. وأما الكتابان الآخران، فقد خصصا دراسة لتشبيهات القرآن الكريم؛ وإن كانت المادة الأدبية، الشعرية والنثرية، قد حظيت بقسط وافر فيهما. وهذان الكتابان هما: كتاب (الجمان في تشبيهات القرآن)، لصاحبه ابن ناقيا البغدادي، وكتاب (التشبيهات القرآنية والبيئة العربية) لصاحبته، واجدة مجيد الأطرقجي. فكان استئناسي بهما في عملية فرز الصور التشبيهية، وكذا الإستعانة ببعض ما ورد فيهما من نماذج شعرية قصد الإبانة والتوضيح؛ وكان اعتمادي أكثر على الكتاب الثاني لكون ما قامت به صاحبته دراسة أكاديمية، سلكت فيها الجانب العلمي في البحث والتنقيب، وقد سهلت علي هذه الدراسة مهمة التعريفات النظرية المختلفة للتشبيه، وكذا مهدت لي الطريق إلى معرفة الجهود التي سبقتها.

وأما المنهج الذي سلكته في تناول مادة هذا البحث، فهو المنهج التكاملي الذي استعنت فيه بالتاريخ - وبخاصة في التمهيد عندما تعرضت لجهود السابقين - ومرة بالإحصاء، في تقرير ما هو موجود في الجانبين النظري والتطبيقي، الأمر الذي ساعد على استنباط نوعية (التشابه)، وبواسطته استخرجت بعض الصور التشبيهية التي تختلف عما ألفناه في تشبيهات البشر شعرية كانت أم نثرية. وإلى جانب التاريخ والإحصاء، استعنت كذلك بالوصف والتحليل، في إبراز كثير من الجوانب الفنية البيانية في التشبيهات القرآنية، وبخاصة المركبة منها. كما استعنت فيه أيضا بالجانب النفسي الإجتماعي في إبراز الميزات الخاصة التي اعتمدها القرآن الكريم في توظيفه لبعض العناصر الطبيعية بصفتها ألفاظا تشبيهية.

وما يمكن الإشارة إليه أيضا في هذه العجالة، هو أنني قد استعنت في هذا البحث ببعض الرموز الإصطلاحية، لإحالة القارئ إلى المصادر والمراجع التي أخذت منها المادة العلمية، ولشرح بعض ما غمض من معاني الألفاظ اللغوية. وهذه المصطلحات هي : (م) بمعنى مجلد ، و (ج) بمعنى جزء ، و (ص) بمعنى صفحة، و إشارة (+) بمعنى المصدر أو المرجع الذي يمكن الرجوع إليه للإطلاع على النصوص التي لم تذكر في المتن، أو بمعنى الشرح المعجمي لبعض الألفاظ اللغوية.

وأخيرا لا أملك إلا أن أشكر كل من ساهم في إنجاز هذا البحث، من قريب أو من بعيد في البداية أو في النهاية، وبخاصة أستاذي الدكتور خالد أبو جندي الذي تعهد هذا البحث بتوجيهاته التي أخذت بيدي ، وجنبتني الوقوع في مزالق الإحصاء ، وكذا أستاذي الدكتور عمار زعموش ، الذي ساهم في إتمام هذا البحث ، وإخراجه إلى الوجود : قراءة وتمحيصا وتوجيها. والله نسأل أن يتقبل منا هذا العمل لوجهه الكريم ، وأن ينفع به غيرنا من طلاب العلم والمعرفة .

التمهيد

التشبيه :

اشتقاقاته اللغوية :

قبل . أن نتطرق إلى الإشتقاقات اللغوية وإلى المعاني التي تنبثق من لفظة التشبيه نحاول التعرف على الأصل الذي انبثق منه هذا المصطلح .

تورد المعاجم والكتب اللغوية(+)في هذا الصدد روايتين :الأولى :تتعلق بالأصل النباتي فقد جاء في اللسان في نفس المعنى عن أبي حنيفة:{{الشَّبهُ : شجرة كثيرة الشوك تشبه السمرة وليست بها}}(1). وقيل أيضا في الأصل النباتي نفسه:{{والمُشَبَّهُ : المُصفرُّ مِن النَّصيِّ، والشَّبَاهُ: حبٌّ على لون الحُرفِ يُشرب للدَّواءِ . والشُّبهانُ: نبت يشبه الثَّمامَ ويقال له الشُّبهانُ }}(2). ويعمم هذا المصطلح فيشمل نوعا من النبات كما هو بيِّن في قول ابن سيدة:والشَّبهانُ، والشُّبُهانُ ضرب من العِضَاة (+).وعلى وجه العموم فهذا هو الأصل الأول على مذهب الرواية الأولى .

وأماالرواية الثانية في أصل هذاالمصطلح فتتعلق بالمادة المعدنية للنحاس،فقد قيل في هذاالشأن :{{الشِّبْهُ والشَّبَهُ النحاس يصبغ فيصفر }}(3)_ ويقال :{{الشَّبَهُ والشُّبهانُ_ مُحرّكَتَين: النحاس الأصفر }}(4) ، أو هو : {{ضرب من النحاس يلقى عليه دواء فيصفر}}(5)، وقد :{{سمي به لأنه إذا فعل به ذلك أشبه الذهب بلونه }}(6).

(+)هذه الكتب هي :الصحاح ـ الجوهري ـ تحقيق عبدالغفورعطار ـ دار القلم للملايين بيروت لبنان ـ 1319هـ 1979م ـ م6 ـ ص 2236 +. القاموس المحيط ـ الفيروز بادي ـ دار القلم للملايين بيروت لبنان ـ م 4 ـ فصل السين و الشين ـ باب الهاء ـ 286 +ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار صادر للطباعة والنشر ـ مادة (شبه) ص 505

(1)اللسان المصدر نفسه ـ المجلد نفسه ـ المادة نفسها ص ـ 505، 505 .

(2)المصدر نفسه ـ المجلد نفسه ـ المادة نفسها ـ ص 503.

(+)المخصص ـ ابن سيدة ـ تحقيق لجنة احياء التراث العربي ـ دار الآفاق الجديدة بيروت لبنان ـ م 3 ـ ج ـ 11 ص 181

(3) اللسان ـ المصدر السابق ـ المجلد السابق ـ ص 503

(4)القاموس المحيط ـ المصدر السابق ـ المجلد السابق ـ الباب السابق ـ ص 286

(5) تهذيب اللغة ـ الأزهري ـ تحقيق عبد المنعم خفاجي ـ محمد فرج العقدة ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ م 6 ـ مادة (شبه) ص 90 .

(6) المخصص ـ المصدر السابق ـ م 4 ـ ج 2 ص 25 .

وانطلاقا من هاتين الروايتين نستنتج أن أصل هذه اللفظة اشتق من المشابهة ،سواء أكانت بين النبات والذهب،أو بين النحاس والذهب في جانب الصفرة .وهذه الصفة الأخيرة هي التي تهمنا في هذاالتقصي التأصيلي، لأنه سيساعدنا في فهم الإشتقاقات اللغوية بمعانيها المختلفة للفظة التشبيه .

تورد المعاجم اللغوية صيغا مختلفة للفظة التشبيه تدور حول معنيين:أولهما(التمثيل): ومن جملة هذه الصيغ التمثيلية أن :{{الشِّبه والشَّبه والشَّبية:المِثل }}(1).وكذلك{{ يقال شبَّهته إياه، وشبَّهته به تشبيهاأي مثلته}}(2).ويقال كذلك:{{أشبه الشَّيُ الشَّيئَ:ماثله}}(3).ويقال أيضا:{{ المتشابهات المتماثلات }}(4).وثانيهما: (التسوية والمشاكلة) :ففي هذاالمعنىيقال مثلا:{{ اشتبهت الأموروتشابهت إلتبست لاشتباه بعضهابعضا}}(5).ويقال في نفس المعنى:{{أشبهت فلانا وشابهته ،واشتبه علي ، وتشابه الشيئان واشتبها :أي أشبه كل واحد منهما صاحبه }}(6).

وقد وردت في القرآن الكريم تصريفات مختلفة لهذه اللفظة (تشبيه)لم تخرج عن المعاني السابقة،في مثل قوله تعالى:[[مشتبهاًوغير متشابه]](7)وذلك في وصف ثمارالدنيا،وكذلك في مثل قوله تعالى:[[وأوتوابه متشابهاً]](8) في وصف ثمارالجنة ،ومثله في المعنى قوله عز وجل: [[تشابهت قلوبهم]](9).والتشابه هناواقع في الصفة المعنوية للقلوب :[[أي يشبه بعضها بعضاًفي الكفر والقسوة]](10). وقد يؤدي هذا التشابه ، معنى المشاكلةوالتساوي ،فيقال مثلا :{{وشبَّه الشَّيئ إذا أشكل ،وشبَّه إذا ساوى بين شيئ وشيئ }}.(11)

---

(1)اللسان ـ المصدر السابق ـ المجلد السابق ـ المادة السابقة ـ ص 503.

(2) القاموس المحيط ـ المصدر السابق ـ المجلد السابق ـ الفصل السابق ـ الباب السابق ـص 286

(3) اللسان ـ المصدر السابق ـ المجلد السابق ـ المادة السابقة ـ ص 503

(4)الصحاح ـالمصدر السابق ـ المجلد السابق ـ ص 2236 ـ+ـ اللسان ـ المصدر السابق ـ المجلد السابق المادة السابقة ـ ص 503

(5) أساس البلاغة ـ الزمخشري ـ تحقيق عبد الرحيم محمود ـ دار المعرفة بيروت ـ 1402 هـ ـ 1982م ص 228،229

(6)الصحاح ـ المصدر السابق المجلد السابق ـص 2236

(7) الأنعام .آية 100

(8) البقرة آية 24

(9)البقرة آية 117

(10)(11)اللسان المصدر السابق ـ المجلد نفسه المادة نفسها ـ ص 505

وعندما نبحث في المعاجم اللغوية عن مادة(مثل)فإننا نجدها تعني(الشبه):ففي اللسان :{{أن المِثل يعني الشبه:يُقال مِثله ومَثَله،كمايقال`` شِبه الشيْ وشَبهه}}(1).ونجد نفس المعنى في أساس البلاغة في مادة(مثل)فيقال:{{تمثّل به،ومَثّل الشّيْ بالشّيْ ،سُوّي به وقُدّر تقديره }}(2).ويؤكد ابن فارس هذه العلاقة بقوله:{{مَثَل :الميم والثاء واللام أصل صحيح يدل على مناظرة الشّيْ للشّيْ وهذامِثلُ هَذاأي نظيره،والمَثلُ والمِثالُ بمعنى واحد،وربماقالوامَثيل كشبيهٍ..والمِثل :المَثل أيضا،كشِبه وشَبه ،والمَثل المضروب مأخوذ من هنا}}.(3)

ولابد أن نشيرإلى أن المثل لا يعني دائماالمشابهة أوالتشبيه، بل قد يعني معاني أخرى؛ منها (العبرة)كما يؤكد ذلك قوله تعالى :[[فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين]](4)أي عبرة لمن جاء بعدهم،ومثله قوله تعالى :[[وجعلناه مثلا لبني إسرائيل]](5)أي عبرة لهم،كماأن المثل قد يعني(الصفة والصورة)كما هوالشأن في قوله تعالى:[[مثل الجنة التي وعد المتقون]](6)أي صفة الجنة.وقد يجتمع الشبه والمثل في تأدية معنى واحد وهوالشكل(+)أو المشاكلة كما سبق توضيحه.

وما يمكن استفادته من هذه المعاني والإشتقاقات اللغوية ؛ أن التشبيه يفيد التمثيل وكذلك العكس ،وأنهما معاً يفيدان التطابق .وهذا سيسهل مهمتنا في محاولة فصل النماذج التشبيهية القرآنية التي تحتوي على خاصيةالوصف ، عن النماذج التشبيهية القرآنية التي تفيد المطابقة والإتحاد في جميع عناصر الطرفين المتقابلين.وسنتناول هذه النقطة في فصل خاص بها إن شاء الله تعالى .هذا عن الجانب اللغوي .

تعريفه اصطلاحا :

تطالعنا كتب اللغة والأدب والبلاغة ، بأن :أول تعريف علمي للتشبيه يتمثل في قول قدامى ابن جعفر- المتوفى سنة 337هـ {{التشبيه يقع بين شيئين بينهمااشتراك في معاني تعمهـــما

---

(1)اللسان المصدر السابق - مجلد - 11 - مادة (مثل) ص 610.

(2)أساس البلاغة - المصدر السابق - مادة (مثل) ص 420.

(3)معجم مقاييس اللغة - ابن فارس - تحقيق وضبط عبد السلام هارون - دار الفكر - م 5 ص 296

(4)الزخرف آية 56

(5)الزخرف آية59

(6) محمد آية 16

(+)القاموس المحيط - المصدر السابق - م 3 - فصل الشين - باب اللام - 401.

ويوصف بها، وافتراق في أشياء ينفردكل واحد منهابصفتها}}(1).واضح من تعريف قدامى أنه يتحدث عن الطرفين المشبهين، وعن العلاقة التي تربطهما،وهوإلى جانب هذايشترط عدم التطابق بينهما،بل لابد من وجودأشياء تربط بينهما،وأخرى تفرق بينهما،وهذا يدل على أن اتحاد الطرفين في جميع الجوانب لا يعد تشبيها على حد تعريف قدامى السابق.

وإذا تتبعنا مثل هذه التعريفات الإصطلاحية للتشبيه ـ تاريخيا بعد تعريف قدامى ـ وجدنا الرماني المتوفى سنة 386هـ يعرفه بأنه{{العقد على أن أحدالشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل}}(2).وإذا حللنا هذاالتعريف وجدناه لم يأت بجديد على تعريف قدامى الذي كان أبين وأوضح،لأنه فصّل في عمليةالتشبيه،بيناكتفى الرماني بالتعميم في القول دون التفصيل، لأننا يمكن أن نفهم من قوله:(يسد مسد الآخر)أن المشبه والمشبه به يستويان في العلاقة التي تربط بينهما والمتمثلة في قوله:(في حس أو عقل).وهذا يتعارض مع وجوب بروز العلاقة في الطرف المشبه به أكثر من المشبه.

وإذاانتقلناإلى تعريف أبي هلالالعسكري ـ المتوفى سنة 395هـ ـ الذي يُعرِّفه بأنه:{{ الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة تشبيه}}(3).وجدناه يختلف جزئيا عن التعريفين السابقين بذكره لأداة التشبيه التي لم يُصرَّح بها فيهما، ولكنه في نفس الوقت لم يذكرالعلاقة التي سبق أن ذكرتها هذه الأخيرة. وبالرغم من هذه المغايرة يبقى تعريف العسكري قاصراً لم يحتو على عناصرالتشبيه برمتها،كماأنه بذكره للأداة أخرج التشبيهات المضمرة التي تحذف منه الأداة.

ويتطابق رأي الباقلاني ـ المتوفى سنة 403هـ ـ في تعريفه للتشبيه مع تعريف الرماني لفظا ومعنى،ويبدو ذلك في قوله:{{التشبيه هوالعقد علىأن أحدالشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل}}(4)

وهكذا بقيت التعريفات السابقة،رائدة الموقف لم يخرج عنها تعريف عبد القاهر الجرجاني ـ المتوفى سنة 474هـ ـ الذي اشترط لقيام الصورة الفنية للتشبيه أن:{{يثبت لهذامعنى من

(1) نقد الشعر ـ قدامى بن جعفر ـ تحقيق عبد المنعم خفاجي ـ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ـ ص 124

(2)النكت في إعجاز القرآن ـ الرماني ـ تحقيق محمد خلف الله زغلول ـ دار المعارف بمصر ـ 1387 هـ 1968م ـ ط 2 ص 80

(3) الصناعتين ـ ابو هلال العسكري ـ تحقيق مفيد قميحة ـ دار الكتب العلمية بيروت 1401هـ 1981م ـ ط 3 ص 261

(4) إعجاز القرآن ـ الباقلاني ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ دار المعارف بمصر ـ ط 3 ـ ص 263 ـ 264

معاني ذاك أوحكما من أحكامه}}(1)؛ ففي قوله (لهذا أوذاك) يشير إلى الطرف الأول: المشبه، وإلى الطرف الثاني المشبه به،أي إلى الطرفين المتقابلين،بينما في قوله:(معنى..أو حكما) فإنه يشيرإلى وجه الشبه،أي إلى العلاقة التي تربط بين المشبهين،وبهذالم يختلف تعريف عبد القاهر عما سبقه من تعريفات،إلا في تغيير العبازة واللفـــظ.

ويأتي بعدعبد القاهرالسكاكي الذي يُعرّفُ التشبيه بقوله:{{لا يخفى عليك أن التشبيه مستدع طرفين مشبهاومشبهابه،واشتراكابينهمامن وجه،وافتراقا من آخر مثل أن يشتركا في الحقيقة ويختلفافي الصفة أو بالعكس }}(2)ونفهم من هذاالتعريف أنه جاء تفصيلا لقطيالما سبقه من تعريفات، وبخاصة تعريف قدامى بن جعفر،فنجده قد صرّح بالمشبه والمشبه به بدلامن(الشيئين) كما ذكروجه الشبه بدلامن لفظة (المعاني)،وبيّن كذلك وجوب وجود عناصرالإئتلاف والإختلاف بالتمثيل بدلا من عموميتها في قول قدامى السابق:{{الإشتراك في معاني تعمهما ويوصف بها وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منها بصفتها}}(3).

ويختلف تعريف ابن أبي الإصبع المصري - المتوفى سنة 654هـ - عن تعريف السكاكي وباقي التعريفات السابقة له،صياغة ومضمونا،إذ يعرفه بقوله:{{إخراج الأغمض إلى الأظهر بالتشبيه مع حسن التأليف}}(4).ففي قوله(إخراج الأغمض إلى الأظهر)تعريف لوظيفة التشبيه، بينما قوله(بالتشبيه)يمكن أن يدل على معنيين؛أحدهما:أنه لابد من إجراء عملية ربط بين الطرفين المتقابلين ،والثاني: يعني أداة التشبيه.وما يمكن قوله حول هذاالتعريف، هو أنه اقتصر على وظيفة عامة وأساسية من وظائف التشبيه، وهي التوضيح والإبانة، وأنه لم يتناول أي ركن من أركان التشبيه الأساسية ،ماعدا الأداة ،ولكنه ركز على اختيار العلاقة التي تربط بين الطرفين ،ويكون ذلك بحسن التأليف ، وهذاالأمر يتعلق بالجانب الفني الجمالي للتشبيه .

ولم يتأثر الخطيب القزويني - المتوفى سنة 739 هـ بتعريف ابن أبي عون ،بل نجده قد تأثر بالتعريفات السابقة له،وخصوصاتعريف السكاكي ، وذلك لأنه لخص له القسم الثالث من كتابه

---

(1)أسرار البلاغة - تحقيق عبد المنعم خفاجي - مكتبة القاهرة - 1399هـ - 1979م - ط 3 - ص 175

(2)مفتاح العلوم - السكاكي - ضبط وشرح - نعيم زرزور - دارالكتب العلمية بيروت - 1403 هـ 1983 م - ط 1.ص 332

(3)نقد الشعر - المصدر السابق .ص 124

(4) بديع القرآن - ابن أبي الإصبع المصري - تحقيق حفني محمد شرف - مكتبة نهضة مصر الفجالة .ص 58

(المفتاح)ويظهرذلك في قوله:{{التشبيه الدلالة على مشاركة أمرلآخر في معنى}}(1).ويعد هذا التعريف أكثر وضوحا ودقة من التعريفات السابقة له في التعبير،غير أنه يبقى ناقصابعدم تطرقه إلى الأداة، التي تشير إلى وجود العلاقة بين الطرفين.ولكن مع هذا يبقى هذاالتعريف سائدأدون أن يُغيَّر في باقي العصور،وكأن العلماء بعد القزويني قد اقتنعوا به،ولذلك نجدهم يذكرون التعريفات السابقة لهم دون أن يحاولوا تغييرهاأو التعليق عليها.

والذي نستفيده من هذه التعريفات في الفصول التطبيقية القادمة هو:أن التشبيه لايعني التطابق. لأن معظم التعريفات أشارت إلى ضرورة وجود أمرمايجمع بين الطرفين، دون أن تشترط اتحاد الطرفين في جميع العناصر،وبخاصة تعريف قدامى الذي اشترط إلى جانب الإتفاق لابد من الإختلاف.

وظيفة التشبيه البيانية :

لقد اهتم الباحثون والدارسون للبلاغة بفن التشبيه اهتماماً كبيراً منذالقديم إلى يومنا هذا، وتطرقوا إلى كل كبيرة وصغيرة تتعلق به؛ومن جملة ماهتموا به الجانب الوظيفي للتشبيه، أو ما يسمى بفوائد التشبيه،وفَصَّلوافي هذاالجانب تفصيلا تامالا يحتاج إلى شروح أكثر،وخلص بعضهم إلى حصرها في نقاط محددة،مثلمافعل صاحب الطراز الذي جمعهافي ثلاثة محاورأساسية هي:(البلاغة أو المبالغة،والإيجازوالإيضاح)،وأضاف البعض الآخر وظيفة (التوكيد)،مثلما فعل علي الجندي في كتابه :(فن التشبيه :بلاغة أدب نقد).

ويعد الخوض في مثل هذه الجوانب المطروقة واسع ومفصل - ضرب من التكرارالذي لا يأتي بجديد،إلا أن العِلمية في المنهج تتطلب منا التطرق إليها ولو بنوع من الإيجاز ،وذلك لكونها تمثل جزء من البناء الكلي للموضوع الذي نحن بصدد تناوله .وأول وظائف التشبيه :

الإيضاح :

يعد:{{...عند البلاغيين أشبه شيئ بوسائل الإيضاح التي تهدف إلى زيادة التأثيرفي النفس وتثبيت المعاني فيها،إذ يعقد صلة بين أمرين أو أكثر يشتركان بصفة أو أكثر،بقصد إبراز هذه الصفة في أحدهما وتجسيمها وتوضيحها}}(2)فهو يربط بين صور خفية وأخرى جلية،ليجسدها في

---

(1)الإيضاح في علوم البلاغة - الخطيب القزويني - شرح وتنقيح وتعليق عبد المنعم خفاجي - دار الكتاب اللبناني 1400 هـ 1980 م -ص 328

(2)الصورة بين البلاغة والنقد - أحمد بسام الساعي - المنار للطباعة والنشر والتوزيع - 1404 هـ - 1984 م -ص 45

ذهن القارئ أو المستمع،ولذا قال علماء البلاغة :{{...والأصل في حسن التشبيه أن يُمثّل الغائب الخفي الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد،فيكون حسن هذا لأجل إيضاح المعنى وبيان للمراد}}(1).ووظيفة إخراج الخفي إلى الجلي ، شغلت علماء البيان ، فذهبوا في تفسيرها مذاهب كثيرة ومتعددة؛ويمكن الوقوف عند بعضها في مثل قول أحدهم:{{والأظهر الذي يقع فيه البيان بالتشبيه به على وجوه منها:إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ماتقع عليه الحاسة.ومنها إخراج مالم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة، .ومنها:إخراج مالا يُعلم بالبديهة إلى مايُعلم بالبديهة. ومنها:إخراج مالا قوة له في الصفة إلى ماله قوة في الصفة؛فالأول:نحو تشبيه المعدوم بالغائب، والثاني تشبيه البعث بعد الموت بالإستيقاض بعد النوم. والثالث: تشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتاب.والرابع :تشبيه ضياء السراج بضياء النهار}}.(2)

وإلى جانب هذه النصوص والأمثلة - التي أكدت وظيف الإيضاح التي يتميز بها التشبيه - نورد أمثلة أخرى لزيادة توضيح هذه الوظيفة أكثر،فنأخذ من الشعر قول بشار بن برد :(3)

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

إن المتأمل في هذا البيت يجد أن الشاعر أراد أن يبين ويوضح لنا صورة الحرب، ومدى هول المعركة واشتداد وطيسها،فجاءنا بصورة أخرى مشابهة لها،وهي صورة الليل المظلم الذي تتطاير فيه الشهب المضيئة هنا وهناك ، فتشق ظلام الليل،وهذه الصورة معروفة لدينا،ومن هذه المعرفة أستطاع الشاعر أن يُعرِّفنا على صورة من صور المعارك التي يكثر فيها الكر والفر حتى يعم الغبار المتطاير من أرجل الخيل جميع من في المعركة،وبهذا الربط بين الموقفين استطاع الشاعر أن يخرج لنا صورة غامضة لدى الكثير . في شكل واضح لدى الغالبية العظمى من الناس. ومن القرآن الكريم نأخذ قوله تعالى:[[يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي (+)]](4).فالظاهر من هذه الآية أن الله تعالى أراد أن يبين ويوضح لنا عمق هذه الجفان فشبهها

---

(1)سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجي - دار الكتب العلمية بيروت لبنان - 1402 هـ -1982 م - ص 246

(2)النكت في إعجاز القرآن - المصدر السابق -ص 81

(3)الديوان - بشار بن برد - تحقيق محمد الطاهر بن عاشور - الشركة التونسية للتوزيع والشركة الجزائرية للنشر والتوزيع - 1972 م - ص 61

(+)جمع جابية:<<الجابية الحوض الذي يُجبى فيه الماء للإبل والجابية الحوض الضخم >>اللسان - المصدر السابق - مادة (جبى)ص 129

(4)سبأ آية 13

بالجوابي لنعرف مدى قوة هؤلاء الشياطين والمردة من الجن،ومدى عظمة الإنسان في ذلك الوقت / ومدى قوته البدنية ،مع جواز احتمال تخريجات أخرى لهذه الصورة .

بهذه الأمثلة يمكن لأي باحث، أو قارئ، أن يقيس عليها جميع الصورالتشبيهية / ليلتمس عنصر الإيضاح بشتى أنواعه المختلفة .ومن وظائف التشبيه أيضا :

الإيجاز :

إلى جانب وظيفة التشبيه الإيضاحية ،فإنه يقوم بوظيفة الإختصار والإيجاز إذ :{{يختصر بعد مابين الشرق والمغرب}}(1)في الجمع بين المشاهد الواسعة الأطراف بعبارات قليلة مختصرة : {{وهكذاكانت العرب تختصرفي التشبيه،وربماأومأت به إيماء}}(2).ولهذاقيل أن التشبيه يقوم بعملية:{{الكشف عن المعنى المقصود مع الإختصار،فإنك إذا قلت:زيدأسد،كان الغرض بيان حال زيد،وأنه متصف بقوةالبطش والشجاعة وغير ذلك،إلاأنالم نجد شيئا يدل عليه سوى جعلنا إياه شبيها بالأسد ،حيث كانت هذه الصفات مختصة به،فصار هذاأبين وأبلغ من قولنا :زيد شهم شجاع قوي البطش }}(3).

وتبرز عملية الإختصارأكثر في التشبيهات المركبة ،وعلى وجه الخصوص في القرآن الكريم{{... ومن الإختصار العجيب والإيجاز البليغ في التشبيه قوله تعالى :[[إنما مَثلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبحَ هَشيما تذروه الريـــاح]](4)

فانظر إلى مااشتملت عليه هذه الآية مِن أنواع التشبيهات،أشياء بأشياء في معاني وأوصاف، بحيث لو فصلت لاحتاجت إلى شرح كبير}}(5) ٤٤٠٦٩٠

ويمكن أن نمثل لهذاالإختصار من الشعر بقوْل أبي تمام : (6)

لا تنكري عطَل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

يربط أبو تمام بين موقفين؛ موقف الكريم مِن الغنى، وموقف المكان العالي من عدم استقرار

(1)أسرار البلاغة ـالمصدر السابق ـم 1 ـ ص 247

(2)فن التشبيه ـ لغة ـ أدب ـ نقد ـ علي الجندي ـ مكتبة الأنجلو المصرية 1386هـ ـ1966 م ـ ط 6 ـ ج 1ـص 64

(3)البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ـ تحقيق محمدأبو الفضل ـ دار الفكر ـ 1400 هـ ـ 1980 م ـ ط3ـص 415

(4)يونس ـ آية 24

(5) الطراز ـ المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز يحيى بن حمزة العلوي اليمني ـ منشورات مؤسسة النصر ـ تهران ـ م 1ـص 276

(6) شرح ديوان أبي تمام ـ إيليا الحاوي ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت لبنان ـ 1981 ـ ط 1

التربة فوق قمته، وكل موقف يحتاج إلى تفصيل: فالأول: يريد أن يبين أن الكريم يبقى دوما فقيرا بسبب كرمه الذي لا يتوقف ،لأنه لو توقف لكثرماله وازداد نماؤه.والثاني:يبيّن أن عدم استقرارالتربة في المكان يعود إلى تعرض قمته دوماإلى السيول الجارفة التي تجرف التربة من القمة إلى الأسفل. وهكذا يكون هذاالتشبيه قد اختصر هاتين العمليتين في عبارات قليلة موجزة.

وعموما فالتشبيهات كلهاتفيدالإختصارولكن مع تباين بسيط بحسب المواقف والموضوعات التي تعالجها. ومن الوظائف الأخرى للتشبيه إلى جانب الإيجاز :

المبالغــــــة:

تعد المبالغة خاصية من خصائص التشبيه،لأنهاالشريان الذي يغذي الصورةالتشبيهية،فكلما قلت المبالغة اقتربت الصورة من الحقيقة،وقربهامن الحقيقة يفقدها طابع الجمال الفني المرغوب فيه،ولذا قيل:{{..أو يمثل الشيء بما هوأعظم وأحسن وأبلغ منه، فيكون حسن ذلك لأجل الغلو والمبالغة }}(1)،ولتوضيح ذلك نستعرض بعض الأمثلة الشعرية فنتناول على سبيل المثال قول الشاعر(+) :

كأن القلب ليلة قيل يغدى   بليلى العامرية أويراح (2)

قطاة عزهـا شرك فباتت   تجاذبه وقدعلق الجنــاح

فالمبالغة تبرز في العلاقة التي ربطها الشاعر بين دقات قلبه التي زادت عن حدها، بخفقان جناح القطاة التي تحاول الخلاص من شَرَكها التي وقعت فيه ، فالصوت في دقات القلب مهما بلغ ذروته لن يصل الى قوة صوت خفقان جناح القطاة . ولكن رغم هذه المبالغة فقد احتوت الصورة التشبيهية جمالاً فنياً لاينكره المتذوق لهذا الفن.

وأمثال هذه الصورة كثيرجدأفي أدبناالعربي على العموم والشعر منه على الخصوص ؛ وأكثر الأغراض الشعرية احتواءً للمبالغة في التشبيه غرض المدح ، لأن المادح يضفي على ممدوحه صفات غالبأماتكون للمداراة والتملق، فيضطر للمبالغة فيهاحتى يلتمس وده أو يتقي شره، وبخاصة إذا كان الممدوح خليفة ، أو أميراًأو والياً من ولاة الأمور. ونمثل لهذاالنــوع بقــول

---

(1) سر الفصاحة – المصدر السابق – ص 246

(+) ينسب هذا البيت أيضاً الى توبة بن الحميّر – التشبيهات –لابن أبي عون – عني بتصحيحه محمد عبد المنعم خان – مطبعة جامعة كامبردج – 1369 هـ – 1950 م – ص 212

(2) ديوان مجنون ليلى – تحقيق عبد الستار أحمد فراج – دار مصر للطباعة – ص 73

الشاعر :

وبدا الصباح كأن غرته   وجه الخليفة حين يمتدح (1)

ففي هذاالتشبيه المقلوب جعل الشاعر حُسن وجه الخليفه في الإشراق ، أفضل من ضوء الصباح في بداية النهار،وهذاالتفضيل فيه مبالغة واضحة،لأن إشراقة وجه الخليفة مهمازادت لن تبلغ وضوحاً وضياءً ضوء الصباح المخترق لحجب الظلام، ولكن الشاعر استطاع بهذه المبالغة أن يؤثر في الخليفة ، وفي السامعين ، فنال بذلك إعجابهم وهداياهم.ومن الوظائف الهامة المتبقية للتشبيه :

التوكيـــــد :

يفيد التشبيه في تقرير وتثبيت الصورة التي يُراد أن يكون عليهاالمشبه ، من خلال مقابلتها بصورة المشبه به. ولذلك فهو:{{من شأنه أن يقرر شكل المشبه في الذهن،ويعمق معناه،ويلح عليه بالتثبيت}}(2).وبهذه الفاعلية استطاع التشبيه أن:{{يزيد المعنى وضوحاًويلبسه تأكيداً}}(3)

وتبرز هذه الخاصية أكثر في التشبيهات المركبة التي تقوم بعملية المماثلة بين حالة وأخرى، عن طريق زيادة في توظيف العناصر المجسدة للصورة التشبيهية بعامة، ولهذا فإن وظيفة التمثيل في تأكيد المعنى قوية ، عبر عنها عبد القاهر الجرجاني في معرض حديثه عن التمثيل بقوله:{{ ...لأنه يفيد في الصِّحة وينفي الريب والشك، ويؤمن صاحبه من تكذيب المخالف ، وتهجم المنكر وتهكم المعترض، وموازنته بحالة الكشف الجاري عن الموصوف المخبر عنه حتى يُرى ويُبصر ويُعلم كونه على ما أثبته عليه موازنة ظاهرة صحيحة }}(4).

وزيادة في التوضيح نستعرض بعض الأمثلة التشبيهية من أدبناالعربي فنأخذ من النثر قول ابن المقفع في وصف الدنيا:{{الدنيا كالماء الملح الذي لايزداد شاربه شرباإلا ازداد عطشا}} (5). يريد ابن المقفع أن يبين لنا- كما يبدو من قوله - عدم قناعة الإنسان بمايملك في هذه الحياة الدنيا ، فهو يلهث وراءجمع الثروات،وكلماامتلك منها نصيبا طلب نصيباآخر،وهكذا

---

(1) أسرار البلاغة – المصدر السابق – م 2 – ص87

(2) فن التشبيه – المصدر السابق – ص 265

(3) الصناعتين – المصدر السابق – ص 265

(4) أسرار البلاغة - المصدر السابق - م 1- ص 237

(5)كليلة ودمنة - ابن المقفع - دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع - تونس - ص 80

حالته معهاإلى نهاية العمر،وليؤكد لناوجود هذه الصفة في الإنسان قابلهابتجربة عملية مشاهدة ،وهي عملية شرب الماء المالح الذي كلما شرب منه الإنسان عطش ، وكلما عاود الكرة ازداد عطشا، وهكذا تتكرر العملية بدون انقطاع حتى النهاية. ونأخذ من الشعر قول الشاعر :

إن القلوب إذا تنافر ودها   مثل الزجاجة كسرها لا يجبر (1)

يذهب الشاعر في هذاالبيت إلى تبيان الكدر، والحزازات، التي تبقى عالقة في القلوب بعد التنافر والخصام الذي يقع بين الناس،فلا تعود هذه القلوب إلى الصفاء مثلما كانت عليه قبل الخصام،وليؤكد هذاالمعنى الموجود في المشبه مثّل له بحقيقة طبيعية تتمثل في عناصر المادة الزجاجية ،التي لا تتحد جزيئاتها بعد الإنكسار. وبالرغم من كون الصفة في المشبه به أقوى من المشبه،إلا أنه استطاع أن يبرز صفة خفية متفاوتة القوة والضعف من إنسان لآخر، وأن يؤكد وجودها فعلا في قلوب المتنافرين المتخاصمين ، ولو بعد تصالحهما من بعد القطيعة والخصام.

وعلى هذاالنمط يمكنناأن نلتمس جانب التأكيد في جل نماذج التشبيهات، لأن هذاالمعنى يعد وضيفة أساسية من وضائف التشبيه ألحت على وجودها بعض التعريفات الاصطلاحية السابقة، كتعريف عبد القاهر الذي أكد على{{أن يثبت لهذامعنا من معاني ذاك أو حكما من أحكامه}}(2). إذاًفعملية الإثبات أو التأكيد مهمة من مهام التشبيه بين صوره المختلفة.

هذه وظائف نضعها بين يديك تمثيلا وليس حصراًلها،لأن وظائف التشبيه مطلقة تنمو ولا يمكن حصرها، وبهذه اللمحة الموجزة حول المحاورالأساسية لوظيفة التشبيه، ننتقل إلى تتبع اهتمامات الدارسين بهذاالفن عبر العصور.

اهتمام الدارسين بالتشبيـــــه:

لقد أهتم الشعراء بالتشبيه اهتماما كبيراً برز في الإكثار من صوره في أشعارهم، والتنافس في إجادة معانيه لنيل ريادة الشعر، لأنه كان مقياسامن مقاييس الجودة والرداءة، والسبب في ذلك أن الأشعار كانت تُحفظ وتُروى نظراً لاحتوائهاعلى تشبيهات جيدة :{{وليس كل الشعر يحفظ على جودة اللفظ والمعنى ولكنه يُختار ويُحفظ على أسباب منهاالإصابة في التشبيه كقول القائل في وصف القمر :

---

(1) البيت موجود في كتاب علوم البلاغة - البيان والمعاني والبديع - أحمد مصطفى المراغي دارلقلم بيروت لبنان - 1984م ص 216

(2)أسرار البلاغة المصدر السابق - م1- ص 175

بدأن بنا وابن الليالي كأنه   حسام جلت عنه العيون صقول}}(1)

وقد اعترف الشعراء أنفسهم بهذا.فقد قيل لبشار:{{بم فقت أهل عمرك وسبقت أبناء عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب ألفاظه؟قال: لم أقبل كل ما تورده علي قريحتي ويناجيني به فكري ونظرت إلى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات فسرت إليها بفكر جيد ..}}(2).ولطائف التشبيهات التي تكلم عنها بشار هي التي جعلت النقاد يقدمون ذاالرمة عن غيره من الشعراء لأنه :{{أحسن الناس تشبيها وأجودهم تشبيها}}.(3)

وانطلاقا من كثرة الأساليب التشبيهية في الشعر العربي أصبح التشبيه من:{{أكثر الأنواع البلاغية أهمية بالنسبة إلى الناقد القديم.لذلك كان من أول المباحث التي تبلورت في الفترات الأولى من تاريخ البلاغة العربية،ولأهميته عندهم اعتبروه مقياسا من مقاييس اختيار الشعر وحفظه }}(4).

وهذا الإهتمام الذي حظي به التشبيه من قبل الشعراء والنقاد جعل الدارسين يولون له جانبا من الإهتمام في دراساتهم اللغوية والأدبية. وبدأ هذا الإهتمام في شكل ملاحظات عابرة من خلال تعليقاتهم وتفسيراتهم لتشبيهات القرآن الكريم، مثلما نجده لدى سبويه في قوله : {{ومثله في الإتساع قوله تعالى :[[ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء]](5) فلم يشبهوا بالمنعوق به ،وإنما المعنى :مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع }}(6) .ومثل هذه الإشارات نجدها عند ابن جني في كتابه الخصائص، الذي تكلم فيه عن التشبيه المقلوب أو المعكوس في {{باب غلبة الفروع على الأصول }}(7).

ولا تختلف ملاحظات أبي عبيدة - المتوفى سنة 208 هـ - عن الملاحظات السابقة إذنجده يعلق

---

(1) الشعر والشعراء - ابن قتيبة - دار إحياء العلوم بيروت لبنان - 1986م - ط 2- ص 37

(2) العمدة - ابن رشيق - تحقيق وشرح مفيد محمد قميحة - دار الكتب العلمية بيروت لبنان - 1403 هـ - 1983 م - ط 1- ج 2- ص 423

(3)الشعر والشعراء - المصدر السابق - ص 43

(4)الفكر البلاغي عند العرب - حمادي صمود - منشورات الجامعة التونسية - 1401هـ - 1981 م -ص 325

(5)البقرة آية 170

(6)الكتاب - سيبويه - تحقيق عبد السلام هارون - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1977 م - ط 2 - ج 1 - ص 212

(7) الخصائص - ابن جني - تحقيق محمد علي النجار - دار الهدى للطباعة والنشر بيروت لبنان .ط 2 - م 1 ص 300

على قوله تعالى :[[نساؤكم حرث لكم]](1)بقوله :{{كناية وتشبيه }}(2).

وتمتاز ملاحظات الفراء ـ المتوفى سنة 207 هـ ـ عما سبقها من ملاحظات بالتحليل الجاد في إدراك بعض جوانب التشبيه،وإيضاح أركانه،والعلاقة بين المشبه والمشبه به ووجه الشبه،ويبرز هذا(+) في تحليله لقوله تعالى :[[مثلهم كمثل الذي استوقد نارا]](3).

وأماالجاحظ ـ المتوفى سنة 255 هـ ـ فقد أبدى ملاحظات هامة حول التشبيه أعانت المتأخرين على فهم وظيفته وتنظيم قواعده الثابتة له .(+)

وتوقفت ملاحظات إبن قتيبة على الجانب النحوي واللغوي دون أن يتطرق إلى الناحية الفنية البيانية . ففي تعليقه على قوله تعالى :[[كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف]](4)يقول : {{في يوم عاصف الريح فحذف لأن ذكر الريح قد تقدم فكان فيه دليل}}(5).وكذلك الأمرفي تعليقه على قوله تعالى :[[كمثل غيث أعجب الكفار نباته]](6).إذ نجده يفسر الجانب اللغوي فقط دون أن يحلل الصورة التشبيهية ؛فيقول:{{إنما يريد الكفارالزراع،واحدهم كافر.وإنما سمي كافراً لأنه إذاألقى البذر في الأرض أي غطاه وكل شئ غطيته فقد كفرته.ومنه قيل تكفر فلان بالسلام إذا تغطى.ومنه قيل لليل كافر لأنه يستر بظلمته كل شئ }}(7).

لم تتوقف اهتمامات العلماء والدارسين عند هذه الملاحظات العابرة ، والإشارات اللطيفة التي أولوهاالتشبيه،بل تطورت وأصبحت على شكل أبواب خاصة تضمنتها كتب اللغة والأدب بوجه عام؛ففي القرن الثالث الهجري نجدالمبرد يفردبابا خاصاللتشبيه تناول فيه التشبيهات العجيبة والمستحسنة ممثّلا لذلك من الشعر والقرآن الكريم. وقد جاءفي آخر حديثه عن التشبيه قوله :{{التشبيه كثير وهو

---

(1) البقرة آية 221

(2)مجاز القرآن ـ أبو عبيدة ـ محمد فؤاد سزكين ـ مؤسسة الرسالة ـ 1401 هـ 1981م ـ ط 2 ـ م 1 ،ص 73

(+) معاني القرآن ـ الفراء ـ تُحقيق علي النجار ويوسف النجاتي ـ 1403 هـ ـ 1983 م ـ ط 3 ـ ج 1 ـ ص 17

(3) البقرة آية 16

(+) ينظر فن التشبيه ـ المصدر السابق ـ ص 38

(4)إبراهيم آية 18

(5)تأويل مشكل القرآن ـ ابن قتيبة ـ شرحه ونشره أحمد صقر ـ المكتبة العلمية المدينة المنورة ـ 1401 هـ ـ 1981 م ـ ط 2 ،ص 217

(6)الحديد آية 20

(7) تأويل مشكل القرآن ـ المصدر السابق ،ص 75

باب كأنه لا آخر له }}(1).

وإذا انتقلنا إلى القرن الرابع الهجري، فإننا نجد علماء البيان في هذه الفترة اهتموا كذلك بالتشبيه، وأفردوا له أبوابا مستقلة كما فعل المبرد قبلهم؛ ومن أبرز المهتمين به في هذه الفترة أبوهلال العسكري الذي خصص له بابا عرف فيه التشبيه وقسمه إلى أقسام مختلفة، ثلاثة أقسام، وأربعة أقسام، وسبعة أقسام. فمن أمثلة التقسيم الأول قوله: {{تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون مثل الليلة بالليلة}}(2).ومن أمثلة التقسيم الثاني قوله: {{إخراج مالم تجربه العادة إلى ماجرت به العادة كقوله تعالى: [[وإذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة]].(3)والمعنى الجامع بين المشبه والمشبه به الإنتفاع بالصورة}}(4).ونأخذ من التقسيم الثالث قوله: {{تشبيه الشيء بالشيء صورة مثل قوله تعالى :[[والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم]](5)...}}(6).

ولم يخب اهتمام الدارسين - في القرنين الخامس والسادس عن القرون السابقة - بالتشبيه، بل ازداد أكثر إذ لم تخل كتبهم ومؤلفاتهم من الكلام عن التشبيه؛ ولعل أبرز من اهتم بهذا الفن عبد القاهر الجرجاني - المتوفى سنة 471 هـ - الذي خصص قسما كبيرا- في كتابه أسرار البلاغة - للتشبيه والتمثيل، فبيّن في هذا القسم أقسام التشبيه والفرق بينه وبين التمثيل، وضمنه أيضا فصولا تناول فيها مختلف الحديث عن التشبيه والتمثيل، وبيّن قيمة هذا الأخير في التصوير البياني؛ومن أمثلة ما جاء في أحد فصوله قوله :{{ثم إن الشبه العقلي ربما انتزع من شيئ واحد ...وربما انتزع من عدة أمور يُجمع بعضها إلى بعض ثم يُستخرج من مجموعها الشبه ليكون سبيله سبيل الشيئين يُمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما حال الإفراد}}(7).

ويبرز اهتمام الزمخشري - 476 هـ 538 هـ - بفن التشبيه ضمن اهتمامه بصور البيان من خلال تفسيره للقرآن الكريم ، فهو لم يفرد بابا خاصا له كما مر معنا عند المبرد والعسكري وعبد

(1)الكامل في اللغة والأدب - المبرد - مكتبة المعارف بيروت لبنان - ج 2 ص 115

(2) الصناعتين - المصدر السابق - ص 262

(3) الأعراف آية 171

(4) الصناعتين - المصدر السابق - ص 263

(5)يسن آية 38

(6)الصناعتين - المصدر السابق - ص 267

(7)أسرار البلاغة - المصدر السابق ص 210

القاهرولكنه تطرق إلىصوره وأنواعه من التشبيهات القرآنية.ولخص الدكتورمحمد أبوموسى أهم قضاياالتشبيه التي ذكرهاالزمخشري في قوله:{{درس الزمخشري التشبيه المركب والمتعدد والمفرد،ودرس تشبيه التخييل،وفرق بين الإستعارة والتشبيه،وبين القيمة البلاغية للقيد في الصورة،ودرس العلاقة بين الطرفين في حال التعدد،والإفراد،والتركيب،وبيّن قيمة التمثيل،كما أشارإلى التركيب}}(1).وتمثيلا لهذه الدراسة نأخذ حديث الزمخشري حول الفرق بين التشبيه المركب والمفرق،أي بين المركب تركيبامزجياوبين المركب تركيباتقابليا،ويبدو هذامن خلال تفسيره للصورة التشبيهية من قوله تعالى :[[ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطيرأو تهوي به الريح في مكان سحيق]](2).فيقول:{{يجوز في هذاالتشبيه أن يكون من المركب والمفرق،فإن كان تشبيهامركبافكأنه قال:من أشرك بالله فقدأهلك نفسه هلاكاليس بعده نهاية بأن صور حاله بصورة من خر من السماء فاختطفه الطير فتفرق مزعا في حواصلها،أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة،وإن كان مفرقافقد شبه الإيمان في علوه بالسماء والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء،والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة،والشيطان الذي يطوح به في واد الضلالة بالريح التي تهوي بماعصفت به في بعض المهاوي المتلفة }}(3).

وازداد اهتمام الدارسين بالتشبيه في القرن السابع الهجري إلى درجة كبيرة بلغ مرحلة التقنين القاعدي الجاف الذي يضع القواعدأولا ، ثم يمثل لهابنماذج من الشعروالنثروالقرآن الكريم،ويبرزهذاالعمل عند ثلاثة أعلام هم:فخرالدين الرازي - المتوفىسنة 606هـ - وأبو يعقوب يوسف السكاكي - المتوفى سنة 626 هـ - وضياء الدين بن الأثير - المتوفى سنة 638 هـ -.

لم يكتف الرازي في اهتمامه بالتشبيه بباب واحد فقط ،بل أفرد له أربعة أبواب ضمنها فصول عدة:ففي البابـ الأول - الذي يتناول المتشابهين - قسمه إلى أربعة فصول تنـاول فيـها (الأقسام والإعتذارعماجاء في الأشعارمن تشبيه المحسوس بالمعقول،وكذلك تشبيه الموجود بالمستحيل الذي لا وجود له في الأعيان ،وكيفية تشبيه الشيئين بالشئ الواحـد)(+).وأمـا

(1)البلاغةالقرآنية في تفسير الزمخشري - محمد أبو موسى - دار الفكر العربي -ص 397

(2)الحج آية 29

(3)الكشاف - الزمخشري - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان - م3- ص 12- 13 .

(+)ينظر نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - فخر الدين الرازي - تحقيق وتقديم محمد بركات أبو علي - دار الفكرللنشر والوزيع الأردن

الباب الثاني فضمنه ثلاثة عشرفصلا تناول فيها(أقسام مابه التشبيه،وبيان أن التشبيه بالوجه العقلي أعم من التشبيه بالوجه الحسي،وأن التشبيه بالوصف المحسوس أتم من التشبيه بالوصف المعقول،وأنه لابدمن رعاية جهة التشبيه ،وتقسيم ما به المشابهة إلى المفرد والمركب،وبيان أن التقييدات كلماكانت أكثركان التشبيه أوغل في كونه عقليا،وأن مابه المشابهة إن كان وصفا مقيدا فإنه ينقسم إلى ما لا يمكن إفراد أحد جزئيه بالذكر إلى ما يمكن ذلك فيه. وتكلم فيه عن التشبيهات المجتمعة،وفيمالا يكون كذلك إلاعن طريق الظن،بل يكون تشبيهاواحدا مقيدا بقيود . وقد يكون العكس،إذ يظن أنه تشبيه مقيد ولكنه يدخل ضمن التشبيهات المجموعة التي لا تعلق للبعض بالبعض الآخر.وبيّن في الفصل الحادي عشروالثاني عشرتقسيماتالوجه المشابهة من ناحية القرب والغرابة،وبيّن أحكامه،وذكرأسباب قرب التشبيهات وغرابتها،وتكلم في الفصل الثالث عشروالأخيرعن اكتساب وجه المشابهة).(+)وأماالباب الثالث فخصه(للغرض من التشبيه ضمنه في فصلين:الأول :في الأغراض العائدة إلى المشبه،والثاني في الأغراض العائدة إلى المشبه به)(+).وأماالباب الرابع والأخيرفتناول فيه سبعة فصول دارت حول(تبيان أن التشبيه ليس من المجاز،وبيان التشبيه الذي يصح عكسه والذي لا يصح فيه ذلك،والتشبيه الواقع في الهيئات التي تقع عليهاالحركات،والتشبيه الواقع في الهيئات التي تقع فيهاالسكنات، ومراتب التشبيه في الظهوروالخفاء، والتمثيل والمثل)(+).ومن جملة ماجاء عن المثل قوله:{{المثل تشبيه سائروتفسيرالسائرأنه يكثراستعماله على معنى أن الثاني بمنزلةالأول}}(1).إذاًفهذا باختصار الجهد الذي خصه الرازي للتشبيه .

ويبلغ التشبيه عند السكاكي مبلغاعظيمامن الأهمية في التقنين،إذ خصص له دراسة وافية تعد بمثابة الدراسة النموذجيةللدراسات التي أتت بعده،وبرزذلك خلال الشروح والتلخيصات التي تناولت كتابه المفتاح فيما بعد.ولذلك سنولي اهتماما كبيرا لهذه الدراسة.

يبدأالسكاكي بشرح شروط صحةالتشبيه ،ويخلص إلى تعريفه اصطلاحا فيقول:{{لايخفى عليك أن التشبيه مستدع طرفين،مشبها ومشبها به،واشتراكا بينهما من وجه وافتراقا من آخر، مثل أن

(+)نهاية الإيجاز - المصدر السابق ص 96 -106

(+).المصدر نفسه .ص 107 - 108

(+)المصدر نفسه - ص 110 - 114

(1)المصدر نفسه - ص 114

يشتركا في الحقيقة ويختلفا في الصفة، أوبالعكس، فالأول: كإنسانين: إذا اختلفا صفة: طولا وقصرا والثاني: كالطويلين إذااختلفاحقيقة: إنسانا وفرسا،وإلافأنت خبيربأن ارتفاع الإختلاف من جميع الوجوه حتى التعين يأبى التعددفيبطل التشبيه لأن تشبيه الشئ لايكون إلاوصفاله بمشاركته المشبه به في أمر، والثاني لا يتصف بنفسه،كماأن عدم الإشتراك بين الشيئين في وجه من الوجوه يمنعك محاولة التشبيه بينهمالرجوعه إلى طلب الوصف حيث لاوصف...}}(1).ثم يمضي السكاكي - في مقدمة كلامه - في ذكرالنقاط الأساسية التي سيتناولهافي معالجته للتشبيه بالشرح والتوضيح فيقول :{{وأن التشبيه لا يصار إليه إلا لغرض،وأن حاله تتفاوت بين القرب والبعد،وبين القبول والرد،هذاالقدرالمجمل لايحوج إلى دقيق نظر،إنماالمحوج هو تفصيل الكلام في مضمونه وهو،طرف التشبيه ووجه الشبه والغرض في التشبيه وأحوال التشبيه،لكونه قريباأوغريبا،مقبولا أومردودا، فظهرمن هذاأن لابد من النظرفي هذه المطالب الأربعة فلنُنَوِّعه أربعة أنواع}}(2).وأول نوع تناول فيه السكاكي(طبيعة الطرفين المشبه والمشبه من ناحية الدلالة الحسية والمعنوية والوهمية)(+).وتناول في النوع الثاني(وجه الشبه من الدلالات السابقة الحسية والمعنوية والوهمية،ويخلص في هذاالنوع الثاني إلى تقسيم وجه الشبه إلى قسمين :فيرى أنه يكون واحداً،أو غير واحد، والواحد يقسمه إلى قسمين :حسي وعقلي ، وأما غير الواحد فيقسمه إلى فرعين أساسيين هما:في حكم الواحد، وليس في حكم الواحد،ثم يقسمه إلى ثلاثة فروع هي :حسية ، عقلية ،البعض حسي ، والبعض الآخر عقلي . ويمثل لهذه الأقسام بنماذج شعرية وأخرى نثرية)(+)ثم يذكربعد ذلك نقطتين منفصلتين لوجه الشبه(تتمثل النقطة الأولى في ذكرأحكام التصريح بوجه الشبه،أو عدم التصريح به،والثانية تناولت أحقية وجه الشبه شمول الطرفين)(+).وأماالنوع الثالث فقد خصه للنظرفي الغرض من التشبيه،وتناول فيه أربعة محاور أساسية هي(الغرض العائد إلى المشبه، والغرض العائد إلى المشبه به، وتساوي طرفي التشبيه،والتشبيه التمثيلي،ثم يقسم الغرض العائد إلى المشبه إلى أضرب أربعة هي :لبيان

---

(1)(2)مفتاح العلوم - السكاكي - ضبطه وشرحه نعيم زرزور - دار الكتب العلمية بيروت - 1403 هـ 1983 م - ط 1 - ص332

(+)المصدر نفسه - ص 333

(+) المصدر نفسه ص 333 - 334

(+) المصدر نفسه - 338 - 339

حاله، ومقدارحاله،وإمكان وجوده،ولتقوية شأنه مع السامع ، ولإبرازه إلى السامع)(+).وإذا انتقلناإلى النوع الرابعَ ،والأخير فإننا نجده يتكلم فيه عن(أحوال التشبيه من ناحية كونه قريباأوغريبا،مقبولاأومردودا ثم يشرح بعدذلك أسباب القرب والغرابة،والقبول والردمع التمثيل لِمَايقول بالأبيات الشعرية والآيات القرآنية)(+).وبعد انتهائه من النوع الرابع يذكرأحكاما متفرقة للتشبيه، وينهي كلامه بذكرمراتب التشبيه حصرها في ثمان مراتب يقول : {{والحاصل من مراتب التشبيه ثمان :إحداها: ذكرأركانه الأربعة، وهي المشبه،والمشبه به، وكلمة التشبيه،ووجه الشبه.كقوله زيد كالأسد في الشجاعة،ولا قوة لهذه المرتبة،وثانيتها ترك المشبه . كقولك: كالأسد في الشجاعة. وهي كالأولى في عدم القوة. وثالثتها: ترك كلمة التشبيه كقولك: زيد أسد في الشجاعة،وفيها نوع من القوة.ورابعتها:ترك المشبه وكلمة التشبيه، كقولك أسد في الشجاعة في موضع الخبرعن زيد،وهي كالثالثة في القوة،وخامستها: ترك وجه الشبه كقولك زيد كالأسد وهي أيضا قوية لعموم وجه الشبه. وسادستها: ترك المشبه ووجه الشبه. كقولك : كالأسد في موضع الخبرعن زيد،وحكمها كحكم الخامسة.وسابعتها:ترك كلمة التشبيه ووجه الشبه، كقولك : زيد أسد،وهي أقوى الكل. وثامنتها:إفراد المشبه به في الذكر،كقولك:أسد ، في الخبر عن زيد ، وهي كالسابقة }}(1) .

وبعد هذاالإهتمام الكبيرالذي أولاه السكاكي للتشبيه دراسة وتقعيدا،لانملك إلا القول بأن هذه الدراسة الجادة - التي استفادت دون شك من الدراسات السابقة لها- كانت هي آخر محطة تنظيرية لهذاالفن،لم يغادرهاالمهتمون والدارسون بعد إلا في القليل،في مثل تغيير بعض الجوانب الجزئية التي لا تخرج عن مضمون القوانين والقواعد التي حددها في دراسته للتشبيه .

ويمكن أن نلاحظ هذاالتأثيرفي دراسة ضياء الدين بن الأثير- المتوفى سنة 638 هـ - إذ نجد دراسته لم تخرج عماجمعه السكاكي والدارسون قبله،إلافي بعض الإشارات الخفيفة كقوله:{{... وجدت علماءالبيان قد فرقوابين التشبيه والتمثيل،وجعلوالهذا بابا مفردا،ولهذابابامفردا وهما شيئ واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع،يقال هذاالشيئ،كما يقال مثله به،واعلم كيف خفي ذلك على ألئك العلماء مع ظهوره ووظوحه}}(2).وماعداهذه الإشارات اللغوية في عدم التفريق

(+) المصدر نفسه - ص 340

(+) المصدر نفسه - ص 349 - 353

(1) المصدر نفسه - ص 354 - 355

(2) المثل السائر - ابن الأثير - تحقيق أحمد الحوفي و بدوي طبانة - منشورات دار الرفاعي الرياض - 1403هـ - 1983م - ط2- ج 2 - ص 132

بين التشبيه والتمثيل - فإننالانجد جديدافي دراسته يستحق التنبيه إلى جدته،إلا في التركيز على جوانب دون أخرى،في مثل تقسيمة التشبيه إلى مضمرومظهر،وتخصيصه دراسة مستفيضة للمضمر،حيث جعلهافي ستة أقسام على الطريقة النحوية:{{مَوْقِعُ المبتدأ. والخبر جُمْلَتَيْن، ويقع موقع المبتدأوالمفرد جملة مركبة من مضاف ومضاف إليه،ويقع موقع المبتدأوالخبرجملتين،ويقوم وجه الفعل والفاعل،ويرد على وجه المضروب}}(1).ثم يمثل لكل هذه الأقسام بأمثلة كثيرة شعرا ونثرا وقرآنا،ويخلص إلى نتيجة نراها في قوله:{{إن التشبيه المضمرأبلغ من التشبيه المظهر وأوجز}}(2).وبعد كلام طويل - تناول فيه شروط بلاغة التشبيه ونقدها،والتقسيمات الحسية والمعنوية المعروفة بين أطراف التشبيه،وكيف تقسم هذه الأطراف إلى مفرد ومركب - يعود إلى الكلام عن التشبيه المضمر،فيذكرأقسامه الخمسة السابقة،ويقسمها بدورهاكذلك إلى مفرد ومركب ثم يعودإلى الكلام مرة أخرى عن الإفراد والتركيب المتعلقين بالتشبيه بصفة عامة. ويردفه بذكرالتشبيه المقلوب أوالمعكوس فيقول:{{واعلم أنه من التشبيه ضربا يسمى <<الطرد والعكس>>وهوأن يجعل المشبه به مشبها .والمشبه مشبها به وبعضهم يسميه<<غلبة الفروع على الأصول>>}}(3).ثم يختتم كلامه بذكرشروط صحة التشبيه،والتي أبرزها في قوله:{{ولما نظرت أنا في ذلك وأمعنت النظرفيه،تبين لي ماأذكره،وهوأنه قد تقرر في أصل الفائدة المستنتجة من التشبيه،أن يشبه الشيء بما يطلق عليه لفظة أفعل،أي بما هو أبين وأوضح،أو بما هوأحسن منه وأقبح ، وكذلك يشبه الأقل بالأكثر،والأدنى بالأعلى}}(4).

ولايختلف العمل الذي قام به القزويني - المتوفى سنة 739 هـ - اختلافا كبيرا عن العمل الذي قام به ابن الأثير،إلا في كون الأول كان أمينا في جمع ما قام به السكاكي مع بعض التنقيحات والترتيبات،وكذا زيادة بعض الإضافات الخفيفة التي لاتغيرمن القواعد التي أرساها السكاكي للتشبيه. ويمكننا أن نعرف ذلك من اعتراف القزويني نفسه - في مقدمة كتابه(التلخيص)- بالمجهود الكبير الذي قام به السكاكي في علم البيان بعامة في كتابه (المفتاح) - بالمجهود الذي أضافه هو بخاصة في كتابه (تلخيص المفتاح)، فيقول: {{...وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكي أعظم ما صنف فيه من الكتب

(1)المثل السائر- المصدر السابق - ج 2 ص 123 - 124

(2)المصدر نفسه - ج 2 - ص 129

(3)المصدر نفسه - ج 2- ص 163

(4)المصدرنفسه ج 2 ص 164

المشهورة نظما لكونه أحسنها ترتيبا وأتمها تحريرا وأكثرها للأصول جمعا، ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد قابلا للاختصار مفتقرا إلى الإيضاح والتجريد فألفت مختصرا يتضمن مافيه من القواعد ويشتمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد ولم آل جهدا في تحقيقه وتهذيبه، ورتبته ترتيبا أقرب تناولا من ترتيبه ، ولم أبالغ في اختصار لفظه تقريبا لتعاطيه، وطلبا لتسهيل فهمه على طالبيه ، وأضفت إلى ذلك فوائد عثرت في بعض كتب القوم عليها وزوائد لم أظفر في كلام أحد بالتصريح بها ولا الإشارة إليها وسميته تلخيص المفتاح }}(1).

فهذه إذاً مجهودات القزويني في علم البيان بصفة عامة ، والتشبيه بصفة خاصة من خلال كتابه (التلخيص) ولكن هناك مجهودا آخر له يتمثل في توضيح هذا التلخيص عن طريق تأليفه لكتاب (الإيضاح في علوم البلاغة)الذي يقول فيه :{{... فهذا كتاب في علوم البلاغة وتوابعها ترجمته (الإيضاح) وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته تلخيص المفتاح. وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له فأوضحت مواضعه المشكلة. وفصلت معانيه المجملة وعمدت إلى ماخلا عنه المختصر مما تضمنه (مفتاح العلوم) وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في كتابيه :دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وأضفت إلى ذلك ماأدى إليه فكري، ولم أجده لغيري }}(2)

وتعد جهود القزويني ومن سبقه من العلماء أهم ما بذل في مجال علم البيان بصفة عامة وفن التشبيه بصفة خاصة من الناحية التقعيدية التأسيسية لأن الذين جاءوا بعدهم أخذوا عنهم القواعد وشرحوها ولم يضيفوا إليها جديدا يستحق الإهتمام وأسماء كتبهم تدل على ذلك والذي يهمنا في هذا السياق أن الجهود التي بذلت في التشبيه بدأت بسيطة ثم تطورت فمن اهتمام الشعراء به وتنافسهم في إجادته إلى اهتمام النقاد في مفاضلاتهم بين هؤلاء الشعراء ، ثم إلى اهتمام العلماء والدارسين به ابتداء من ملاحظاتهم العابرة ، وإشاراتهم الخفيفة أثناء تفسيرهم للآيات القرآنية ، ثم إلى إفرادهم فصولا مستقلة لهذا الفن داخل إطار علم البيان بصفة خاصة وعلوم البلاغة بصفة عامة. واستمرت هذه الجهود بهذه الكيفية إلى يومنا هذا . وقد تطور الإهتمام بالتشبيه عند بعض العلماء إلى درجة أنهم أفردوا له كتبا مستقلة ، وهذه الكتب

---

(1) التلخيص . القزويني - طبع وشرح - عبد الرحمن البرقوقي - دار الكتاب العربي - بيروت - ص 22، 23

(2) الإيضاح - المصدر السابق -ص 70، 71

على نوعين:نوع تناول التشبيه بصفة عامة، ونوع آخر تناول التشبيه في إطار القرآن الكريم . وسنتطرق إلى بعض هذه الكتب بنوع من الإيجاز .

وإذا تطرقنا إلى الكتب التي ألفت في التشبيه بصفة عامة لوجدنا أن أول كتاب يستحق الذكر في هذا المجال هو كتاب(التشبيهات لابن أبي عون المتوفى سنة 322 هـ).فمن خلال هذا العنوان نفهم نوعية مادة الكتاب،فإطلاق لفظة (التشبيهات)دون قيد أو تخصيص، يعني أن هذا الكتاب يتناول التشبيهات بصفة عامة، ولا يتقيد بمكان أو زمان، ولا بفن دون آخر، كما سنرى ذلك في عناوين بعض الكتب التي ألفت في التشبيه. ونظرا لسبق هذا الكتاب وانفراده بالتشبيه ومبادراته في اختيار نماذجه وتصنيفها ، نخصص له كلاما نتعرف من خلاله على محتواه .

،يحتوي كتاب(التشبيهات)على واحدٍ وتسعين بابا، يبدأبمقدمة موجزة يذكر فيها المؤلف أقساما للشعر ثلاثة وهي:(المثل السائر،الإستعارة الغريبة،والتشبيه النادر)ويمثل لكل قسم بأمثلة من الشعر. ثم يشيد بالتشبيه ، ويذكر مختصرا لما سيأتي في الكتاب نستشفه من قوله : {{ورأيت أجل هذه الأنحاء وأصعبها على صانعها التشبيه وذلك أنه لا يقع إلا لمن طال تأمله ولطف حسه وميز بين الأشياء بلطيف فكره،وأنا أثبت لك في هذا الكتاب أبياتا من التشبيه مختارة وأتخلل المعاني المختلفة والتشبيهات المتداولة إلى الأبيات الطريفة النادرة، وأقتصر على جملة يكون لك فيها حظ ومتعة وتأدب ورياضة ،وأتجنب الإطالة التي يتلقاها الملالة ...}}(1)ثم يستفتح الكتاب بالباب الأول يذكر فيه التشبيهات القرآنية فيسميها:{{تشبيهات خالق الأشياء جلّ وعزّ}}(2).وفي الباب نفسه يذكر تشبيهات العرب التي تحتوي على أداة التشبيه(كأن)،ويمثل لذلك بعدة أبيات تشبيهية لشعراء مختلفين أولهم امرؤ القيس، ويتجسد هذا في قوله :{{ والعرب أيدك الله تشبه بكأن كقول امرئ القيس: [الطويل]

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب }}(3).

وأما باقي مادة الكتاب ابتداء من الباب الثاني إلى غاية الباب الواحد والتسعين ، فمعظمها أشعار مختلفة في موضوعات متنوعة ،ولشعراء من مختلف العصور من قدماء . ومعاصرين لـــه . وأشار إلى هذه النقطة الأخيرة في الباب الحادي عشر بقوله:{{وقد تكررت في كتابنا تشبيهات للمحدثين مثل أبي نواس وبشار ومسلم والطائي والبحتري وابن الرومي...والمتقدمــون وإن

(1) التشبيهات - ابن أبي عون - المصدر السابق - مقدمة الكتاب - ص 1-2

(2) (3) المصدر نفسه - الباب الأول ص 3

كانوا افتتحوا • القول وفتحوا للمحدثين الباب ونهجوا لهم الطريق : فكان لهم فضل السبق واستئناف صعوبة الابتداء...}}(1). كما أنه كان يشير في بداية كل باب إلى موضوعه بعبارة استحسان مثل قوله:{{من حسن تشبيه في طروق الخيال...}}(2).ومن أهم الملاحظات التي كان يبديها تلك الإيشارات إلى بعض الإقتباسات في المعنى بين الشعراء مثلما فعل في الباب الثاني عشر:{{...وأصل هذا المعنى لقيس بن الخطيم ومنه أخذ البحتري وغيره...}}(3).ونفس الأمر نجده في الباب الخامس والعشرين في قوله :{{ومن حسن التشبيه في قوس البندق قول ابن الرومي...وأخذ هذا المعنى من قول الشماخ...}}(4).واهتمام المؤلف في كتابه بالتشبيهات الشعرية لم يحل بينه وبين التشبيهات النثرية فنجده على سبيل المثال في الباب التسعين يورد نصوصا نثرية لابن المقفع والجاحظ وغيرهم من الناثرين،ونمثل لذلك بقوله:{{وقال صاحب كليلة ودمنة: من صنع المعروف لعاجل الجزاء كان كملقي الحب ليصيد به الطير لا لينفعه... }} (2).

فهذه باختصار محتويات كتاب التشبيهات لابن أبي عون،وما يمكن قوله حول هذا الكتاب أنه كان أول كتاب بلغنا في انفراده بالتشبيه،وأنه يعد بالنسبة إلينا بمثابة قاموس للتشبيهات في مختلف الموضوعات،وأن صاحبه قد اعتمد في إختياره للتشبيهات على الذوق الناقد .الواعي للمعاني القديمة والجديدة. .وبهذا يكون الكتاب قد جمع بين التشبيهات المختارة والملاحظات النقدية المتفرقة بين ثنايا أبوابه.

وتأسيا بكتاب ابن أبي عون ظهرت كتب تناولت التشبيه منفردا عن عناصر البيان، ومن بين هذه الكتب(كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس)لصاحبه محمد بن الكتاني الطبيب . يحتوي هذا الكتاب على ست وستين بابا كلها لم تخرج عن بيئة واحدة وهي البيئة الأندلسية،وعن فن واحد وهو الشعر،إلا أنها تناولت موضوعات مختلفة انقسمت على ثلاثة أجزاء ،الجزء الأول: من الباب الأول إلى الباب الثامن عشر . والجزء الثاني : من التاسع عشر إلى الواحد والخمسين . والذي يبدو من خلال عناوين هذه الأبواب أن المؤلف قد تأثر بكتاب ابن أبي عون، وذلك واضح من تشابه مفردات كثير من عناوين الأبواب،وقد بلغ هذا التأثر إلى درجة كبيرة تمثلت في خمسين بابا،أقرّبها محقق الكتاب إحسان عباس أثناء موازنته بين هذا الكتاب وكتاب ابن أبي عون،وفي هذا يقول:{{وعند مقارنة هذا الثاني بكتاب ابن الكتاني نجد شبها كبيرا في . عناوين

(1)التشبيهات - ابن أبي عون - المصدر السابق - الباب الخامس عشر - ص 138 - 139

(2)المصدر نفسه - الباب التسعون - ص 317

الأبواب.مماقد يشيرفي هذه الناحية إلى تأثرالمؤلف الأندلسي بالمشرق ... ومن بين الأبواب التي تبلغ ستة وستين لدى ابن الكتاني نجد خمسين منها مشتركة في عناوينهامع كتاب ابن أبي عون...}}(1).وإلى جانب هذه المماثلة في كثير من الأبواب ، فإن كتاب ابن الكتاني يبقى أقل مادة لقلة أبوابه وإقتصاره على الشعر دون غيره من الفنون النثرية الأخرى،وكذلك لانعدام تدخلات المؤلف كمّاألفناهالدى ابن أبي عون. وهذاالتقصير ينقص من ثراء الكتاب ويقلل من جهد مؤلفه.وبالرغم من هذاالتشابه،وهذاالتقصيرالبيّن في مادة الكتاب،فإن له قيمة أدبية وفنية وتاريخية ساهم بها في إثراء الأدب العربي بصفة عامة والشعرمنه بصفة خاصة. وهذه القيمة يوجزها محقق الكتاب في قوله:{{...لعل مقطع القول في تبيان قيمة هذاالكتاب أنه أوفى مجموعة شعرية وصلتنا،تمثل عصربني أمية والعامريِّين حتى أواخر الفتنة البوبرية في تاريخ الأندلس...فهو على أنه نماذج مختارة في موضوعات مختلفة تسعف على معاودة النظر في شعر ذلك العصر. ويصحح كثيرا من الأحكام التي أجراهاعليه الدارسون . ويوسع من حدود المجال الشعري والفني في تلك الفترة...}}(2).

وإلى جانبي هذين الكتابين هناك كتب أخرى انفردت بتناول فن التشبيه مع اختلاف في عناوينها،ومن بين هذه الكتب كتاب(الجمان في تشبيهات القرآن) لصاحبه ابن ناقياالبغدادي - المتوفى سنة 485هـ :{{...وهوأول كتاب يبحث في تشبيهات كتاب الله العزيز وقد ذكرته جميع الكتب التي ترجمت لابن ناقيا...}}(3).ويؤكد هذاالتفرد مؤلف الكتاب نفسه بقوله:{{... وإن كنا غير مسبوقين إلى إذاعة سره وافتضاض عذره واجتناء ثمره في كثرة ماألف السلف من الكتب في أنواع علوم القرآن.ولم يفرد لهذاالنوع كتابا ولم يفتحواإلى القول فيه بابا...}}.(4) ويثبت قول المؤلف هذا جلال الدين السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن بقوله:{{... وقد أفرد تشبيهات القرآن بالتصنيف أبو القاسم بن البندار البغدادي الجوني في كتاب سماه (الجمان)...}}(5).وللإحتراز العلمي كما قال أحد المحققين للكتاب:{{فإنه لم يصلنا رواية أو

---

(1)التشبيهات - ابن الكتاني - تحقيق إحسان عباس - دار الشروق 1401 - 1981 م - ط 2 - المقدمة ص 20 - 21

(2) المصدر نفسه - مقدمة التحقيق - ص 19

(3)الجمان في تشبيهات القرآن - ابن ناقيا البغدادي - تحقيق أحمد مطلوب - وخديجة الحديثي - دار الجمهورية بغداد- 13887 هـ - 1968 م - مقدمة التحقيق - ص 31

(4)المصدر نفسه ص - 385

(5)الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي - دار المعرفة،بيروت لبنان - ج 2 - ص 54

معاينة مؤلف في التشبيه القرآني قبل كتاب ابن ناقياالبغدادي(الجمان في تشبيهات القرآن) ...}}(1)ونظرالأهمية الكتاب يتحتم عليناإفادة القارئ بمعلومات ولومختصرة حول المجهودات التي بذلهاالمؤلف في هذاالكتاب،لكونه أول مصنف استقل بتناول فن التشبيه في القرآن الكريم؛يصدرالمؤلف كتابه هذا بمقدمة يبدأها بحمد الله والثناء والصلاة على رسوله الكريم، ثم يتطرق فيهاإلى قيمة التشبيه البلاغية،وإلى ورود هذاالفن في القرآن الكريم،وإلى الأهمية التي سيوليهاله في كتابه فيقول:{{...التشبيهات نوع مستحسن من أنواع البلاغة،وقد ورد في كتاب الله تعالى ما نحن ذاكروه في هذاالباب،وذاهبون إلى إيضاح معانيه والتنبيه على مكان الفضيلة فيه...}}(2).ثم يتطرق بعد ذلك إلى الجهات التي يصلح فيهاالتشبيه،وإلى الحالات التي تُستخدم فيهاأدوات التشبيه،والتي لا تُستخدم فيها، فيقول:{{...إن الشيئ يشبه بالشيئ تارة في صورته وشكله، وتارة في حركته وفعله وتارة في لونه ونجره، وتارة في سوسه وطبعه،وكل منهما متحد ذاته،واقع في بعض جهاته ، ولذلك يصح تشبيه الجسم بالجسم ، والعرض بالجسم ، والجسم بالعرض،والعرض بالعرض، وللتشبيه أدوات منها : الكاف ، وكأن ، ومثل ، وشبيه ،ونحو ذلك، وربمااستغني عن هذه الأدوات بالمصدرنحو:(خرج خروج القدح)(وطلع طلوع النجم) (ومرق مروق السهم)ولايكثرمثل هذافي التنزيل،وإنماعامة التشبيهات هناك مقرونة بالأدوات...}}(3).هذا مجمل ما جاء في المقدمة،وأمّاماجاء في صلب الموضوع،فإننا نجد الكتاب قد تناول ستاوثلاثين سورة ذكرفيهاستاوخمسين صورة تشبيهية،ابتداء من سورة البقرة وانتهاء بسورة الفيل. وأما طريقة تناوله لهذه الصورالتشبيهية، فقد تمثلت فيما لخصه أحد المحققين للكتاب بقوله:{{...وقدساراين ناقيافي هذا الكتاب على المنهج الذي رأيناه عند أبي عبيدة والشريف الرضي،فهويبحث في التشبيه حسب ترتيب السورالقرآنية وآياتها، فيقف عند كل آية فيها هذاالفن البلاغي مفسراوموضحاللتشبيه ،ومستشهدا بأشعارالعرب...}}(4) هذه لمحة وجيزة عن الطريقة التي تناول بها ابن ناقيا التشبيهات التي أوردهافي كتابه (الجمان)، ولكن يجب أن نشيرإلى أنه لم يتعرض إلى جل التشبيهات القرآنية، وعليه لا نوافق القول

---

(1)الجمان في تشبيهات القرآن - ابن ناقيا البغدادي - تحقيق مصطفى الصاوي الجويني - منشأة المعارف الإسكندرية مصر - مقدمة التحقيق - ص 30

(2)المصدر نفسه -ص85

(3)المصدر نفسه -ص86 -87

(4)الجمان - المصدر السابق - تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي - مقدمةالتحقيق - ص 31

السابق:{{...فيقف عند كل آية فيها هذاالفن البلاغي...}}(1).ودليلنا في ذلك الجزء الأول من عنوان الكتاب،فلفظة (الجمان)لا تعني كل التشبيهات،بل تعني بعضا فقط،بل تعني أحسنها .
ولنتعرف أكثر على الجهد الذي بذله ابن ناقيا في هذا الكتاب، نورد مقتطفات من دراسته لصورة تشبيهية في أول مثال تناوله من سورة البقرة ، ففي قوله عز وجل: [[ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة]](2)، يقول: {{...معنى قست أي غلظت ويبست وغبست.
ومعنى قوله: << بعد ذلك >> يريد من بعد إحياء الميت.ويجوز في قوله: <<فهي كالحجارة >> إسكان الهاء، لأن الفاء مع <<هي>> جعلت الكلمة بمنزلة <<فخذ>> فحذف منها الكسرة استثقالا ...وإنما شبه الله ـ عز وجل ـ قلوبهم في القسوة بالحجارة لأن الحجارة هي غاية في المثل، ولذلك قال الفرزدق [من البسيط]:

أما العدو فإنا لا نلين له حتى يلين لضرس الماضغ الحجرُ(3)

وقال أبو ذئيب الهذلي يصف شدة ماأنزل به من المصيبة بما مثله لصبره وتجلده [من الكامل]:

حتى كأني للحوادث مروة بصفا المشرق كل يوم تقرع(4)

فأما من قصد محض التشبيه في هذاالباب واعتمد في أخذه على لفظ الكتاب فإنه وقف دون استفاء المعنى بمثل قوله تعالى:<<أوأشد قسوة>>وما يتبع هذاالقول من الدلالة عليه، والحجة فيه والتعليل له ،وكذلك كل ما ينقله الشعراء وغيرهم من أرباب البلاغة إلى كلامهم من معاني القرآن لا يبلغون شأوه ،ولا يدركون مناله إعجازا وإباء وامتناعا...}}.(5)وإن كانت هذه الطريقة التي سلكهاالمؤلف ليست جديدة فهي مألوفة لدى السابقين الذين تناولوا الشبيهات القرآنية في كتبهم اللغوية والأدبية. .وإذا كان لابد أن ننصف المؤلف بذكر ما له وما عليه ، فنقول أن الأشياء التي تذكر له :

أولا :الريادة في طرق هذاالموضوع بصفة مستقلة عن باقي علوم البيان كما سبق أن بينا ذلك .

ثانيا:طريقته النقدية الواسعة في الشرح والتحليل والموازنة بين التشبيهات القرآنية

---

(1)الجمان في تشبيهات ـ تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ـ مقدمة التحقيق ـ ص 31

(2)البقرة آية 73

(3)الديوان ـ الفرزدق ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ 1404 هـ ـ 1984 م ـ حرف الراء ـ ص 200

(4)المفضليات ـ المفضل الضبي ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ـ عبد السلام هارون ـ ط 6 ـص 422

(5)الجمان في تشبيهات القرآن ـ المصدر السابق ـ تحقيق أحمد مطلوب ـ خديجة الحديثي ـ ص 45 ـ 50

والتشبيهات الأخرى ، وبين الألفاظ المستعملة في كل منهما

ثالثا:الذوق السليم في اختيارالتشبيهات الشعرية المماثلة لما جاء في معنى النموذج القرآني، وكذاالتنويع في اختيارالشعراء على مرالعصور في الجاهلية والإسلام،وهذاالعمل الذي أعطى الكتاب قوة ثقافية وواسعة الأطراف لكل متذوق لهذاالفن البلاغي،ولعل هذاما دفع محققا الكتاب إلى القول في أهميته:{{...<<وكتاب الجمان>>بعدهذامصدرمهم في دراسة تفسيرالقرآن والبلاغة العربية والأدب الرفيع،ومادة طريفة يقرأهاالإنسان فيحس بجو روحي تضفيه آيات الكتاب الحكيم، ويشعرأنه في رحاب أدب خالد وقف يتحدى الزمن بكل شمم وإباء .ولعل هذا ما يكون منطلقاللدراسات قرآنية جديدة وبحوث بلاغية طريفة...}}(1).ومن الأشياء التي تؤخذ على المؤلف هي :

أولا:اقتصاره علىبعض التشبيهات دون أخرى،أي أنه لم يتطرق إلى أغلب التشبيهات الموجودة في القرآن الكريم،وهذا ماجعل مادة الكتاب قليلة إذا ما نزعت منهاالمادة الشعرية،كماأنه أجحف في حق التشبيهات التي لم تذكرفيهاالأداة،ولم يذكر سوى مثالين فقط في مجمل ستة وخمسين مثالا تشبيهيا .

ثانيا:لقد أكثرمن ذكرالتشبيهات الشعرية لا لكونهاتتحد مع الصورة التشبيهية القرآنية التي يوردها في المعنى الخاص،بل لأنها تتحد معها في استخدام ألفاظ المشبه به استخداما واسع المعنى، وكأن الأمرانتقل من موازنة بين تشبيهات القرآن الكريم وتشبيهات الشعراء إلى تتبع استخدام الشعراء للألفاظ التي ترد في تشبيهات القرآن الكريم، وهذاماجعل المادة الشعرية تطغى على صلب الموضوع، فقلّت بذلك المادة وقلّت معهاالفائدة، ففي المثال القرآني الذي ذكرناه سابقا،والمتعلق بتشبيه قسوة قلوب بني إسرائيل بقسوة الحجارة . يورد أبياتا شعرية لاتحتوي على تشبيهات قط، ويبدوأنه ذكرهالاحتوائهاعلى لفظ (الحجر) . وهذه الأمثلة كثيرة نذكر منها قوله :{{ وقال عمر بن ملقط الطائي :[من مجزوء الكامل] :

من مبلغ عمرا فإن المر ء لم يخلق صبــــاره

وحوادث الأيام لا تب قي لها إلا الحجارة }}(2)

{{... وقال العذري مشيراإلى ما يعانيه من عظم كلفه وشدة غرامه وشغفه من[الطويل] :

---

(1)الجمان في تشبيهات القرآن ـالمصدر السابق ـ تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ـ ص 35

(2)المصدر نفسه ـ مقدمة التحقيق ـ ص46

ولو أن ما بي بالحصا فلق الحصا والريح لم يسمع لهن هبوب }}(1)

ولعل الآن نكون قد كونا صورة ولو بسيطة عن قيمة الجهد الذي بذله ابن ناقيا في كتابه الجمان في تشبيهات القرآن .

ومن الجهود الأخرى التي بذلت خصيصا في تشبيهات القرآن الكريم ما نجده في البحث الذي قدمته واجدة مجيد الأطرقجي بعنوان :(التشبيهات القرآنية والبيئة العربية)، وكما يبدو من العنوان أن الباحثة تريد أن تبحث عن عناصرالبيئة العربية في التشبيهات القرآنية دون أن تتطرق إلى التشبيهات الأخرى . وعملها هذا يضاهي ما قام به ابن ناقيا البغدادي كماأسلفنا ، فكلاهمااقتصرعلى تناول جزء بعينه من تشبيهات القرآن الكريم، وهذه ملاحظة عامة سنعود إليها بعد استعراضنا لأهم ما جاء في هذاالبحث لنعطي للباحثة حقها فيما بذلته من جهد .

لقد تضمن هذا البحث مقدمة وثماني فصول حسب النسخة التي بين أيدينا: فأما المقدمة: فتناولت فيها جوانب عدة منها : جهود السابقين التي بذلت في الدراسات اللغوية والنحوية والبلاغية في القرآن الكريم . ثم بيّنت الوظيفة الأساسية للتشبيه، كما تطرقت فيهاإلى أثر البيئة في حياة الإنسان،وذكرت فيهاالدوافع التي حملتها على اختيار هذا الموضوع ، ثم خصت بالذكر الكتب والمصادرالتي استفادت منهابشكل كبيرفي معالجة موضوعها،وأنهت هذه المقدمة بذكرها للمنهج الذي سلكته في هذه الدراسة .(+)

وأماالفصل الأول: فتحدثت فيه الباحثة عن التعريفات اللغوية والإصطلاحية للتشبيه ، وعن الدراسات التي بذلت حول التشبيه بصفة عامة وتشبيهات القرآن الكريم بصفة خاصة .(+)وأما الفصل الثاني:فقد تناولت فيه علاقة البيئة باللغة،والبيئة بالخيال والتشبيه.(+)وفي الفصل الثالث:بدأت فيه بتناول صلب الموضوع عنونته(الماء في تشبيهات القرآن).(+)وضمنت الفصل الرابع:(النبات في تشبيهات القرآن)(+).وأما الخامس:فتناولت فيه(الحيوان في تشبيهات

---

(1)الجمان في تشبيهات القرآن ـ المصدر السابق ـ تحقيق أحمد مطلوب ـ وخديجة الحديثي 48

(+)التشبيهات القرآنية والبيئة العربية - واجدة مجيد الأطرقجي - وزارة الثقافة والفنون الجمهورية العراقية 1978 م ،المقدمة ص 3 ـ 13

(+)المصدر نفسه ـ ص 3. 40

(+) المصدر نفسه ص 41 ـ 70

(+)المصدر نفسه ـ ص 71 129

(+)المصدرنفسه ص 131 ـ 168

القرآن)(+).وأما الفصل السادس : فخصصته إلى(تشبيهات الجبال)(+). وأماالفصل السـابـع: فكان عنوانه(الرياح في تشبيهات القرآن)(+).وأماالفصل الثامن: والأخيرفتناولت فيه(صور من المجتمع في تشبيهات القرآن)(+).وأماعن الطريقة التي سلكتها هذه الباحثة في هذه الفصول فقد كانت بهذاالشكل:تبدأالفصل بكلام يدورحول العنصرالطبيعي الذي تريد أن تتناوله، فكانت مثلا في بداية الفصل الثالث:تتكلم عن الماء وروده في القرآن الكريم،ومدى أهميته في الحياة العربية.وبعد أن تنتهي من هذه المقدمة تذكرالمعنى العام للصورة التشبيهية التي تريد أن تتطرق إليها مثل(تشبيه الحياة الدنيا بالماء المنزل من السماء وعمله)(+)فبعد ذكرها لهذا العنوان تشرع في تبيان قيمة الماء المنزل من السماء عند العرب ودوره في النماء . ثم تورد النص القرآني للصورة التشبيهية :[إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ممايأكل الناس والأنعام حتى إذاأخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس]](1) ثم تبدأ في التعليق والشرح لمعنى هذه الصورة التشبيهية مستشهدة بأبيات شعرية ، لا لكونها تماثل ما جاء في الصورة التشبيهية القرآنية ، بل يكفي أنها تحتوي على ذكر الماء أو ما يدل عليه ؛ مثل ما جاء في هذا الفصل نفسه في قولها:{{ولهذارأيناالشعراء العرب قد أكثروا من الدعاء بالسقيا للأحباب ، والديار قال ذو الرمة :

ألا يا سلمي يا دار ميّ على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

وقال علقمة بن عبده :

سقاك يمان ذو حي وعارض تروح به جنح العشي جنوب}}(2).

وينطبق هذا حتى على التشبيهات التي أوردتها، فلا نجد فيها مماثلة لنص الصورة التشبيهية القرآنية ، ونستطيع أن نميز هذا من خلال الصورة التشبيهية التي أوردتها في قول الشاعر:

{{ كأنهم صابت عليهم سحابة صواعقها لطيرهـن دبيـب

(+)التشبيهات القرآنية والبيئة العربية ـ المصدر السابق ـص 213 ـ 234

(+) المصدر نفسه ـ ص 235 ـ 250

(+)المصدر نفسه ـ ص 251 ـ 280

(+) المصدر نفسه ـ ص 71

(1)يونس آية 24

(2)التشبيهات القرآنية والبيئة العربية ـ المصدر السابق ص 80

فلا تعدلي بيني وبين مغمر سقتك روايا المزن حيث تصوب }}(1)

وتجنبا للإطالة نقول :إن هذا هو ديدن الباحثة طوال الفصول المتبقية ، وقد بلغت في هذا جهداً لا يستهان به لتبين تواجد عناصر البيئة العربية في التشبيهات القرآنية .ومما يؤخذ عليهاأنها حاولت قدر الإمكان أن تأقلم كثيرا من العناصرالطبيعية العامة في بيئة عربية ضيقة، وإذا كانت فعلت هذا لكون القرآن الكريم قد نزل بهذه البيئة، وعليه يكون توظـــيف هذه العناصر الطبيعية مستمدا من نفس البيئة؛ ففي هذاالجانب تكون الباحثة قد أصابت ، وإن كانت تريد أن قيمة هذه العناصرالطبيعية لا يدركهاإلا سكان البيئة العربية - أثناء نـزول الـقـرآن الكريم - فهنا تكون الباحثة قد جانبت الصواب،وذلك لأمرين:الأول : أن القرآن جاء للناس كافة بلسان عربي - والأمر الثاني : فإن للبيئة العربية مثيلاتها في العالم ، وأن العناصر الطبيعية نفسها متواجدة في هذه البيئة ، ولها نفس الأهمية ؛ فعناصر المياه والنبات والحيوان والجبال والرياح كلهامتواجدة في بقاع مختلفة من العالم. وهذا ماأكسب ويكسب القرآن الكريم عالمية الرسالة ، فلو اقتصرت تعابيره على محيط بعينه لما كان لها مفعولا في نفوس غير سكان هذا المحيط. وعليه فإن الباحثة لم توفق في الجمع بين مصطلح عنوان البحث الضيق وبين النماذج القرآنية ذات النطاق العالمي الواسع، وبالرغم من هذا كله فقد بذلت الباحثة جهدا كبيرا في تصنيف العناصر الطبيعية في محاور أساسية تربطها معاني متقاربة، إلا أنها لم توفق كل التوفيق ، وذلك بسبب تنوع وضعية هذه العناصر من صورة إلى أخرى ؛ فمثلا نجد عنصراًقد أستخدم في صورةٍ مشبّها به ، وفي أخرى مُشبَّهاً ، وهذا ما جعل الباحثة تهمل الكثير من العناصر الطبيعية ولم تصنفها في محاور أساسة مثل: (الرمل ، والسحاب ، والنار)وغيرها من العناصر الأخرى.

وبالرغم من وجود عناصر التشابه بين هذا العمل الذي قامت به هذه الباحثة ، وبين العمل الذي نقوم به الآن في بحثنا هذا،إلا أن عناصر الإختلاف تبقى كثيرة أهمها :

أولا:طبيعة العنوان:لقد خصصت الباحثة عنوان بحثهالجزء من تشبيهات القرآن المتعلقة بعناصر البيئة العربية كما سبق أن بيناوهذا يختلف مع صيغة عنوان هذاالبحث،والذي يتناول التشبيه بصفة عامة نظريا وتطبيقيا بصوره وألفاظه .

ثانيا: طبيعة المادة: تخضع طبيعة مادة البحث إلى طبيعة العنوان كما هو معلــوم، ولـذا فـإن

(1)التشبيهات القرآنية والبيئة العربية ،المصدر السابق ، ص 80

المحتوى الجوهري لهذاالبحث الذي قامت به واجدة الأطرقجي لم يخرج عن تناول تشبيهات بعينها ، بحث فيها للباحثة عناصر البيئة العربية ، وأهملت باقي التشبيهات الأخرى .بينما طبيعة عنوان بحثنا شاملة فتحت أمامنا مجالا لنتكلم بحرية في الجانب النظري ، حيث قمنا بمحاولة لإعادة جمع وترتيب المصطلحات المتفرقة لعناصرالتشبيه في مصطلحات وعناصرنظنها عامة وشاملة وموحّدة,كماسمح لنا هذاالعنوان بالتطرق إلى معظم الآيات التي وردت فيها أنماط التشبيه بنوعيهاالحقيقي والمجازي . وهذاالعمل نظنه بادرة أولى لم نسبق إليها فيما نعلم من دراسات بذلت في تشبيهات القرآن الكريم.

ثالثا:طبيعة الدراسة :لم تخرج الدراسة التي قامت بها هذه الباحثة عن شرح وتبيان العلاقة بين العناصر البيئية - المتمثلة في الألفاظ التشبيهية - الموجودة في التشبيهات القرآنية,وبين المحيط الخارجي للبيئة العربية ، وعن مدى تأثيرها في نفوس وطبائع المجتمع العربي . وهذه الدراسة برمتها لم تخرج كثيرا عن العمل الذي قمنا به في الفصل الرابع والأخير من هذاالبحث - والمتعلق بالألفاظ التشبيهية في القرآن - إلا في كثرة الإستشهادات بالأخبار والأشعار التي تدور حول أهمية العنصر البيئي المشار إليه في الصورة التشبيهية القرآنية . وهذا ما نستشفه من قول الباحثة نفسها في مقدمة بحثها فتقول : {{وكان عملي خلال عرض هذه التشبيهات متوفرًا على توسيع الصورة التشبيهية ببيان وقائع من الأخبار والأشعار الملائمة لتلك الصورة ، لتتضح الفكرة ، ويُبيِّن الغرض المعجز من عرضها على تلك الصورة..}}(1)

ولعل بهذه الموازنة نخرج بنتيجة وهي :أن مانقوم به في هذاالبحث يعد جهدا مغايرا عن الجهود التي بذلت في دراسة التشبيهات بصفة عامة والقرآنية بصفة خاصة ، ولو من الناحية الشكلية المنهجية في بعض عناصرالبحث,وكذافي الجانب التحليلي للصورالتشبيهية القرآنية . والله نسأل أن يسدد خطانا ويوفقنا إلى ما فيه خير البلاد والعباد إن الله على كل شئ قدير .

---

(1)التشبيهات القرآنية والبيئة العربية ـالمصدر السابق ـ المقدمة ـ ص 12

الفصل الأول

التشابه وأنواعه في القرآن الكريم

قبل أن نتطرق إلى فن التشبيه في لغته واصطلاحه؛ صوره وألفاظه وتطبيقاتها في القرآن الكريم يجب علينا أولا قبل كل شيء أن نتعرف على نوع آخر من القول يختلف عن نوع التشبيه المعروف في جوانب، ويتحد معه في جوانب أُخرى، ولعل هذا ما سبب إشكالية لدى الكثير من المفسرين و الدارسين للقرآن الكريم في التفريق بين هذين الصنفين، فلم يفرقوا بين ما هو تشابه" حقيقي يرمي القرآن الكريم إلى إثباته أو إنكاره، وبين ما هو تشبيه يرمي القرآن الكريم إلى تغليب الجانب المجازي فيه على الحقيقة. ولكون بحثنا هذا يتوجه أساسا إلى معالجة النوع الثاني ـ من خلال عنوانه؛ نظريا وتطبيقيا في القرآن الكريم، نفرد الآن فصلا خاصا للنوع الأول في جانبيه؛ البلاغي والتطبيقي في القرآن الكريم كذلك.

أولاً: تعريف التشابه لغة: جاء في اللسان أن التّشابه يعني التماثل: {{والمُتشابهاتُ المتماثلات}}(1) كما يعني أيضا الإستواء: {{ سئل أبو العباس عن قوله تعالى: (وأوتوا به متشابها) فقال: ليس من الإشتباه المُشكل إنما هو من التشابه الذي هو بمعنى الإستواء }}(2) . نفهم من قول أبي العباس: (ليس من الإشتباه المشكل) أن التشابه يعني أيضا الإتحاد بين العناصر إلى درجة تجعل التفرقة بينها صعبة المنال . وهذا ما جاء في اللسان في قولهم: {{ وشبَّه عليه: خلّط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره }} (3) . ومهما يكن من اختلاف بين معاني كل من التماثل، والتسوية والإتحاد ، فإنها جميعا تؤدي معنى واحدا يتمثل في توافر العناصر نفسها بين المتشابهين، بحيث لا نستطيع تغليب عنصر على غيره في طرف دون آخر ، ولعل هذا ما سنحاول التعرف عليه من خلال تناولنا لتعريفات العلماء له في الجانب الإصطلاحي .

تعريف التشابه اصطلاحا: لم نعثر على تعريفات صريحة ومنفصلة لمصطلح (التشابه) ولكننا سنحاول أن نستخلص بعضا منها من خلال آراء العلماء في محاولاتهم التفريق بين التشابه والتشبيه . وقبل أن نتطرق الى هذه الآراء ومُناقشتها، نتحدث أولا عن مسوغات هذا الإختلاف انطلاقا من آراء العلماء حول الإختلاف البلاغي عندهم بين نماذج التشبيه في الصنف الواحد. لنبرر بذلك حتمية ومنطقية وجود فوارق بين النوعين المختلفين؛ شكلا ومضمونا، طبيعة ومنهجا.

لقد أشار بعض علماء البلاغة الى الفرق بين التشبيه القريب والبعيد، وعدوا الأول مبتذلا؛ لكونه أقرب إلى الذهن وأبين الى الرؤيا والوضوح، ولا يتطلب من المتكلم أو المستمع أو القارئ اجهادا فكريا في ربط العلاقة ذهنيا بين المشبهين، وعدوا الثاني أحسن وأبلغ وألطف إلى العقل، لكونه يُحرّك

---

(1) اللسان المصدر السابق ـ مادة (شبه) ص 503

(2) المصدر نفسه ـ مادة ـ (شبه) ـ ص 505

(3) المصدر نفسه ـ مادة (شبه) ص 504

الذهن للبحث عن أوجه الشبه التي تجمع بين الأطراف المشبهة، ومثلوا للأول بالتشبيهات العادية التي عُلِمَ بها وجه الشبه لكثرة استعمالها في مثل قولنا: محمد كالأسد في الشجاعة والإقدام ، وطعم التفاحة يشبه طعم العسل في الحلاوة ، وخد الفتاة يحاكي البرتقالة في اللون، والفم يشبه الخاتم في صغر حجمه. وهكذا الأمر مع باقي التشبيهات المطروقة والبسيطة، ومثلوا للنوع الثاني من التشبيه بقولهم: كأن تقول مثلا الحجة كالشمس، والعِلم كالحياة، الجهل كالموت ، وغيرها من التشبيهات البعيدة التي تتطلب من الإنسان أن يعمل فكره للبحث عن أوجه الشبه القائمة بين الحجة والشمس، والعلم والحياة، والجهل والموت ، وغيرها من التشبيهات التي تندرج تحت هذا السياق. والذي نريده من وراء طرح هذا الإختلاف هو الإشارة الى أن هناك فرقًا فنّيا عند علماء البلاغة بين أضرب التشبيه الواحد، مما يبرز وجود فوارق واختلافات واضحة بين صنفي التشابه والتشبيه. وهذا ما ستتعرف عليه من خلال مناقشتنا لآراء علماء البلاغة في ذلك.

إن أو ل رأي نـدرجه في هذاالغرض قول الرماني: {{ والتشبيه على وجهين : تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسّراب.وتشبيه حقيقي نحو: هذا الدينار كهذا فخذ أيهما شئت}}(1)

إذاتأملناتعريف الرماني للتشبيه البلاغي والتشبيه الحقيقي ندرك أن المراد من قوله هذا هوالتفريق بين التشبيه الذي يعتمد على الخيال أكثر من اعتماده على الحقيقة المتواجدة في الطرفين المتقابلين، ،وبين التشبيه الذي يعتمد على الحقيقة البعيدة عن الخيال والتصوير، .والمثال الذي أورده يؤكد ذلك (هذاالدينار كهذا فخذ أيهما شئت)يوضح أنه لافرق بين المشبه والمشبه به ،وبالتالي فالحقيقة هي التي أشارت إليهاأداة التشبيه(الكاف)مع أداةالتنبيه (الهاء)واسم الإشارة (ذا). ويُوضح تفسيرَنا هَذَاالقَوْلِ الرماني قولُ السكاكي في تعريفه للتشبيه :{{لا يخفى عليك أن التشبيه مستدع طرفين مشبها ومشبها به ، واشتراكا بينهما من أوجه،وافتراقامن آخر.مثل أن يشتركا في الحقيقة،ويختلفا في الصفة أو بالعكس، فالأول كالإنسانين:إذااختلفا في الصفة طولا وقصراً،والثاني:كالطويلين،إذااختلفا حقيقة :إنسانا وفرسا وإلا فأنت خبير بأن ارتفاع الإختلاف من جميع الوجوه حتىالتعيّن يأبىالتعدد فيبطل التشبيه،لأن تشبيه الشئ لا يكون إلا وصفا له بمشاركته المشبه به في أمر،والشئ لا يتصف بنفسه}}(2) يفصل لنا هذاالتعريف المطول المعنى الذي أراده الرماني،وزاد عليه أنه نفىأن نقيم تشبيها بين شيئين متطابقين في جميع الصفات،ولكن الشئ الذي نفاه ليس هوالتشبيه الحقيقي(تشبيه حقيقة)الذي أشارإليه الرماني بل هو التشبيه البلاغي(تشبيه بلاغة)الذي تكلم عنه الرماني وفسره السكاكي.ويزيد المعنى وضوحاوترسيخاقول

---

(1) النكت - المصدر السابق - ص 81

(2) مفتاح العلوم - المصدر السابق - ص 332

الخفاجي:{{ وهو أن أحد الشيئين مثل الآخر في بعض المعاني والصفات ، ولن يجوز أن يكون أحد الشيئين مثل الآخر من جميع الوجوه حتى لا يعقل بينهما تغاير البتة، لأن هذا لوجاز لكان أحد الشيئين هو الآخر بعينه وذلك محال}}(1) يشترك كل من الرماني والسكاكي والخفاجي في قضية وجوب حقيقة الإختلاف بين الطريقين المُشبَّهين حتى يدخل التشبيه في اطار البلاغة، ولكن الرماني اختلف عنهما في تسميته التطابق بين الطرفين المشبهين تشبيها حقيقيا، واكتفى كل من السكاكي والخفاجي بالنفي دون إطلاق تسمية لهذاالنوع من التشبيه، وإذا كان لابد من أن نعطي تحديدا للصنف الذي نريد تتبعه في القرآن الكريم، فإننا لا نقف فقط عند النوع الذي وقف عنده علماء البلاغة فيما سبق – وهو التشبيه المتحد او المتطابق العناصر – بل نتعدى الى ماهو أعم وأشمل . ومن هنا يكون تحديدنا له بهذه الكيفية : هو كل تعبير وردت فيه إحدى أدوات التشبيه أو مايدل عليها، ولم يرد فيه مايدل على إقامة أي صورة تشبيهية تكون العلاقة فيها متفاوتة القوة والضعف بين طرفيها(المشبه والمشبه به). ويدخل في هذا التعريف كل تشابه تام أو غير تام ، فالتام ماصُرِّح بتحقُّقه أو بتحقيقه فعلا في الواقع ،وغير التام مالم يصرح بتحققه بعد في الواقع ، سواء كان عن طريق الطلب أوالإنكار، ولامانع بعد ذلك من أن تتحد جميع عناصر الأطراف المتقابلة أو بعضها فقط، مثل أن يتحد اثنان في جميع العناصر كالطول والوزن والسمنة والشكل وغيرها من العناصر الأخرى، أوأن يتحدافي الطول فقط ويختلفا في باقي العناصر المتقابلة، والإشارة إلى اتحاد العناصر أو تطابقها بإحدى أدوات التشبيه لا يعني بالضرورة أننا أقمنا صورة تشبيهية، بل في الواقع أننا أشرنا إلى الحقيقةالمتواجدة بين عناصر الطبيعة ، وبهذا نؤكد الفرق بين التشبيه التصويري،وبين التشابه المتطابق العناصر بأنواعه، كما نؤكد في نفس الوقت حتمية وجود الفارق بين الغرض الذي تحاك من أجله الجملة التشبيهية؛ ففي حالة ماإذاكان الغرض من إقامتهاهو التصوير والمبالغة ، فتكون بذلك صورة تشبيهية فنية،وأماإذا كان الغرض منها هو التصريح بماهو موجود أو سيوجد حقيقة بين العناصر المتقابلة أو طلبا لِمَا سيوجدأوإنكاراً له، فإن ذلك يدخل في إطارالتشابه بصفة عامة.

ثالثا: أنواع التشابه في القرآن الكريم :

وانطلاقا من هذا التحديد السابق سنحاول التعرف على هذا النمط من التشابه في القرآن الكريم، مستعينين في ذلك أولا بالفروق السابقة، ثم بالشروح والتفاسير للآيات القرآنية، وبالذوق الخاص في تغليب معنى على آخر للتفريق بين هذين الصنفين (التشبيه والتشابه)، وسنتناول نماذج هذا التشابه من خلال ثلاثة أنواع رئيسية: تشابه مؤكد، وتشابه طلبي، وتشابه إنكاري.

(1) سر الفصاحة – المصدر السابق – ص 246

النوع الأول: التشابه المؤكد:

لقد سبق تعريفه بأنه ماصُرّح بتحققه أو بتحقيقه فعلا في الواقع كما سيتبين معنا في النماذج التي سنتناولها بالدرس والتحليل.

تصادفنا في القرآن الكريم جمل تشبيهية تؤكد وتقر وجود تشابه متطابق بين الأطراف التي تحتويها كل جملة.وهذاالتشابه على صنفين:تشابه واقع فعلا بين الطرفين المذكورين،وتشابه أقرت الجملة التشبيهية بوقوعه فعلا في المستقبل القريب أوالبعيد. وعلى هذاالأساس أطلقناعلىالأول التشابه القولي والفعلي، وعلىالثاني التشابه القولي، وسنتعرف على كل صنف من خلال الأمثلة التي سنتناولها بالمناقشة . ونعني بالقولي مانصت عليه الجمل التشبيهية قولا، وبالفعلي ما تحقق في الواقع الذي أشارت إليه هذه الجمل . والأمثلة في ذلك كثيرة ومتنوعة نكتفي بتحليل بعض النماذج على سبيل التمثيل لا الحصر، فمن أمثلة ذلك قوله تعالى:[[قالوا ادع لنا ربك يبين لناماهي إن البقر تشابه علينا]](1)فالتشابه بين البقر أكدته الجملة التشبيهية على لسان قوم موسى عليه السلام، وذلك تصريحا بأداة التوكيد (إن) وبفعل المضارعة (تشابه)، كما نصت بوقوعه حقيقة تاريخية في زمن بني إسرائيل حينماأمروا بذبح البقرة.إذاً فالتشابه قد وقع سواء كان بين الصفات الجزئية الموجودة في جنس البقر،والمتمثلة إما في شدة لون الصفرة،أو في خالصهاأو في حسنها كما جاء في تفسير عبارة (فاقع لونها):{{أي شديد صفرة لونها، وقيل خالص الصفرة، وقيل حسن الصفرة}}(2)أوأنه واقع في الصفات العامة بحكم أن{{...التشابه مشهور في البقر،وفي الحديث : <<فتن كوجوه البقر>>أي يشبه بعضه بعضا}}(3).إن هذاالتشابه بنوعيه قد أوقع بني إسرائيل في الإلتباس في اختيار البقرة التي أمروا بذبحها، وهذا الإلتباس لا يعدوأن يكون نتيجة لكثرة عدد البقر الذي يتوفر علىالشروط المطلوبة في بداية الآية ، كالجسد واللون [[لا فارض ولا بكر...صفراء فاقع لونها]](4) وهذا يعني أن التشابه قد أفادالتطابق في وجود هذه الصفات في مجموعة كبيرة من البقر، وأنه لم يعد الجانب التشبيهي الذي يفيد المحاكاة النسبية بين الطرفين المتقابلين كما سبق أن وضحنا ذلك. ومن أضرب هذاالنوع من التشابه كذلك ما نجده في نص الآيةالكريمة :[[وقالت اليهود ليست النصارى على شيئ وقالت النصارى ليست اليهودعلى شيئ وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم]](5)من الواضح في هذه الجملة التشبيهيةأن المشابهة وقعت بين القولين :{{أي يشبه هذا القـــول

(1) البقرة آية 69

(2) مجمع البيان في تفسير القرآن - أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي - دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .م1ج 1ص 302

(3) روح المعاني - محمد الألوسي البغدادي - درا الفكر بيروت - لبنان - 1403 هـ 1983 م .م 1ج 1ص 289

(4)البقرة آية78

(5)البقرة آية112

قول فريق آخرغير الفريقين ،وهؤلاء الذين لا يعلمون هم مقابل الذين يتلون الكتاب؛وأريد بهم مشركوا العرب وهم لا يعلمون لأنهم أميون...}}(1).ولكن هل هذه المشابهة تعني المطابقة ،أم أنها المحاكاة والمماثلة التقريبية التوضيحية؟ ففي حالة ما إذا كانت هذه المشابهة تؤدي المعنى الأخير ،فإن أحد القولين لا بد أن يكون متميِّزاً عن القول الآخر،وذلك تماشيا مع قواعد التشبيه التي ذكرناها في بداية هذا الفصل،ويكون هذاجائزإذاانطلقنا من النص الذي يضم الجملة التشبيهية الأولى(كذلك قال الذين لا يعلمون)،ولكن هذاالتميُّز لا يتجاوز التفاوت في اللفظ مع الإشتراك في المعنى،وأماإذاانطلقنا من المعنى العام للسياق يتبين لنا بأن المطابقة في القولين هي المقصودة من عملية المشابهة، ويمكننا أن نستعين في ذلك أولاً بلفظة المشابهة (كذلك)التي :{{...يقال أن كذلك ليست للتشبيه هنا بل لإفادة أن هذا الأمرعظيم مقرر...عن الإمام الجرجاني إن (كذلك)تأتي للتثبيت إما لخبر مقدم وإما لخبر متأخر...}}(2).كما يمكن أن نستعين ثانية بعبارة (مثل قولهم)لأن :{{...لفظ مثل قولهم تأكيداً لِماأفاده كاف التشبيه،وهو تأكيد يشيرإلى أن المشابهة بين قول الذين لا يعلمون وبين قول اليهود والنصارى مُشابَهة لأنهم كما قالوا(ماأنزل الله على بشرمن شيئ)قد كذّبوااليهودوالنصارى والمسلمين}}(3).وبهذا التحليل نميل إلى القول بأن هذه الجملة التشبيهية أفادت المماثلة المتطابقة لفظا ومعنى،دلت عليها أداة التشبيه (الكاف)وصيغة الماضي من القول (قال).

لاحظنا في المثالين السابقين أن التطابق المماثل في الصفات قد تم بين الجنسين المشار إليهما بصريح الآيتين:جنس البقر ،وجنس القول .ويصادفناخلافا لهذاالتطابق تطابق مماثل آخر يختلف تصريح اللفظ فيه عن الحقيقة التي تريد الجمل التشبيهية توضيحهاللعيان ،ونأخذ مثالاً لذلك قوله تعالى في وصف حالة الكفار والمنافقين :[[...تشابهت قلوبهم]](4).لقد أقرت الجملة التشبيهية {لفظا} تشابه قلوب هؤلاء الكفرة ،ولكن القلب كما هو معروف عضو عضلي في الجسم ومُتَّحد لدى الجميع شكلا في الغالب الأعم ،ولكن هل المراد من هذا القول هو التشابه الظاهري من القلب؟طبعاًليس هذا هو القصد كما هو معروف ؛لأن القلوب لا يصدر منها أي شيئ كما قلنا فهي عضلةتقوم بضخ الدم ،ولكنها عرفت عند الناس بأنهامصدر من مصادر الإنفعال السلوكي لأنها تتأثر بالحوادث سلبا أو إيجاباً .ولكن المصدر الحقيقي لترجمة الإنفعالات إلى سلوك هو الجهاز العصبي الذي يتصل بالمخ مباشرة،وكل ذلك تحت رقابة

---

(1)التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور ،الدار التونسية للنشر ،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984،ج 1- ص 677

(2)روح المعاني المصدر السابق - م 1-ج 1-ص 361

(3)التحرير والتنوير المصدر السابق ج 1 ص 677

(4)البقرة آية 117

العقل . ولهذا قيل للذي لا يحسن تركيب الكلام وترتيبه أنه لا يمتلك عقلا . ومن هنايحق لنا أن نؤيد قول القائل في تفسير لفظة القلوب في هذه الجملة التشبيهية :{{فالقلوب هنا بمعنى العقول كما هو المتعارف في اللغة العربية}}(1) وإذا كان الأمر كذلك فلفظة(العقول)تدل على أشياء معنوية لايمكن تحديدها بحاسة من الحواس المعروفة حتى نقول بأنها متشابهة تشابها تطابقيا,إذاً فما هو الأمر الذي نستطيع من خلاله معرفة تشابه هذه العقول ؟إذا رجعنا الى بداية الجملة التشبيهية وجدنا أن التشابه التطابق وقع في سلوك القول : [[وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم]](2) . فتشابه القلوب إذاً كان مستخلصاً من تشابه أقوالهم ، وهذا دليل نصي على تشابه مصدر التفكير الذي أنتج مثل هذا القول عند هؤلاء الجمع من الناس ، ولهذا عَدّ بعضهم جملة (تشابهت قلوبهم) :{{تقرير لمعنى قال الذين من قبلهم مثل قولهم }}(3).

كل هذه الأمثلة التي جئنا بها تقر بأن هناك تشابهاً حقيقياً وقع فعلاً بين الطرفين المتشابهين ، ولكن هناك أمثلة أخرى يختلف تقريرها عن سابقاتها ، إذ تؤكد لنا بأن تطابق التشابه الفعلي بين المتشابهين واقع فعلاً في المستقبل وجل هذه الأمثلة تتكلم عن الحياة الأخروية ؛ ومن أمثلة هذا النوع ما جاء في قوله تعالى : [[وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة]] (4). فتشابه طعام أهل الجنة واقع فعلاً في التقدير بنص الجملة التشبيهية قولاً ، غير أنه لم يقع في التطبيق فعلاً ، لأن الساعة لم تحن بعد . وذلك بغض النظر عن موقع هذا التشابه الذي اختلفت الآراء في تخريجه والذي لم يخرج عندهم عن خمسة أوجه : {{ أحدها : أنه أراد متشابهاً في اللون مختلفاً في الطعم ، عن ابن عباس ومجاهد . وثانيها : أن كلها متشابه في الجودة لارذل فيه : عن الحسن وقتادة ,واختاره الأخفش ، قال : وهذا كما يقول القائل : وقد جيء بأشياء فاضلة فاشتبهت عليه لا أدري مااختار منهاكلها عندي فاضل كقول الشاعر :

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ سَيِّدُهُمْ مِثْـ ... ـلَ النُّجُومِ الّتي يَسْري بها السّاري

يعني انهم قد تساووافي الفضل ,وثالثها:انه يشبه ثمرالدنيا, غيران ثمرالجنةأطيب عن عكرمة., ورابعها : انه يشبه بعضه بعضا في اللذة وجميع الصفات عن ابي مسلم,وخامسها :أن التشابه: من حيث الموافقة فالخادم يوافق المسكن ,والمسكن يوافق المفرش ,وكذلك جميع مايليق به }}(5).

---

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق,ج1,ص 690

(2)البقرة الآية 117

(3)التحرير والتنوير - المصدر السابق - ص670

(4)البقرة الآية 24

(5)مجمع البيان في تفسير القرآن ,المصدر السابق م 1 ج 1 ص 142, 143

نفهم من هذه الإحتمالات الخمسة ان تطابق التشابه أوتساويه هو المعنى الذي تهدف الى تبليغه هذه الجملة التشبيهية ،سواءوقع في اللون ،أوفي الجودة ،أوفي الصنف ،أوفي الطعم واللذة ،أوفي المقام، .وهذاالتشابه المتحد المتطابق في أصناف الطعام لاينفي الإختلاف كماجاء في التفسير قبل قليل،لأن أصحاب الجنة مثلا :{{...يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا ،التفاح بالتفاح والرمان بالرمان قالوا في الجنة هذاالذي رزقنا من قبل في الدنيا وأوتوا به متشابهايعرفونه وليس هو مثله في الطعم }}.(1)إذاً فالجملةالتشبيهية أقرّت وقوع التشابه في المستقبل بين أصناف الطعام،ولم تُحدّد موقعه ولامقداره،ولهذا تبقى جميع احتمالات تطابق التشابه أوتساويه ممكنة التحقق في المستقبل المرهون بقيام الساعة ودخول الناس الجنة. ومن أمثلة هذا النوع أيضا ندرج قوله تعالى :[[ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة]](2).إن المجئ المصحوب بالفردية الذي ترمي إليه هذه الجملة التشبيهية يكون يوم قيام الساعة وخروج الناس من الأجداث ، وهذا ما لم يتحقق الى حد نزول الآية وإلى حد الساعة ، ولكن تحققه هذايحاكي ويضاهي مجيئاآخرنراه ونشاهده في حياتنااليومية،ويتمثل في عملية ولادةالإنسان المتواصلة في كل آن وفي كل حين .وإذااعتمدنا هذا المعنى العام تفسيراً لهذه الجملة التشبيهية على رأي بعض المفسرين:{{كما بدأناكم أول مرة :أي يكون بعثكم كخلقكم }}(3).أو {{كما بدأناكم أعدناكم}}(4)- تكون هنا المشابهة تقريبية وليست تطابقية ،وبها تكون الصورة تشبيها وليست تشابها ،لأن عملية البعث تختلف شكلا عن ولادة الإنسان من بطن أمه ،وكِلا العمليتين لاتستغنيان عن قدرة الله في الأمر بالكينونة (كن فيكون)، ولكن إذامااعتمدنا المعنى الخاص لهذه الجملة التشبيهية انطلاقا من المعنى الظاهري للألفاظ - وهو الراجح - فإن الأمر يختلف ،لأن لفظة (الفردية)في الطرف الأول تفرض علينا إعادتها في الطرف الثاني،وبهذا تكون جملة (كماخلقناكم أول مرة): {{بدل من (فرادى)بدل كلّ ؛لأن المراد المشابهة في الإنفراد المذكور ،والكاف اسم بمعنى مثل أي مثل الهيئةالتي ولدتم عليها في الانفراد ، ويجوز أن يكون حالاً ثانية على رأي من يُجوِّز تعدد الحال من غير عطف وهو الصحيح أو حالا من الضمير في (فرادى) فهي حال مترادفة أومتداخلة والتشبيه أيضا في الإنفراد }}(5)إذاًفالهيئة الإنفرادية بما تحمله من معاني هي التي تميز الطرفين المتقابلين ،لأن هيئة الإنسان عندما يُبعث حافيا عارياأغرَلاً تطابق هيئته

---

(1) تفسير ابن كثير - المصدر السابق - م1- ج1- ص 63

(2) الانعام الآية 95

(3)مجمع البيان -المصدر السابق - م3- ج7 - ص 136

(4)تفسير ابن كثير -المصدر السابق - م2- ص157

(5)روح المعاني - المصدر السابق - م3 - ج1 - ص 224-225

عندما يولد من بطن أمه ،وهذا ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :<<أنه قال تحشرون حفاة عراة غرلا>>(1).وبهذه الكيفية تكون المطابقة في التشابه قد أقرت بوقوعها قولاً الجملة التشبيهية في صيغة الماضي من الزمن لتكون حقيقة واقعة في المستقبل يوم قيام الساعة .

لنسبق القول أن هذا النوع من التشابه يُقصد به ما نصت الآيات على وقوعه دون أن يطبق في الواقع اعتمادا على الاقرار النصي لكل آية.ويتفرع هذا النوع من التشابه على ضربين :تشابه مصرح بتطبيقه فعلا في الحاضر والمستقبل، وتشابه متعلق بتحقق الفعل الذي يسبقه؛ فمن أمثلة الضرب الأول نأخذ ثلاثة نماذج، الأول : في قوله تعالى : [[ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين]](2).والثاني يبرزفي قوله عز وجل :[[ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان انتم الا مبطلون ،كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون]](3). وأما النموذج الثالث :فيكمن في الجملة التشبيهية من قوله تعالى :[[حم عسق كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك]](4).إذا تتبعنا حالات الأفعال في هذه الجمل التشبيهيةالثلاثة لوجدناأن أفعال (الجزاء،والطبع والوحي) كلها تعلقت بأفعال المضارعة التي تفيد فاعلية الحاضر والمستقبل ؛فمثلا بقي تحقق التشابه بين الجزاء الذي خصه الله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام ، وبين جزاء كل المحسنين مفتوحا بزمن الفعل مُتعهّدا بتطبيقه بصريح الجملة التشبيهية ،لان تقديرمعنىهذه الجملة :{{أي نجزيهم مثل جزَينا إبراهيم عليه السلام برفع درجاته وكثرة أولاده والنبوة فيهم ،والمراد مطلق المشابهة في مقابلة الإحسان بالإحسان والمكافآت بين الأعمال والأجزية من غير بخس}}(5)والأمر نفسه يتكرر مع الجملة الثانية فـ(الطبع)قُرن بالمضارعة ليبقى ساري المفعول بسريان الزمن ،ولم يُعيّن الفعل زمن وقوعه ولا زمن انتهائه . وأما(الوحي) في الجملة التشبيهية الثالثة فزمن المضارعة فيه قد أشار الى عملية نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم المطابقة لعملية نزول الوحي على الأنبياء قبله {{أي مثل وحيه إليك وحيه إلى الذين من قبلك}}(6)،ولكنه لم يحدد طريقته ولا زمن إنتهائه.وهذه الطريقة نستطيع تطبيقها على جميع الأمثلة التي تأتي على هذاالمنوال . ويمكن أن نؤكد ذلك من خلال تناولنا

(1) تفسير الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – دار احياء التراث العربي اللبناني بيروت – م 7 – ص 236

(2)الانعام الآية 85.

(3) الروم الآية 58 .

(4)الشورى الآية 1 .

(5)روح المعاني ـالمصدر السابق ـ م 3ـ ج 7ـ ص213

(6)التحرير والتنوير ـالمصدر السابق ـ ج 27 ـ ص 26

لمجموعة أخرى من الجمل التشبيهية ، فنأخذ مثلا قوله تعالى :[[فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى]](1).وقوله عز وجل:[[قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء]](2). ومثله قوله تعالى:[[فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين]](3).

تحتوي هذه النماذج كسابقاتها على أفعال تحمل زمن المضارعة ، وتمثل بدورها الطرف الثاني الذي يقابل الطرف الأول ، والذي يكون دائما شبيها له . بل إن لم نقل هو نفسه ؛ ففي المثال الأول نجد أن الإحياء المذكور (يحيي)يشير إلى عملية الإحياء التي وقعت من جراء ضرب الميت بجزء من البقرة المذبوحة ، على أساس أنها ستتحقق مرة أخرى . وبهذا يكون المعنى كما فُسِّر :{{أي كذلك الإحياء يحيي الله الموتى}}(4). ولكن السؤال الذي يطرح هنا هو : هل هذه العملية (عملية الإحياء) واحدة أم أنها مختلفة ؟ إذا نظرنا إلى العمليتين من الناحية التطبيقية وجدنا إختلافا بيِّناً ، لأن عملية الإحياء الأولى التي تمت في زمن بني اسرائيل كانت بطريقة تختلف عن عملية إعادة إحياء الموتى بعد زوال الأجساد وتفتت العظام ، لأن هذه :{{ أقوى وأعظم لأنها حياة عن عدم }}(5). وبهذا يمكن القول بأن هذه الجملة أفادت التشبيه ولم تفد التشابه المتطابق . ولكن إذا نظرنا الى هاتين العمليتين من زاوية أخرى - وهي إمكانية كل منهما في التحقق - فإن الأمر ينتقل من التشبيه الى التشابه ، انطلاقا من أن قدرة الله واحدة في إحياء هذا الميت بهذه الأسبابْ البسيطة (الضربْ على الميت ببعض أجزاء البقرة) ، أو بعدم وجود أي سبب لإحياء الموتى يوم البعث ، وذلك لأن الأسباب التي أخذت هنا لا تفعل شيئا دون إرادة الله ، ولهذا جوّز بعضهم القول بأن قوله تعالى : [[كذلك يحيي الله الموتى]](6).{{جملة اعتراضية تفيد تحقق المشبه وتيقنه بتشبيه الموعود بالموجود ,والمماثلة في مطلق الإحياء}}(7).إذأفاالإقرار بعملية تحقق المشابهة المشار اليها بفعل المضارعة (يحيي) لم تتم بعد ، لأن موعد تحققها مرتبط بيوم البعث، وتكون هذه المشابهة متطابقة في قدرة الله على إعادة الأرواح إلىالموتى. وهذا التحليل ينطبق ايضا على المثال الثاني إذ نجد أن فعل المضارعة (يفعل) - في ارتباطه مع أداة التشبيه واسم الإشارة (كذلك) - دل على عمومية الحدث الذي وقع ؛ وهو خلق عيسى عليه السلام من دون أب ، وذلك بكلمة من الله (كن فكان)، وبقي مستمرا في إمكانية تحقق أي فعل من هذا القبيل أو غيره ، شريطة أن تكون مشيئة

---

(1)البقرة الآية72

(2)آل عمران الآية43

(3)الأحقاف الآية24

(4)التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج1-ص561

(5)التفسير نفسه - ج1 - ص561

(6)البقرة الآية - 72

(7)روح المعاني - المصدر السابق -م1 -ج 1- ص294

الله حاضرة في أي فعل كان .إذاً فالمشابهة مطلقة حسب السياق النصي لهذه الجملة التشبيهية ، ولكن من يربطها بعملية الخلق التي تمت فيكون المعنى :{{أي مثل ذلك الخلق المذكور يخلق الله ما يشاء }}(1).

ونفس الكلام يمكن قوله حول عملية (الجزاء) في المثال الثالث. لأن المماثلة في تطبيق نفس الجزاء الذي سُلِّط على هؤلاء وعلى المجرمين من قبلهم أو من بعدهم لم يحدد زمانها ، ولم تحدد كيفيتها ، ولكنها بقيت مفتوحة تدل على عمومية الجزاء الفظيع الذي سيحل على كل المجرمين:{{أي مثل ذلك الجزاء الفظيع(نجزي المجرمين)...}}(2)بهذه الكيفية تأتي أمثلة التشابه الذي وقع في القول ولم يتحقق بالفعل الزمني لكل جملة تشبيهية .وأما فيما يخص أمثلة الضرب الثاني ، فيمكننا أن نستعرض بعض النماذج على سبيل التمثيل لا الحصر .

قلنا في بداية الحديث عن هذا العنصر أن تحقق التشابه في الجمل التشبيهية وتطابقه يتوقف على تحقق معنى الفعل الذي يسبقه :فمثلا لو أخذنا قوله تعالى :[[فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم]](3). لوجدنا أن تطابق المماثلة بين الذين يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها ، وبين المسلمين متوقف على قعود هؤلاء معهم :{{فإن التقدير : إن قعدتم معهم إذن إنكم مثلهم }}(4) . وما دام القعود لم يتم ، فالمماثلة تبقى غير واقعة بين هذين الطرفين (الكافر والمسلم) وفي حالة ما إذا تحقق فعل القعود ، فإن المماثلة تكون بصفة عامة في الكفر:{{ لأن الرضى بالكفر كفر}}(5). والكفر الواحد يجر إلى وحدانية الإثم ووحدانية الجزاء .

والملاحظة هذه يمكننا تطبيقها على قوله تعالى:[[فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود]](6). فتحقق المماثلة في هذه الجملة التشبيهية يتوقف على تحقق فعل الإعراض:{{ فإن أعرضوا عن التدبرفيما ذكر من عظائم الأمورالداعية إلى الإيمان أو عن الإيمان بعد هذا البيان (فقل) لهم (أنذرتكم)، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الإنذار المبني عن تحقق المُنذَر (صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) أي عذابا مثل عذابهم ، وهو ظاهر على القول بأن الصاعقة تأتي في اللغة بمعنى العذاب ، ومنع ذلك بعضهم وجعل ما ذكر مجازا ، والمراد عذابا شديدا كأنه صاعقة مثل صاعقتهم}}(7).

---

(1)التحرير والتنوير – المصدر السابق – ج 1 – ص248

(2) روح المعاني - المصدر السابق - م9 - ج 26 ص 26

(3)النساء آية139

(4) التحرير والتنوير – المصدر السابق – ج5 ص236

(5)جامع البيان في تفسير أي القرآن - ابن جرير الطبري - دار الفكر - 1405 هـ 1985 م - م 2 - ج 5 - ص 264

(6)فصلت آية 12

(7)التحرير والتنوير - المصدر السابق ج 24 ص 252

ولا يختلف الأمر معنا إذاإعتمدنا ظاهر نص الجملة التشبيهية،لأن المماثلة مُصرَّح بوقوعها بين الصاعقتين وذلك شريطة وقوع الإعراض ،سواءأكانت الصاعقة الموعودة صاعقة طبيعية أو بمعنى العقاب الشديد ، لأن الإنذار الموجه إلى قريش أثناء نزول الآية ما زال في طور التخويف:{{وهو هنا تخويف لتوقع عقاب مثل عقاب الذين شابهوهم في الإعراض خشية أن يحل بهم ما حل بأولئك}}(1). وأما إذاإعتمدنا واقع الأحداث ، فإن الإعراض قد تم من قريش . ولكن الصاعقة التي أنزلت على عاد وثمود لم تنزل عليهم وهنا تكون المماثلة في العذاب الشديد ، ويكون الإنذار ليس وعيدا{{ بناء على أن المعروف أن تجري أفعال الله على سنن واحد}}(2).

والتعبير في المثال الموالي لم يخرج على نمط المثالين السابقين ؛ ففي قوله تعالى :[[وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا]](3)، نجد أن تحقُّق المماثلة بين القرآن الكريم والكلام الذي سيأتي به كفار قريش متوقف علىتحقق مشيئتهم ، وهذه المشيئة مطلقة؛ فيمكن أن تكون في الحاضر أو في المستقبل، وهذايحتمل معنيين :{{إنما قالوا ذلك مع ظهورعجزهم عن الإتيان بصورة مثله بعد التحدي عداوة وعنادا ،وقد تحمل الانسان شدة العداوة على ان يقول ما لا يعلم ،وقيل إنما قالوا ذلك لأنه لم ينقطع طمعهم من القدرة عليه في المستقبل،إذالقرآن كان مركبا من كلمات جارية على ألسنتهم ،فطمعوا أن يتأتى لهم ذلك في المستقبل}}(4).ومهما يكن من نية مشيئتهم فإن كلامهم هذا في المماثلة يبقى:{{قولا بلا فعل وإلا فقد تحدوا غير ما مرة ان يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلىذلك سبيلا}}(5).

من خلال هذه الأمثلة الثلاثة نلاحظ أن تحقق المماثلة دائما مشروط بتحقق الأفعال التي تسبقها .وهذا ما يمكن ملاحظته في الكوكبة الآتية من النماذج التشبيهية في مثل قوله تعالى :[[ولو جئنا بمثله مددا]](6)وقوله :[[فلنأتينك بسحر مثله]](7)وقوله:[[وإذا شئنابدلناأمثالهم تبديلا]](8) وقوله:[[وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه]](9) وقوله :[[أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس]](10)وقوله عز وجل :

(1)(2)التحرير والتنوير – المصدر السابق – ج24 –ص252

(3) الأنفال الآية31

(4) مجمع البيان – المصدر السابق – م2 – ج 7 – ص 139

(5)تفسير ابن كثير ـ المصدر السابق ـ م2 ص 304

(6)الكهف الآية 104

(7)طه الآية57

(8) الإنسان الآية28

(9)الأعراف الآية169

(10)القصص الآية19

[[ودّوا لوا تكفرون كما كفروا]](1).ففي المثال الأول نجد أن تحقق المماثلة بين البحر الذي افترض بأنـــه مداداً عن طريق فعل الشرط (لو كان)،وبين البحر بصفته مدداً ثاني مماثل لهذاالمدد - لأن المعنى :{{أي مثل البحر في الإمداد}}(2)- متوقف على تحقق فعل الإتيان بالمثل(ولو جئنا)بصفته شرطا ضروريا لتحقق المماثلة فعلا،غير أن إمكانية هذاالتحقق مصرح بها قولاً في الجملة التشبيهية.

ونفس الأمر في المثال الثاني :فتحقق المماثلة بين ما جاء به موسى عليه السلام من كرامات وبراهين ، وبين ما وعد به فرعون وحاشيته من سحر ، يبقى غير محقق أثناء قولهم هذا ، لأنه مرتبط بصدق الوعد الذي أخذه هؤلاء على أنفسهم. ولهذا فإن إقرارهم قولا بتحقق المماثلة في المستقبل يبقى احتمالاً لا تبنى عليه صحة هذه المماثلة .وهذا ماأثبته الأيام ، فإنهم لم يستطيعوا الإتيان بالمثل المطابق لما جاء به موسى عليه السلام .ولهذا قيل بأن المماثلة :{{في جِنسِ السّحِر لا في قوته }}(3).وهذاالمعنى يمكن قبوله إذا قارنا بين قوة ما جاء به موسى ،وبين قوة ما جاء به سحرة فرعون.ومهما يكن من أمر هذه المماثلة فإنها تبقى مُصرَّح بتطبيقها قولاً دون أن تطبق فعلا بصريح نص الجملة التشبيهية .

وبنفس الطريقة تكون المماثلة في المثال الثالث مرتبطة بمشيئة الله في تبديل هؤلاء بأشباههم ،سواء كان ذلك في الأجساد:{{وهي أمثال لأجسادهم الموجودة حين التنزيل}}(4).أوكان ذلك في النوع البشري أوالإنساني:{{أي أهلكناهم وأتينابأشباههم فجعلناها بدلاً منهم}}(5).وهذاالتفسيرلا يغير من الأمر شيئا إذ تبقى المماثلة في الجملة التشبيهية مُصرَّح بتطبيقها قولا ،ولم تتحقق فعلا أثناء نزول الآية.

وأماالإقرار بتحقق المماثلة في المثال الرابع ،بين عَرَض الدنيا الذي أخذه هؤلاء الذين ورثوا الكتاب :[[فخلف من بعدهم خلف ورثواالكتاب يأخذون عرض هذاالأدنى]](6)،وبين العرض الذي سيجدونه :(وإن يأتهم عرض)،يبقى خاضعا لعملية توفر مثل هذا العرَض في حياة هؤلاء القوم ،لأن توبتهم لم تكن صادقة :{{أي يرجون المغفرة وهم مصرون على الذنب عائدون إلى مثله غير تائبين عنه}}(7).إذاً فالمماثلة تتحقق في حالة ما إذا تحقق الشرط المبني على فعل المضارعة (يأتهم)وذلك في المستقبل من الزمن .

---

(1)النساء الآية 89

(2)الكهف الآية 104

(3)التحرير والتنوير - المصدر السابق- ج16 - ص54

(4)المصدر نفسه - ج29- ص44

(5)مجمع البيان -المصدر السابق -ج9- ص 154

(6)الأعراف آية 169

(7)روح المعاني - المصدر السابق - م 3 -ج 9 - ص 96

ويبقى هذا الزمن الذي ميَّز الأمثلة السابقة هو الذي يُميِّز المثال الخامس ،وذلك لكون تحقق الإرادة متعلق بزمن المضارعةالذي يحمله فعل(أتريد)ومادامت الإرادة لم تتم بعد ،فإن فعل القتل الذي سيماثل فعل القتل السابق لم يتم فعلا .وفي حالة ماإذاتم في المستقبل فإنه سيكون مطابقا للفعل الذي سبقه ، وهذاإقرار قولي بتطابق المماثلة في حالة تحقق الطرف الثاني ،الذي بقي خاضعا لشرطية تحقق الفعل الذي سبقه .

وأماالفعل في المثال السادس والأخيرفإن الزمن الماضي هو الذي ميَّزه ؛لأن معنى التمني الذي حمله فعل (ودّوا)قد حدث في نفوس المنافقين ، ولكنه بقي لم يتحقق فعلا ؛فليس كل الأماني تتحقق ،وفي حالة ما إذاً تحقق هذاالتمني ،فتكون المماثلة منطابقة بين كفر المنافقين ،وبين ما سيحدث من كفر المؤمنين. إذاً فالمماثلة في الكفر تبقى متعلقة شرطيا بتحقق الأمنية ،أمنية هؤلاء المنافقين .

بهذاالقدر من الأمثلة التي سقناها حول التشابه القولي بفرعيه ،ننهي حديثنا هذا حول التشابه التام ،لنتطرق إلى النوع الثاني من أنواع التشابه ،والذي يتضمن الجمل التشبيهية التي تحتوي على أساليب تبرز فيها عملية الحث على المشابهة ،ولذلك أطلقنا عليها العنوان الموالي :

النوع الثاني :التشابه الطلبي :

ويُراد بهذا المصطلح الجمل التشبيهية التي تحتوي على أساليب تحث على وجوب تطبيق المماثلة بين العناصر التي تشير إليها أدوات التشبيه عن طريق الطلب بتمثيلها وتجسيدها في الواقع المعيش، ومن خلال النماذج التي بين أيدينالهذا الضرب من التشابه ،وجدنا صنفين بارزين ؛صنف تطابق فيه اللفظ مع المعنى في الطرفين المتقابلين ،وذلك عن طريق تكرر نفس اللفظ مرتين ،وصنف ثاني تطابق فيه المعنى دون اللفظ .وسنتعرف على هذين الصنفين من خلال معالجتنا لمجموعة النماذج المتعلقة بهذا النوع .

يرِدُ التشابه الطلبي في الصنف الأول من الأمثلةعلى شكل يتكرر فيه نفس اللفظ الذي يحمل نفس المعنى؛ففي قوله تعالى:[[وإذا قيل لهم آمنوا كماآمن الناس]](1)نجد صيغة المطالبة بالمشابهة واضحة في الفعل المبني للمجهول(قيل)ونجد موضع المشابهة متمثلا في فعل الإيمان(كماآمن)لأن التعبير النصي بعد التأويل{{..آمنواإيماناً مثل إيمان الناس فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه}}(2).إذاً فلفظة الإيمان تكررت مرتين لتدل على أن المعنى الأول هو المطلوب،ولتدل كذلك على عمومية المعنى،لأن الإيمان المطلوبِ تَمَثَّلَ عند هؤلاء الجماعة غير محدد بكيفية خاصة تدل على نوعية الإيمان والطريقة المطلوب

---

(1)البقرة الآية12

(2)مجمع البيان ـ المصدر السابق ـ م1ـ ج1ـ ص108

تطبيقها .ولهذا نجد من يضع احتمالين لمعنى المشابهة ،إعتمادا على الجانب اللغوي الذي يمكن أن تؤديه الأداة (ما)في إتصالهابأداة المشابهة الكاف :{{ولفظ ما في (كما) إن كانت كافة للكاف عن العمل مصححة لدخولها علىالجملة كان التشبيه بين مضموني الجملتين :أي حققوا إيمانكم كما تحقق إيمانهم،وإن كانت مصدرية فالمعنى آمنوا إيمانا مشابها لإيمانهم}}(1).ومن أمثلة هذا النوع ماجاء في قوله تعالى - مُبيِّنا للمسلمين جانبا أخلاقيا هاما من جوانب حياتهم اليومية-:[[فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم]](2).إن طلب المشابهة بين الإستئذانين واضح في هذه الجملة التشبيهية عن طريق فعل الأمر (فليستأذنوا)وذلك بغض النظر عن كون الإستئذان الأول موجود ولكنه لم يكن مطابقا للإستئذان الثاني، أوأنه غيرموجودعلىالإطلاق ،وجاءت هذه الجملة التشبيهية لتأمر الاطفال الذين بلغواالحلم أن يستأذنوا :{{في جميع الأوقات(كما استأذن الذين من قبلهم)من الأحرار الكبارالذين أمروا بالإستئذان على كل حال في الدخول عليكم }}(3).

وعلى نفس الوتيرة يأتي طلب المشابهة في قوله تعالى :[[وأحسن كماأحسن الله إليك]](4). فالأمر بالمماثلة بين الإحسانين - إحسان الله لعباده ،وإحسان الإنسان لأخيه الإنسان - يؤديه الفعل الأول الذي تصدَّرهذه الجملة التشبيهية(وأحسن)الذي يدل على وجوب وجود الإحسان الذي يجب أن يماثل ويحاكي الإحسان الموجود قبله ،والمتمثل في الفعل الماضي من القول (أحسن).إذأنهناك إحسان موجود وإحسان غير موجود ،والمطلوب عن طريق الأمر هو وجوب وقوع المشابهة في تأدية فعل الإحسان الذي لم تحدد نوعيته ولاطريقة تأديته،الأمرالذي جعل المماثلة عامة ،ولعل هذا يعود إلى عدم إستطاعةالإنسان لتأدية نفس الإحسان الذي أنعمه الله عليه ،ولعل هذا ما جعل المعنى يحتمل تفسيرين :{{أي مثل إحسانه تعالى إليك فيماأنعم به عليك والتشبيه في مطلق الإحسان ،أولأجل إحسانه سبحانه وتعالى إليك على أن الكاف للتعليل}}(5).ويبقى المعنى العام هو الذي يميز هذه الجملة التشبيهية عند المفسرين ؛سواء كان هذا الإحسان المطلوب توجيهه الى الله تعالى:{{...أو أحسن بشكرك وطاعتك لله كما أحسن إليك }}(6)أو توجيهه إلى البشر :{{أي أحسن إلى خلقه كماأحسن هو إليك}}(7).

---

(1)الكشاف - الزمخشري - دار الفكر بيروت - لبنان م1 - ص182.

(2) النور آية 57

(3) مجمع البيان -المصدر السابق - م 5 - ج 18 ص 74

(4) القصص آية 77

(5)روح المعاني -المصدر السابق - م 7ج 20 ص 113

(6)تفسير ابن كثير -المصدر السابق - م 3ص 399

(7)المصدر نفسه - م 3ص 191

وإذا كنا قد التمسنا في الألفاظ السابقة المكررة لفظا،عمومية المعنى،فإننا نلتمس في ألفاظ أخرى خصوصية المعنى المطلوب ؛كما هو الحال في قوله تعالى :[[وإن عاقبتم فعاقبوابمثل ماعوقبتم به]](1).إن هذه الجملة التشبيهية هنا وقعت موقع جواب الشرط ،فالعقاب الذي سيقع يجب أن يكون مطابقا لنوعية العقاب الذي وقع ولايزيدون عليه شيئا ،لأن المعنى كماجاء في التفسير:{{...إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه}}(2)وهنا تكمن خصوصية معنى ألفاظ العقاب المكرَّرة لفظا في هذه الجملة التشبيهية .إذاً فقد طلبت الآية عن طريق فعل الأمر بتشابُه رد فعل العقاب الذي وقع على المسلمين بالمثل دون زيادة أو نقصان .

ونفس الخصوصية في التعبيرالمماثل نجدها في الجملة التشبيهية من قوله تعالى :[[فمن اعتدى عليكم فاعتدواعليه بمثل مااعتدى عليكم]](3).تأمر هذه الجملة التشبيهية المشروطة بتحقق الإعتداء الأول(فمن اعتدى عليكم)بتطبيق نفس الإعتداء دون زيادة أونقصان ،شأنها في ذلك شأن الجملة التشبيهيةالسابقة ، لأن في المعنى:{{أمر بالعدل حتى في المشركين كما قال(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به)وقال (جزاء سيئة سيئة مثلها) ...}}(4).إذاًفخصوصية المعنى هنا تتمثل في تحديد نوعية المماثلة التي يمكن أن تكون كما في التفسير:{{...في المقادر وفي الأحوال لكونه في الشهر الحرام والبلد الحرام}}(5). ومهما يكن من أمرتحديد هذه المماثلة فإنها تخضع لنوعية الإعتداءالذي يحدث من قبل المشركين تجاه المسلمين فيكون الرَدُّعليه بالمثل،سواء كان ذلك قولا أو فعلا،وكل هذه المماثلة حددها فعل الإعتداء الذي تكرر لفظا ومعنى.

ولا يختلف الأمر في هذه الجملة عنه في الجملة التشبيهية من قوله تعالى :[[وقاتلواالمشركين كافة كما يقاتلونكم كافة]](6).إلا في زيادة اللفظ الذي يحدد خصوصية المماثلة الدقيقة ؛فالقتالان: الأول والثاني مقيدان بصفة الجمع(كافة)لتكون المماثلة بينهما متطابقة.ولا يختلف هذ التطابق باختلاف تفسير معنى هذه الجملة التشبيهية،سواء كان ذلك بمعنى:{{قاتلواالمشركين كافة لا يتخلف منكم أحد عن قتالهم،أو لا تتركوا قتال واحد منهم وكذا في جانب المشبه به}}(7).إذاً فالمماثلة متطابقة تطابقالفظياومعنويا،وذلك بتكرر

---

(1)النحل الآية 126

(2)الكشاف المصدر السابق - م2، ص435

(3)البقرة الآية193

(4)تفسير ابن كثير - المصدر السابق م1 - ص228

(5)التحرير والتنوير -المصدر السابق - ج 1،ص 211

(6)التوبةآية36

(7)روح المعاني -المصدر السابق - م 4- ج 17،ص 113

لفظتي القتال وصيغة الجمع مرتين في الطرفين المتقابلين ،والأمر بمطابقة المشابهة في رد الفعل واضح في صيغة فعل القتال في صدارة هذه الجملة التشبيهية (وقاتلوا)،الذي يأمر المسلمين أن يقاتلوا المشركين :{{جميعا مؤتلفين غير مختلفين}}(1)،كمايفعل المشركون نفس الفعل معهم.

لاحظنا من خلال ما تقدم من أمثلة أن طلب المشابهة يتم بواسطة تكرار نفس اللفظ الذي يؤدي نفس المعنى؛أي تطابق في اللفظ والمعنى معاً،وإلى جانب هذه النماذج تصادفنا نماذج أخرى يكون فيها طلب المشابهة مقتصراعلى اللفظ دون المعنى،وهذاما ستتعرف عليه من تناولنا لبعض نماذج هذا الصنف.

يتمثل هذا الصنف في الحالات المتبقية من حالات التشابه الطلبي،ويتشكل هو الآخر في ألفاظ مختلفة يكون فيها الطرف الأول يختلف عن الطرف الثاني ، ويتطابق معه معنى ؛ فمن أمثلة ذلك قوله تعالى :[[واذكروه كما هداكم]](2).من الواضح في نص هذه الجملة التشبيهية أن الذّكْر- وهو الطرف الأول - يختلف لفظا عن الطرف الثاني ،وهذه ميزة هذا النوع عن غيره من الأنواع السابقة. ولكن إذا نظرنا إلى المعنى الذي تؤديه هذه الجملة التشبيهية بطرفيها (الذّكر والهداية)،لوجدناه واحداً ،سواء كان ذلك تقييدا للطرف الأول،على أنه هو المشار إليه بلفظة الهداية في الطرف الثاني ،كما جاء في التفسير:{{ والتشبيه لبيان وإفادة التقيد}}(3)ويكون المعنى:{{أي أذكروه على ذلك النحو ولا تعدلوا عنه}}(4)أو:{{...اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه لاتعدلوا عنه}}(5).أو كان ذلك في مطلق الهداية،وتكون المشابهة في ذلك من أجل التسوية، وعليه يكون:{{قوله (كما هداكم) تشبيه للذّكر بالهدى وما مصدرية ومعنى التشبيه في مثل هذا المشابهة في التساوي}}(6)وبناءً على هذا يكون قياس المشابهة في الحسن،ويكون معنى الجملة التشبيهية: {{أي أذكروه ذكرامساويا لهدايته إياكم}}(7)أو{{اذكروه ذكراحسنا كما هداكم هداية حسنة}}(8).إذاً فالتطابق في المشابهة واضح في المعنى بالرغم من الإختلاف اللفظي في الطرفين المتقابلين.

وللزيادة في توضيح هذا الصنف من التشابه الطلبي ندرج قوله تعالى:[[فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون]](9).فالذكر هنا يختلف لفظا عن العِلْم، ولكن هل يتفق معه في المعنى أويتحد؟إذا

---

(1)مجمع البيان - المصدر السابق - م3. ج10 ص57

(2)البقرة الآية 197.

(3)(4)روح المعاني - المصدر السابق - م 1 ج 2 ص 88

(5)الكشاف - المصدر السابق م 1 ص 349

(6)(7)التحرير والتنوير -المصدر السابق -ج 1 ص 242

(8)الكشاف - المصدر السابق -ج 1 ص 349

(9)البقرة آية 238

أخذنا بالرأي القائل بأن(الذكر)بمعنى الشكر على أساس أن معنى الجملة التشبيهية:{{.أشكروه على هذه النعمة في تعليمكم هذه الصلاة التي وقع بهاالإجزاء، ولم تفتكم صلاة من الصلوات وهو الذي لم تكونوا تعلمونه. فالكاف في قوله (كما)بمعنى الشكر؛ تقول:إفعل لي كما فعلت بك كذا مكافأة وشكرا، و(ما) في قوله (مالم)مفعولة عَلِمَ(لعلمكم)...}}(1).فإن المعنى لا يكون متطابقاكلّيالأن للشكرأساليب ومعاني مختلفة لا تتحد مع ما جاء من الشرائع وكيفية الصلاة في حالتي الأمن والخوف، ولكن وجه المشابهة يبقى قائما ويمكن أن يكون في:{{...التقدير الإعتباري أي يكون الذكر بنيّة الشكر على تلك النعمة والجزاء ، فإن الشئ المجازى به شئ آخر ، يعتبر كالمتشابه له، ولذلك يطلق عليه إسم المقدار}}(2).ولكن إذا أخذنا بالرأي القائل بأن الذكر يعني مطلق العبادة في مقابل إحسان الله لعباده بتعليمهم كيفية تأدية الصلاة:{{أي اذكروه بالعبادة كما أحسن إليكم لمّا علمكم من الشرائع وكيف تصلون في حال الخوف والأمن}}(3). وهنا تكون المشابهة في مطلق الإحسان بأن يقابل إحسان الله لعباده بإحسان العباد له ، مقابلا لما جاء في قوله تعالى: [[وأحسن كما أحسن الله إليك]](4). ولكن إذا أخذنا بالرأي القائل أن العلم الذي علمه الله لعباده في كيفية تأدية الشرائع هوالذي يكون ذكرا:{{أي ذكرا مثل ما(علمكم) من الشرائع وكيفية الصلاة حالتي الأمن والخوف}}(5).وبهذا تكون المشابهة بين تطبيق هذه الشرائع قولا وعملا ،وبين ما ورد نصوصها من قواعد وأحكام ،وعلى هذاالأساس تكون المشابهة متطابقة كلية بين معنيي الذكر والعلم، وفي هذه المعاني الثلاثة المختلفة في تفسير هذه الجملة التشبيهية نجد المشابهة بين الطرفين المتقابلين متطابقة ،سواءكانت في المقدار ،أو في مطلق الإحسان ،أوفي التطبيق النصي للشرائع والأحكام .وهذا جله يعني التشابه المتطابق في المعنى دون اللفظ.

وإذا كان لابد من توضيح هذا الصنف أكثر نضيف قوله تعالى: [[يأيها الذين آمنوا كونوا أنصاراً لله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصارالله]](6).من الواضح أن هذه الجملة التشبيهية تطلب من المسلمين أن يتماثلوا مع الحواريين ، ولكن في أي شئ يكون هذا التماثل؟هل يكون في الحالة العامة بين الطرفين المتقابلين؟ كماقيل:{{أي كونوا عندما يدعوكم محمد صلى

(1) الجامع لأحكام القرآن - المصدر السابق .م 2-ج3-ص 225

(2)التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج2. ص 270 . 271

(3)الكشاف التفسير السابق - م1 - ج1. ص 140

(4)القصص آية 77

(5)روح المعاني ،المصدر السابق - م 1ج 2 ص 158

(6)الصف آية 14

الله عليه وسلم إلى نصرالله كحالة قول عيسى بن مريم للحواريين واستجابتهم له}}(1). وإذا كان الأمر بهذه الكيفية فهل تكون المشابهة متطابقة بين الحالتين أم أنها مختلفة نسبياً،تبرزفي جانب وتقل في جانب آخر؟ والتأكد من طبيعة هذه المشابهة صعب المنال، لأن نص الجملة التشبيية أساساًيحث على وقوع المشابهة، وعليه فإننا لانستطيع تحديد علاقة المشابهة لأنها لم تقع بعد ، ولهذاالسبب فهناك اختلاف في الآراء حول تحديد طبيعتها : فمنهم من يرى أن المشابهة مطلوبة بين معنى القولين :{{.. إذ المراد قل لهم ذلك كماقال عيسى}}(2)،ومنهم من يرى بأن المشابهة واقعة بين القولين والموقعين معا:{{إذ المراد قل لهم كماقال عيسى وكونوا أنصاراكما كان الحواريون حين قال لهم عيسى من أنصاري إلى الله}}(3). وعلى أيٍّ نعتمد من هذه الآراء فالمشابهة المطلوب تحققها بنص الجملة التشبيهية تكون متطابقة في كل من الطرفين المتقابلين(عيسى بن مريم والحواريون - ومحمد صلى الله عليه وسلم والمسلمون)،والذي نؤكده في هذاالمثال أن المطابقة واقعة في المعنى دون اللفظ ، وأن طلب المشابهة بيِّن وصريح بنص الأمر في فاتحة الآية .

وإذا كان الإتفاق في المعنى دون اللفظ في الأمثلة السابقة يتميز بطابع الصراحة في السياق النصي لكل جملة تشبيهية، فإنه في أمثلة أخرى يتميز بطابع الحذف؛ وذلك بأن يحذف أحد الطرفين ليدل عليه الطرف الثاني،ونمثل لذلك بقوله تعالى:[[يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين]](4)، فلفظة (الحظ) المخصصة للأنثيين دلت على اللفظة المحذوفة وهي النصيب أو الحظ المخصص للذكر كما ورد في نص الآية ، وإذا بحثنا عن أوجه المطابقة التي تحت الجملة التشبيهية على تطبيقها لوجدناها تتمثل في الحكم العددي الذي يجب أن يتساوى عند الذكر والأنثيين ؛ فنصيب الذكر يجب أن يكون مضاعفا كمّا بقيمة ما هو موجود عند الأنثيين فـ :{{المراد تضعيف حظ الذكر من الأولاد على حظ الأنثيين}}(5)،ونجد الأمر نفسه ينطبق على قوله تعالى: [[وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين]](6) إذاً فنصيب الذكر وهو (الحظ) يقابل كماً نصيب الأنثيين ويطابقه تماما.

لاحظنا في هذين المثالين أن اللفظة الثانية هي التي تذكر لتدل على اللفظة الأولى وتطابقها في

---

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج27 - ص 199 .

(2)التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 27 - 199

(3)تفسير القرآن العظيم - البيضاوي - دار الفكر بيروت لبنان - ج 28 ص 73

(4) النساء - الآية11

(5)التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج4 -ص257

(6)النساء - الآية 175

المعنى وتختلف معهالفظاً.ونلاحظ في أمثلةأخرى خلافالذلك.إذ يصرح فيها بالطرف الأول ويحذف الطرف الثاني ليعوض بأداة من أدوات الإشارة . وللتمثيل لذلك نأخذ قوله تعالى : [[إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون]](1)، وكذا قوله عز وجل:[[لا تضار والدة بولدهاولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك]](2).ففي المثال الأول نجد أن الطرف الأول معلوم عن طريق التصريح به، سواء كان ذلك مجملا في عبارة (الفوز العظيم).أو مفصلا فيما سبق من نعيم الجنة الذي تحدثت عنه الآيات السابقة لهذه الجملة التشبيهية ،وأماالطرف الثاني فإنه عُوِّض بأداة الإشارة (ذا)التي أشارت إلى الطرف الأول ليكون هو عينه البديل المماثل الذي يجب أن ينكرر مرتين عن طريق العمل(فليعمل العاملون).وعليه يكون المعنى:{{أي لمثل هذاالثواب و الفلاح فليعمل العاملون في دارالتكليف. وقيل أن هذا من قول الله تعالى.أي لمثل هذاالنعيم الذي ذكرناه وهو من قوله لهم رزق معلوم إلى قوله بيض مكنون فليعمل العاملون. هذا ترغيب في طلب الثواب بالطاعة .أي من كان يريد أن يعمل لنفع يرجوه فليعمل لمثل هذاالنفع العظيم}}(3).إذاً فالترغيب يمثل الجانب الذي يطالب بتحقق التشابه لكي تتحقق نفس النتيجة إذاتحقق نفس العمل.وهذا يعني أن المشابهة يجب أن تكون أولاً في طبيعة العمل الذي يؤدي إلى الحصيلة التي ذكرت بصفتها طرفا بارزاًأشارت إليه أداة الإشارة (ذا)وحلّت محله لتكون طرفا ثانيا.وعليه فإن المشابهة المطلوبة تكون واقعة في المعنى دون اللفظ المصرح به في سياق الجملة التشبيهية .

ولا يختلف الأمر هذا في المثال الثاني إذ نجد أن الطرف الأول معلوم ومصرح به في سياق الجملة التشبيهية، ولا يضر ذلك اختلاف الآراء حول تحديد طبيعته . سواء كان ذلك متمثلا في الضرر[[لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده]](4)-وهوالقريب إلى لفظةالمشابهة واللصيق بها-أو كان ذلك متمثلا في النفقة التي سبقت في بداية هذه الآية: [[وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها]](5)-وهي بعيدة عن لفظةالتشبيه-أو كان متمثلا فيهما معا؟ وفي حالة ماإذا طبقنا الإحتمال الأول يكون المعنى:{{مثل ما كان على والدالطفل من ترك المضارة}}(6).وأما إذا طبقناالإحتمال الثاني فيكون المعنى:{{أي مثل ما كان على الوالد من النفقة والرضاع}}(7).وأما إذا جمعنا بين الإحتمالين معا:{{وقيل عليه مثل ماكان على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها

(1)الصافات - الآية 61

(2) البقرة الآية231

(3)مجمع البيان - المصدر السابق - م 5 - ج 13 - ص 61

(4)(5)البقرة الآية 231

(6)(7)مجمع البيان - المصدر السابق - م1-ج 2-ص246

الإضرار بها وهو قول الجمهور}}(1). والذي يهمنا في هذاأن الطرف الأول مذكور،وهو الذي يجب أن يكون نفسه الطرف الثاني(في)أشارت إليه أداة الإشارة(ذا)وطالبت بتحققه الجملةالتشبيهية عن طريق الأمر بإلزام الوارث تطبيق ما هو موجود قبله)من نفقة أو رضاع أو عدم المضارة (وعلى الوارث مثل ذلك)، وهذا يؤكد قولنا السابق بأن المشابهة في مثل هذه الأمثلة واقعة في المعنى دون اللفظ ، لأن اللفظ في الطرف الثاني يختلف عنه في الطرف الأول.

ونختم هذاالعنصر من عناصرالتشابه الطلبي بحالة مغايرة للحالات السابقة ، إذ نجد أن الطرف الأول والثاني غير مُصرّح بهما لفظا بنص الآية ، ولكن أُشيرإليهما بأداة من أدوات الجرالدالة على كل منهما، فمثلا لوأخذنا قوله تعالى:[[ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة]](2)فالمثل الذي هو للنساء غير مُعرّف، كماأن المثل الذي هو للرجال غير مذكو رفي النص ، ولكن يستنتجان من خارج نص الآية وذلك عن طريق التقدير:{{أي لهن من حقوق الزوجية علىالرجال مثل ماللرجال عليهن]](3).إذاً فالجملة التشبيهيةمبنيّة على الحذف:{{فحذف من الأول لدلالة الآخر،وبالعكس وكان الإعتناء بذكر ماللنساء من الحقوق على الرجال وتشبيهه بماللرجال على النساء لأن حقوق الرجال على النساء مشهورة مسلمة من أقدم عصورالبشر، فأما حقوق النساء فلم تكن مما يُلتفت إليه أو كانت متهاونا بها ، وموكولة إلى مقدار حظوة المرأة عند زوجهاحتى جاءالإسلام فأقامها،وأعظم ماأُسّست به هو ما جمعته هذه الآية}}(4). ولكن السؤال الذي يُطرح هنابعد هذه الجمل التفسيرية هو هل تتساوى حقوق كُلٍ من الرجل والمرأة في كل شيء،انطلاقا من المماثلةالمطلوب تطبيقها في الجملة التشبيهية ؟وبمعنى آخر هل حق الرجل على المرأة هو حق المرأة على الرجل ؟طبعاإذاأخذنا بظاهرالنص فالمماثلة واحدة بينهما،ولكن إذاأخذنابمضمون كل من حق الرجل والمرأةلوجدنااختلافابيّنا، فلا يعقل أن يقدم الرجل جل الخدمات التي تقدمهاالمرأة له أو بالعكس،فقد يتفقان في بعض ويختلفان في البعض الآخر،وعليه فإن المماثلة يمكن أن تكون:{{في الوجوب لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذاغسلت له ثيابه أو خبزت له أن يفعل لها مثل ذلك،ولكن يقابله بما يليق بالرجال }}(5)

بهذاالقدرمن الملاحظات التي أبديناهاحول تطابق التشابه الطلبي بفرعيه -(في المعنى واللفظ معاأو في المعنى دون اللفظ)- ننهي حديثنا حول النوع الثاني المتعلق بنماذج التشابه الطلبي لنتطرق إلىمُعالجة

---

(1)تفسير ابن كثير - المصدر السابق - م 1 ص 284

(2)البقرة آية 227

(3)الجامع لأحكام القرآن - المصدر السابق -م2- ص123

(4)التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج2 -ص306

(5)روح المعاني- المصدر السابق -م1 - ج2-ص 134-(الحديث أخرجه الترميذي)

النوع الثالث والأخير من أنواع التشابه الذي حددناله العنوان الموالي :

النوع الثالث :التشابه الإنكاري :

ويراد به مانصت الآيات على عدم قبوله أو حدوثه.أو إمكانية ذلك على الإطلاق،وقد ورد هذاالنوع - المُنكِر للتشابه - بين الطرفين المتقابلين في القرآ ن الكريم في أساليب مختلفة ،فمنها ما جاء عن طريق الإستفهام،ومنهاما جاءعن طريق التحدي والدعاء .وستتحدث عن هذه الأساليب بالتمثيل لكل نوع بإيجاز :

أولا:الإستفهام:لقد اعتمد هذاالأسلوب على أداتين أساسيتين هما(الهمزة وهل)، وإذا تتبعنا الأداة الأولى(الهمزة)فإننانجدها قد وردت في حالات عدةحسب وضعيتهافي علاقتهاداخل السياق اللفظي، ويمكننا معالجتهافي ثلاث حالات رئيسية هي :

الصنف الأول:تأتي الهمزة فيه على النحو التالي:(أفمن)ثم يتبعها تفصيل لحالة هذاالعاقل الذي دلت عليه (من)ثم تتبعها مباشرة لفظة (كمن)التي تتكون من أداة التشبيه (الكاف) مقترنة بـ(من)الطرف الثاني من عنصري التشابه،والأمثلة من هذاالنوع كثيرة ومتنوعة،نكتفي بذكر بعض منها على سبيل التمثيل لاالحصر.

نورد في الأول قوله تعالى :[[أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله]](1).لقد فرقت هذه الآية بين عاقلين:الأول هوالذي اتبع(رضوان الله)،وأماالعاقل الثاني :فهو الذي(باء بسخط منالله)،وذلك عن طريق الإستفهام بالرغم من وجود أداةالشبيه (الكاف) .لأن الهمزة (أ)هنا: {{للإنكار والفاء للعطف على محذوف،والتقديرأمن اتقى فاتبع رضوان الله؛أي سعى في تحصيله وانتحى نحوه،حيثما كان يفعل الطاعات، ويترك المنكرات كالنبي ومن يسير بسيرته(كمن)أي رجع (بسخط) غضب عظيم لا يقادر قدره كائن، (من الله)بسبب معاصيه؛ كالضال ومن تدين بدينه والمراد أنهمالايستويان}}(2).وإذا بحثنا عن الدور الذي أدته هذه الهمزة داخل السياق النصي للآية ,لوجدناها قد قامت بقلب الموازين ، لأن وجودها جعل المعنى يختلف ، لأننا لوحذفناها لكان نص الآية(فمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله) وبهذا تكون المماثلة واقعة نصاً بين الطرفين المتقابلين بالرغم من اختلافهما في حقيقة الأمر،ولهذا فإن دخول الهمزة قد أفاد :{{إنكارالمماثلة المستفادة من كاف التشبيه فهو بمعنى لايستوون}}(3)، وعملية التسوية هذه تشير إلى أن الإنكار موجه إلى التشابه،وليس إلى التشبيه،لأننا نستشف من الآية رداً على من يحاول التسوية بين الطرفين السابقين:المتبع لرضوان الله،والعاصي له.والدليل في ذلك قوله تعالى:[[أهم

---

(1)آل عمران ،الآية 162

(2) روح البيان -اسماعيل حقي البروسوي - دار احياء التراث العربي بيروت - 1405 هـ - 1985 م - ط7م 2 - ج4 - ص 118 -119 -

(3)التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 4 - ص 158 .

درجات عند الله]](1)ويكون المعنى:{{أي هم مختلفو المنازل عند الله}}(2).وعلى هذا النحو يأتي الإستفهام بالهمزة في قوله تعالى :[[أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تـذكرون]](3) إذ لا تختلف طريقة الإستفهام في هذه الآية عن سابقاتها,إلا باختلاف الطرفين المتقابلين,وباختلاف الفعل المتعلق بهما,والمتمثل في فعل (الخلق)الذي نسبته الآية إلى الطرف الأول(من يخلق)ونفته عن الطرف الثاني(لايخلق),الخطاب في هذا موجه إلى المشركين :{{يقول تعالى ذكره لعبدة الأوثان والأصنام:أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة التي عددناها عليكم وينعم عليكم هذه النعم العظيمة كمن لا يخلق شيئا ولا ينعم عليكم نعمة صغيرة ولا كبيرة. يقول :أتشركون هذا في عبادة هذا ؟}}(4).وورود كاف المماثلة هنا يدل على أن عملية التسوية قد وقعت فعلا من طرف المشركين ،فعبدوها كما يعبدون الله ،فسووا بينها وبينه في الخضوع,والجملة بدون استفهام تدل على ذلك(من يخلق كمن لا يخلق),أي إقراراً منهم بهذه المساواة قولا وعملا, ثم يأتي دور الإستفهام لينكر هذه التسوية بين الطرفين(القادر على الخلق والعاجز عنه),وهو مبرز كافي لإفحام هؤلاء المشركين,إذاً{{ فالإستفهام عن المساواة إنكاري أي لا يستوي من يخلق بمن لا يخلق,والكاف للمماثلة وهي مورد الإنكاري حيث جعلوا الأصنام آلهة شريكة لله تعالى ...}}(5).

ونفس الملاحظات يمكن توجيهها إلى قوله تعالى :[[أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون]](6).إن عدم التشابه بين عمليتي:الإيمان والكفر لدى عقلاء الناس وذلك لإختلاف طبيعتهما,غير أنه يمكن أن تتساوى حالة الطرفين عند غير العقلاء منهم,ولهذا نجد الإستفهام الذي تصدّر هذه الآية يحمل طابع الإ نكار,والتعجب المصحوب بالإستهزاء والتهكم ممن يظن أن نتيجة الإنسان المؤمن تتشابه مع نتيجة الإنسان الكافر,والذي دل على وقوع هذه المشابهة أداة التشبيه(الكاف),التي توسطت هذين الطرفين المتقابلين، كما جاء هذا الإستفهام أيضا مبنيا على المنطق السليم, فبعدما طرحت الآيات السابقة لهذه الآية حقيقة الطرفين : {{يقول تعالى ذكره:أفهذا الكافر المكذب بوعد الله ووعيده,المخالف أمره ونهيه,كهذا المؤمن بالله المصدق بوعده ووعيده المطيع له في أمره ونهيه}}(7).يأتي الجواب منطقيًا أيضا بالنفي التام,انطلاقا من عدم

---

(1) آل عمران - آية 163.

(2) الجامع لأحكام القرآن - التفسير السابق -م 2 - ج 4 - ص 263.

(3)النحل الآية 17

(4)جامع البيان - المصدر السابق - م 8-ج 14 ص 92

(5)التحرير والتنوير - المصدر السابق -ج 4 ص 103

(6)السجدة آية 18

(7)جامع البيان - المصدر السابق -م 11 - ج 21 - ص 107

وجود تشابه في الأصل بين المقدمات التي طرحت في بداية الجملة التشبيهية، وهذا يجرنا إلى القول بأن الإستفهام هنا غير موجه إلى نفي التشبيه، بل هو موجه إلى نفي وجود عناصر المشابهة على الإطلاق بين الطرفين،سواء في المقدمة،أو في النتيجة، وبهذا نخلص إلى قول القائل بأن الإستفهام هنا:{{...مستعمل في إنكار المساواة بين المؤمن والكافر،وهو إنكار بتنزيل السامع منزلة المتعجب من البَوْن بين جزاء الفريقين في ذلك اليوم . فكان الإنكار موجه إلى ذلك التعجب في معنى الاستئناف البياني ... وجملة (لا يستوون)أعطت بيان من المقصود من الإستفهام }}(1).

وإذا كان الإستفهام بالهمزة في الحالات السابقة مصرح به لفظا ومعنى، فإننا نجده في حالات أخرى غير مصرح به لفظا، بل يفهم من سياق الكلام، ومثال ذلك قوله تعالى:[[مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم]](2)من الواضح أن جملة(كمن هو خالد في النار)تحتاج إلى تقدير استفهام، ولكن بمن يتصل هذا التقدير؟أيتصل بالجنة مباشرة ؟فيكون التقدير كما قال أحدهم :{{ وقوله(كمن هو خالد في النار) يقول تعالى ذكره : أمن هو في هذه الجنة التي صفتها ما وصفنا، كمن هو خالد في النار،وابتدىء الكلام بصفة الجنة، فقيل: مثل الجنة التي وعد المتقون ولم يقل أمن هو في الجنة، ثم قيل بعد انقضاء الخبر عن الجنة وصفتها(كمن خالد في النار)وإنما قيل ذلك استغناء لمعرفة السامع معنى الكلام ،والدلالة قوله:(كمن هو خالد في النار)على معنى قوله:(مثل الجنة التي وعد المتقون) }}(3) أم يكون التقدير عائدا على الإستفهام السابق لهذه الآية كما قيل:{{ وقوله(كمن هو خالد في النار) كلام مستأنف مقدر فيه استفهام إنكاري دل عليه ما سبق من قوله (أفمن كان على بيّنة من ربه كمن زيّن له سوء عمله)والتقدير:أكمن هو خالد في النار}}(4).وإذا مِلنا إلى التقدير الأول، لكونه يتميز بالمعنى المباشر فإننا نميل إلى التقدير الثاني في كونه يبين نوعية الإستفهام المقدر وهو(أفمن) قياسا على صيغ الإستفهام في الأمثلة السابقة، حيث تأتي لفظة(كمن)دالة على صيغة الإستفهام(أفمن)ومعبرة عنها،إذاً فلفظة الإستفهام(أفمن) دل عليها معنى أحوال أهل الجنة التي سبقت أحوال أهل النار،فإنكار التشابه واضح في معنى الآية مؤكد بلفظة(كمن)، والأمثلة حول هذا الصنف الأول لا تخرج عن طريقة النماذج السابقة ،ولذا فإننا نتركها لنتطرق إلى معالجة نماذج الصنف الثاني.

(1)التحرير والتنوير ـالمصدر السابق ـج 21 ص 231

(2) -محمد - آية 16

(3) جامع البيان - المصدر السابق -م13 -ج- 26-ص50

(4) التحرير والتنوير- المصدر السابق - ج 26ص 94-95

الصنف الثاني تبرز حالات الهمزة (أ)فيه بهذاالنسق(أم)لتستفهم عن طريق إنكار ما تستفهمه،ومن أمثلة هذاالصنف نذكرقوله تعالى:[[أم تريدون أن تسألوارسولكم كماسئل موسى من قبل]](1)ونذكرمنهاأيضا قوله عزوجل:[[أم نجعل الذين آمنوا وعملواالصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار]](2).

إذاتناولناالآية الأولى وتساءلنا عن طبيعة الإستفهام الموجود فيهالوجدنااختلافافي الآراءحول تحديدها،فمنهم من اعتبرالعطف دون الإستفهام على أساس أن{{..(أم)المنقطعةبمعنى بل،أي بل تريدون}}،(3)ومنهم من أكد هذاالمعنى- معنى العطف - ولكن ربطه بمعنى الإستفهام على اعتبار أنه خاصية من خاصياته وذلك لأن:{{(أم)حرف عطف مختص بالإستفهام وما في معناه..}}(4).ومنهم من أكد ولكن بمعنيين معا،معتمدا في ذلك على اختلاف آراء النحاة حول تفسير الطبيعة(أم)في الكلام:{{...فقال بعض البصريين :هي بمعنى الإستفهام مستقبل منقطع من الكلام، كأنك تميل بهاإلى أوله كقول العرب :إ نها الإبل يا قوم أم شاء، ولقد كان كذاوكذا،أم حدس نفسي..}}(5).والذي يتبين من هذه الآراء أن(أم)أفادت الإستفهام، ولكن أي استفهام ؟ هل هواستفهام عن طبيعةالعمل؟- وهوالإرادة(أم تريدون)أم أنه استفهام المدرك لطبيعةالعمل ؟ولكنه لا يحبذ هذاالنوع من العمل،ونرى هذاالأخير هوالصواب ، لأن الله سبحانه وتعالى يعلم طبيعة وحقيقةالفعل الذي وقع من قبل السائلين الذين سألوا رسوله الكريم ، سواء كانوا مشركين حينما سألوه :{{ ..أن يأتي بالله والملائكة قبيلا عن ابن عباس ومجاهد : سألوه أن يجعل لهم الصفا ذهبا}}(6).أم كانوا مسلمين حينما كانوا يفاجئونه:{{..بالسؤال من غير روية وفكر(أن تسألوا)وأنتم مؤمنون(رسولكم)وهو في تلك الرتبة من علوالشأن، وتقترحوا عليه ما تشتهون غير واثقين بأموركم بفضل الله تعالى..}}(7).وإذاكانت طبيعة الفعل معلومة،فالسؤال الإستفهامي إذاً يحتمل وجوهاعديدة:إماللتقبيح:{{وليس قوله(أم تريدون)على الشك ولكنه يقبح لهم صنيعهم}}(8)أوللنهي:{{والمراد توصيةالمسلمين بالثقة وترك الإقتراح عليه..}}(9).ولا يخرج كل من التقبيح والنهي عن معنى الإستنكار المحذّرلكي لا تتحقق نفس الأخطاءالتي وقعت كي

---

(1)البقرة آية 107

(2)ص آية 27

(3)الجامع لاحكام القرآن - المصدر السابق - م1 - ج2- ص69-70

(4)التحرير والتنوير ـ المصدر السابق ج 1 ـ ص665 ـ 666

(5)جامع البيان ـ المصدر السابق م 1 ـ ج 21ـ ص 487 ـ 488

(6)الجامع لأحكام القرآن ـ المصدر السابق م 1 ج 2 ص 69 ـ 70

(7) روح البيان المصدر السابق - م 1 ج1-ص 202

(8)جامع البيان - المصدر السابق -م1- ج1 - ص484 -485

(9) روح البيان - المصدر السابق م 1 ـ ج 1 ص 202

لاتتحقق نفس النتيجة{{...والإستفهام الذي بعدها هنا إنكار وتحذير والمناسبة في هذا الإنتقال تامة فان التقرير الذي قبلها مراد بها التحذير من الغلط وأن يكون كمن لا يعلم }}(1).

إذاً فالأسئلة التي ألقيت على موسى تشابهت مع الأسئلة التي ألقيت من قريش على محمد صلى الله عليه وسلم،ولكن هذا التشابه المتساوي لم يكن في الألفاظ بل كان في المعنى العام الذي تحمله هذه الألفاظ ، والمتمثل في طريقة التعجيزعن طريق هذه الأسئلة،وعليه جاء أسلوب الإستفهام لينكرعلى المتأخرين نفس الفعل الذي قام به المتقدمون ،والتحذير كما جاء في التفسير يكون في النتيجة مهما اختلفت مقدماتها:{{ ... فتأويل الكلام:أتريدون أيها القوم أن تسألوا رسولكم في الأشياء نظير ماسأل قوم موسى من قبلكم فتكفروا إن منعتموه في مسألتكم ما لا يجوز في حكمة الله إعطاؤكموه ،أو تهلكوا إن كان مما يجوز في حكمته عطاؤكموه فأعطاؤكموه ثم كفرتم من بعد ذلك ،كما هلك من كان قبلكم من الأمم التي سألت أنبياءها ما لم يكن لها مسألتها إياهم ،فلما أعطيت كفرت فعجلت بالعقوبات لكفرها بعد إعطاء الله إياها سؤلها}} (2)

وما يلاحظ هنا في هذا المثال أيضا أن الإستفهام الإنكاري غير مباشر،والذي جعله كذلك زمن المضارعة من الفعل (تريدون)،لأن الإرادة يمكن أن تكون قد تحققت،أو أنها مازالت لم تتحقق بعد ،ولهذا رأينا تأويلات عديدة لهذا المعنى قيبا سبق)إضافة إلى هذا أسلوب التحذير والتخويف الذي أفادته (أم)في موقعها داخل سياق الآية بصفتها ـكما تقدم ـ حرف عطف إستفهامي،ولعل هذا ما نلمسه في التعبير البياني في الآية الثانية ،حيث نجد الكلام فيها جاء ردا على اعتقاد سابق يؤمن بمشابهة الأطراف المتقابلة (المؤمن مع الكافر)و(المتقي مع الفاجر).ولهذا يمكن اعتبار:{{(أم)منقطعة أفادت إضماراً انتقاليا في الإستدلال على ثبوت البعث،وبيان لما هو من مقتضى خلق السماء والأرض بالحق بعد أن سيق ذلك بوجه الإستدلال المجملي وقد كان هذا الإنتقال بناءعلى مااقتضاه:(ذلك ظن الذين كفروا)...}}(3).والردعلى هذا السؤال كما هو معلوم يأتي إما بالقبول أو بالرفض،والذي عليه الحال في هذه الآية هو الرفض،ولكنه ليس رفضا عاديا،بل إنه يتميز بطابع الإستفهام المقدر بعد(أم)لأن هذه الأخيرة:{{منقطعة بمعنى بل}}(4).وتقدير الإستفهام يكون بحرف الهمزة(أ)،وعليه يكون المعنى:{{أي بل أنجعل المؤمنين المصلين في الأرض(كالمفسدين في الأرض) بالكفر والمعاصي أي نجعلهم سواء...(أم نجعل المتقين كالفجار)أي كما لا نجعل أهل الإيمان والعمل الصالح الذين هم مظاهر صفات لطفنا وجمالنا كالمفسدين الذين هم مظاهر صفات قهرنا وجلالنا كـــذلك لا

---

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 7ص 665 - 666

(2)جامع البيان - المصدر السابق - م1 - ج1 - ص 484 - 485

(3)التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 23- ص 249

(4) روح البيان - المصدر السابق -م8-ج23- ص 24

نجعل أهل التقوى كالفجار}}(1).إذ يتبين لنا من خلال ما تقدم أن الإستفهام في هذه الآية بشقيها (المؤمن والكافر،والمتقي والفاجر)أفاد معنى إنكار التشابه والتساوي، ولم يفد إنكار التشبيه، كما يبدو من خلال أداة التشبيه الكاف(كالمفسدين،وكالفجار)لأنه يخضع للمعنى العام في سياق الآية الذي يتمثل في :{{إنكار أن يكونوا سواء في جعل الله،أي إذا لم يجاز كل فريق بما يستحق على عمله فالمشاهد في هذه الحياة الدنيا خلاف ذلك فتعين أن يكون الجزاء في عالم آخر وهو الذي يسلك له الناس يوم البعث}}(2).

وفي هذا الطرح تبرز القاعدة المنطقية التي تبني نتائجها على المقدمات؛ فبما أن الأعمال غير متساوية، فالنتيجة تكون غير متساوية ؛وهذه القاعدة لمسناها ونلمسها في جل نماذج التشابه المشتملة على أدوات الإستفهام الإنكاري، وبخاصة التي تتكلم عن الفروق بين العمل والجزاء الذي يتعلق بالمسلمين والكافرين، ولعل المثال الموالي يوضح لنا هذه العملية المنطقية أكثر،ففي قوله تعالى:[[أم جعلوا الله شركاء خلقوا كخلقه]](3).نجد أن أداة الاستفهام(أم)أفادت أن الفعل الذي جاء بعدها لم يحدث بعد،وهو فعل الجعل (أم جعلوا)، وهذا يتفق مع ما جاء في التفسير:{{...فالمعنى:لو جعلوا لله شركاء يخلقون كما يخلق الله لكانت لهم شبهة في الإغترار واتخاذهم آلهة}}(4) هذا المعنى لا يبتعد في تأكيد وقوع فعل الجعل(أم جعلوا)عن الاستفسار الإستفهامي:{{أي هل جعل هؤلاء الكفار لله شركاء في العبادة خلقوا أفعالاً مثل ...خلق الله تعالى}}(5).ولكن كما هو معلوم أن هؤلاء المشركين جعلوا فعلا لله شركاء في العبادة، هذا إذا اعتبرنا(الجعل)بمعنى الإعتقاد، ويكون بذلك المعنى:{{...يعني هذه الأشياء التي زعموا أنها شركاء لله ليس لها خلق يشبه خلق الله حتى يقولوا أنها تشارك الله في الخالقية فوجب أن تشاركه في الإلهية ، بل هؤلاء المشركون يعلمون كالضرورة أن هذه الأصنام لم يصدر عنها فعل البتة ، ولا خلق ولا أثره ، وإذا كان الأمر كذلك كان حكمهم بكونها شركاء في الإلهية منفيا}}(6). ولكن إذا اعتبرنا(الجعل) بمعنى الخلق والإبداع فإن المعنى يختلف . ونتأكد بأن هؤلاء المشركين كانوا عاجزين على أن يبدعوا آلهة تستطيع أن تخلق مثل ما خلق الله ، وعليه يصح المعنى السابق :{{لو جعلوا لله شركاء يخلقون كما يخلق الله}}(7)

---

(1)روح البيان - المصدر السابق - م 8 - ج 23- ص 24

(2)التحرير والتنوير - التفسير السابق -ج23- ص 249

(3)الرعد - آية 16

(4)التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج13-ص 135

(5) مجمع البيان - المصدر السابق - م 4 - ج 13 - ص 160

(6) التفسير الكبير - الرازي - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان - 1403 هـ - 1983 م - م 10 - ج 19 - ص 33

(7)التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج13-ص 115

وما داموا لم يتوصلوا إلى إنشاء مثل هذا الصنف من الآلهة ، فلا يحق لهم أن يجعلوها شريكة لله ، وبهذا يكون الإستفهام بالهمزة في اتصالها بالميم(أم)في هذه الآية قد أدى معنى الإستنكار المبني على عدم تشابه الطرفين في عملية الخلق ،وبالتالي فهم لا يتشابهون في عملية العبادة والتقديس، وهذا يقترب من معنى قول القائل:{{أخَلَقَ أوثانكم ،التي اتخذتموها أولياء،كخلق الله فاشتبه عليكم أمرها فيما خلقت وخلق الله،فجعلتموها شركاء من أجل ذلك،أم إنّما بكم الجهل والذهاب عن الصواب}}(1)ونلمس أيضا في هذا التعبير القرآني طابع السخرية والتهكم لأن الآية تنكر عن المشركين فعلاً لاَولن يستطيعوا فعله على الإطلاق ، ولهذا قيل إن الإستفهام الإنكاري في هذه الآية :{{ ... مستعمل في التهكم والتغليط}}(2)،وذلك تهكما بتفاهة عقول المشركين،وتغليطا لهم في إمكانية تشكيلهم آلهة تخلق خلقا يشابه، ويطابق خلق الله فيحق لهم بعد ذلك عبادتها مثلما يعبدون الله، وما داموا لم يتوصلوا إلى ذلك فلا يشابهونها في العبادة بالله،ويعد : {{هذا من تمام الإحتجاج}}(3)والذي نخلص إليه بعد هذا كله أن الخطاب في الآية موجه إلى المشركين عن طريق الإستفهام الإنكاري الذي ينكر عليهم أن يجعلوا لِلّهِ شركاء وهم يعلمون أنهم ضعاف لا يخلقون أي شيء ، فما بالهم بخلق يضاهي خلقه تعالى، ورغم هذا فهم يعبدونهم ويتّبعون أهواءهم، فالتهكم والسخرية واضحتان في معنى الآية .

وعلى غرار ما تقدم يمكننا معالجة الإستفهام الإنكاري بأداة الهمزة المتصلة بالميم(أم)في مثل قوله تعالى:[[أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات]](4)وقوله عز وجل: [[أم هل تستوي الظلمات والنور]](5)،لأن عدم وجود المشابهة بين الطرفين المتقابلين في هاتين الآيتين يستوجب عملية الإستنكار على من حاول أن يشابه ويساوي بينهما،فمرتكب السيئات لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتشابهوا مع المؤمنين الذين يعملون الصالحات، كما أن الظلمات لا تتشابه شكلا أو مضمونا مع النور، ولهذا فلا يعقل أن يتساوى من كان في ظلمات الكفر بمن كان في نور الإيمان،فالإستفهام الإنكاري في المثال الأول موجه إلى الإعتقاد الذي دار ويدور في خلد الكثير من مرتكبي السيآت،ومفاده أنهم يتساوون وغيرهم من المؤمنين العاملين الصالحين، ولذا قيل بأن:{{(أم)منقطعة ومعنى الهمزة منها إنكار الحسبان}}(6)

(1)جامع البيان ـ المصدر السابق ـ م 8 ـ ج 13 ـ ص133

(2)التحرير والتنوير ـ المصدر السابق ـ ج 13 ـ ص 155

(3)الجامع لأحكام القرآن ـ المصدر السابق ـ م 5ـ ج5 ـ ص304 ـ

(4)الجاثية آية 20

(5)الرعد آية ـ 17.

(6)الكشاف ـ المصدر السابق ـ م3ـ ص511.

إن الإستفهام الإ نكاري في هذاالمثال لم يختلف عن النماذج السابقة من الناحية الأسلوبية ،حيث تتصدر (أم)الكلام،ثم يأتي الطرف الأول،وبعده تأتي أداة التشبيه متصلة بالطرف الثاني،ولكن الأمريختلف قليلا في المثال الثاني،إذنجد أداتين استفهاميتين(الهمزة في أم وأداة الإستفهام في هل).وكذلك نجد فعل التساوي - وهو الموضوع الذي يختلف فيه الطرفان - متواجدابعد أداتي الإستفهام،وفي الأخير نجد الطرفين المتقابلين متتالين بدون أي فارق لفظي يفصل بينهما،ولعل تفسير هذا يعود إلى الفارق البيِّن بين الكفر والإيمان،ولهذااستخدمت أداتان استفهاميتان لتبيان عمى وضلالة من يرى أدنى وجه شبه بين هذين العنصرين،وعليه يكون المعنى:{{أي هل يستوي الكفر والإيمان أوالضلالةو الهدى والجهل والعلم }}(1). والإستفهام هنا لا يحتاج إلى جواب ،لأن الجواب أوضح من الشمس ،وبالتالي فهو إستفهام إنكاري ممزوج بالسخرية والتهكم.

وإذا كانت همزة الإستفهام في الأمثلة السابقة قد اتصلت إما(بمن)أو بالميم(أم)،فإننانجدهافي أمثلةأخرى قداتصلت بالفعل مباشرة ،سواء كان ماضياأو مضارعا،وأفادت في كلٍّ معنى الإنكار،ويمكن أن نمثل لذلك بمثالين :الأول في قوله تعالى :[[أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر،وجاهد في سبيل الله]](2)،والثاني في قوله عز وجل:[[أفنجعل المسلمين كالمجرمين]](3). يفيد فعل(الجعل)في المثالين - بصيغتيه الماضية والمضارعة معنى التسوية،وإذا تناولناالمثال الأول فإننا نجد أن:{{ظاهر هذه الآية يقتضي أنها خطاب لقوم سووا بين سقايةالحاج وعمارةالمسجد الحرام، وبين الجهاد والهجرة}}(4) أو أنهم جعلوا:{{...أصحاب سقاية الحاج ،أو أهل سقاية الحاج مثل من آمن بالله وجاهد في سبيله}}(5).وفي هذه التسويةالمماثلةإجحاف في حق طبيعة الطرفين المتقابلين، ولذاجاء الإستفهام بالهمزة المقترن بفعل الجعل(أجعلتم)شديد اللهجة:{{وهذا توبيخ من الله تعالى في ذكره لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت}}(6).وهذاالتوبيخ يعني عدم الرضا والقبول بهذه التسوية القولية التي صرَّح بها هؤلاء في تفاخرهم، وعليه يكون الإستفهام هنا بمعنى الإنكار لا بمعنى التساؤل الذي يطلب جوابا،لأن عملية التسوية بين الطرفين وقعت وانتهت، وما دامت هذه التسوية تفتقرإلى وجود عناصرالإلتقاء التـي

(1) مجمع البيان - المصدر السابق - م 4-ج13 - ص 160 -

(2)التوبة آية - 19.

(3)القلم ،آية 35.

(4)التحرير والتنوير - المصدر السابق ج10، ص 142 - 146

(5)الجامع لأحكام القرآن - المصدر السابق - م4 - ج8

(6) جامع البيان - المصدر السابق - م 6 - ج 10 - ص 94. 96

تتشابه فهي باطلة من أساسها:{{أي لا يستوي العملان مع العملين ولا عاملواهنين العملين بعاملي ذينك العملين}}(1).

إذا قلنا في المثال الأول أن التسوية قد وقعت فعلا وأكدتها صيغةالماضي من الجعل(أجعلتم)،ثم أدخلت همزة الإستفهام لتنكر هذه العملية ، فتتساءل الآن : هل حدث ذلك مع المثال الثاني حيث تكون صيغة فعل (الجعل)مضارعة؟وإذا كان الأمر كذلك فإنهاتفيد زمن المستقبل الذي سيكون في الآخرةوعليه يصح تفسير المعنى بهذه الشاكلة:{{أفنجعل أيهاالناس في كرامتي ونعمتي في الآخرة الذين خضعوا إليَّ بالطاعة، وذبوا إليَّ بالعبودية ، وخشعوا لأمري ونهيي ، كالمجرمين اكتسبواالمآثم ، وركبواالمعاصي وخالفواأمري ونهيي؟ كلاَّ مَااللَّهُ بفاعل ذلك}}(2). وإذااستوى الأمر بهذه الكيفية ،فإن الآية نفت عملية التساوي التي ستحدث في المستقبل دون أن تقع في الماضي، كما حدث في المثال الأول، ولكن الذي يبدو من همزة الإستفهام أنها قد أفادت الإنكار،والإنكار يكون إماالحدث قد وقع فعلا أو سيقع،أو لاعتقاد ساد في الماضي أو سيسود في المستقبل. وهنا يمكن الإعتماد علىالتفسير القائل بأن :{{الهمزة للإستفهام الإنكاري فرع إنكارالتساوي بين المسلمين والكافرين على منسيق من اختلاف جزاء الفريقين ، فالإنكار متسلط على ما دار بين المشركين من القول عند نزول الآيةأو عند نزول ما سبقها من آي القرآن التي قابلت بين جزاء المؤمنين وجزاءالمشركين كمايقتضيه قوله صريحاقوله(مالكم كيف تحكمون)إلى قوله(مالكم لا تحكمون) ...}}(3).إذاً فالإستفهام هنا جاء بناء على ما قاله المشركون في الماضي:{{ذلك أنهم كانوا يقولون إن كان بعث وجزاء كمايقول محمد فإن حالنا يكون أفضل في الآخرة كما في الدنيا}}(4).ولذا فإننا نجد الإستفهام هناأيضا شديد اللهجة في الإستنكار لاحتوائه على التوبيخ. ويدل على ذلك قوله تعالى:(مالكم كيف تحكمون)ففي:{{هذا تهجين لهم وتوبيخ ومعناه أي عمل يحملكم على تفضيل الكفار حتى صار سببا لإصرار كم على الكفر ولا يحسُنُ في الحكم لتسويةٍ بين الأولياء والأعداء في دار الجزاء ...}}(5).

بهذاالقدر من النماذج التي سقناها للإستفهام الإنكاري بأداة الهمزة(أ) ننتقل الآن إلى معالجته من خلال أدواته وهي :(هل).لقد برزت هذه الأداة - في إنكارالتشابه - في أساليب متنوعة تكررت جلها حول إنكار الإستواء بين الطرفين المتشابهين ، وأغلبها ورد ما بين صيغتي الأمر والمضارعة مع تغيرفقط في

---

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج10 - ص 142 - 146

(2) جامع البيان - المصدر السابق - م14 - ج 29 - ص 36 - 37

(3) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 22 - ص 91

(4) مجمع البيان - المصدر السابق - م6 - ج29 - ص 32

(5) المصدر نفسه - م6 - ج 29 - ص 32

في الفاعلية .نذكر من ذلك قوله تعالى:[[قل هل يستوي الأعمى والبصير]](1).ومثله كذلك قوله عز وجل - مع تغير في الطرفين فقط - :[[قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون]](2).

تطرح الآيةالأولى تساؤلا يتطلب جوابا بديهيا لا يختلف فيه إثنان ,لأن الأعمى لا يستوي مع البصير فسيولوجيا,ولكن لِمَ هذاالتساؤل مادام الجواب واحدا ومعروفا؟إن في المسألة كما قيل وجهين : رأي يرى أن الكلام في الآية يفسر تفسيرامجازيا,أي أن الأعمى هوالكافر,والبصير هو المؤمن,فيكون معنى الآية :{{ قل لهم يا محمد : هل يستوي الأعمى عن الحق والبصير به. والأعمى هو الكافرالذي قد عمي عن حجج الله فلا يتبينها فيتبعها,والبصير:المؤمن الذي قدأبصرآيات الله وحججه فاقتدى بهاواستضاء بضيائها}}(3). وإذاأخذنا بهذاالمعنى المجازي في التعبيرالموجود في نص الآية على أساس أن المشبه محذوف والمشبه به مصرح به :{{ وذلك لأن العمل بغيرالوحي يجري مجرى عمل الأعمى, والعمل بمقتضى نزول الوحي يجري مجرى عمل البصير}}(4). فإن الكلام يكون على سبيل الإستعارة التصريحية ,وأماالرأي الثاني فيرى أن الإستفهام في هذه الآية يتطلب كلاما موازيالهذه المقدمة التي جوابهامعروف وهو النفي, ويكون هذا الكلام في تقدير معنى:{{أي كما لا يستوي الأعمى والبصير كذلك لا يستوي المؤمن والكافر}}(5).وإذاأخذنا بهذا المعنىالمؤَوَّل فإن الكلام يكون فيه على أساس التشبيه ,لأن :{{ ... نفي التسوية بين الحالين يتضمن تشبيها بالحالين وهذا من صيغ التشبيه البليغ}}(6) والذي يمكن قوله هناأن الإستفهام قد أفادأولا وقبل كل شيء النفي, ولكن أين نلتمس فيه صيغة الإنكار ؟قلنا فيما سبق أن الإنكا ر يكون إمالحدث وقع أو سيقع قولا أو فعلا,أو لاعتقاد ساد في الماضي أو سيسود في المستقبل,ومن هذاالمنطلق يمكن القول:أن عملية المفاضلة بين المسلمين والمشركين ,كانت ولا تزال قائمة, لأنه لولا هذه المفاضلة لما كان أحد الطرفين في جانب والآخر في جانب وكل منهماينظرإلى نفسه على أنه أفضل من صاحبه . وبخاصة إذا ربطنا هذا بكفار قريش لأن الأمر يكون واضحا, فلو كان مشركو قريش يعترفون بأفضلية المؤمنين عليهم لآمنواجميعا,ولكن هذا لم يحدث في ذلك الوقت ظنا منهم أنهم أحسن حالا وأفضل في الدنيا والآخرة, وقد مرّمعنا هذا فيما سبق, وعلى هذاالأساس جاءت هذه الآية وغيرهالتنكر عليهم هذاالإعتقاد عن طريق التساؤلات المنطقيةالمفحِمَة

(1)الأنعام آية - 51 - الرعد - آية 17.

(2) الزمر آية 10.

(3) جامع البيان - المصدر السابق - م5 - ج 7 - ص 129

(4) التفسير الكبير - المصدر السابق - م6 - ج 12 - ص 143

(5) مجمع البيان - المصدر السابق - م4 - ج 13 - ص 160

(6) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج13 - ص114

بمقدماتهاونتائجها.وعليه نوافق القول القائل في تفسيرالآية بأن:{{..الاستفهام إنكاري والمراد إنكار استواءمن لايعلم ما ذكر من الحقائق ومن يعلمهامع الإشعار بكمال ظهورها والتنفيرعن الضلال أو الترغيب في الإهتداء، وتكريرالأمر لتثبيت التبكيت وتأكيد الإلزام}}(1).

وإذا تناولنا الآية الثانية فإننا نجدها تطرح نفس الطرح البديهي، فالعالِم لا يستوي مع غيرالعالِم ، سواء كان هذاالعلم شرعيًّا عقائديًا أم ماديًا دنيويًا.وعدم المساواة قد تكون في المكانةالإجتماعية الدنيوية أو قد تكون في المكانة الأخروية بما فيهاالثواب والعقاب، لأن الذين يعملون قد يجازون بعلمهم - إن كان نافعا- في الدنيا والآخرة جزاء حسنا، وإن كان هذاالعلم غير نافع فإنهم سيجزون جزاء مماثلا لعلمهم الذي قدموه، وإذا كان الجواب بهذه الكيفية بديهيا ومعروفا، فما هوالدور الذي يؤديه الإستفهام في هذه الآية ؟إن أول دور يمكن أن يؤديه هذاالإستفهام هو تنبيه الغافل إلى حقيقة يدركها الجميع،وبالتالي فهي حجة دامغة لا ينكرهاأحد،وعليهاتبنى النتائج التي تريدالآية الوصول إليهاوهي المفاضلة بين الطرفين ،وهذا ما يتطابق مع التفسيرالقائل:{{والإستفهام للتنبيه على أن كون الأولين في أعلى مدارج الخيروكون الآخرين في أقصى مدارج الشر،من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد من منصف ومكابر...}}(2) ويرتكز هذاالتفسير على أن العلم المقصود هنا في هذه الآية هوالعلم النافع فقط في الدنيا وفي الآخرة:{{... فالعلم الحق هو المعرفة هوإدراك الحق، هو تفتح البصيرة، هوالإتصال بالحقائق الثابتة في هذاالوجود ، وليس العلم هوالمعلومات المفردة المنقطعة التي تزحم الذهن ولا تؤدي إلى حقائق الكون الكبرى ولا تمتد وراءالظاهر المحسوس}}(3).ومهما يكن من أمر تحديد مفهوم العلم هنا،فإنه يبقى يعني خلافاللجهل،ولهذا فإن الإستفهام قد أدى بعد عملية التنبيه دورًاآخر وهو النفي، سواء كان صريحا معتمدا على حقيقةالطرفين في وضوحهماأمام الناس على أساس:{{أن الإستنكاف عن الجهل مركوزأفي الطبائع خلاف الأول}}(4).أو سواء كان ذلك على طريقة التشبيه المقدر الذي يتطلبه الإستفهام جوابا له. وعليه :{{جُوِّزأن يكون الكلام وارداً على سبيل التشبيه فيكون مقررابنفي المساواة لا تصريحابمقتضى الأول،أي كما لااستواء بين العالِم وغيره من غير ريبة، فكذلك ينبغي أن لا يكون لكم ارتياب - في نفي المساواة بين الغائب المذكور وغيره}}(5).وانطلاقا من صيغتي التنبيه والنفي نستنتج أن الآية في مجملهاتريد أن تنكر اعتقاداً

---

(1) روح المعاني - المصدر السابق - م3 - ج 7 - ص 156

(2) المصدر نفسه - م3 - ج7 - ص 156

(3)في ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق - 1405 هـ.1985 م - ط 11 - م 5 - ج21 - ص 304

(4)(5) روح المعاني - المصدر السابق - م8 - ج 23 - ص 247

دار أو يدور في أذهان بعض الغافلين:وهو أنه لافرق بين العاملين بالعلم والعاملين بغيره،أو قل بين العاملين بشرع الله والعاملين بغيره من القوانين الوضعية،وبهذا يمكن التأكد من أن:{{الإستفهام هنا مستعمل في الإنكار والمقصود إثبات عدم المساواة بين الفريقين وعدم المساواة يكنى بهاعن التفضيل}}(1) وعلى شاكلةهذين المثالين يمكننا أن نتناول باقي الأمثلةالتي تأتي على منوّاليهما.

لقد قلنافي بداية حديثنا هذاأن أداة الإستفهام(هل) تأتي في غالب الأحيان في بداية الكلام، حيث تقع بين صيغتي الأمر من القول،والمضارعة من الفعل و مثلنالذلك بأمثلة، ونقول الآن بأنها قد تأتي في نفس الموقع ولكن بين صيغتي الماضي من القول، والمضارعة من الفعل،ونمثل لذلك بقوله تعالى :[[قال هل آمنكم عليه إ لاكماآمنتكم على أخيه من قبل]](2):ففي هذا المثال يمكننا الإشارة الىنفس الملاحظات السابقة إذ نجد أن نفي المشابهة بين الطرفين متواجد في تفسير معنى الآية:{{والمعنى أنكم قلتم هذاالكلام في يوسف وضمنتم حفظه حيث قلتم (وإنا له لحافظون)ثم ههنا ذكرتم هذااللفظ بعينه فهل يكون ههناأمان إلا بما كان هناك ،يعني لمّا لم يحصل الأمان هناك فكذلك لا يحصل ههنا }}(3).وما دام حفظ هؤلاء لأخيهم لم يحدث في المرة الأولى، ثم أعادوا ذكره أمام أبيهم فكان عليه لزاماأن يستنكر عليهم هذاالقول اعتمادا علىماحدث في الماضي ليوسف، وعليه نوافق التفسيرالقائل بأن :{{...الإستفهام إنكاري فيه معنىالنفي، فهو يستفهم عن وجه التأكيد في قولهم (إنا له لحافظون)...}} (4).

لاحظنا فيما سبق أن أداةالإستفهام(هل)جاءت في بداية الكلام بعد صيغتي الأمر والماضي من القول، لتنكر ما سيأتي بعدهامن تشابه بين الطرفين ،إلاأنهاتأتي أحياناأخرى في نهاية الكلام المفصل،لتنفي وتنكر أي علاقة تشابه بين الطرفين المذكورين في بدايةالآية ،فمن أمثلة ذلك ندرج قوله :[[ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا]](5).ومنه قوله عزوجل :[[ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون]] (6).من البديهي أن هاتين الآيتين تنفيان الإستواء والتشابه بين الطرفين،وذلك عن طريق الحجج والبراهين في وضعهما في الميزان العقلي،قبل أن تأتي أداةالإستفهام(هل)ليحكم بذلك العاقل والراشد على مصير كل منهما.

ونفي المشابهة في هذين المثالين مبني على عملية التشبيه كما هوالحال في الأمثلة السابقة : ففي المثال

(1)التحرير والتنوير ،المصدر السابق ـ ج 2 ص 349
(2)ـ يوسف آية64.
(3)التفسير الكبير ،المصدر السابق ـ م9 ـ ج13ص 173
(4)ـ التحرير والتنوير ،المصدر السابق ـ ج13ص 16
(5) ـ النحل آية75

الأول :نجد التشبيه واقعا في كل طرف على حده ،وذلك عن طريق تقدير المثال المضروب،فالطرف الأول مضروب لحال الكافر الذي يعبد آلهة ، وأماالطرف الثاني فمضروب لحالة المؤمن الذي يعبد إلها واحداً، ولماكانت الطريقتان مختلفتين،كان لزاماأن تختلف حالتهمافي الدنيا وفي الآخرة.ومن هناجاء الإستفهام (هل يستويان مثلا)بمعنى:{{أي هل يكون هذان المشتبهان مستويين حالاً بعد ماعلمتم من اختلاف حالي المشبهين بهما}}(1)والجواب طبعاً بالنفي،ولكن هل هذاالاستفهام جاء فقط لإثبات هذاالنفي،أم لإنكار هذه العملية من أساسها؟من الواضح أن الآية ترهيب وترغيب لأنهاقبّحت حالة الطرف الأول من الكفارالمشركين وزينت حالة الطرف الثاني من المؤمنين الموحدين،وبينت سلبيات وإيجابيات ذلك كله ، فهي بذلك أقرت وضعية حالتين موجودتين ونفت إمكانية أي تسوية بينهما، وفي الوقت نفسه أنكرت هذه العملية لعدم جواز صحتها،ولهذا قيل:{{والإستفهام في قوله (هل يستويان)يجوز أن يكون تقريرا ويجوز أن يكون إنكاريا، وجيء فيه بـ(هل)لتحقيق التقرير أو الإنكار}}(2). وكذا الأمر مع المثال الثاني فإن نفي المشابهة فيه مبني على:{{تشبيه حال بحال وقصة بقصة }}(3):أي أن المثل هنا متعلق بكلام سابق له،وهو يمثل وسيلة إيضاح لفكرة طرحت من قبل،وهي أن المشركين جعلوا لله شركاء سواء بينه وبينهم ،ولهذا قيل بأن المثل هذا:{{أعقب زجرهم عن أن يشبهوا الله بخلقه أو أن يشبهوا الخلق بربهم بتمثيل حالهم في ذلك بحال من مثل عبدا بسيده في الإنفاق}}(4) إذ أنالآية بعدما نفت المشابهة بين الحالين عن طريق الدليل المنطقي الواقعي في حياة الناس،أنكرت على من أقر هذه المشابهة بين الخالق والمخلوق في العبادة ،ولهذا قيل:{{ ...وجملة(هل يستوون)بيان لجملة(وضرب الله مثلا)فبينت غرض التشبيه بأن المثل المراد منه عدم تساوي الحالتين يستدل به علىعدم مساواةأصحاب الحالةالأولىلصاحب الصفة المشبهبالحالة الثانية والإستفهام مستعمل للإنكار.}}(5). وقد يقوم هذا الإستفهام بـ(هل)باستنكار حالتين متتاليتين في آية واحدة ،كما هو الأمر في قوله تعالى :[ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ماملكت أيمانكم من شركاء في مارزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم]](6).إن موقع أداة الاستفهام (هل) في هذه الآية كان قبل تفصيل حقيقة الطرفين -خلاف موقعها في الأمثلة السابقة -حيث فصل بينها وبين لفظة الاستواء(أنتم فيه سواء). ولعل هذافسح المجال لتتعلق بهاجملة تشبيهية أخرى متممة لمعنىالآية(تخافونهم كخيفتكم أنفسكم)، وهـــذا

(1) - التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 23 - ص402

(2) - المصدر نفسه - ج23 - ص 407

(3)روح البيان - المصدر السابق - م 5 - ج 14 - ص 59

(4)(5)التحرير والتنوير -المصدر السابق - ج 14 ص 226 -227

(6)الروم آية 27

ماخول لنا القول بأنها أي (هل) تنكر حالتين متاليتين لأن المثل هنا مبني على المشابهة ثم احتج سبحانه على عبدة الأوثان فقال(وضرب)لكم أيها المشركون(مثلا من أنفسكم)أي بين لكم شبهاًلحالكم ذلك المثل من أنفسكم،ثم بينه فقال:(هل لكم مما ملكت أيمانكم)..}}(1).ثم جاء هذاالإستفهام لينفي وينكر هذه المشابهة التي لاأساس لها من الصحة،إنطلاقا من إجابة هؤلاءعلى السؤال،وكذاإنطلاقا من المعاملات اليومية التي يعامل بها هؤلاء عبيدهم،وهي حقيقة بيّنة لايحق لهم إنكارها،وهذه الحقيقة تقوي حجة النفي والإنكار،نفي الإستواء بين الأحراروالعبيد عند الكفار، سواءفي الناحية المادية أوالمعنوية،وإنكار تسوية الخالق بالمخلوق في العبادة من طرف المشركين ، وعليه يمكن القول:أن الإستفهام هنا بـ(هل)قد أدى معنيين معا هماالنفي والإنكار.

لاحظنا في الأمثلة السابقة أن نفي المشابهة يأتي ملازما دوما للإنكار مع الأدوات الإستفهامية السابقة، فإننا نعثر عليه في أمثلة أخرى مستقلا بأدوات النفي الخاصة،وهذا ما سنتعرف عليه من خلال معالجتنا للأسلوب الموالي.

أسلوب النفي :

يتحقق أسلوب نفي المشابهة في نماذج التشابه الإنكاري بأدوات متنوعة أشهرها:(لاوليس وغير وما ولم).

أولا: النفي بلا:يمكننا تقسيم أسلوب نفي المشابهة بهذه الأداة قسمين رئيسيين ،انطلاقا مما تؤديه هذه الأداة من معنى النفي داخل سياق الآية.

فالقسم الأول : مطلق يفيد معنى العموم والشمول في النفي.

والقسم الثاني: مقيد يفيد معنى خصوصية النفي.

فمن أمثلة القسم الأول ندرج قوله تعالى: [[ولا تستوي الحسنة ولا السيئة]](2)وكذا قوله: [[قل لا يستوي الخبيث و: الطيب]] (3).إن الحسنة والسيئة في الآية الأولى لا تلتقيان إطلاقا في أي جانب من الجوانب ، لأن الأولى تمثل جوانب الفضائل، والثانية تمثل جوانب المساوي، ولـذا لا يحق أن نشابه بين الحسنة والسيئة، أو بين السيئة والحسنة على الإطلاق،ولعل هذامانلحظه في قول أحدهم: {{وأحسن من اعتبار التأكيد أن يكون في الكلام إيجاز حذف مُؤذن باحتباك في الكلام تقديره :وما تستوي

---

(1)مجمع البيان ـ المصدر السابق ـ م5. ج21 ص24

(2)فصلت آية 33

(3) المائدةآية 102

الحسنة والسيئة ولاالسيئة والحسنة فالمرادبالأولىنفي أن تلتحق فضائل مساوي السيئة،فالمراد بالثاني نفي أن تلتحق السيئة بشرف الحسنة. وذلك هو الإستواء في الخصائص وفي ذلك تأكيد وتقوية لنفي المساواة ليدل على أنه نفي تام بين الجنسين:جنس الحسنة وجنس السيئة لا مبالغة ولا مجاز...}}(1).

وكذاالأمرمع لفظتي(الخبيث والطيب).{{فالخبيث لايساوي الطيب مقدارًاولاإنفاقا، ولامكانا ولاذهابا فالطيب يأخذ جهة اليمين والخبيث يأخذ جهة الشمال،والطيب في الجنة والخبيث في النار}}(2)إذاً فالنفي عام ومطلق بين الخبيث والطيب لتباين حقيقة وطبيعة كل منهما،فعناصرالخير والطيبة تختلف عن عناصر الشروالخبث. ولذلك لا يصح مطلقا أن نربط بينهما بأي علاقة تشابهية،ولعل هذا ماأكدته أداة النفي (لا) في اقترانها مع فعل الإستواء (يستوي)، ولهذا قيل في تفسيرها:{{ومعنى(لا يستوي)نفي المساواة وهي المماثلة والمقاربة والمشابهة. والمقصود منه إثبات المفاضلة بينهما بطريقة الكناية ...}}(3).

وبهذه الطريقة يأتي معنى النفي بـ (لا)في نماذج القسم الأول، في مثل قوله تعالى:[[لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة]](4)،وكذلك قوله عز وجل:[[أجعلتم سقايةالحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله]](5). فنفي الإستواء مطلق بين أهل النار وأهل الجنة،وبين المؤمنين المجاهدين،والكفارالعاملين في سقاية الحجيج وتعميرالمسجد الحرام،وذلك لأن طبيعة العملين مختلفة،وهذايجعل مصير الطائفتين مختلفا تماما، فلا تماثل ولا تشابه إطلاقا.

وإذاانتقلناإلى القسم الثاني حيث نجد معنى الخصوص الذي أفاده النفي بـ(لا)في تتبعنالبعض أمثلة هذاالقسم،ويمكنناأن ندرج في هذاالشأن قوله تعالى:[[لايستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاّ وعد الله الحسنى]](6).فالملاحظ في هذه الآية أن نفي الإستواء فيها واقع بين طائفتين من المؤمنين (الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا والذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا)،وهذا يعني أن الأصل واحد(إيمان مقابل إيمان وقتال مقابل قتال)،ولكن الفارق الذي لا يلتقي فيه الطرفان هوالأسبقية في العمل الإيماني والجهادي،وهذا جزء خاص من الكل تُبنى عليه نتيجة خاصة - داخل الإطار الكلي العام - التي يأخذ منها نفي التسوية بـ(لا)خصوصية في الدرجة والثواب بين

---

(1)التحرير والتنوير ،المصدر السابق - ج22،ص 291

(2) الجامع لأحكام القرآن ،المصدر السابق - م 3، ج 6،ص 328

(3)التحرير والتنوير ،المصدر السابق -ج7،ص63.

(4)الحشر آية20

(5) التوبة الآية19

(6)الحديد آية10

الطرفين المتقابلين،ولذا قيل:{{ونفي التسوية مراد به نفيهافي الفضيلة والثواب،فإن نفي التسوية في وصف يقتضي ثبوت أصل ذلك الوصف بجميع من نفيت عنهم التسوية،ففي التسوية كنايةعن تفضيل أحد الجانبين وتنقيص الجانب الآخر نقصا متفاوتا}}(1). إذًا فالتخصيص في نفي المساواة واضح دل عليه السياق اللفظي المعنوي،ومن أمثلة هذاالضرب أيضا قوله تعالى:[[وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم]](2)، فنفي المماثلة هناأيضا لا يفيد التعميم، لأن هؤلاء القوم الذين هم مستخلفون الآن في الأرض، عندما يستبدلون بأقوام آخرين سيتشابهون معهم في كونهم يحملون نفس الخصائص والصفات البشرية،وهذه جوانب يتفق فيهاكل من الطائفتين البشريتين،وهذا يدل علىأن نفي المماثلة هناالغاية منه هوتخصيص أوجه الإختلاف بين الطرفين المتقابلين:{{أي لا يكونوا أمثالكم في التولي..}}(3).الذي هو جزء من بين الأجزاء التي لا يتفق فيها هؤلاء مع اولئك الذين سيأتون بعدهم. ومما يفيد خصوصيةالنفي أيضا قوله تعالى:[[لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا]](4).إن الآية تنفي استطاعة الإتيان بتركيب من الكلام يشابه ويماثل تركيب القرآن. فالإنسان يستطيع أن يتكلم بأي كلام مزخرف منمق،فيقدم ويؤخر، ويكثر ويقلل،وغيرها من أساليب الكلام المعروفة عند بلغاء العرب، ولهذا فالآية الكريمة هذه لم تنف القول إطلاقا عن هؤلاء،بل نفت المماثلة في جوانب خاصة، لا ولن يستطيع الكلام البشري مهما بلغ أقصى محاولاته أن يتوصل إليها مثل ما جاء في القرآن الكريم،ولعل هذه الجوانب كما قيل هي:{{...في مجموع الفصاحة والبلاغة والمعاني والآداب والشرائع،وهي إعجاز نواحي القرآن اللفظي والمعنوي}}(5).

إذًا فالنفي بـ(لا)هنا كذلك أفاد الخصوص ولم يفد العموم لفظا ومعنى. فهذا هو مجمل الكلام حول نفي التشابه والتساوي بأداة النفي(لا)،وهي كمابيّنا أكثر الأدوات شيوعاً في نماذج إنكارالتشابه في القرآن الكريم،إذا ما قيست بباقي الأدوات الأخرى مثل (ليس).

ثانيا النفي بليس:لم يرد نفي التشابه بهذه الأداة إلا في نماذج قليلة يمكن أن نتناول منها ثلاثة أمثلة :المثال الأول: ورد فيه نفي التشابه بين الجنسين أوبين قيمة وفضل كل من الطرفين،كمافي قوله تعالى: [[وليس الذكر كالأنثى]](6)من الواضح أن كلا من الذكروالأنثى يشتركان في الأصل البشري ويتحدان

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج27 ص375

(2)محمد آية 39

(3) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 26 - ص 139

(4) الاسراء آية 88

(5)التحرير والتنوير- المصدر السابق - ج15 ص 203

(6)آل عمران آية 36

.في كثير من الصفات الفسيولوجية ويختلفان في بعض هذه الصفات وما يتعلق بها من أعمال ووظائف،مما يجعل التفرقة بينهما واضحة،ولعل هذا المعنى الأخير هوالذي اعتمدت عليه هذه الآية في نفي المشابهة بينهم،ولكن هناك من يرى أن نفي المشابهة هنا يعتمد على الصفات المعنوية لا غير،وهذاالخلاف هو الذي أورده أحد المفسرين في قوله:{{...(وليس الذكر كالأنثى)وفيه قولان (الأول) أن مرادها تفضيل الذكر على الأنثى،وسبب هذا التفضيل من وجوه(أحدها)أن شرعهم يُجوز تحريرالذكر دون الأنثى،(والثاني)أن الذكر يصح أن يستمرعلى خدمة موضع العبادة،ولا يصح ذلك للأنثى بمكان الحيض وسائرعوارض النّسوان(أو الثالث) الذكر يصلح لقوته وشدته دون الأنثى،فإنها ضعيفة ولا تقوى على الخدمة (والقول الثاني)أن المقصودمن الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر،كأنها قالت الذكر مطلوبي والأنثى موهوبة من الله تعالى: وليس الذكرالذي يكون مطلوبي كالأنثىالتي هي موهوبة الله...}}(1).ومهما يكن من أمر تحديد أوجه الخلاف بالدقة بين الذكر والأنثى،فإن النفي ب(ليس) قد أفاد معنى الخصوص،وهذا ما جعل الإختلاف في تحديد عناصرالمفاضلة وارداً في تأويلات المفسرين لمعنى هذه الآية.

ولا يختلف الأمر في المثال الثاني من قوله تعالى:[[ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناءالليل وهم يسجدون]](2).فنفي الإستواءهناواقع بين فريقين لأصل واحد،فأهل الكتاب هم الأصل والفريقان هما : الأمة القانتة، والأمة غير القانتة الفاسقة، ولذلك فلا تشابه ولا تساوي بين أفعال هؤلاء المتقين وهؤلاء الفسقة، وإن كان مصدرهما واحداً وهو الكتاب السماوي .ولذا قيل بأن نفي المساواة هنا: {{استئناف قصد به إنصاف، طائفة من أهل الكتاب بعد الحكم على معظمهم بصيغة تعمهم تأكيداً لماأفاده قوله (منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)فالضميرفي قوله(ليسوا)لأهل الكتاب المتحدّث عنهم آنفاً،وهم اليهود وهذه الجملة تتنزل من التي بعدهامنزلة التمهيد و(سواء)اسم بمعنى المماثل وأصله مصدر مشتق من التسوية، وجملة (من أهل الكتاب أمة قائمة)إلخ مبنية لإيهام (ليسوا سواء)والإظهار في مقام الإظهار للإهتمام بهؤلاء الأمة. فالأمة هنا بمعنى الفريق}}(3)إذاً فخصوصية نفي الإستواء في الآية واضحة وضوح اختلاف طبيعة الأعمال التي يقدمها كل فريق. فأفعال الخير والصلاح لاتستوي مع أفعال الشر والفساد وهذا يتطلب عدم استواء حالة الفريقين سواء في الدنيا أو في الآخرة .

وأما عن نفي المماثلة في المثال الثالث من قوله تعالى:[[ليس كمثله شيئ]](4)يختلف فيه عن المثالين

(1)التفسير الكبير - المصدر السابق - م 4-ج 8-ص 29،28

(2) آل عمران آية113

(3)التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج4 ص 7

(4) الشورى آية9

السابقين في تحديد عناصرالإختلاف التي يستند إليها هذا النفي،إذ:{{يعتقد في هذاالباب أن الله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته وشتى أسمائه وعليّ صفاته،لا يُشبه شيئا من مخلوقاته ولا يشبّه به،وإنما جاء مماأطلقه الشرع على الخالق والمخلوق،فلا تشابه بينهمافي المعنى الحقيقي،إذ صفات القديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق، إذ صفاتهم لاتنفك عن الأمراض وهو تعالى منزه عن ذلك...}}(1). وهذا يعني أن عناصر الإختلاف عامة مطلقة،ومن هنا يكون النفي عامّا ومطلقا ومؤكدا بأداتين من أدوات التشبيه(الكاف ومثل)، خلافاً للنفي في المثالين السابقين،إذ لم نجد في كل مثال سوى لفظة الإستواء والكاف فقط، وبهذا يمكن القول بأن هذاالتأكيد في المثال ساهم في تقوية نفي المشابهة بين الطرفين المتقابلين(الله جل جلاله وأي شيئ من الأشياءالأخرى المخلوقة)، وفي تعميمهابين جميع العناصرالتي يمكن أن تتحدفيمابينها، والتي قيل في تحديد بعض منها في تفسير هذه الآية:{{ليس كذاته ذات،ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة،إلا من جهة موافقة اللفظ، وجلت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة، كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة...}}(2).

بتحليلنا لهذه النماذج رأيناأن النفي بـ(ليس)لم يخرج عن أسلوب إنكار التشابه والتساوي بصفة عامة في الأداة السابقة (لا)،وبإمكانناأن نتتبع ذلك مع الأدوات المتبقية مثل (غير).

ثالثاالنفي بغير:يبرزالنفي بهذه الأداة على نسق واحدحسب الأمثلة التي بين أيدينا،ويكون واقعا بين عنا صرالجنس الواحد، وللتمثيل لذلك نأخذ قوله تعالى:{{وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه}}(3) ففي هذه الآية إقرارللتشابه ونفي له بين أشكال وحدات الأشياء المذكورة فيها،التي على وجه إجماع أقوال المفسرين تكون في الذوق في وحدات الصنف الواحد، كالرمان مثلا على سبيل التخصيص:{{...(وغير متشابه)في الطعم مثل الرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف}}(4).من الواضح أن نفي المشابهة هنا جزئي، ولكن إذا أخذنا بالرأي القائل :أن نفي التشابه واقع بين ثمار هذه الأصناف الثلاثة(الأعناب والزيتون والرمان)على أساس أن اتحاد التشابه واقع بين أوراق هذه الأشجار الثلاثة،أي: {{ مشتبهاورقه مختلفاثمره}}(5). يكون نفي التشابه كلّيا يعتمدعلى طبيعة ثمار هذه الأنواع الثلاثة. وعلى العموم فإن الجمع بين إقرار التشابه ونفيه يعني :{{ التماثل في حالة مع اختلاف في غيرها من الأحوال

---

(1)(2) الجامع لأحكام القرآن . المصدر السابق . م 8ـج16 ص 8،9

(3)الأنعام آية100

(4)الجامع لأحكام القرآن .المصدر السابق . م 4 ج 7. ص 45

(5)جامع البيان .المصدر السابق . م 5 ج 7 ص 294

في حالة مع اختلاف في غيرهامن الأحوال،أي بعض شجره يشبه بعضا وبعضه لايشبه بعضا،أو بعض ثمره يشبه بعضا،وبعضه لا يشبه بعضا،فالتشابه مانتقارب لونه أوطعمه أوشكله مايتطلبه الناس من أحواله على اختلاف أميالهم،وعلم التشابه مااختلف بعضه عن البعض الآخرفيما يتطلبه الناس من الصفات على اختلاف شهواتهم }}(1). وهذه الإشكالية في تحديد مواطن نفي المشابهة في هذه الآية نجدها في آيةأخرى من قوله تعالى:{{وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع،ونخيل صنوان وغيرصنوان تسقى بماء واحد}}(2)نأخذهذه الآية من جانب واحدباعتبار أن(الصنو)هنايعني(المثل)وليس بمعنى الأصل المشترك للنخلتين أوالنخلات كمااقتصرفي تخريجه بعض المفسرين(+)ولهذافإننانرجح المعنى الثاني من المعنيين اللذين أوردهماأحدالمفسرين في تفسيره لهذه الآية في قوله:{{...والصنوان يكون الأصل واحدا وتنبت فيه النخلتان أوالثلاثة فأكثرفكل واحدصنو،وذكرثعلب عن ابن الأعرابي: الصنو المثل ومنه قوله صلى الله عليه وسلم(ألا إن عم الرجل صنو أبيه) أي مثله، إذا عرفت هذا فنقول:إذا فسرناالصِّنو بالتفسير الأول كان المعنى:أن النخيل منها ما ينبثق من أصل واحدشجرتان وأكثر،ومنهامالايكون كذلك وإذافسرناه بالتفسير الثاني كان المعنى:أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة متشابهة،وقد لا تكون كذلك}}(3) وترجيحنا لهذا المعنى الثاني(المشابهة أو المماثلة) له مايبرره بالآية نفسها؛ ففي جملة(ونفضل بعضها على بعض في الأكل)نجدأن المفاضلة تكون في الأكل،أي في الطعم والذوق،وأصحاب النخيل يعرفون أن النخلتين أو النخلات الملتصقة مع بعضهافي أصل واحد تكون ذات ثمر واحد،بل و ذات طعم واحد،وإن شئنا قلنا يكون موائماً لما جاءفي العلوم الطبيعية.لأن أحادية الأصل تعني أحاديةالخلية التي تتفرع عنها هذه العناصر الملتصقة مع بعضها البعض. وقد يكون النخل المتفرق يشبه بعضه بعضا في الثمار، بل في الحجم واللون والطعم،أي أنه من صنف واحد. وقد يكون هذاالصنف الواحد متشابها في الثمار من جهة الحجم واللون، ولكنه مختلف في الطعم وهذا طبعايعود إلىعوامل عدة منهاالإختلاف في التربة والأسمدة من منطقة إلى أخرى. ولكن قد يكون الإختلاف في الصنف الواحد من الثمار في الحجم واللون والطعم بالرغم من اتحادهما في الأرض والسماد والماء، وهذا ما جعلنا نرجح معنى نفي المشابهة للفظة (الصنو)في هذه الآية الكريمة على أساس أنه (أي النفي)واقع بين عناصر الجنس الواحد من النخيل.

لاحظنا ـ فيما سبق من نماذج ـ أن موقع أداة النفي(غير) يكون عادة بين لفظتي الطرفين المتقابلين

(1) التحرير والتنوير ـ المصدر السابق ـ ج7ص 401 ـ402

(2) الرعد ـ آية4

(+) ينظر تفسير التحرير والتنوير ـ المصدر السابق ج 13 ـ ص87 ـ والجامع لأحكام القرآن ـ المصدر السابق ـ م 8 ـ ج 13 ـ ص 99.

(3) التفسير الكبير ـ المصدر السابق ـ م 10 ـ ج 19ص 8-9

(فمشتبه وغير متشابه، وصنوان وغير صنوان)وهذه الوضعية قد لا تتحد مع باقي الأدوات الأخرى في مثل أداة النفي(ما).

رابعا النفي ب(ما): لقد تعلّق هذا النوع من النفي بلفظة(الاستواء) في جميع أمثلة هذا الصنف ، التي تنفي أن يكون هناك تساويا بين النقيضين المتقابلين، ويمكننا أن نمثل لهذا بقوله تعالى : [[وما يستوي الأعمى والبصير]](1).إن الملاحظ في هذه الآية هو نفي الإستواء بين الضدين(الأعمى والبصير)اللذان يمثلان نفي المساواة،فيكون النفي بين الجاهل والعالم على أساس أن الجاهل شُبِّه بالأعمى، والعَالِم شُبِّه بالبصير، أو يجوزالجمع بينها على أساس إمكانية المشابهة الإستعارية بين هذين الضدين:{{...أي الكافر والمؤمن الجاهل والعالم}}(2).ونفي المشابهة هناكما هو واضح مقيّد يعتمد على طبيعة الطرفين المتناقضين في الجانب الحسي البصري،وهذه علامة بارزة لا ينكرها أحد؛ فإن الأعمى لايشبه البصير في جزء من الأجزاء الفسيولوجية، ولكنه قد يتشابه معه في كثير من الأجزاء الأخرى كالسمع، والإدراك العقلي، وغيرها من الأجهزة الأخرى، وهذه الخصوصية في نفي المماثلة قد لا نجدها في أمثلة أخرى، كما هوالحال في قوله تعالى:[[ومايستوي الأحياء ولا الأموات]](3)إذ نجد النفي هناعام ومطلق بين جسمين أحدهما ميّت والآخر حيّ، والفرق بينهما بيّن يدركه الجميع، ولذاقيل بأن هذاالنفي يمثل:{{ مثلا آخرفي حق المؤمن والكافر، كأنه قال تعالى حال المؤمن والكافرفوق حال الأعمى والبصير،فإن الأعمى يشارك البصير في إدراكٍ ما وكافر غيرمدرك إدراكانافعافهوكالميت}}(4).وهذايعني أن النفي في هذه الآية مبني على المشابهة الإستعارية كما كان الحال في الآية السابقة، لأن المشبهين بهما ذكراهنا(الأحياء والأموات) بينما حُذف المشبهان وهما (المؤمن والكافر)، وهذه المشابهةالإستعارية تمثل دورا توضيحيا في تأدية نفي المشابهة أو المساواة في هذه الآية ، وغيرها من الآيات التي احتوت على أساليب إنكارالمساواة والمشابهة بين الطرفين المتقابلين بشتى أدواتها المختلفة، كما سنرى مع الأداة الخامسة والأخيرة.

خامسا النفي بـ (لم): ولقلة نماذج هذاالنوع نكتفي بذكر حالــة واحدة له في نفي ثنائية التماثل أو التطابق في قوله تعالى:[[ألم تر كيف فعل ربك بعادٍإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد]](5). لقد أفادت(لم)في هذاالمثال نفي وجود مثيل لقبيلة عاد من البشر، وذلك في خصوصيات تميزت بهاعــن

---

(1)فاطر آية 19.

(2) الجامع لأحكام القرآن - المصدر السابق- م 7. ج14 - ص 339. 340

(3) فاطر آية22

(4) التفسير الكبير - المصدر السابق - م 13 - ج 26ص 16

(5) الفجر - آية9

غيرها من القبائل والأمم، وعليه يمكن أن يكون معنى هذاالنفي:{{..ألم يخلق في البلاد مثل تلك القبيلة في الطول والقوة وعظم الأجسام، وهم الذين قالوامن أشدمناقوة،ورُوي أن الرجل منهم كان يأتي بالصخرة فيحملهاعلىالحي فيهلكهم،وقيل ذات العمادأي ذات الأبنية العظام المرتفعة،عن الحسن. وقال ابن زيد: ذات العماد في إحكام البنيان، التي لم يخلق مثلها أي مثلأبنيتها في البلاد}}(1). وتبقى هذه العناصر المذكورة في هذاالتفسير قابلة للزيادة والنقصان، لأن نفي المماثلة هناغير مطلق؛ فهو يعتمد علىأشياء مؤتلفة وأخرى مختلفة، وهذه يصعب الجزم في تحديدها،تلك هي إذاًآخرأداة من أدوات التشابه والتساوي التي توصلناإلى استخراجها من مجموع آي القرآن الكريم، لننتقل إلى معالجة الأسلوب الموالي.

أسلوب النهي :

يبرزهذاالأسلوب - من خلال النماذج التي بين أيدينامن خلال أداة النهي(لا)،وذلك في شكلين أحدهما : ظاهر والآخر مقدر بغيرأداة ،ولكن بفعل قام مقامها،وسنتناول هذين الشكلين بالتمثيل لكل منهما:

الشـــكل الظـــاهر:ويتمثل في الأدوات المصرّح بها في مثل قوله تعالى:[[لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا]](2) وكذلك في مثل قوله عز وجل:[[ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض]](3).

تتوجه الآيةالأولى بالخطاب إلى المؤمنين لتنهاهم عن القيام بنفس العمل مرتين قياما متساويا، سواء كان هذا الفعل(جعل الدعاء)قولا أواعتقادا علىاختلاف آراء المفسرين(+)في تحديد طبيعة هذاالدعاء، والخطاب كما هو بيّن يحمل طابع النهي والتحذير من مغبة الإساءة إلىالرسول الكريم،بأي شكل من أشكال التعبيرأو التفكيرفي مساواته ببقية المؤ منين في المعاملات، ولا يختلف النهي في الآية الثانية عنه في الآية الأولى،إذ نجده موجها دوماإلى الفئة المؤمنة. ولكن هذه المرة ينهاها عن فعل خاص ومعيّن، وهو الجهر بالقول أمام نبيّهم الكريم،فيجب أن لاتكون طريقة مخاطبتهم إياه متشابهة مع طريقة مخاطبتهم لبعضهم البعض،ولذا قيل أن الآية تضمنت:{{نهي عن جهرآخر وهوالجهر بالصوت عند خطابهم الرسول صلى الله عليه وسلم بوجوب التغايربين مقتضى قوله (لا ترفعواأصواتكم فوق صوت النبي)..}}(4). وما يمكن قوله حول هاتين الآيتين هو أنهما اشتركا في طريقة واحدة هي النهي عن المشابهة في المعاملة الواحدة

---

(1)مجمع البيان ـالمصدر السابق ـ م 6ـج 30 ـ ص 89

(2) النور آية61

(3) الحجرات آية 2

(+) ينظر تفسير بن كثير ـ المصدر السابق م 3 ـ 306ـ307 ـ ومجمع البيان ـ المصدر السابق م 5 ـ ج 18ـ ص 81 ـ 82 ـ

(4) التحرير والتنوير ـ المصدر السابق ـ ج 26 ص 220

بين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وبين عامة المسلمين، سواء كان ذلك عن طريق الدعاء أو الجهر بالقول، وقد صُرّح فيهما بأداة النفي (لا) شكلا ومضمونا. هذا عن الشكل الظاهر.

الشكل المقدر: لم يصرح في أمثلة هذا الصنف بأي أداة من أدوات النهي أو النفي ،ولكن سياق الآيات يدل على جواز تقديرها؛ ويمكن أن نلمس ذلك في قوله تعالى: [[يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا]](1). {{فالمصدر المأخوذ من(أن تعودوا)لا يكون معمولا لفعل(يعظكم)إلا بتقديرشيئ محذوف،أوبتضمين فعل الوعظ معنىفعل متعد،أوبتقديرحرف جرمحذوف فلك أن تضمن فعل يعظكم معنىالتحذير،فالتقدير: يحذركم من النود لمثله،أو يقدر :يعظكم الله في العود لمثله،أو يقدرحرف نفي،أي أن لاتعودوا لمثله، وحذف حرف النفي كثيرأإذا دل عليه السياق، وعلى كل الوجوه يكون في الكلام إيجاز، والأبد الزمان المستقبل كله. والغالب أن يكون ظرفا للنفي}}(2) والتقديرالأخير هوالذي نرجحه لتأدية المعنى في النهي عن القيام بفعل مشابه لنفي الفعل السابق ، وليكون مطابقا للتفسيرالقائل: {{ يذكركم الله وينهاكم بآي كتابه لئلا تعودوا لِمثل فعلكم الذي فعلتموه في أمر عائشة}}(3). ففعل الوعظ هناقام مقام النهي بعامة، لأن الوعظ في حدذاته هوالتذكيروالتحذيرممايجب أن يؤتىأو لايؤتى ومعنىالآية هناهوالتذكير بمالايؤتى(أي النهي) عن العودةإلىنفس الأمر، دل على ذلك سياق الآية الذي يتكلم عن فظاعة مافعلوه في قذف أمناعائشة رضي الله عنها.

هذه بصفة عامة معظم الأساليب، والأدوات التي أفادت معنى إنكارالتشابه التي استطعناالوقوف عليها في القرآن الكريم. ولكن تبقى معناآيات أخرى تضم أساليب تفيد في مضمونها إنكار التشابه بين الطرفين المذكورين في كل آية ، وأبرز هذه الأساليب ما جاء عن طريق التحدي الذي يتمثل في عدة حالات كلهامتشابهة شكلا ومضمونا،فمن الناحية الشكلية نجدها بدئت بفعل من أفعال الأمر مثل(قل)،أو بأداة من أدوات الاستفهام مثل (أم)، ثم تُتبع بفعل من أفعال المضارعة مثل(فأتوا،أو فليأتو). كماأنها تميزت بعدم وجود أي أداة من أدوات النفي أو النهي، وغيرها من الأدوات التي لا تُقر بوجود التشابه. وأما من ناحية المضمون نجد هذه النماذج تتناول موضوعاواحدا،وهوعدم إمكانية الإتيان بكلام مشابه للقرآن الكريم، ومن أمثلة هذاالنوع قوله تعالى:[[أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله]](4).فالأمرفي هذه الآية موجه إلى المتشككين من الكفرة والمشركين وهو:{{..أمرتعجيز وقد وقع التحدي بإتيانهم بسورة تماثل

---

(1)النور آية 17

(2)التحرير والتنوير - المصدر السابق ج 18 ص 182 -

(3)جامع البيان - المصدر السابق - م 10 ج 18 ص 98

(4) يونس- آية 38

سور القرآن،أي تشابهه في البلاغة وحسن النظم}}(1) إذاً فالتحدي في هذه الآية مرفوع عن طريق الأمر الطلبي الذي يطلب مثيلا جزئيا يتمثل في آية واحدة فقط. وجوابه معروف وهو عدم قدرة المُخاطبين على الإتيان بهذاالمثيل الكلامي المشابه لكلام الله تعالى ويشبه في ذلك قوله تعالى:[[قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذاالقرآن]](2).تحتوي هذه الآية على الأمرالمشروط الذي يتحدى جميع الإنس والجن أن يأتوا بكلام مشابه للقرآن الكريم. وهذاالأمرالمشروط متبوع بجواب يحتوي على أداة من أدوات النفي المصرح بها في نهاية الآية:[[لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا]](3).والمماثلة المطلوب تحققهافي هذه الآية هي:{{المماثلة في مجموع الفصاحة والبلاغة والمعاني والآداب والشرائع وهي نواحي إعجازالقرآن اللفظي والعلمي}}(4) إذاًفهذاالنوع من الأساليب يُنكرالتشابه عن طريق نتائج التحدي المعروفة. والتي تتمثل في العجز عن الإتيان بمشابه لِما هو مطلوبٌ في طرح التحــدي:[[أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين]](5) فهذاالتحدي الساخر ينكر على هؤلاء القوم قولهم(أم يقولون تَقَوَّلَه)وينفي هذه الصفة (صفة التقول)عن النبي صلى الله عليه وسلم، وينفي عنهم في نفس الوقت إمكانية التقول بمثله لأن الأمر:{{في(فليأتوا)مستعملة في أمـــر التعجيز}} (6).والمماثلةالمطلوب تحققهاهي نفسهاالتي طُلبت في الآيات السابقة:من فصاحة وبلاغة ومعارف وشرائع وقرائن ودلائل:{{وقدتكرر هذاالتحدي في القرآن الكريم وتلقاه المنكرون عاجزين ووقفواتجاهه صاغرين وكذلك يقف أمامه كل أحد إلى يوم الدين }} (7)

وعلى هذا النمط تأتي باقي آيات التحدي الأخــرى التي لا تقر بوجود تشابــه،أو بإمكانية تحققه بين الأطراف المتقابلة في كل مثال تشابهي.

ومن الأساليب الأخرى التي تنحو منحى هذاالتحدي في عدم الإقراربوقوع التشابه، ماجاءعن طريق الدعاء الطلبي المصحوب بأداة النهي(لا) التي يمّحي مفعولها داخل هذاالدعاء لأنه موجه من مخلوقين إلى خالقهم تضرعا وخيفة فقالوا: [[ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا]](8).واضح من هذا الدعاء،أن المؤمنين لايريدون أن يُشَدَّدَ عليهم في التكاليف كماشُدّد على بني إسرائيل من قبلهم:{{من قتل

---

(1)التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج11 ص170

(2)(3) الإسراء آية 88

(4)التحرير والتنوير - المصدر السابق ج 15ص 203

(5) الطور آية 31. 32

(6) التحرير والتنوير -المصدر السابق - ج 27 ص 67

(7) في ظلال القرآن المصدر السابق م6 ج27 ص3399

(8) البقرة آية - 285

النفس في التوبة أوفي القصاص لأنه كان لا يجوز غيره في تشريعهم، وقطع موضع النجاسة من الثياب ونحوها، وقيل البدن، وصرف ربع المال في الزكاة}}(1)، وهذه التكاليف شاقة وصعبة عليهم وبذلك يكون: {{المراد من الدعاء به طلب الدوام على ذلك لئلا ينسخ ذلك من جراء غضب الله كماغضب على الذين قال فيهم (فبظلم من الذين هادوا حرمناعليهم طيبات أحلت لهم)<2>..}}(3).بهذا يكون الدعاء الطلبي قد أفاد في إنكار وقوع التشابه أوالتطابق مثلماأفادت الأساليب السابقة المنكرة للتشابه بالإستفهام أو بأدوات النفي أو النهي أو بغيرها من الأدوات الأخرى.

بهذه الملاحظات التي حاولنا إبرازها حول ماأسميناه بعنصر التشابه - في جانبيه النظري البلاغي، والتطبيقي القرآني، ننهي الفصل الأول لننتقل إلى الفصل الثاني لنعالج فيه عنصرالتشبيه في جانبه الإصطلاحي البلاغي من خلال الأمثلة الشعرية والنثرية .

---

(1)روح المعاني - المصدر السابق م1 ج3 ص 70

(2)النساء آية 159

(3)التحرير والتنوير المصدر السابق - ج3ص 137-140

الفصل الثاني

التشبيه صوره أنواعها

(الجانب النظري)

التشبيه صوره أنواعها:

الجانب النظري البلاغي:

لقد سلك المتأخرون المسلك الصعب الذي سلكه المتقدمون من علماء البلاغة، أمثال: الرماني والعسكري، وبخاصة السكاكي الذي وضع القواعد العامة للبلاغة، ومنها التشبيه الذي نحن بصدد الكلام عنه. وتبعه في ذلك كل من تناول هذا الفن، سواء بقصد التقنين والتمثيل كما جاء في كتاب المفتاح للسكاكي - المتوفى سنة 626 هـ - أو بقصد الإختصار والتحليل، كما هو الشأن بالنسبة لما تناوله الخطيب القزويني في كتابيه (التلخيص والإيضاح)، أو بقصد الشرح والتبسيط، كما جاء في كتاب (مفتاح تلخيص المفتاح) للخلخالي - المتوفى سنة 745 هـ - ؛ ولكن هذه الشروح لم تأت بجديد، إذ أن المتأخر منها لا يخالف المتقدم كما قال بهاء الدين السبكي :{{ ويتناولون المشكل والواضح على أسلوب واحد كلهم قد ألفه، لا يخالف المتأخر منهم المتقدم إلا بتغيير العبارة...}}(1). وقد حاول السبكي أن يخالف بعض ما جاء به المتقدمون بمناقشته لبعض الأخطاء التي - في نظره - وقع فيها القزويني، ولكنه هو الآخر لم يتطرق إلى التعقيدات المتعددة التي اعتمدها هذا الأخير (القزويني) في تقعيده لفن التشبيه، بالرغم من استعانته بعدد كبير من المراجع كما قال في تصريحه :{{واعلم أني لم أضع هذا الشرح حتى استعنت عليه بنحو من ثلثمائة تصنيف، وأنه تضمن الخلاصة من مائة تصنيف في هذا العلم، منها ما وقفت عليه، ومنها ما وقفت على كلام من وقف عليه...}}(2).

وبالرغم من هذه الجهود المبذولة لشرح قواعد البلاغة بعامة، والتشبيه بخاصة، فإن التعقيدات الدقيقة والمعقدة بقيت عائقا أمام ذواقي هذا الفن البلاغي، مما حدا بالبعض إلى حذف بعض منها وإبقاء البعض الآخر، كما فعل صاحب الطراز في تبيانه لأقسام التشبيه في قوله :{{إعلم أن التشبيه له طرق كثيرة، وتنقسم إلى أنحاء متشرة باعتبارات مختلفة، ولكنا نقتصر من ذلك على تقسيمات أربعة هي وافية بالمطلوب ومندرج تحتها شعب كثيرة}}(3)

---

(1) عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص)بهاء الدين السبكي - مطبعة السعادة مصر - 1342هـ - ط 2 - ج 1 ص 87

(2) المصدر نفسه - ج 1 ص 28 29

(3) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز - يحي بن حمزة العوي اليمني - منشورات مؤسسة النصر تهران - طبع بمطبعة المقتطف مصر - 1332 هـ 1914 م - م 1 - ج 1 ص 285

وإذا كانت هذه التفريعات المعقدة قد أثقلت كاهل المتقدمين أمثال العلوي اليمني - المتوفى سنة 749 هـ - فما بالك بالمتأخرين من - المحدثين والمعاصرين. ونلمس هذا التذمر عند الدكتور بكري شيخ أمين في كتابه (البلاغة العربية في ثوبها الجديد في علم البيان) في قوله: {{ درجت كتب البلاغة على تفصيل الحديث عن وجه الشبه تفصيلا شديدا، يكاد قارئه من كثرة أجزائه وأقسامه يضل ويضيع، ونكتفي نحن ببيان ثلاثة أقسام ، لها صلة وثيقة بنوع التشبيه}}(1). وكنا ننتظر من وراء هذا التذمر الجديد، وبخاصة لما كان عنوان الكتاب (البلاغة العربية في ثوبها الجديد)، إلا أن آمالنا قد خابت لما وجدنا المؤلف لم ينفلت عن منهج القدماءفي التفريعات والتعقيدات، فنجده يحاول في بداية كل قاعدة التبسيط؛ فيقول مثلا في ذكر الأداة وحذفها:{{ ...يقسم البلاغيون التشبيه إلى قسمين: المرسل: ما ذكرت فيه الأداة، ويسميه بعضهم بالتشبيه المظهر نحو العمر مثل الطيف.التشبيه المؤكد: وهو ما حذفت منه الأداة، ويسميه بعضهم بالتشبيه المضمر نحو: نحن نبت الربا، وأنت الغمام}}(2). وهذا الكلام إلى حد الآن يعد اختصارا لبعض ما جاء في كتب القدماء، ولكنه لم يلبث أن عاد فقال: {{التشبيه المرسل أوضاع...}}(3) ويعدد أربعة أقسام(+) التي ذكرها ابن الأثير في كتابه (المثل السائر). وكان جل كلامه هذا في الفصل الأول من التشبيه، ولكنه يعود في الفصل الثاني ويعنونه: {{أنواع التشبيه }}(4) محتذيا في ذلك بما فعله علي الجارم ومصطفى أمين في كتابهما(البلاغة الواضحة)الذي خصص للمدارس الثانوية.

وإذا تساءلنا عن الأسس التي اعتمدها هؤلاء في تقسيمهم التشبيه إلى أقسام وأنواع :وما الفرق بينهما؟ولعل لعدم وجود الأسس الثابتة والفروق البيّنة بين المصطلحين، هو الذي جعل الشيخ بكري أمين يدرج التشبيه (البليغ) ضمن (الأنواع)، بينما نجد هذا النوع من التشبيه لدى علي الجارم ومصطفى أمين مندرج ضمن الأقسام. وتداخل المصطلحين هذا شكّل في البلاغة الواضحة خلطا بين الأقسام والأنواع؛ فمثلا نجد عنوانا يحمل {{أقسام التشبيه}}(5).و بعد

---

(1)البلاغة العربية في ثوبها الجديد - علم البيان - بكري شيخ أمين - دار العلم للملايين بيروت لبنان - 1982م - ط 1ص 35

(2)(3)المصدر نفسه - ص 29

(+)ينظر المثل السائر- المصدر السابق - م 2 - ج 2 ص 2

(4)البلاغة العربية في ثوبها الجديد - المصدر السابق - ص 41

(5) البلاغة الواضحة - علي الجارم ومصطفى أمين - دار المعارف بمصر 1383 هـ - 1964 م - ط 17 - ص 3

التمثيل لهذه الأقسام وهي (المرسل والمؤكد والمجمل والمفصل والبليغ) نجد في قسم التمرينات عبارة {{بيّن كل نوع من أنواع التشبيه فيما يأتي }}(1). ومما يؤكد عدم وجود حد فاصل وواضح بين الأقسام والأنواع، ما نجده دائما في كتاب (البلاغة الواضحة)، فمثلاً لاَ نجد التشبيه (الضمني والمقلوب) ضمن الأقسام أو الأنواع، بل نجدهما مستقلين بدون عنوان يجمعهما.

وقد حاول الدكتور عبدالعزيز قليقلة في كتابه (البلاغة الإصطلاحية) أن يلملم بعض هذه القواعد في مصطلحات عامة، ولكنه اقتصر على: {{أقسام التشبيه باعتبار وجه الشبه}}(2)، حيث جعلها ثلاثة أقسام: فالأول تمثيلي، والثاني: حقيقي وتخييلي وتضاد، والثالث: مفصل ومجمل. غير أنه نسي أن المفصل لا يكون كذلك إلا إذا كانت الأداة موجودة، وإلا سمي مؤكدا، كما هو مفهوم عند علماء البلاغة. ولكن الشيئ الذي يعد جديدا لديه هو: دمجه لعمليتي الإفراد والتركيب(+)اللتين ذكرهما السكاكي، وكذا القزويني وجعله كذلك التعدد ضمن الإفراد، وهو عنده غير التمثيلي أو المركب. ولعله بذلك كان يريد تعميم المصطلح وإعفاء القارئ من كثرة المصطلحات. كما نجده بدّل مصطلح الأقسام بمصطلحٍ آخر هو: {{صور التشبيه }}(3)، واستدل في ذلك بالأمثلة الأربعة المعروفة التي يمكن أن تكون عليها الصورة التشبيهية باختلاف أشكالها. وضمن هذه الصور الأربعة تدخل كافة العناصر الأخرى التي قُعّدت لفن التشبيه: فمثلا لو أخذنا صورة (محمدأسد) فهي أيضا تمثل التشبيه المؤكد، والمجمل- باعتبار وجود الأداة ووجه الشبه. وهي كذلك تعد مفردة ومحسوسة لكون لفظة (الأسد) مفردة. وتخضع لإدراك الحواس كما تدخل أيضا في إطار التشبيه المعنوي باعتبار وجه الشبه شيئ معنوي لا يدرك بالحواس.

وإذا أردنا أن نتتبع جل التفريعات والتقسيمات الأخرى للتشبيه مثل: (التمثيلي والضمني، والمقلوب، والمحسوس، والتخييلي، والمركب، والمتعدد، والمقيد) لوجدناها تتفرع جميعا من الصور الأربعة السابقة للتشبيه؛ فالتشبيه (التمثيلي) ماهو إلا شكل لإحدى صور التشبيه التي

---

(1)البلاغة الواضحة - المصدر السابق ص 25

(2)البلاغة الإصطلاحية - عبد العزيز قليقلة - دار الفكر العربي القاهرة - 1407 هـ-1987 م ص 42

(+)ينظر مفتاح العلوم - المصدر السابق - ص 334 -+ والإيضاح - المصدر السابق - ص 343 - 355

(3)البلاغة الإصطلاحية - المصدر السابق - ص 47

سبق ذكرها، فمثلا لو أخذنا قول بشار المشهور:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه(1)

نستطيع أن نضع هذه الصورة في جملة أقسام مختلفة؛ فبوجود الأداة نعدها تشبيها مرسلا، وكذلك ننعتها بالتشبيه المجمل لأن وجه الشبه محذوف، ونستطيع أن ندرجها ضمن التشبيه المركب لكون طرفيها مركبين، وكذلك نستطيع أن نطلق عليها مصطلح التشبيه المحسوس لكون طرفيها يخضعان للإدراك الحسّي وعلى هذا المنوال يمكن أن نقيس باقي أضرب التشبيه الأخرى.

فإذا تناولنا مثل قول الشاعر:

أصبر على مضض الحسو   دفإن صبرك قاتله

فالنار تأكل نفسها   إن لم تجد ما تأكله(2)

فإننا نجد صاحب المفتاح يصنف هذه الصورة ضمن التشبيه التمثيلي، بينما نجد هذا اللون من التشبيه إذا قيس بمعايير أخرى يكون من التشبيه الضمني، وليس هناك تناقض بين التصنيفين بل هناك تداخل بينهما فقط. لأن هذه الصورة تخضع لمعياريهما معا: (الضمني والتمثيلي).

نعيد القول: ما دامت هذه التفريعات يمكن إرجاعها إلى أصول أربعة - التي أطلق عليها الدكتور عبد العزيز قليقلة مصطلح (الصورة)، بينما السكاكي والقزويني أطلقا عليها مصطلح (مراتب التشبيه)- نقترح إعادة تقسيم التشبيه إلى صور من أساسه، لأن الصورة يمكن أن تشمل جميع التقسيمات المتعددة للتشبيه وهي أيضا - كما سبق توضيحه - تضم إليها كل التفريعات المختلفة كما أنها تقترب من جماليات التشبيه أكثر من قواعده الجافة، التي اعتمدها علماء البلاغة قديما، وتبعهم في ذلك المحدثون.

وإذا اقتنعنا بلم شمل مصطلحات التشبيه في إطار هذه الصور الأربعة، يمكننا أن نطلق على الأشكال التي يمكن أن تبرز من خلالها هذه الصور مصطلح (الأنواع) فيكون النوع تابعا للصورة وليس العكس.

ولعل بهذه النتيجة التحليلية التي توصلنا إليها يكتسب العنوان السابق لهذا البحث بصفة

---

(1)الديوان - بشار بن برد - تحقيق محمد الطاهر بن عاشور - الشركة التونسية للتوزيع - والشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر - 1976 م

(2)الديوان - ابن المعتز - دار بيروت للطباعة والنشر لبنان - 1400 هـ - 1980 م

عامة وهذا الفصل بصفة خاصة الشرعية العلمية في التقنين الإصطلاحي: (التشبيه صوره وأنواعها)

ولتوضيح الرؤيا للقارئ أكثر نُتبع كلامنا بشروح مبسطة للمصطلحات التي سترد في البحث بعامة، وفي الرسم البياني الذي سنورده في الصفحة الموالية بخاصة. وهذه المصطلحات هي:

الصورة التشبيهية: ويراد بها الهيئة البيانية الأخيرة التي يرد عليها التشبيه.

عناصر مادتها: ويقصد بها الألفاظ والأدوات التي تحتويها صور التشبيه.

الشكل: وهو الجزء الخارجي الذي تبرز من خلاله أطراف التشبيه.

الإفراد: وهو أن يكون أحد الطرفين لفظا مفردا أو ما يدل على ذلك، وهو على ثلاثة أضرب:

المطلق: وهو أن يرد أحد الطرفين دون قيد أو شرط.

المقيد: وهو أن يُتبع أحد الطرفين بصفة تقيد خاصيته العامة، ويكون لها دورا جزئيا في تحديد معالم الصورة التشبيهية.

المتعدد: ويراد به:أن ترد عدة أطراف مفردة في نسق تقابلي غير متحد، ويكون هذا التعدد إما في الأطراف وإما في أوجه الشبه لصورة واحدة مفردة.

2. التركيب: وهو الإتحاد الذي يحدث بين ألفاظ أجزاء الطرف الواحد. وهو على نوعين:

أ ـ إتحاد مزجي: ويكون بامتزاج أجزاء الطرف الواحد ببعضها البعض إلى درجة يتعذر تجزئتها أثناء تفسير معاني الصورة التشبيهية بعامة

ب ـ إتحاد تقابلي: وهو خلاف المزجي، إذ نستطيع فيه أن نلتمس تفسيرا جزئيا لعناصر الصورة في مقابلتها مع بعضها البعض.

3 ـ القلب أو العكس: ويراد به الشكل غير المألوف الذي ترد من خلاله أطراف الصورة التشبيهية، والذي يطلق عليه ابن جني مصطلح:{{ غلبة الفروع على الأصول }}(1).

رابعا: دلالة الألفاظ: ويقصد بها المعنى الدلالي الذي تحمله ألفاظ الصورة التشبيهية، وهو على نوعين:

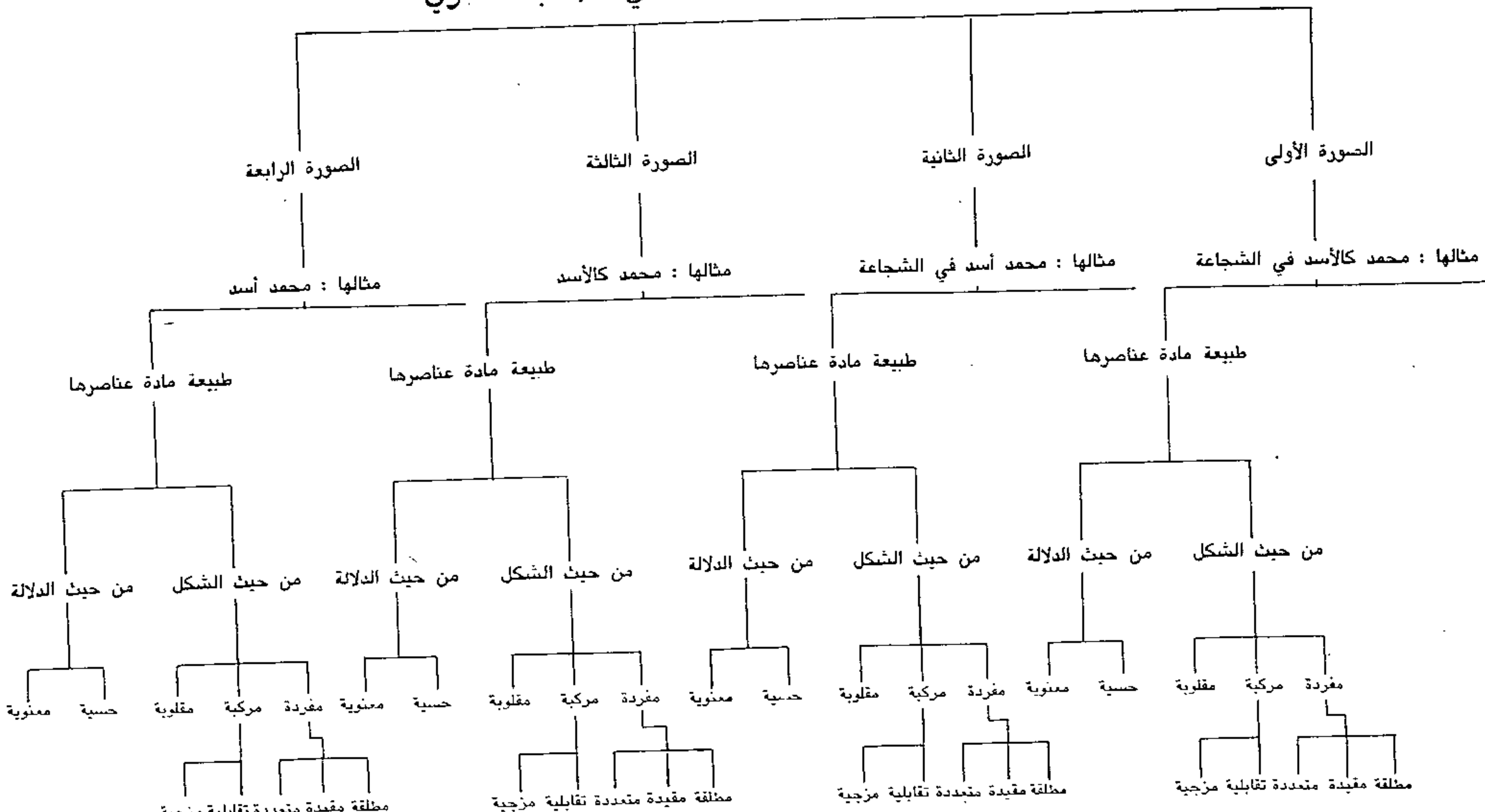
أ ـ دلالة حسية: وهي التي تخضع لإدراك الحواس الخمس المعروفة العادية.

ب ـ دلالة معنوية: وهي التي تخضع للإدراك العقلي.

---

(1)الخصائص ـ ابن جني ـ تحقيق محمد علي النجار ـ دار الهدى للطباعة والنشر بيروت لبنان ج 1 ص 300

رسم توضيحي لصور التشبيه وأنواعها في الجانب النظري



الصورة الأولى:محمد كالأسد في الشجاعة :

يندر وجود هذه الصورة في التعبيرات الفنية الراقية، الشعرية، والنثرية، وذلك لأن وجه الشبه يجعل الكلام ساذجا وبسيطا، ويجعل الفكر راكدا دون أن يبذل أي جهد في فهم معاني الصورة ، وتأتي هذه الصورة من حيث الشكل على أنواع:

النوع الأول:الإفراد:

أ - المطلق: يغلب على هذه الصورة طابع الإفراد المطلق في اللفظ، ويمكن أن نمثل لهذا بمثال نثري مبسط في قولنا: (أنت كالبحر في الهيجان)، ومن الشعر بقول الشاعر المرادي :

ومحل أوي إليه كجحر الضـ ب في ضيقه ومال قليل (1)

ب - المقيد: وأما المفرد المقيد فيمكن التمثيل له بقولنا: (الماء العذب كالعسل الصافي في الحلاوة)، والقيد هنا يتمثل في لفظتي الماء والعسل.

ج - المتعدد: وإذا مثلنا للمفرد المتعدد ندرج قولنا من النثر البسيط: (عمر وأنور وحافظ كالأسد، والذئب، والثعلب في الشجاعة والخسة والدهاء). فالتعدد واضح بالنسبة لطرفي التشبيه، لأن الشخص الأول يقابل الأسد، والثاني يقابل الذئب، والثالث يقابل الثعلب. وكذلك الأمر بالنسبة لوجه الشبه؛ فالشجاعة تجمع بين الشخص الأول والأسد، وأما الخسة فإنها توحد بين الثاني والذئب، ويبقى الدهاء يربط الثالث والثعلب.

وأما الصفة الغالبة في هذا التعدد وبخاصة في الشعر فيكون في وجه الشبه، ونمثّل لذلك بقول أبي بكر الخالدي:

يا شبيه البدر حسنا وضياء ومنالا وشبيه الغصن لينا وقواما واعتدالا (2)

النوع الثاني: التركيب:

أ - التركيب المزجي: هذا النوع من التركيب قليل ا- في النماذج التشبيهية الفنية من أدبنا العربي - وقِلته هذه تعود إلى قلة نماذج النوع التركيبي بصفة عامة؛ وتعود هذه القلة إلى حقيقة التصريح بوجه الشبه في هذه الصورة الأولى، لأن قوة الصورة الفنية تكمن غالبا في حذف وجه الشبه، وبخاصة إذا كان فيها التركيب مزجيا. ويمكن أن نمثل لهذا التركيب من

---

(1)كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس - محمد بن الطيب الكتاني - تحقيق إحسان عباس - دار الشروق - 1401 هـ - 1981 م - ط 2 - ص 275

(2) الإيضاح - المصدر السابق - ص 375

النثر البسيط بقولنا: (الثمر في شجره كالعقد في رقبة الحسناء حسنا وجمالا)، فالثمر والشجر صورة مركبة تقابل صورة العقد في رقبة الحسناء، مع ذكر وجه الشبه الذي يجمع بينهما وهو الحسن والجمال. فلو حذفنا وجه الشبه لكانت الصورة من الناحية الفنية أقوى وأبين، ولهذا السبب تكاد تكون هذه الصورة غير بارزة في الأدب العربي الفني شعره ونثره التركيب التقابلي: ويندر - هو الآخر - وجوده في هذه الصورة الأولى، ولكن نستطيع أن نقرّب هذا النوع بمثال من النثر العادي في مثل قولنا: (كأني والأهواء تعصف بي طائر وسط العواصف ضعفا وضياعا)، ففي هذه الصورة المركبة الطرفين نستطيع أن نقابل بين أجزائها: بين المتكلم والطائر، وكذا بين الأهواء والعواصف، ويبقى وجه الشبه يجمع بين هذه العناصر، وهو الضعف والضياع.

النوع الثالث: القلب أو العكس:

ويتمثل في الشكل الثالث لأي صورة تشبيهية مألوفة الأطراف المتقابلة: أي أن تبرز الصورة التشبيهية بوجه معاكس للوجه الطبيعي الذي ألفه الذوق العام للقراء والمستمعين في الميدان الفني للأدب. وعليه يمكننا قلب نماذج الصورة التشبيهية الأولى بشكل عام؛ وللتمثيل لذلك ندرج نموذجا تشبيهيا مبسطا يتمثل في قولنا: (وجه الخليفة كالشمس في الإشراقة) ثم نقلب الطرفين المشبهين، فنجعل المُشبَّه مُشبَّهًا به، كأن نقول: (الشمس تشبه وجه الخليفة في الإشراقة) وبهذه الكيفية يمكننا أن نلتمس الجانب المقلوب أو المعكوس في النماذج التشبيهية في هذه الصورة الأولى من الناحية الشكلية المعنوية.

النوع الرابع: الجانب الدلالي للألفاظ:

وأما من الناحية الدلالية التي تحملها ألفاظ هذه الصورة التشبيهية الأولى، فإنها تخضع إلى مقياسين اثنين هما: المقياس الحسي والمقياس المعنوي العقلي:

أ - الدلالة الحسية: تحمل ألفاظ هذه الصورة بما فيها - طرفا التشبيه ووجه الشبه - دلالات حسية تخضع لإحدى الحواس الخمس المعروفة (البصر والسمع واللمس والذوق والشم)، والأمثلة التي سنوردها تبين ذلك ؛ فلو أخذنا مثالا مبسطا كقولنا : (عين هذا الفتى تشبه عين الديك في الصفاء) لوجدنا أن المشبه، وهو عين الفتى، والمشبه به وهو عين الديك، ووجه الشبه وهو الصفاء، يخضع ثلاثتهم إلى إدراك حاسة البصر .ويمكن أن نوضح لذلك أكثر بقول الشاعر :

دم حكاه الورد في اللون سائل عروق حكتها خضرة عين النرجس (1)

فأطراف الصورة الأولى مكونة من ألفاظ (الدم والورد واللون)، وأما الأداة التي جمعت بينهما هي فعل المحاكاة (حكاه) والإدراك الذي ميّز طبيعتها هو الإدراك البصري. ونفس الأمر ينطبق على الصورة التشبيهية الموجودة في الشطر الثاني من البيت ؛ (فالعروق وعين النرجس والخضرة) تخضع جميعا إلى الإدراك البصري داخل إطار الصورة التشبيهية التي يريد الشاعر تبليغها إلى الأذهان. ويمكن أن نقيس على هذا جميع الإحتمالات الحسية الأخرى.

وقد تقتصر هذه الدلالة الحسية على طرفي التشبيه فقط، ويكون وجه الشبه غير خاضع لها؛ ونمثل لذلك بقولنا: (زيد كالذئب في الخداع)، فزيد والذئب. وهما طرفان أساسيان في هذه الصورة التشبيهية يخضعان للحس الملموس المرئي، بينما (الخداع)- وهو وجه الشبه - شيء معنوي يخضع للإدراك العقلي.

ويختلف أحيانا أخرى الطرفان؛ فيكون أحدهما خاضعا للإدراك الحسي، والآخر خاضعا للادراك العقلي. ومن الطبيعي أن يكون وجه الشبه خاضعا للإدراك العقلي، كما سيتضح معنا في المثال الموالي من قولنا: (العلم كالنور في الهداية) فلفظة (العلم) لا تخضع للإدراك الحسي لأنها شيئ معنوي، بينما تخضع لفظة (النور) إلى الإدراك الحسي البصري، وأما (الهداية)فهي لفظة تحمل معنى عقليا يجمع بين وظيفة النور ووظيفة العلم؛ أي أنها لا تخضع للإدراك الحسي فتفهم عقليا.

ب - الدلالة المعنوية أو العقلية: ويمكن أن تخضع جل ألفاظ هذه الصورة إلى الإدراك العقلي دون الحسي، والمثال المبسط لهذا اللون من الإدراك يتمثل في قولنا: (الجهل كالموت في الهلاك). فألفاظ كل من (الموت والهلاك) تحمل معانيعقلية لا تدرك بواسطة الحواس العادية بل تدرك بواسطة حاسة العقل.

وقد يختلف الأمر مع هذه الألفاظ كما حدث مع الألفاظ الحسية الأولى؛ فيكون أحد الألفاظ حسيا والآخر عقليا، أي يخضع أحدهما إلى الإدراك الحسي، بينما يخضع الثاني إلى الإدراك العقلي ولكن الشيئ الذي لا يتغير هنا هو أن وجه الشبه يبقى خاضعا للإدراك العقلي دون الحسي. هذه هي الأنواع التي يحتمل أن تظهر من خلالها الصورة الأولى التامة الأطراف، من

---

(1)كتاب التشبيهاتمن أشعار أهل الأندلس - المصدر السابق - ص 275

خلال الأمثلة المبسَّطة التي سقناها للشرح والتوضيح. ويمكن أن تتحد هذه الصورة في بعض منها مع الصور المتبقية: (الثانية ، والثالثة ، والرابعة).

الصورة الثانية: محمد أسد في الشجاعة:

تختفي هذه الصورة عند بعض علماء البلاغة تحت غطاء الصورة الرابعة - التي سيأتي الكلام عنها فيما بعد إن شاء الله تعالى - فإنك تجدهم يقسمون التشبيه إلى مظهر الأداة ومضمرها، ويتناسون أمثلة هذه الصورة التي حذفت أداتها وبقي وجه الشبه (+). فمثلا: نأخذ قول صاحب الطراز: {{إعلم أن التشبيه المضمر الأداة أبلغ وأوجز من التشبيه الذي ظهرت أداته؛أما كونه أبلغ فلأنك إذا قلت : زيد الأسد، قد جعلته نفس هذه الحقيقة من غير واسطة، بخلاف قولك: زيد كالأسد، فليس يفيد إلا مطلق المشابهة لا غير، وأما كونه أوجز، فلأن أداة التشبيه محذوفة منه، فلهذا كان أخصر من جهة لفظه}}(1). فلو تأملنا قوله: (إذا قلت زيد الأسد قد جعلته نفس هذه الحقيقة من غير واسطة)، نجد أن هذا التعبير ينطبق على صورة (محمد أسد في الشجاعة) لأننا حذفنا الواسطة وهي الأداة، والفرق فقط هو تخصيص هذه الصورة في الصفة التي يجتمع فيها كل من (محمد والأسد)، ولكن هذا الفرق الذي يبدو بسيطا، إلا أن له دورا فعالا في تغيير المعنى العام للصورة التشبيهية. ولعل هذا ما حدا ببعض البلاغيين إلى إفراد هذه الصورة في مرتبة مستقلة، كما فعل صاحب المفتاح الذي وضعها في الرتبة الثالثة من مراتب ضعف القوة التأثيرية غير أنه أبقى على المعنى الأول وهو حذف الأداة فقط مع تغير التعبير في قوله: {{وثالثتها ترك كلمة التشبيه كقولك: زيد أسد في الشجاعة}}(2).

وإذا كان استقلال هذه الصورة عند السكاكي، فإننا نجدها تأخذ مصطلحا آخر عند المتأخرين؛ سواء الملخصين لكتابه أو الشارحين له، أمثال القزويني الذي عبر عن هذه الصورة بـ{{التشبيه المؤكد}}(3)، ولكنه عندما يمثل لهذا المؤكد فإنه يجمع في أمثاله بين معالم الصورة الرابعة ومعالم الصورة الثانية. ومن الأمثلة التي استدل بها قوله تعالى في وصف سيرالجبال: [[وهي تمر مر السحاب]](4) وكذلك بقوله تعالى في وظيفة نبيه الكريم: [[يأيها النبي إنا أرسلناك

(+) مثالها :(أنت بحر في العطاء)فهي تختلف عن قولنا (أنت بحر) فكلاهما مضمر الأداة .

(1) الطراز المصدر السابق - ج 1 ص 315

(2) مفتاح العلوم - المصدر السابق ص 355

(3) الإيضاح المصدر السابق ص 387

(4)النمل آية 90

شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيـرا]](1)، وفي هاتيـن الآيتيـن التشبيهيتين تعبير عن مدلول الصورة الرابعة. وشتان ما بين هذه الصورة التي تحذف منها الأداة ووجه الشبه، وبين الصورة الثانية التي تحذف منها الأداة فقط، والتي أطلق عليها (التشبيه المؤكد)، والتي نجدها متمثلة في الصورة التشبيهية التي استدل بها في نفس الموضوع ببيت الشاعر: (+)

هُمُ البحور عطاءً حين تسألهم وفي اللقاء إذاتلقى بهم بُهُمُ(2)

حيث نجد مدلول الصورة الثانية الشطر الأول (هم البحور عطاء) - أي هم كالبحور في العطاء، فحذفت الأداة وبقي وجه الشبه.

وعلى كل فقد بقي تعريف القزويني لهذه الصورة الثانية المؤكدة ساري المفعول إلى يوم الناس هذا، مع بقاء نفس الأمثلة الموروثة - عنه وعن سابقيه - التي تجمع بين الصورة المحذوفة الأداة ووجه الشبه، وبين الصورة التي حذفت أداتها مع بقاء وجه الشبه في بعض كتب البلاغة المتأخرة: من بينها مثلا كتاب (علوم البلاغة) و(علم البيان) و(البلاغة الإصلاحية).ويبرز وضوح هذه الصورة الثانية أكثر في كتاب (البلاغة الواضحة)؛ ففيه تجلت استقلالية الصورة الثانية عن الصورة الرابعة في الأمثلة التي احتواها هذا الكتاب. وبالرغم من هذا الوضوح في الأمثلة المعبِّرة عن المعنى التأكيدي بحذف الأداة إلا أن شيئا ما بقي ينقص هذا التعريف الإصطلاحي الذي جاء فيه: {{التشبيه المؤكد ما حذفت منه الأداة}}(3) لأن حذف الأداة وحدها كما سبق القول يجمع بين كل التشبيهات المضمرة. ولعل هذا ما جعل بكري شيخ أمين يفصل في هذه النقطة في قوله: {{أما لو قال: (أنت شمس في الإشراق) فإنه يكون قد حذف أداة التشبيه (مثل) وجعل تشبيهه مؤكدا مفصلا}}(4). فلفظة (مفصلا) أضافت الجديد إلى القديم (المؤكد) فصارت الصورة

---

(1)الأحزاب آية 40

(+)ينسب هذاالبيت إلى الحماسيّ -، ينظر الإيضاح المصدر السابق - ص 387 - والبيت مأخوذ من قصيدة طويلة منسوبة إلى زياد بن حَمَل بن عميرة بن حريث - من كتاب الحماسة - لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي - تحقيق عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان - أشرفت على طباعه ونشره - إدارة الثقافة والنشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - المملكة العربية السعودية - 1401 هـ 1981 م - ج 2 - ص134

(2)الإيضاح - المصدر السابق - ص 136

(3) البلاغة الواضحة - المصدر السابق - ص 25

(4) البلاغة العربية في ثوبها الجديد - علم البيان - المصدر السابق - ص 42

مؤكدة بحذف الأداة ومفصلة بوجه الشبه. ويمكن أن يدخل هذا التفصيل في المعنى دون اللفظ، حتى يتسنى لنا التفريق بين المفصل لفظا ومعنى، وبين المفصل معنى بغير اللفظ لأنه لا يخفى على أحد الفرق البياني بين قولنا: (محمد كالأسد في الشجاعة) وبين قولنا: (محمد أسد في الشجاعة).

وقبل الشروع في تناول الأنواع المختلفة لهذه الصورة الثانية يجدر بنا أولا وقبل كل شئ أن نبيِّن مكانة هذه الصورة بين صور التشبيه عند علماء البلاغة.

لقد وضعها السكاكي في الرتبة الثالثة - من بين ثماني رتب - في سلم التدرج التأثيري البياني. ووضعها في نفس الرتبة - ولكن من بين أربع رتب - عبد العزيز قليقلة، وعدها ضمن المرتبة الوسطى بعد الأولى وقبل الأخيرة. ولكن مع احترامنا لترتيب هؤلاء العلماء، أدرجنا هذه الصورة في الرتبة الثانية أو في الدرجة الثانية، اعتمادا على الناحية الشكلية لهذه الصورة المبنية على الإثبات أو الحذف؛ فحذف الأداة من مجموع أجزاء هذه الصورة أخف أثرا من حذف علاقة المشابهة، كما أن حذف علاقة المشابهة أقل أثرا من حذف الأداة والعلاقة معا. وعلى هذا الأساس اعتمدنا ترتيب هذه الصورة بين مجموع الصور الثلاثة الأخرى. كما أن هذا الترتيب الذي اعتمد على الناحية الشكلية يسانده دليل آخر يتمثل في قلة وجود هذه الصورة في ميدان الأدب بصفة عامة والشعر منه بصفة خاصة، كما هو الشأن مع الصورة الأولى. ولعل هذا ما جعل بعض أهل البلاغة يدرجون - كما سبق القول - أمثلة نراها لا تمثل القاعدة البلاغية الإصطلاحية المحدَّدة لهذه الصورة. وهذا ما يتضح جليا في النماذج الشعرية التي أوردها القزويني أثناء كلامه عن التشبيه: {{المؤكد}}(1)حيث جاء بقول الشاعر:

كأنما أدهم الإظلام حين نجا ... من أشهب الصبح ألقى نعل حافره(2)

فالذي يبدو لنا من هذا البيت التشبيهي أنه لايعبر عن صفة التأكيد حسب القاعدة البلاغية، لأن الأداة موجودة في بداية الشطر الأول وهي(كأن) التي تتعلق بالشطر الثاني (الصبح ألقى نعل حافره). ويمكننا ملاحظة هذا الفارق في بعض النماذج الأخرى التي استدل بها القزويني في هذا الغرض. (+)

---

(1) (2) الإيضاح - المصدر السابق - ص 388

(+)لقد استدل مثلا بقول الشاعر : <<والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء>>.

ومما يؤكد كذلك ندرة هذه الصورة في التشبيهات الشعرية، العدد الضئيل الذي عثرنا عليه بعد تقصينا الدقيق لكتابين من مجمعات التشبيهات وهما: (كتاب التشبيهات) لابن أبـي عـون و(كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) لابن الكتاني الطبيب، وبالرغم من هذه القلة والندرة، فإننا سنحاول التعرف على أهم الأنواع التي تبرز من خلال هذه الصورة الثانيـة فمن الناحية الشكلية يمكن مراعاة الأنواع الآتية:

النوع الأول: الإفراد:

إن أول نوع يطالعنا لهذه الصورة هو: الإفراد اللفظي، ففي قولنا السابق: (محـمد أسد في الشجاعة) نجد الإفراد بيِّن في لفظتي كل من (محمد والأسد) وكذلك في لفظة (الشجاعة) التي تمثل وجه الشبه أو العلاقة الرابطة بين هذين الطرفين. إذاً فالإفراد عم جميع الأطراف؛ ولكن يجب أن نشير إلى أن هذا الإفراد قد لا يتمثل في لفظة واحدة في طرف أو آخر أو فيهما معا؛ بل قد يكون أحيانا في أكثر من لفظة، والأمثلة التي سترد تؤكد ذلك. فإذا أخذنا قول الشاعر:

لقد غُرسوا غرس النخيل وثاقة ... وما حُصدوا إلا كما حُصد البقل (1)

وحللنا الصورة التشبيهية الموجودة في الشطر الأول: (لقد غرسوا غرس النخيـل وثاقة) لوجدنا أن الطرف الأول يتمثل في فعل (الغرس) الذي وقع على هؤلاء القوم الذين (غرسوا) وأن الطرف الثاني يتمثل في فعل (الغرس) الذي وقع على النخيل. إذاً ففردية الطرف الأول تتكون من عنصرين متحدين لا نستطيع فصل أحدهما عن الآخر، وكذلك الشأن بالنسبة للطرف الثاني؛ بينما تنفرد لفظة (وثاقة) أي العلاقة التي تجمع بين هذين الطرفين، المشبه والمشبه به وما انطبق على هذه الصورة ينطبق على الصورة التشبيهية في قول الشاعر في وصف ناعورة:

تحن حنين العود في نغماته ... وتزأر أحيانا زئير المزعفر (2)

فإذا تناولنا الصورة التشبيهية الموجودة في الشطر الأول (تحن حنين العود في نـغماته) وجدناها لا تختلف عن الصورة في البيت السابق من حيث وضعية أطراف الصورة، فنجد الطرف الأول يتمثل في فعلحنالمرتبط بفاعله (العود)، وإذا أردنا أن نفصل لفظة (الحنين) عن لفظة (العود) لَمَا استقام لناذلك، لأن المعنىلا يتم وبهذا يكون اتحاد الطرفين ضرورة حتمية لقيام الصورة التشبيهية. وهنا يكون الإفراد بلفظتين يختلف عن الإفـراد بلفظة واحدة. وهذا

---

(1)(2) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس - المصدر السابق - ص 84

الإفراد بنوعيه ـ كما سبق القول في الصورة الأولى- يكون مطلقا أو مقيّدا أو متعددا.

أـ المطلق: ونمثل لهذا النوع بقولنا: (هو الطائي في الكرم) أو (هي الملاك في العفة)أو (هو الكلب في الخسة)؛ ففي هذه الأمثلة الثلاثة تشبيهات حذفت منها الأداة، ويتميز كل طرف من أطرافها بطابع الإفراد المطلق؛ لأن لفظة (هو أو هي) ـ الطرف المشبه ـ لم تتبع بصفة تقيد وضعيتها كما أن لفظة (الطائي) أيضا مفردة لم تقيد بأي صفة. ويبقى وجه الشبه يتمثل في (الكرم) يجمع بين الطرفين المشبهين. وهكذا الأمر ينطبق على المثالين المتبقيين.

فقال وجهي بدر يُستضاء به ولون شعري مقطوع من الغسق (1)

نلاحظ في هذا البيت ـ مع توفر الإفراد في كل من (الوجه)و (البدر) و (الإستضاءة) ـ تعبيرا جديدا يختلف عن التعبير العادي لهذه الصورة كما سبق التمثيل لذلك. فبدلا من أن يقول: (وجهي بدر في الإضاءة) جاء بفعل (يستضاء) الذي يحمل معنى الإضاءة، والإضاءة لا تكون إلا من مضيء، وهذه هي العلاقة التي تجمع بين الوجه الأبيض وبين القمر. ومما يشبه هذا التعبير ما جاء في قول الشاعر:

وقلن لنا نحن الأهلة إنما نضيء لمن يسري ولا نقري(2)

والجدة في هذا البيت تكمن في التعبير الذي صُرِّح به عن وجه الشبه بين ضمير (نحن) العائد على النساء وبين لفظة (الأهلة) إذ لم يستخدم الشاعر الطريقة المألوفة في التصريح بوجه الشبه وهو (الإضاءة) بل جاء بالفعل المضارع (نضيئ) المسبوق بأداة الحصر (إنما) التي حصرت الإضاءة عند (السارين بالليل) دون غيرهم. والفنية في هذا التعبير أكثر دقة منه في التعبير المباشر.

ب ـ المقيــــد: والتقييد في هذه النوعية الفردية ـ للصورة الثانية ـ يكون في الغالب الأعم إما متعلقا بالطرف الأول، وإما متعلقا بالطرف الثاني. ومن الأمثلة التي يكون فيها التقييد مرتبطا بالطرف الأول نأخذ قول الرافعي في وصف نبي الإسلام محمد بن عبد الله: {{وإذا كان (صلى الله عليه وسلم) نجما إنسانيا في نوره}}(3) فلفظة (إنسانيا) قيد بشري لطبيعة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يمثل الطرف الأول من الصورة التشبيهية. بينما يبقى الطرف الثاني

---

(1) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الاندلس ـ المصدر السابق ـ ص 123

(2) التشبيهات ـ ابن أبي عون ـ المصدر السابق ص 92

(3) وحي القلم ـ مصطفى صادق الرافعي ـ دار الكتاب العربي بيروت لبنان ـ ج 2 ـ ص 32

منها (نجما) غير مقيد ومن أمثلة هذا التقييد أيضا ندرج قول الشاعر في وصف دجاجة محمرة:

وسميطة صفراء ديناريـة ثمنا ولونا زفها لك جزور (1)

فلفظة (السميطة) وهي المشبه مقيدة بلفظة (صفراء) وهي الصفة التي تحدد لون المشبه لكي يتلاءم مع المشبه به ويتمثل في لفظة (الدينارية) في اللون. بينما نجد الطرف الثاني أي المشبه به (الدينارية) غير مقيد بأي لفظة أخرى فهو مفرد مطلق. ومن الأمثلة الأخرى التي يكون فيها القيد مرتبطا بالطرف الثاني نورد مثالين من النثر المبسط، الأول يتمثل في قولنا: (أنت غزال الصحراء في العدو) والثاني كقولنا: (أنا السيف الذكر في القطع). من الواضح أن الإفراد المطلق قد عم كلا من الطرفين الأولين ضمير الرفع (أنت) و (أنا)في هذين المثالين بينما نجد القيد قد تعلّق بكل من الطرفين الأخيرين، (الغزال) الذي قيّد بالطبيعة الصحراوية لتكون بمثابة ميزة لقوة عدو هذا الغزال، لتزداد بذلك قوة عدو المشبه (أنت). وكذلك الأمر بالنسبة للفظة (سيف) التي قيدت بصفة (الذكورة) ليكون القطع أبلغ وأنجع في المشبه به لينتقل تلقائيا إلى المشبه بحكم التشبيه.

ج - المتعـــدد: إن التعدد الذي يبرز في هذه الصورة من خلال ما تجمع لدينا من أمثلة يكون على ضربين :

الضرب الأول: يتوحد فيه المشبه ويتعدد فيه المشبه به، كأن نقول مثلا: (هو الأسد في الشجاعة والذئب في الإحتيال والقط في التسلق)، فالمشبه هنا موحد وهو ضمير الرفع المنفصل (هو) بينما تكرر لفظ المشبه به ثلاث مرات (الأسد والذئب والقط). وعلى هذا المنوال يأتي قول الشاعر:

ونحن نسقى شراب ذي أدب تناؤه من فواكه الـرفـق

يلقاك في رقة الشراب وفي نشر الخزامى وصفرة الشقق (2)

ومثله قول الآخر:

نور تحدر من فم الإبريق في ريح كافور ولون (خلوق)(+)(3)

---

(1) التشبيهات ـ لابن أبي عون المصدر السابق ـ ص 291.

(2) المصدر نفسه ـ ص178

(+) <<طيبٌ معروفٌ يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب ،وتغلب عليه الحمرة والصفرة >>اللسان المصدر السابق ـ مادة (خلق)ص 91.

(3)التشبيهات ـ ابن أبي عون ـ المصدر السابق ـ ص 180

إذاً فالفردية المطلقة واضحة في ألفاظ المشبه (الشراب)[1] و (النور) بينما يبرز التعدد في ألفاظ المشبه به، فألفاظ (الشراب والخزامى والشفق) تعددت في مقابل مشبه واحد وهو (الشراب) وكذلك الأمر بالنسبة للفظتي (الكافور والخلوق) في مقابل مشبه واحد النور المنحدر من الإبريق.

الضرب الثاني: ويكون التعدد في العلاقة الرابطة بين المشبهين، كأن تقول مثلاً: (أنت غزال في الحسن واللون) فالتعدد بيِّن في كل من لفظتي: (الحسن واللون). وهما وَجْهَا شَبَهٍ لطرفي التشبيه (أنت وغزال). وعلى هذه الشاكلة يأتي قول أبي تمام في هجاء ابن أبي الجهم الكاتب:

يا جرة البين قضاء وسلف ... يا ليلة الخان إذا الخان وكف (1)

فـ(بالقضاء والسلف) صفتان متعددتان تجمعان بين المنادى (ابن الجهم) وهو المشبه، وبين (الجرة) وهي المشبه به. ويبرز هذا التعدد جليا أكثر في قول الشاعر:

ألا يابيذق الشطرنـــــــــــــج في القيمة والقامة (2)

فالتصريح بتعدد وجه الشبه واضح في صفتي (القيمة والقامة).

النوع الثاني: المركب:

إن التركيب في هذه الصورة شبيه بسابقتها الأولى، لأن التصريح بوجه الشبه يعد عائقا فنيا في وجه التشبيهات المركبة. ولعل التعدد الذي شاهدناه قبل قليل في بعض الأبيات الشعرية يعوض صعوبة التركيب داخل إطار الصورة الثانية. وهذه الصعوبة تكمن في كون وجه الشبه في المركب ينتزع من متعددأي من أجزاء مركبة. وما دام الوجه هنا مذكوراً فإن التركيب يتلاءم مع ذكر وجه الشبه، وبخاصة في ميدان الشعر، لأن الوزن والقافية ، بالإضافة إلى التصريح بوجه الشبه،عوامل تحد من التفصيل أكثر، لأن طبيعة الشعر تعتني بالجملة دون التفصيل . وهذه الخاصية الأخيرة نجدها في النثر واضحة ، لأنه يساعد على إقامة هذه الصورة التركيبية . والتركيب كما سبق أن بينا على نمطين :

أ ـ التركيب المزجي: لتقريب هذا النمط من التركيب في هذه الصورة الثانية نشرقـول

---

(1)التشبيهات ـ ابن أبي عون ـ المصدر السابق ـ ص 291

(2)المصدر نفسه ص 294

الشاعر :

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح

قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح(1)

فيصير نثرا بهذا المعنى: (تجتمع سرعة الخفقان بين دقات قلبي - عند ما يقال بأن ليلى العامرية يغدى بها أو يراح، وبين حركات جناح قطاة علقت في شرك فباتت طوال الليل تحاول التخلص منه، ولكن جناحها قد علق ولم تستطع ذلك) فالتركيب المزجي بيِّن في كل من طرفي الصورة: فالطرف الأول: وهو البيت الأول يتركب من عدة أجزاء أساسية، وهي بالترتيب الفعلي للصورة كما يلي: (القول المؤثر، والقلب المتأثر، والدقات التي هي نتيجة حتمية لهذا التأثر). وكل هذه الأجزاء مجتمعة تعطينا سرعة الخفقان وقوته. وأما التركيب في الطرف الثاني فيجمع بين(الشرك المنصوب) وبين (القطاة العالقة بالجناح، والتي تحاول بالجناح الآخر التخلص من هذا الشرك في حركة مستمرة)، وكل هذه الأجزاء مجتمعة تعطينا سرعة الخفقان وقوته. ومما يمكن الإستشهاد به في هذا النوع التركيبي قول الشابي في تعريف ماهية الشعر: {{...إن الشعر يا صاحبي، هو ما تسمعه وتبصره، في ضجة الريح وهدير البحار، وفي بسمة الوردة الحائرة فوقها النحل يرفرف حواليها الفراش، وفي النغمة المغرِّدة يرسلها الطائرفي الفضاء الفسيح، وفي وسوسة الجدول الحالم المترنم بين الحقول، وفي دمدمة النهر الهادر المتدفق نحو البحار، وفي مطلع الشمس وخفوق النجوم...}}(2). نحن في هذه المقطوعة النثرية أمام أربع صور تشبيهية مركبة متعلقة بوجهي شبهٍ ذُكرا في بدايتها بعد ضمير الرفع المنفصل(هو) المشير إلى الشعر، وهما (تسمعه وتبصره)، فعملية (الإستماع) لفظ عام يدل على كل فعل يحدث صوتا: فالسمع يميز بين جميع الأصوات المحزنة منها والمفرحة الصاخبة منها والضعيفة، وإلى غير ذلك من الأصوات التي تخضع لحاسة السمع. وكذلك الأمر بالنسبة للفظة (تبصره) فالإبصار كفيل بأن يُبيِّن أوجه التلاقي والتشابه بين جميع الأشكال الخاضعة للتمييز البصري. فبهذين الوجهين تتعلق الصور الأربعة المركبة: فالصورة الأولى: تتمثل في قوله (وفي بسمة الوردة الحائرة فوقها النحل يرفرف حواليها الفراش)، فهذه التركبة التشبيهية جمعت بين الصورة المرئية وبين الصوت المسموع: فالصورة المرئية تتمثل في منظر الوردة المتفتحة، وفي شكل

---

(1)ديوان مجنون ليلى - تحقيق عبد الستار أحمد فراج ص 73

(2)الشابي حياته وشعره - أبو القاسم محمد كرو - منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان ص 268

النحل والفراش المبثوث حولها، بينما الصوت المسموع فينجلي في حيرة هذه الوردة، وفي طنين النحل ورفرفة الفراش حولها. فهذا الجمال المركب تركيبا مزجيا في صورة تشبيهية واحدة رسمها الشاعر للتعبير عن حقيقة الشعر وماهيته، وهي صورة موحّدة الأجزاء غير مفككة. وعلى هذا المنوال يمكننا تحليل الصور الثلاثة المتبقية.

ب - التركيب التقابلي: إن المثال المبسط الذي يمكن أن نقرب به هذا النوع من التركيب في هذه الصورة الثانية هو قولنا: (النور والهداية صفتان تجمعان بين العالِم في دعوته لقوم عشش فيهم الجهل، وبين القمر في تجليه وسط الليل البهيم). نلاحظ في هذا المثال أن لفظة (العالِم) من الطرف الأول للصورة التشبيهية تقابل لفظة (القمر) في الطرف الثاني منها. وكذا الأمر مع لفظة (الدعوة) المقابلة للفظة (التجلي)، وهذا ينطبق مع لفظة (الجهل) المقابلة للفظة (الليل)، وكذا الأمر مع لفظة (عشش) التي تقابل معنى لفظة (البهيم). ثم يتقابل العنصر الإنساني في كلا الطرفين، سواء كانوا قوما جاهلين في حاجة إلى علم كما هو الحال في الطرف الأول، أو كانوا قوما سراة بالليل وهم في حاجة إلى نور القمر، كما هو الحال في الطرف الثاني من الصورة التشبيهية.

إذاً فكل طرف مركب من ألفاظٍ يمكن تجزئتها ومقابلتها بألفاظ الطرف الثاني في معاني تجمع بينهما وهذا هو المقصود في نظرنا بالتركيب التقابلي الذي يختلف مع التركيب المزجي في إمكانية التجزئة اللفظية والمعنوية، ولكنهما يتفقان في كون كل منهما مركب يخضع للمعنى الإجمالي لرسم الصورة التشبيهية. ولكن يبقى الإختلاف نسبي يميز بين قوة الصورتين التشبيهيتين من الناحية البيانية البلاغية.

النوع الثالث: القلب أو العكس:

لتوضيح هذه النوعية المعكوسة للصورة الثانية نأخذ مثالا نثريا بسيطا فنقول: (الغزال يستمد رشاقة قده من هذا القد النحيف) لأن المألوف في التشبيه أن يشبه قد الإنسان بقد الغزال في الرشاقة لكونها في هذا الأخير أبرز وأعم غير أننا في هذا المثال عكسنا الصورة وقلبنا طرفيها فصار المشبه مشبها به والعكس صحيح وعلى هذا المنوال يمكننا قلب الصورتين التشبيهيتين النثريتين المتمثلتين في قول الرافعي في وصف وجه إمرأة جميلة: {{وكل السواد الذي في عيون المها يجتمع في عينيه }}(1). {{وكل الحمرة التي في الورد هي في حمرة هاتين

(1)وحي القلم - المصدر السابق - ج 3 - ص 113

الشفتين}}(2). ولقلب الصورة الأولى نقول: (وكل السواد الذي في عينيه يجتمع في عيون المها) لأن السواد أصل بيّن في عيون المها، وأما لقلب الصورة الثانية فنقول: (وكل الحمرة التي في هاتين الشفتين هي في حمرة الوردة)، لأن الحمرة في الأساس اشتهر بها الورد، بينما تكون في الإنسان عارضة لا ستقرار لها.

النوع الرابع: الجانب الدلالي للألفاظ:

أ - الدلالة الحسية: إذا أعدنا النظر في الأمثلة السابقة بعامة لوجدنا أن معظم ألفاظها تخضع إلى الإدراك الحسي، بما في ذلك العلاقة الرابطة بين أطرافها، والمتمثلة في أوجه الشبه. ولزيادة في التوضيح أكثر ندرج قول الرافعي في وصف وجه امرأة راقصة: {{أما هذا الوجه لهذه المرأة؟ إنه بين اللحظة واللحظة يعبر تعبيرا جديدا بقسماته وملامحه الفتانة، كل البياض الخاطف في نجوم السماء يجول في أديمه المشرق}}(3) فالرافعي يشبه وجه المرأة المتلون بالأصباغ والدهون البراقة بالنجوم التي يتلألأ نورها بين الفينة والأخرى، وكل هذه الأجزاء في الصورة التشبيهية يمكن إدراكا بواسطة حاسة البصر.

ب - الدلالة المعنوية: لقد أشرنا قبل قليل إلى أن الطابع الحسّي هو الذي ميّزَ دلالة ألفاظ الأمثلة السابقة من هذه الصورة الثانية. ولهذا ارتأينا أن نأتي بمثال مبسّط لهذه الدلالة المعنوية بقولنا: (تؤثر المعاني الرفيعة أثراً كبيرا في نفس الممدوح أثرَالإحسان في نفس الفقير المكروب). لا ندرك كل من لفظتي (المعاني والإحسان). وهما الطرفان الأساسيان في الصورة التشبيهية - بواسطة الحواس الخمس المعروفة؛ فـ(المعاني) شيئ معنوي يفهم بواسطة الإدراك العقلي، وكذا (الإحسان) الذي لا نستطيع إخضاعه لإدراك أي حاسة، فهو شيئ معنوي كذلك. وإذا أضفنا إلى كل طرف الألفاظ التابعة له وجدناها تحمل نفس الدلالة المعنوية مثل لفظة (الرفيعة) ولفظة (النفس) وكذا (الممدوح) في الطرف الأول. ومثل ألفاظ كل من(النفس) و(الفقير) و (المكروب) في الطرف الثاني. كماأن العلاقة الرابطة بين الطرفين وهي (الأثر) تحمل نفس الدلالة المعنوية.

وانطلاقا من هذا المثال المفصل يمكن قياس جميع الأمثلة التي ترد على شاكلة الصورة الثانية. وقد تجتمع هاتان الدلالتان الحسية والمعنوية في الصورة التشبيهية الواحدة، وللتمثيل

---

(1) وحي القلم - المصدر السابق - ج 3 ص 114

(2) المصدر نفسه - ج 3 - ص 3

لذلك ندرج قول الشاعر:

إن ابن الزيات له قينة أربت على الشيطان في القبح (1)

فلفظة (القينة) تدل على شخص بعينه وهو خاضع لإدراك الحواس الخمس بينما لفظة (الشيطان) تمثل شيئا معنويا يختلف إثنان في تصوّره، بل يختلف الواحد في تخيله من موقف لآخر. وهذا الإختلاف يعود إلى كونه يدرك بالحس العقلي، لأن رسم صورة الشيطان القبيحة كما يتخيلها العقل شئ نسبي لا استقرار له في ذهن الإنسان.

وإلى جانب هذا يمكن أن يكون الطرفان حسيين، بينما العلاقة الرابطة بينهما معنوية. ومثال ذلك ما جاء في قول الشاعر:

يا غراب البين في الشؤ م ومـزاب الجنابة (2)

تمثل لفظة (الشؤم) العلاقة الرابطة بين المنادى المحذوف وهو المشبه، وبين (الغراب) وهو المشبه به، وهما يخضعان معا للإدراك الحسي، بينما هذه العلاقة لا تخضع لإدراك الحواس، لأنها حالة نفسية تنتاب الإنسان وندركها بواسطة الحدس. فهي شئ نسبي لا يمكن ضبطه في قواعد مجسمة حتى نستطيع رؤيتها، أو لمسها، أو تذوقها، أو شم رائحتها، أو سماع صوتها.

ولعل بهذا القدر من الأمثلة التبسيطية تكون معالم الصورة الثانية قد اتضحت ولو قليلا في الجانب النظري، لننتقل إلى معالجة الصورة الموالية.

الصورة الثالثة: محمد كالأسد:

يطلق علماء البلاغة على هذه الصورة مصطلح: {{التشبيه المجمل}}(3): {{والمجمل ما لم يذكر وجهه}}(4). وهذا التقسيم باعتبار وجه الشبه، وأما باعتبار الأداة فيدرجونها ضمن (التشبيه المرسل أو المظهر) وبالتالي يمكن تسميتها بالمصطلحين (المرسل والمجمل) معا، والغالب على تسميتها (التشبيه المجمل). إن هذه الصورة الثالثة خلاف نظيرتها الأولى والثانية، فهي تبرز بكثرة في الأعمال الفنية الشعرية والنثرية، وتحضى باهتمام كبير لدى علماء البلاغة:

يقول صاحب الطراز في هذا الضرب الثاني حيث تكون الأداة ظاهرة: {{إعلم أن ما هذا حاله،

(1) التشبيهات - ابن أبي عون - المصدر السابق ص 132

(2) المصدر نفسه - ص 292

(3) الإيضاح المصدر السابق - ص 373 - + البلاغة الواضحة - المصدر السابق - ص 24- + التلخيص في علوم البلاغة - القزويني - دار الكتاب العربي - 1350 هـ - 1932 م - ص 274

فمضطرب البلاغة فيه واسع وميدانها لديه فسيح}}(1). والأمثلة لهذه الصورة كثيرة ومتنوعة، في الشعر والنثر والقرآن الكريم. وأما فيما يتعلق بقيمة هذه الصورة الفنية فإنها تكمن في سهولة استخدامها، وفي احتوائها على الناحية التركيبية أكثر من غيرها من الصور الأخرى، والتركيب كما لا يخفى علينا يمتاز بالتجسيد والتشخيص لعناصر الصورة فيزيد المعنى إنارة ووضوحا. وقد احتلت هذه الصورة ـ عند صاحب المفتاح وكذا الإيضاح ـ المرتبة الخامسة من بين ثمانية مراتب في السلم التصاعدي في قوة التأثير. والصورة هذه كغيرها من الصور الأخرى يمكن أن تبرز من خلال الأنواع التي سبق ذكرها، فمن حيث الشكل تبرز على أنواع أربعة:

النوع الأول الإفراد: يعج الأدب العربي شعره ونثره بالنماذج المفردة من هذه الصورة سواء تعلق الأمر بالنسبة للمشبه، أو المشبه به، أو بهما معا، ويتبعهما في ذلك وجه الشبه، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة. ويكون الإفراد كما سبق القول،إما مطلقا، أو مقيدا، أو متعددا.

أ ـ المطلق: فمن التشبيهات المتداولة بين الناس في هذا الغرض، أن يقال مثلا: (لون هذه كالجمر، أو شعر هذه كالفحم، أو عقل هذا كالصخر، أو بطن ذاك كالطبل، أو ساق هذه كالعود، أو أسنان تلك كالمشط). فكل هذه الأمثلة مفردة ومطلقة، ووجه الشبه محذوفا ومفردا مطلقا بالتقدير كذلك. ومما جاء في النثر الفني لهذا النوع ندرج مثالا في وصف الجاحظ لأحد بخلائه أثناء الأكل: {{...ولا وجده كثيرًإلا تناول القطعة كجمجمة الثور}}(2). تمثل لفظة (القطعة) الطرف الأول، وهي مفردة لفظا، وغير مقيدة بأي صفة أخرى...بينما نجد الطرف الثاني يتكون من لفظتين هما (الجمجمة والثور)، ويمثلان طرفا واحدا مفردا حيث لا نستطيع التوقف عند لفظة (الجمجمة) لأن معنى الصورة التشبيهية لا يتم، ولهذا يتحتم عليناإضافة لفظة (الثور). وبهذا نستطيع القول: أن هذا الطرف الثاني من الصورة غير مقيّد بأي صفة أخرى. ومن أمثلة هذا

النوع أيضا ما جاء في وصف النبي صلى الله عليه وسلم: {{...موضُوعاً بين اللُّبة والسُّرة بشعر يجري كالخط}}(3). ينقلب الوضع هنا في هذا المثال، إذ نجد الطرف الأول يتكون من لفظتين هما (الشّعروالجري) حيث يتعذر الإستغناء بلفظة عن الأخرى، وذلك لارتباطهما في أداء المعنى المراد من الطرف الأول. بينما نجد الطرف الثاني يتمثل في لفظة واحدة وهي (الخط)

---

(1) الطراز ـ المصدر السابق ـ ج 1 ص 324

(2) البخلاء ـ الجاحظ ـ دار بيروت للطباعة والنشر 1400 هـ 1980

(3) إعجاز القرآن ـ الرافعي ـ دار الكتاب العربي بيروت 1393هـ 1973 م ـ ط 9 ص 289

فالطرفان - كما هو واضح - مطلقان غير مقيدين ومما جاء في هذا الغرض من الشعر قول أحدهم يرثي أخاه:

فإن يتخذ بين المقابر موطنا   فأوطاننا من بعده كالمقابر (1)

فالإفراد واضح في لفظتي الطرف الأول والثاني من هذه الصورة، وهما (الأوطان والمقابر) وهما في نفس الوقت مطلقين غير مقيدين بأي صفة من صفات التقييد. ومثله قول الآخر في وصف إخوانه:

إذا فصلت إخواني جميعا   وجدتهم كأضغاث المنام (2)

يمثل الشطر الثاني في هذه الصورة التشبيهية بطرفيها الأول والثاني ضمير الرفع المتصل (هم)، والثاني المتكون من لفظتي (أضغاث والمنام)، وهما مطلقان لا يتبعهما قيد يحدد وضعيتهما في هذه الصورة التشبيهية الثالثة كما سيتبين معنا في العنصر الموالي.

ب - المقيد: ولو شئنا التمثيل للمقيد من هذه الصورة الثالثة لقلنا بالتعبير المبسط (وجه خالد عند الغضب كلون التفاحة عند النضج). ففي هذا المثال نجد التقييد يكمن في لفظتي (الغضب والنضج) لأن وجه خالد لا يكون كذلك إلا في حالة الغضب، كما أن لون التفاحة لا يستوي على تلك الحال إلا إذا بلغت مرحلة النضج. وبمثل هذا يمكن أن ندلل على هذا التقييد لهذه الصورة التشبيهية الثالثة. ومن الأمثلة الشعرية التي احتوت على النوع المفرد المقيد الأطراف - في هذه الصورة الثالثة ندرج قول الشاعر:

وجه أغر كأنه بدر الدجى   فعليه من نور السعود كمال (3)

تقيد لفظة (الأغر)- وهي صفة البياض - الحالة التي يكون عليها الطرف الأول من الصورة وهو (الوجه)، بينما تقيد لفظة (الدجى)- وهي تمثل صفة الظلام - الطرف الثاني منها والمتمثل في لفظة (البدر). ولا يبتعد عن هذا المثال ما جاء في قول الشاعر:

وكأن الأسطار ليل بهيم   والمعاني فيها النجوم السواري (4)

نجد في هذا البيت صورتين تشبيهيتين بأداة واحدة (كأن)، والقيد الموجود في الصورة الأولى تعلق بالطرف الثاني منها وهو (الليل). فقد قيدته لفظة (البهيم) لتزيد في وصف

---

(1) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس - المصدر السابق - ج 3 - ص 260 (البيت منسوب إلى يوسف بن هارون)

(2) المصدر نفسه - ج 3 - ص 643 - (البيت منسوب لابن الخطاب)

(3) المصدر نفسه - ج 1 - ص 247

(4) المصدر نفسه ج 3 - ص 230

شدة ظلامه. وأما التقييد في الصورة الثانية فقد تعلق أيضا بالطرف الثاني منها وهو لفظة (النجوم) لأن لفظة (السواري) حددت وضعية حركة النجوم داخل إطار الصورة التشبيهية الطبيعية. وقبل أن ننتقل إلى النوعية الفردية المتعددة نشير إلى أن القيد قد يختص بطرف دون آخر، كما سبق أن بينا في أمثلة الصورتين السابقتين ولا داعي لكثرة التمثيل.

ج - المتعدد: يكون التعدد في هذه الصورة الثالة - في الغالب الأعم - على ضربين : أحدهما أن تذكر عدة مشبهات أولا، ثم تذكر بعد ذلك عدة مشبهات بها بحسب الترتيب؛ ويمثل لهذا الصنف علماء البلاغة بقول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا   لدى وكرها العناب والحشف البالي (1)

وأما الحالة الثانية في التعدد كأن يذكر مشبها واحداً ثم تليه عدة مشبهاتٍ به. ويمثلون لهذا بقول البحتري:

كأنما يضحك عن لؤلؤ   منظم أو برد أو أقاح(2)

لقد شبه البحتري في هذا البيت مشبها واحدا وهو (الإنسان) بثلاث مشبهات به وهي (اللؤلؤ، والبرد، والأقاح). ولعل هذا يكفي لتوضيح التعدد الفردي في هذه الصورة الثالثة. ومنه ننتقل إلى النوع الموالي.

النوع الثاني: التركيب:

إن التركيب خلاف التعدد لأن جزئيات الصورة في هذا الأخير تستقل بذاتها لتقابل جزئياتٍ أخرى مستقلة بذاتها، كما مر معنا في بيت امرئ القيس (كأن قلوب الطير...) بينما جزئيات التركيب تتحد أحيانا لتصبح ذاة واحدة - وهذا ما أطلق عليه علماء البلاغة مصطلح (التشبيه التمثيلي)، وأطلقنا عليه في هذا البحث مصطلح (التركيب المزجي) - وأحيانا أخرى تتقابل هذه الجزئيات المركبة تقابلاً يمكننا الجمع بينها بعلاقة المشابهة. وهذا ما أطلق عليه علماء البلاغة مصطلح (التشبيه المركب)، وأطلقنا عليه في هذا البحث مصطلح (التركيب التقابلي). وسنتناول هذين النوعين التركيبين في ما يلي

أ - التركيب المزجي: هو أحد العناصر المجملة لفنية هذه الصورة الثالثة من صور التشبيه

---

(1) الديوان - امرؤ القيس - اعتنى بتصحيحه ابن أبي شنب - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر. 1394 هـ - 1974 م ص 122

(2) الديوان - البحتري - المصدر السابق ص 435

ويمكننا أن نلتمس هذا الجمال الفني في تحليلنا لهذين البيتين المواليين من قول الشاعر:

إن حظي كدقيق في يوم ريح نثروه

ثم قالوا لحفاة في أرض شوك إجمعوه (1)

في هذه الصورة التشبيهية شُبِّه طرف مفرد بطرف مركب، والمفرد هنا هو (الحظ) بينما التركيب في الطرف الثاني بدأ باللفظة الأساسية وهي (الدقيق)، ثم تبعتها ألفاظ أخرى تمثل أجزاء لا يمكن الإستغناء عنها؛ فمثلا لو أخذنا قوله (إن حظي كدقيق) واكتفينا بذلك لما تم المعنى المراد ثم لو أتبعنا هذه العبارة بعنصر الريح في قوله (في يوم ريح) لَمَا استقام المعنى أيضا، وحتى وإن أضفنا إلى ذلك عنصر النثر في قوله (نثروه) لما وصلنا من هذا كله إلى المعنى الذي يريد الشاعر الوصول إليه. وعليه تحتم علينا إضافة الألفاظ الأخرى التي تمثل باقي أجزاء الصورة وهي (ثم قالو لحفاة في أرض شوك إجمعوه).إذا لابد من اجتماع هذه العناصر كلها في تركبة واحدة في تأدية المعنى العام للصورة.

وبهذا يمكن القول: أن التركيب المزجي قد يخص طرفا واحدا من الصورة فقط، كما في المثال السابق. وقد يشمل الطرفين كما سنوضح ذلك من خلال البيتين المواليين من قول الشاعر:

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح

قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح (2)

يمثل البيت الأول الطرف الأول من الصورة التشبيهية، ويتألف من مجموعة ألفاظ ارتبطت ببعضها لترسم جانبا هاما من هذه الصورة، دون أن نستطيع فصلها أو تجزئتها عن بعضها البعض، لأننا لو قلنا مثلا: (كأن القلب) وسكتنا، لتساءل السامع مابه القلب؟ولو أضفنا له عبارة (ليلة قيل) لبقي أيضا السؤال مطروحا، مابه القلب؟وهكذا يستمر السؤال حتى نضيف الألفاظ الباقية وهي (يغدى بليلى العامرية أو يراح). وهنا يكون المعنى المراد من الطرف الأول قد اكتمل، ليقابل أيضا مجموعة أخرى من الألفاظ تمثلت في البيت الثاني وهي (قطاة، عزها، شرك، باتت، تجاذبه، علق ،الجناح). وإلى جانب هذا الإمتزاج بين عناصر هذه الصورة، هناك جانب آخر يتعين في عدم وجود تقابل تشبيهي بين هذه العناصرفي علاقات تجمعها إن أردنا أن نلتمس ذلك. وهذا هو الذي يفرق بين هذا التركيب والتركيب التقابلي الموالي.

(1)البيتان وردا في كتاب البلاغة العربية في ثوبها الجديد ـ المصدر السابق ص 18 ـ ولم ينسبا لأحد.

(2)ديوان مجنون ليلى المصدر السابق ـ ص 73 ـ (البيتان سبق ذكرهما في هذا الفصل)

ب - التركيب التقابلي: {{وهو ما يصح تشبيه كل جزء من أجزاء أحد طرفيه بما يقابله من أجزاء الطرف الآخر، غير أن الحال تتغير ومثاله قوله: (+)

وكأن أجرام النجوم لوامعا | درر نثرن على بساط أزرق

فإنه لو قيل: <<كأن النجوم درر، وكأن السماء بساط أزرق>> لكان تشبيها صحيحا}}(1).

إن المتأمل في تعريف القزويني للتركيب التقابلي يجد أنه يخالف جزئيا المثال الذي أورده، لأنه اشترط المقابلة بين كل جزء من أجزاء التشبيه. ولكن إذا بحثنا عن لفظة (السماء)- التي كما قال تقابل البساط الأزرق - فإننا لا نجدها بلفظ صريح في الشطر الثاني، بل نتوصل إليها عن طريق الإستعارة، لأن لفظة (النجوم) وكذلك لفظة (الزرقة) ساهمتا في إخراج لفظة البساط من أن تكون حقيقية، ولهذا لم يتحقق شرط تقابل السماء لفظا مع البساط، بالرغم من تحققه بين لفظتي (النجوم والدرر).

نستنتج مما تقدم أنه من الصعب التمييز بين التركيب المزجي والتقابلي، لأن هذا البيت الذي شرحه القزويني على أساس أنه مركب متقابل الأجزاء، يشرحه السكاكي على أساس أنه تشبيه متحد الأجزاء في قوله: {{فليس المراد تشبيه النجوم بالدرر، ثم تشبيه السماء بالبساط الأزرق، إنما المراد تشبيه الهيئة الحاصلة من النجوم البيض المتلألئة في جوانب من أديم السماء، الملقية قناعها عن الزرقة الصافية بالهيئة الحاصلة المستطرفة من درر منثورة على بساط أزرق دون شيء آخر مناسب للدرر في الحسن والقيمة}}(2). إن الموازن بين رأي كل من القزويني والسكاكي - في الظاهر - يجد نوعا من التغاير، لأن الأول يؤكد في نفس الصورة التشبيهية وجود تقابل بين عناصرها، والثاني ينفي ذلك، ويؤكد تمازج وتلاحم عناصرها؛ وإذا تأملنا جيدا في قول القزويني السابق وجدناه لا يشترط صحة المقابلة فقط، بل يضيف إليها وجود (الهيئة الحاصلة) اتفاقا مع ما ذكره السكاكي (إنما المراد تشبيه الهيئة الحاصلة). وأما عن قول السكاكي السابق (فليس المراد تشبيه النجوم بالدرر، ثم تشبيه السماء بالبساط الأزرق) لا ينفي صحة المقابلة، لأن الإرادة شيء والمقابلة شيء آخر؛ فالأولى: تدخل في الغرض من إقامة الصورة التشبيهية، بينما الثانية: تتمثل في إمكانية الجمع بين العناصر

(+) البيت ينسب لأبي طالب الرَّقيّ من شعراء اليتيمة

(1) الإيضاح - المصدر السابق ص 369

(2) مفتاح العلوم - المصدر السابق - ص 337

المتفقة في العلاقة التي تربط بينها

وفخر الدين الرازي يؤيد المقابلة ولكنه يرى أن المعنى العام للصورة التشبيهية يتغير فيقول: {{ومثال ما يمكن إفراده بالذكر ويكون إذا أزيل التركيب استوى التشبيه في طرفيه إلا أن المعنى يتغير...}}(1).

نفهم مما تقدم أن المقابلة في التركيب تكون جائزة في حالة ما إذا كان الطرف الذي يتقابل مع نظيره يتفق معه في وجه الشبه، ويمكن استقلالهما في صورة تشبيهية خاصة بهما وإلا فإننا لا نستطيع إقامة أي مقابلة بين العناصر التي لا توجد بينها علاقة تشابه.

وانطلاقا من هذا المفهوم يمكن أن ندرج أمثلة لهذا النوع من التركيب في مثل قول ابن المعتز:

والصبح يتلو المشتري فكأنه ... عريان يمشي في الدجى بسراج (2)

فلفظة (الصبح) يمكن مقابلتها بلفظة (العريان) لاشتراكهما في وجه الشبه، وهو عدم التغطية أو الستر أو التكشف؛ فنقول: (الصبح كالعريان في التكشف)، وأما لفظة (المشتري) فتقابلها لفظة (السراج) لاشتراكهما في الإنارة؛ فيقال مثلا: (المشتري كالسراج في الإنارة). ومن الأمثلة الأخرى التي يمكن أن نلتمس فيها هذا التركيب قول الشاعر:

كأنما المريخ والمشتري ... قدامه في شامخ الرفعة

منصرف بالليل عن دعوة ... قد أسرجت قدامه شمعة (3)

يرفض عبد القاهر الجرجاني عملية المقابلة بين أجزاء هذه الصورة، ويرى أن التركيب هو المقصود من رسم الصورة التشبيهية، فهو يربط بين نية الشاعر وجمال الصورة ، أو هو يجعل الجمال هو الأساس من رسمها، ولا تهمه الأجزاء المتقابلة. إلا أن عبد القاهر كان يبين بهذا المثال الفرق بين التشبيه المتعدد والمركب(+) غير أن الأمر هنا يختلف، فالكلام ينطلق من أن هذه الصورة مركبة، وتركيبها يتضمن التقابل الجزئي مع توفر العلاقة الجامعة بين أجزائها؛ لأنه من المعقول أن يقال: (المريخ كالمطرق بالليل) لكونهما مظلمين وكذلك

---

(1) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - المصدر السابق - ص 101

(2) الديوان - ابن المعتز - دار بيروت للطباعة والنشر - 1400 هـ - 1980 م - ص 133

(3) ((وقائلهما هو القاضي التنوخي علي بن داود أبي فهم الشاعر الكاتب الناقد صديق الوزير المهلبي)). الإيضاح - المصدر السابق ص 368

(+) ينظر أسرار البلاغة - المصدر السابق - من ص 53 إلى ص 61

يقال: (وكأن المشتري كالشمعة) لكونهما منيرين، على حد قول عبد القاهر: {{...على التشبيه العامي الساذج...}}(1)، ولكن تبقى الصورة المركبه من (الصبح والمشتري) في مقابلة (العريان والسراج)، وكذا صورة (المريخ والمشتري) في مقابلة صورة (المنصرف بالليل والشمعة). أبلغ في التصوير وأدق في التعبير. غير أنها إذا ما قورنت بالصورة المركبة تركيبا مزجيا. حيث ينعدم التقابل وتتحد الأجزاء في صورة واحدة - يكون الفرق في القوة الجمالية بين التركيبين. ولنتبين هذا الفرق الجمالي أكثر نوازن بين المجموعتين:

الأولى: قال الشاعر:

وما البغي إلا على أهله ... وما الناس إلا كهذي الشجر
ترى الغصن في عنفوان الشبا ... ب يهتز من بهجات خضر
زمانا من الدهر ثم التوى ... فعاد إلى صفرة ثم انكسر(2)

وقال آخر:

وقد نبّه النور في غلس الدجى ... أوائلَ وردٍ كُنّ بالأمس نُوّما
يُفتّحه بَرد الندى فكأنما ... يبث حديثا كان قبل مكتما (3)

الثانية: قال الشاعر:

كأن سهيلا والنجوم أمامه ... يعارضها راع وراء قطيع (4)

وقال آخر:

كأن نجوم الليل في فحمة الدجى ... رؤوس مدار ركبت في معاجر(+) (5)

إن المتأمل في هاتين المجموعتين يجد أن الأولى: تخلو أو تكاد من أي تقابل جزئي داخل الصورة التشبيهية، فإذا تناولنا الصورة الأولى المتمثلة في مجموع الأبيات الثلاثة، لتبين لنا

---

(1) أسرار البلاغة - المصدر السابق - ص 61

(2) التشبيهات - ابن أبي عون - المصدر السابق ص 214

(3) المصدر نفسه - ص 199

(4) المصدر نفسه - ص 8

(+)جمع معجر وعجار (وهو ثوب تلفّه المرأة على استدارة رأسها ثم تجلب فوقه بجلبابها -ومنه أخذ الإعتجار) اللسان - المصدر السابق - مادة (عجر)ص 544 - ولعل المعنى الذي يرمي إليه الشاعر في البيت هو السواد من هذه المعاجر ، ليتناسب مع لون الليل الأسود الفاحم

(5)التشبيهات - ابن أبي عون - المصدر السابق ص 7 - البيت منسوب لابن المعتز ولم نعثر عليه في الديوان الصادرعن داربيروت للطباعة والنشر 1400 هـ 1980 م

والتي تتمثل في (الغصن) في حالتين مختلفتين: الأولى هي (الخضرة والنضارة والبهجة)، والثانية تبدو في (الإلتواء والصفرة واليبس والإنكسار). وكل هذا كما هو واضح وصف لحالة حياة الناس بشكل عام: فهي صورة مركبة تركيبا مزجيا ينطلق من الحياة الطبيعية للشجرة المبنية على حياة الأغصان بصفتها وحدات طبيعية تساهم في نمائها بصفة عامة. وهكذا تكون حياة الأفراد داخل إطار الحياة العامة للناس.

وإذا انتقلنا إلى الصورة الثانية في نفس المجموعة الأولى لتبين لنا التركيب المزجي جليا إلى درجة أننا لا نكاد نفرق بين أجزاء الطرفين المشبهين، وذلك لتداخلهما تداخلا يدفعنا إلى التفسير الكلي للصورة التشبيهية؛ ففي البيت الأول نجد تقابلا واضحا بين (سهيل) النجم وبين (الراعي) في الحجم العظيم والموقع الخلفي في كلّ منهما. ويوجد كذلك تقابل بين (النجوم والغنم) في صغر الحجم نسبة إلى (سهيل والراعي)، وكذا في الشكل العددي الذي تتصف به النجوم وقطيع الغنم. وأما عن التقابل في البيت الثاني فنجده واقعا بين (النجوم) في الطرف الأول، وبين (رؤوس المداري) في الطرف الثاني، والجامع بينهما البريق واللمعان ، وكذلك فهو واقع بين (فحمة الدجى) في الطرف الأول، وبين (المعاجر) في الطرف الثاني ، والجامع بينهما الظلام والعتمة.

وبهذه الأمثلة يتضح لنا الجانب الفني الدقيق الذي يفرق بين الصورتين المركبتين في التقعيد النوعي لصور التشبيه. وعليه نستطيع القول: أن التركيب بنوعيه - نوع من الأنواع الأساسية التي تبرز من خلاله الصورة الثالثة من صور التشبيه.

النوع الثالث: القلب أو العكس:

إذا استقرأنا معظم الأمثلة التي توارثها علماء البلاغة - منذ القديم إلى يومنا هذا حول الصور التشبيهية المعكوسة - وجدناها تستمد مادتها من صورة واحدة، وهي الصورة الثالثة التي نحن بصدد التمثيل لها. ومن أمثلتهم في هذا الغرض قول الشاعر محمد بن وهيب في مدح المأمون:

وبدا الصباح كأن غرته … وجه الخليفة حين يمتدح (1)

وعملية القلب في هذه الصورة واقعة في عكس ما تآلف عليه الناس، وهو أن يكون الصبح مشبها

---

(1) الشاعر هو ((محمد بن وهيب : شاعر عباسي اتصل بالمأمون ومدحه طويلا ، والبيتان من قصيدة في مدح المأمون)). أسرار البلاغة - المصدر السابق - ج 2 - ص 87.

به فأصبح هنا مشبها. ويمثلون لهذا النوع كذلك بقول البحتري في وصف بركة المتوكل:

كأنها حين لجت في تدفقها ... يد الخليفة لما سال واديها (1)

ويدرجون في هذا الصدد قول ذي الرمة في وصف الرمل:

ورمل كأرداف العذارى قطعته ... إذا ألبسته المظلمات الحنادس (2)

والأمثلة التي أوردها عبد القاهر في هذا الغرض كثيرة ومتنوعة نأخذ منها قول الشاعر:

وأرض كأخلاق الكريم قطعتها ... وقد كحّل الليلُ السِّماك فأبصرا (3)

لقد وقع القلب في هذا البيت إذ شبهت سعة الأرض بسعة أخلاق الكريم، والأصل المتعارف عليه هو أن الأرض هي التي يشبه بها دوما في السعة. ونختتم هذه الأمثلة المقلوبة بقول الشاعر في وصف الليل:

وكأن النجوم بين دجاه ... سنن لاح بينهن ابتداع (4)

ووجه الشبه في هذا البيت أمر عقلي - وهو محذوف - كما بينه عبد القاهر، فهو تمثيلي معكوس، لأن الأصل في التشبيه أن تشبه السنن بالنجوم، وكذا الأمر مع البدعة والضلالة بالظلمة، فعكسها الشاعر وشبه النجوم مجتمعة مع الظلمة في صورة مركبة مقابل صورة السنن مجتمعة مع البدع في صورة مركبة كذلك. ولهذا يرى عبد القاهر أن العكس في التشبيه التمثيلي يختلف عنه في الصريح فيقول: {{وإذا كان الأمر كذلك علمت أن طريقة العكس لا تجيء في التمثيل على حدها في التشبيه الصريح}}(5).

ولعل الآن بهذه الأمثلة تكون قد اتضحت لنا العملية العكسية للصورة التشبيهية الثالثة. ولقد تناولنا من خلال هذا كله الأنواع الثلاثة: الإفراد والتركيب والقلب والعكس، وكل هذه الأنواع نستطيع أن نطلق عليها مصطلح (الجانب الشكلي) للصورة التشبيهية، وأما الجانب الدلالي لألفاظ هذه الصورة الثالثة فيمكن معالجتها في محورين أساسيين هما: (الدلالة الحسية والدلالة المعنوية) ضمن النوعية الموالية:

---

(1) البيت لم نعثر عليه في ديوان البحتري - تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي - دار المعارف مصر - ط 2 - وإنما ذكر في كتب البلاغة في مثل البلاغة الإصطلاحية - المصدر السابق ص 49

(2) التشبيهات - ابن أبي عون - المصدر السابق - ص 112

(3) البيت ينسب لابن أبي بابك أورده عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة - المصدر السابق - ج 2 - ص 93

(4) البيت ورد منسوبا للقاضي التنوخي في أسرار البلاغة - المصدر السابق - ج 2 ص 89

(5) المصدر نفسه - ج 2 - ص 90

النوع الرابع :الجانب الدلالي:

أ ـ الدلالة الحسية: قد تخضع ألفاظ الصورة الواحدة إلى الإدراك الحسي فقط، كأن نشبه مثلا (خد الفتاة بالوردة،أو صوت العصفور بصوت خرير الماء)، أو كتشبيه (طعم الفاكهة بطعم العسل) أو كتشبيه (رائحة الرياحين برائحة الطيب أو العنبر)أو كتشبيه (نعومة الجسم بنعومة الحرير) والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة في أقوال الكتاب والشعراء، نأخذ منها على سبيل التمثيل قول عنترة:

جادت عليها كل بكر ثرة فتركن كل حديقة كالدرهم(1)

لقد جمع عنترة في تشبيهه هذا بين محسوسين، الأول يتمثل في (الحديقة)، وهي تدرك بواسطة الحس البصري، والثاني يتمثل في (الدرهم)، ويدرك بنفس الحاسة، ويتبعهما في ذلك وجه الشبه وهو (الإستدارة)، ومن الصور التشبيهية التي تدرك أطرافها بإحدى الحواس أيضا ما نجده في قول الشاعر:

كأن بني دالان إذا جاء جمعهم فراريج يلقى بينها سويق (2)

يشبه الشاعر جماعة (بني دالان) في تجمعهم المتحرك بجماعة (الفراريج) وهي تتحرك لتلتقط (السويق)(+)، والجامع بين الجماعتين الهيئة المتحركة المصحوبة بالصوت الفوضوي، وكل هذه العناصر مجتمعة تدل على صورة حسية بصرية سمعية.

إذاً فالحس واضح في هذه الأمثلة السابقة ولا يحتاج إلى زيادة في التحليل. ولكن الشئ الذي يجب توضيحه، هوأن ألفاظ الطرفين قد يحملان معنى حسيا، بينما يكون وجه الشبه الجامع بينهما خاضعا للإدراك العقلي؛ كأن نشبه (الرجل بالفاكهة في الطيبة) فالرجل والفاكهة يخضعان للحس بينما (الطيبة) وإن كانت في الفاكهة حسية ذوقية، فإنها في الإنسان غير حسية، وهي تخضع في الطرفين معا إلى الإدراك العقلي أو الإستنتاج العقلي ويمكن أن نقيس على هذا ما جاء في

---

(1) الديوان ـ عنترة بن شداد ـ تحقيق ـ فوزي عطوي ـ الشركة اللبنانية للكتاب ـ بيروت 1388 هـ 1968 م ـ ط 1 ص 13 ـ ويروى البيت برواية أخرى(جادت عليها كل ثرة ـ فتركن كل حديقة كالدرهم)

(2) الصناعتين ـ المصدر السابق ـ ص 274 ـ وورد برواية (كأن بني رالان)التشبيهات ابن أبي عون ص 393

(+) السويق :الحنطة .

قوله عليه الصلاة والسلام: {{أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم}}(1).فـ(الصحابة) بشر يدركون بالحواس، وكذلك النجوم تدرك بالحس البصري، ولكن الجامع بينهما (الهداية) فهي تعقل ولا تحس، أي أنها تدرك - جامعة بينها - بواسطة الإدراك العقلي. وهذا ما سنجده عكسيا عندما نتناول الدلالة المعنوية.

ب - الدلالة المعنوية: يضع علماء البلاغة هذه النوعية تحت قسم (تشبيه المعقول بالمعقول)(+) أي أن يكون الطرفان خاضعين للإدراك العقلي دون الحسي، وتكون العلاقة الجامعة بينهما تابعة الإدراك نفسه. ولكن الأمثلة من هذا النوع قليلة، وقلتها تعود إلى طبيعة التشبيه لأن مهمته كما بيّنا ذلك في التعريفات السابقة تتمثل في إخراج الخفي إلى الجلي، عن طريق تشبيه المعقول بالمحسوس. ومن هنا نحاول أن نبسط هذه الحالة بأمثلة نثرية عادية كقولنا مثلا: (الجهل كالموت، والعلم كالحياة، والحسد كالموت البطيء) وغيرها من الأمثلة التي تتعلق بالنفس بصلة مباشرة. فهذه الأمثلة البسيطة شبهت المعقول بالمعقول، ولكن الأمر قد يختلف فيشبه المعقول بالمحسوس، كأن يشبه الرأي بسواد الليل، كما ورد في قول الشاعر:

الرأي كالليل مسود جوانبه   والليل لا ينجلي إلا بصباح (2)

فـ(الرأي) شيء معنوي لا يدرك إلا بالعقل، بينما (الليل) يدرك بواسطة حاسة البصر. ويكثر هذا النوع في التشبيهات المركبة كما سنرى ذلك في تشبيهات القرآن الكريم في الفصل الثالث من هذا البحث.

وقد تنعكس هذه النوعية. فيُشبه المحسوس بالمعقول، ويكون هذا بارزا في نوعية الصورة المقلوبة أو المعكوسة، وقد سبق التمثيل لهذا في العنصر السابق من الدلالة الحسية. ويدخل في هذه النوعية أيضا ما يسمى بـ (التشبيه الوهمي)، وهو أن يشبه شيء محسوس بآخر وهمي، ويُمثّل لهذا بقول امرىءالقيس المشهور:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي   ومسنونة زرق كأنياب أغوال (3)

---

(1) الحديث رواه ابن عبد البر وابن حزم وطعنا في سنده ، وكذلك طعنه الإمام أحمد في سنده ، وقال عنه الألباني موضوع .ينظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة - محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي بيروت 1398 هـ ط 4 - م 1 ص 78

(+) ينظر كتاب الإيضاح - المصدر السابق - ص 335 .(أركان التشبيه :الطرفان وأقسامهما)

(2) البيت ورد في كتاب جواهر البلاغة - أحمد الهاشمي - دار الكتب العلمية بيروت لبنان ص 207

(3) الديوان - المصدر السابق - امرؤالقيس ص 111

ويؤكد علماء البلاغة أنه إذا ما اختلفت طبيعة الأطراف المتقابلة، كأن تكون محسوسا بمعقول ، أو العكس، فإن الجامع بينهما لا يكون إلا معقولا: {{لأن وجه الشبه مشترك بين الجانبين، فلو كان محسوسا كان المعقول الموصوف به محسوسا من ذلك الوجه وهو محال}}(1).

إن جل هذه الأمثلة التي قدمناها في تبيان الجوانب الحسية والمعنوية تدخل في إطار الصورة التشبيهية الثالثة. ومن أراد أن يستزيد من مثل هذه الأمثلة يمكنه أن يقيس عليها جل ما يصادفه من تشبيهات شعرية ونثرية في أدبنا العربي الرحب. إذا قد ينتهي بنا الحديث عند نهاية الصورة الثالثة - بأمثلتها المختلفة الأشكال التي يمكن أن تظهر من خلالها - وليستمر بعد ذلك مع بداية الصورة الرابعة والأخيرة، التي يمتد إليها النقص إلى حذف الأداة ووجه الشبه.

الصورة الرابعة: محمد أسد:

أطلق عليها بعض البلاغيين قديما التشبيه الذي ليس فيه أداة، كما قال صاحب الصناعتين: {{وقد يكون التشبيه بغير أداة}}(2)، وقال صاحب المفتاح مؤكدا هذا المعنى: {{حتى يصح إسناده إلى المبتدأ المصير إلى التشبيه بحذف كلمته..}}(3). وأطلق عليها البعض الآخر : التشبيه المضمر الأداة، وهذا ما يقر به صاحب المثل السائر في قوله: {{والتشبيه ينقسم قسمين: مظهرا ومضمرا..}}(4). ويخول للبعض الآخر تسميتها (التشبيه المؤكد)، وهذا ما ذهب إليه صاحب الإيضاح بقوله: {{والمؤكد ما حذفت أداته}}(5). وهو يعني بهذه الصورة الرابعة ، لأنه يستشهد بقوله تعالى: [[وهي تمر مر السحاب]](6)، ويكرر هذا المعنى صاحب الإتقان في علوم القرآن في قوله: {{وينقسم باعتبار آخر إلى مؤكد وهو ما حذفت منه الأداة نحو: ((وهي تمرمر السحاب))أي مثل مر السحاب}}(7)، ولكن نجد البعض منهم يكتفي بتسميتها التشبيه الذي يحمل المبالغة، كما بين عبد القاهر عند تفريقه بين الإستعارة والتشبيه من هذه الصورة

---

(1) الإيجاز في دراية الإعجاز - المصدر السابق ص 98

(2) الصناعتين - المصدر السابق ص 377

(3) مفتاح العلوم - المصدر السابق - ص 354

(4) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - المصدر السابق - ج 1 ص 123

(5) الإيضاح - المصدر السابق - ص387

(6) النمل آية 90

(7) الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي - دار المعرفة بيروت لبنان - ج 2 - ص 59

فيقول: {{ألا ترى أنك تفيد بالإسم الواحد الموصوف والصفة والتشبيه لأنك تفيد بقولك (رأيت أسدا) أنك رأيت شجاعا شبيها بالأسد}}(1). وتتضح صفة المبالغة لهذه الصورة أكثر عند صاحب الكشاف الذي يؤكد في قوله: {{..والمحققون على تسميتها تشبيها بليغا لا استعارة}}(2). وهذه الصفة (بليغا) هي التي اتخذها المتأخرون مصطلحا يعرفون به هذه الصورة الرابعة، بعد أن كانت تستعمل عند القدماء بمعنى العموم دون الخصوص في مثل قول أحدهم: {{وأجود التشبيه وأبلغه ما يقع على أربعة أوجه}}(3)، فهذا التعبير عام ويشمل جميع صور التشبيه. ويقولون كذلك مثلا: {{فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسب بيانا فيهما}}(4) فالمعنى هنا أيضا عاما غير مخصص إلى صورة بعينها. والأوضح من ذلك في عمومية هذه اللفظة (بليغا) قول أحدهم: {{والبليغ من التشبيه ما كان من هذا النوع، أعني البعيد لغرابته}}(5). والبعد في الغرابة قد يتمثل في جميع أضرب التشبيه، يعني أن جميع التشبيهات يمكن أن تكون بليغة. ولكن عندما يفاضلون بين الصورة التامة الأركان، وبين الصورة التي تحذف منها بعض أجزائها - كهذه الصورة التي نحن بصدد الكلام عنها - يفضلون هذه الأخيرة لأنها في نظرهم أبلغ من غيرها. غير أن البعض منهم يعود بعد تفضيله لهذه الصورة - المضمرة الأداة على المظهرة - فيساوي بينهما فيقول: {{أن التشبيه المضمرأبلغ من التشبيه المظهر وأوجز..وعلى هذا فإن القسمين من المظهر والمضمر كليهما في فضيلة البيان سواء..}}(6). ولعل كلمة (الإستواء) هذه توحي إلينا بأنه يمكن أن نطلق لفظة (البليغ) على كل صورة تشبيهية استطاع صاحبها الإجادة في رسمها، وتخير العلاقة الجامعة بين طرفيها حتى وإن كانت هذه الصورة مفصلة. وهذا ما نستشفه من هذا القول: {{ويتفاوت الحال في الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حد الجملة وحد التفصيل ، وكلما كان أوغل في التفصيل، كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر، والفقر إلى التأمل والتمهل أشد}}(7).

---

(1) أسرار البلاغة - المصدر السابق - ج 2 ص 107

(2) الكشاف - المصدر السابق - ج 1 - ص 58 - 59

(3) الصناعتين - المصدر السابق ص 262

(4) النكت - المصدر السابق - ص 80

(5) الإيضاح - المصدر السابق - ص 383

(6) المثل السائر - المصدر السابق - ج 1 ص 129

(7) أسرار البلاغة - المصدر السابق - ج 2 - ص 22

ويمكن أن نستخلص مما تقدم أن هذه الصورة الرابعة تفيد المبالغة بالدرجة الأولى، لأن المشبه فيها يوضع موضع المشبه به في نفس الدرجة، غير أن هذه المبالغة قد لا تكون بليغة إذا وُضعت في غير محلها، أو جيئ بها في مناسبة لا تستدعيها؛ كأن نقول لأحدهم وهو يحتضر: (أنت ذئب) نريد الخداع والمغالطة. ففي هذه الصورة تشبيه بليغ، ولكنها ليست بليغة بل منفرة، لأنها لم تتناسب وموقف الحدث. نريد القول من هذا الكلام أن لفظة (بليغ) وهو المصطلح الذي تُعرف به هذه الصورة - إذا أريد بها دوما الناحية الفنية، فهذا يتنافى وبعض الصور الضعيفة فنيا كما سبق أن بينا، وأما إذا أريد بها صفة المبالغة فهذا يناسب الناحية الشكلية للصورة المبنية على حذف الأداة ووجه الشبه. وهذا الشكل لا يقتصر على ما يسميه علماء البلاغة بالتشبيه (البليغ) بل يتعداه إلى نوع آخر يسميه العلماء في البلاغة التشبيه (الضمني). ولنتأكد من صحة ذلك نتناول بعض الأمثلة التطبيقية، وأول مثال نأخذه قول الشاعر:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم ... وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر (1)

نلاحظ أن الشطر الأول من هذا البيت منفصل عن الشطر الثاني من حيث السياق الطبيعي العادي، وأنه يمثل صورة لقوم هم في حاجة ماسة إلى معونة الشاعرة وهم في قلق يطلبونه، ويبحثون عنه. وأما الشطر الثاني فيمثل صورة لشخص أو لأشخاص في ليلة مظلمة حالكة يترقبون ظهور القمر ويبحثون عنه. وبدلا من أن يربط الشاعر بين هاتين الصورتين بأداة تشبيهية، كأن يقول مثلا: (سيحتاجني قومي إلى مساعدتهم أوقات الشدة، كما يحتاج السراة بالليل إلى ضوء القمر في الليلة المظلمة)، ولكنه حذف الأداة وهي (الكاف أو مثل) أو غيرها، كما حذف كذلك وجه الشبه أو العلاقة الرابطة بين المشهدين. إذاً فالأداة محذوفة والعلاقة محذوفة فبإمكاننا إدخال هذا المثال ضمن نماذج الصورة الرابعة. ومن أمثلة هذا النوع كذلك نذكر المثال الذي أورده صاحب الطراز ضمن نماذج الصورة الرابعة على أساس أنه يؤخذ مأخذ المثل المضروب فيقول: {{...أن يكون واقعا موقع المثل المضروب، وهذا كقول الفرزدق يهجو جريرا:

ما ضر تغلب وائل أهجوتها ... أم بلت حيث تناطح البحران (2)

فشبه هجاء جرير لتغلب وائل، ببوله في مجتمع البحرين، فما عسى أن يؤثر فيهما شيئا، فهكذا

---

(1) الديوان - أبو فراس الحمداني - دار بيروت للطباعة والنشر لبنان - 1399 هـ 1979 م ص 161 .

(2) الديوان - الفرزدق دار بيروت للطباعة والنشر. 1400هـ - 1980 م - م 2 - ص 344

هجاؤك هؤلاء القوم لا يؤثر أصلا...}}(1). وإذا تأملنا بيت الفرزدق وجدناه يتكون من صورتين ؛ صورة في كل شطر، فهجاء تغلب وائل في الشطر الأول، وبول جرير في مجمع البحرين في الشطر الثاني، وكل صورة منفصلة عن الأخرى تمام الإنفصال ولا تربط بينهما أي أداة من أدوات التشبيه المعروفة، ولم يصرح بالعلاقة الرابطة بين هاتين الصورتين أو الموقفين. ولكن كيف نتوصل إلى أن الشاعر يقصد الربط بينهما؟والإجابة عن هذا السؤال تكمن في تحليلنا للطرفين ثم في إمكانية تقديرنا للأداة؛ ففي الطرف الأول نجد الضمير يتعلق بالمهجو (جرير) وكذلك في الطرف الثاني يتعلق بنفس الشخص، ولهذا فالطرفان يتعلقان بشخصية واحدة. ومن هنا نفهم أن مراد الشاعر هو الربط بين موقف الشخص الأول بموقف الثاني بعلاقة محذوفة هي (عدم التأثير في كل من...) وهذه الصورة يمكن أن نطبق عليها قواعد التشبيه الضمني وبنفس الطريقة يمكننا تناول قول الفرزدق:

قوارص تأتيني فيحتقرونها   وقد يملأ القطر الأتيَّ فيُفعم(+)(2)

وما دام الأمر يتطابق في هذه الأمثلة تطابقا شكليا، فيحق لنا أن ندرجها ضمن نماذج الصورة الرابعة، إلى جانب ما يسمى بـ(التشبيه البليغ).

وإذا تبين لنا قاعديا صحة إدماج الصورتين معا في صورة واحدة (الصورة الرابعة) أمكننا القول: أن هذا الصنف من التشبيه - نعني الضمني - يكون أكثر بلاغة في إطار هذه الصورة الرابعة لأنه يبتعد عن المباشرة الواقعية في التعبير التي تعتمدها نوعية (التشبيه البليغ)، ولا يخفى على أحد أن البعد عن التعبير المباشر يكسب التشبيه بلاغة كما قيل: {{والبليغ من التشبيه ما كان من هذا النوع، أعني البعيد، لغرابته، ولأن الشيء إذا نيل بعد الطلب له، والإشتياق إليه، كان نيله أحلى، وموقعه من النفس، والمسرة أولى...}}(3).

من هذا كله نستطيع القول: بأن جملة (محمد أسد) نوع مباشر من هذه الصورة الرابعة بينما جمل الأبيات السابقة نوع غير مباشر لهذه الصورة. وهذا هو الفرق في رأينا بين الصنفين داخل إطار الصورة الرابعة التي سنتكلم عنها ضمن الأنواع التي تم التعرض إليها إثر معالجتنا

---

(1) الطراز. المصدر السابق - ج 1 - ص 315

(+) الأتي : بمعنى السيل لا يدرى من أين يأتي وقد وردت في رواية أخرى الإناء

(2) الديوان - الفرزدق - المصدر السابق - م 2- ص 195

(3) الإيضاح - المصدر السابق ص 383 - 384

للصور الثلاثة السابقة.

النوع الأول:الإفـراد:

إن الطابع العام الذي يميز الصنف الأول من هذه الصورة - المباشر والصريح - هو طابع الإفراد بأضربه الثلاثة: المطلق والمقيد والمتعدد

أ- المطلق: ويمثل له بالتعبير العادي (محمد أسد) حيث يبرز الإفراد المطلق في كل من لفظتي (محمد، الأسد). ويمكن أن نمثل للمفرد المطلق بما جاء في قول الشاعر:

بنت بالفضل والعلو فأصبحـــت سماء وأصبح الناس أرضا (1)

ومن التشبيهات المفردة المطلقة ما تجمع في قول الشاعر:

بـدت قمرا ومالت خوطبان وفاحت عنبرا ورنت غزالا (2)

نلاحظ أن ألفاظ الطرف الأول والمتمثلة في ضمائر الرفع المتصلة بأفعال كل من (بدت، مالت، رنت) لم تلحق بأي قيد أو شرط يحد من صلاحيتها في التعبير عن طبيعة المشبه في هذه الصور الثلاثة وكذلك الأمر مع ألفاظ الطرف الثاني؛ فألفاظ كل من (القمر، الخوطبان، العنبر، الغزال) وظفت توظيفا مفردا دون قيد أو شرط. ولهذا سمي هذا النوع من الصوربالتشبيه المفرد المطلق

وإذا ما لحقت صفة تحد من حرية الطرفين في التعبير سميت بذلك نوعية الصورة التشبيهية مفردة مقيدة، إما في الطرفين معا، أو في طرف دون آخر. وهذا ما ستتعرف عليه فيما يلي:

ب - المقيد: ويرتبط هذا القيد في هذا الصنف الأول - المباشر والصريح - في الصورة الرابعة من صور التشبيه بالطرف الثاني في الغالب الأعم في النماذج التشبيهية التي بين أيدينا. ونوضح هذا القيد أولا بمثال واحد بسيط فنقول: (علي أسد هصور) فلفظة (هصور) قيد لنوعية الأسد الذي يشبهه علي، فقد لا يكون الأسد هصورا، فإذا ما قلنا (علي أسد) فيكفي أن يُؤخذ المعنى عاما وينطبق على أي أسد كان دون قيد أو شرط. ويدخل في هذا القيد ما جاء في حديثه عليه الصلاة والسلام: {{العزل ذلك الوأد الخفي}}(3) فالوأد هنا قُيِّد بلفظة (الخفي) لأن الوأد قد يكون جليا وظاهراً للعيان. والأمثلة الشعرية كثيرة ومتنوعة في هذا الباب، نذكر منها على

---

(1) الديوان - البحتري - عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه - حسن كامل الصيرفي - دار المعارف بمصر - ط2 م 2 - ص 1216

(2) الديوان - المتنبي - المصدر السابق - م 1 - ص 291

(3) فتح الباري - شرح صحيح البخاري - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - دار المعرفة بيروت لبنان - كتاب النكاح - م 9 - باب العزل - ص 308

سبيل المثال قول ابن الرومي في وصف قينة:

مابالها قد حُسِّنت ورقيبها أبدا قبيحا قبّح الرقباء

ما ذاك إلا أنها شمس الضحى أبدا يكون رقيبها الحرباء (1)

فلفظة (الشمس) وهي الصورة المقابلة للفظة (القينة) قيدت بلفظة (الضحى) حتى تكون للصورة خصوصيتها في دقة التعبير وحسن التصوير. ومن هذا التعبير ما جاء في قول أحدهم:

الله يعلم يا مغيرة أنني قد دستها دوس الحصان المرسل(2)

فالقيد في هذا البيت وقع على لفظة (الحصان) من لفظة (المرسل) فهي صفة بيّنت الحالة التي يكون عليها الحصان - وهو المشبه - ومن ثم ينتقل هذا القيد إلى المشبه حتى ترتسم الحالة الأخيرة التي يريد الشاعر أن يبينها في هذه الصورة التشبيهية. لنوعية الأخيرة التي يرد عليها الإفراد في هذه الصورة - إلى جانب صفة الإطلاق - صفة التعدد

ج - المتعدد: يكون التعدد في هذه الصورة الرابعة على واحدة لا غير: وهي أن يكون أحد الطرفين واحدا والثاني متعددا، والبارز في هذا أن يتعدد المشبه به لمشبه واحد، كأن نقول مثلا: (الشيخ محمد قد بلغ درجة كبيرة من العلم بين قومه؛ فهو نور على الجهل وسيف على الظلم) ومثل هذا التعدد نجده بارزا في قول عمران بن حطان في وصف الحجاج عندما لج في طلبه:

أسد علي وفي الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر (3)

فالموصوف - وهو (الحجاج) - واحد بينما يعدد له الشاعر صفتين اثنتين هما (الأسد، النعامة) مع تناقض كبير بين دلالة كل منهما لأن غرض الشاعر هو الهجاء. ولكن عندما يكون غرض الشاعر المدح فإن هذه الصفات ترد مكملة لبعضها في وصف الممدوح مثلما يتبين لنا في قول أبي تمام:

معشر أصبحوا حصون المعالي ودروع الأحساب والأعراض (4)

فالتعدد بيّن في هذا البيت حيث نجده متمثلا في لفظتي (الحصون والدروع) وهما متعددان لمشبه واحد وهو: (معشر القوم الذين مدحهم أبو تمام).

---

(1) الديوان - ابن الرومي - شرح الشيخ محمد شريف سليم - دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان - م 1 ص 13، 14.

(2) التشبيهات - ابن أبي عون - المصدر السابق - ص 242

(3) البيت لعمران بن حطان - ورد في ديوان الخوارج - جمع وتحقيق ثابت محمود معروف - دار المسيرة بيروت لبنان - 1983 م - ط 1 ص 114

(4) الديوان - أبو تمام - إيليا الحاوي - دار الكتاب اللبناني - بيروت لبنان - 1983 م - ط 1 - ص 343

وقد يتعدى التعدد الصفتين إلى ثلاث أو أربع صفات، كما يتضح جليا في قول يوسف بن هارون في المدح:

هو الدر والمرجان والبدر والدجى هو الورد والسوسان والغصن والحقف(1)

يحتوي الشطر الأول من هذا البيت على أربع صور تشبيهية والمشبه فيها واحد وهو ضمير الرفع المنفصل (هو) لم يتعدد، بينما تعددت الأطراف المشبه بها وهي: (الدر، المرجان، البدر، الدجى) ونفس الشئ ينطبق على الشطر الثاني من البيت، أي أن المشبه واحد والمشبهات به متعددة . ومما قد يسمى عند البعض بالأفراد المتعدد - في هذه الصورة الرابعة - تعدد تشبيهين أو أكثر في بيت شعري واحد كما هوالحال في قول النابغة النبياني المشهور:

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب (2)

ومثله قول المرقش:

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم (3)

توجد في هذين البيتين تشبيهات مفردة، ولكنها منفصلة عن بعضها البعض، يختلف التعدد فيها عن التعدد الذي سبق توضيحه لأن المشبه مختلف في كل صورة، ولكن مع محافظتها على صفة التعدد الفردي. ويعد هذا الصنف آخر أنواع التعدد الفردي الذي يسبق التركيب في هذه الصورة الرابعة.

النوع الثاني: التركيب:

لقد سبق القول: أن الإفراد هو الذي يميز طابع هذه الصورة، وبخاصة الجزء الأول منها المعروف بـ(التشبيه البليغ) وقد مثلنا لذلك من النثر والشعر، ولكن هذا لا يمنع من أن نجد التركيب في الكثير من الأمثلة الشعرية والنثرية وبخاصة في نماذج الجزء الثاني من الصورة الرابعة المعروف بـ(التشبيه الضمني) والذي لا يكون إلا مركبا. والمركب كما سبق أن بينا يأتي على صنفين: الأول يكون فيه التركيب مزجيا، والثاني يكون فيه تقابليا.

أ - التركيب المزجي: ومن أمثلة هذا التركيب ما نجده بارزا في قول الشابي:

يا بنت النور أنا وحدي من رأى فيك روعة المعبود !

---

(1) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس - المصدر السابق - ص 134

(2) الديوان - النابغة النبياني - دار بيروت للطباعة والنشر - 1402هـ - 1982 م - ص 18

(3) الشعر والشعراء - المصدر السابق - ص 165

فدعيني أعيش في ظلك العذ ب وفي قرب حسنك المعبود !

عيشة للجمال والفن والإلهام والطهر والسنى والسجود!

عيشة الناسك البتول يناجي الرب في نشوة النهول الشديد ! (1)

يؤدي هذا البيت الأخير بجملته تركيبا دقيقا لصورة تشبيهية أحسن ما تكون في الجمال التصويري: فهو يشخص صورةً لِناسكٍ متعبد يبتهل إلى الله في مناجاة صفت فيها روحه وغابت عن الوجود إلى ما وراء الوجود، إلى الحقيقة الدالة عن سر هذا الوجود. فهذه الصورة الروحية هي التي اختارها الشابي ليوضح لنا نوعية الحياة التي يحبذ أن يحياها. وهي كما نرى صورة مركبة تركيبا ملتحما لا نستطيع فصل أي موقف عن الآخر ولو حاولنا ذلك لمااكتمل المعنى الذي يريد الشاعر الوصول إليه؛ فإننا لا نستطيع أن نبعد: (عيشة الناسك) عن (البتول) كما لا نستطيع الإستغناء عن (مناجاة الرب، والنشوة المصحوبة بذهول شديد). ومن هذا القبيل نأخذ قول أبي تمام في المديح :

جدير بأن يستحيي الله باديا به ثم يستحيي الندى ويراقبه

سما للعلى من جانبيها كليهما سُمُوَّ عباب الماء جاشت قواربه (2)

يمثل البيت الثاني صورة تشبيهية مركبة تركيبا متماسك الأجزاء؛ فـ(السمو) الأول وحدة متكاملة سبكتها ألفاظ كل من (العباب، الماء، الجيشان، القوارب) في تبيان الحالة الأخيرة التي يكون عليها هذا (السمو). ولهذا فإننا لا نستطيع في كلا الطرفين (الأول والثاني) الإستغناء بأي لفظة بعينها في رسم الصورة المركبة بكاملها. ويبرز هذا التركيب المزجي جليا في الصنف الثاني من هذه الصورة الرابعة: وللتمثيل لذلك ندرج قول الشاعر في المدح:

عددت فلم أدرك لفضلك غاية وهل يدرك السارون للشمس مطلعا (3)

وندرج قول الآخر في الاعتذار:

لم آت ذنبا فإن زعمت بأن أتيت ذنبا فغير معتمد

قد يطرفُ العين كف صاحبها فلا يرى قطعها من الرشد (4)

---

(1) الديوان - أبو القاسم الشابي - دار العودة بيروت لبنان - 1972 - ص 309

(2) الديوان - أبو تمام - المصدر السابق ص 92

(3) الديوان - البحتري - المصدر السابق - م 2- ص 1266

(4) التشبيهات - ابن أبي عون - المصدر السابق - ص 347 - (البيت منسوب لسعيد بن حميد).

إذاً فالتركيب المزجي بيِّن في هذين المثالين باعتبار أن كل طرف من طرفي الصورة الواحدة يستقل بتركيبته الخاصة التي تؤدي معنى واحدا في مقابلة المعنى الواحد الذي تؤديه ألفاظ الطرف الثاني مجتمعة: ففي المثال الأول نجد الشطر الأول من البيت ينفرد بموقف مركب من عدة عناصر تتمثل في المحاولات الإحصائية التي قام بها الشاعر للوقوف على جل فضائل الممدوح، ولكن الشاعر في نهاية المطاف ييئس من الوصول إلى مبتغاه وذلك بسبب كثرة هذه الفضائل غير متناهية الحدود والفواصل. فهذا الموقف اليائس قابله الشاعر بموقف آخر تمثل في عدم إمكانية السارين بالليل من إدراك مطلع الشمس أثناء بزوغها وقت الشروق لأنهم لا يعلمون من أي مكان بالتدقيق تطلع عليهم وذلك بسبب علوها المفرط عن الأرض وكذلك بسبب كثرة مطالعها وتنوعها من يوم لآخر. وبهذه الكيفية يمكننا التماس التركيب المزجي في المثال الثاني حيث نجد الشاعر يربط في هذين البيتين بين معاملتين عفويتين: إحداهما قام بها هو نفسه تجاه مخاطَبه، والأخرى قام بها عضو من أعضاء الإنسان تجاه عضو آخر لنفس الإنسان. وفي كل معاملة من هاتين المعاملتين نجد موقفا مركبا: ففي البيت الأول نجده بين الشاعر والمخاطب ويتمثل في (نفي الذنب والزعم والشك الذي اعتلج صدر المخاطَب) وفي (تبرير الفعل من قبل الشاعر بعدم تعمده الأذى تجاه مخاطَبه). وأما البيت الثاني فنجده يتشكل في فعل حركي خارجي قامت به الكف تجاه العين، وفي فعل داخلي عينه الحديث النفسي الذي دار في مخيلة الإنسان إثر تلقيه الألم من قبل عضو من أعضاء جسده. والدليل على هذا الحوار النتيجة التي خلص إليها في نهاية التفكير (فهو لا يرى ضرورة منطقية لقطع يده التي سببت له الألم). ولعل بهذه النماذج التي قمنا بتحليلها يكون التركيب المزجي - في هذه الصورة الرابعة - قد اتضح بعض الشيء، لننتقل إلى التركيب الثاني

ب - التركيب التقابلي: ومن أمثلة هذا النوع ما نجده في قول أبي الطيب المتنبي:

فقر الجهول بلا قلب إلى أدب ... فقر الحمار بلا رأس إلى رسن (1)

فالتقابل في هذا البيت بيِّن بين عناصر الطرفين، فعنصر (الإنسان الجهول) تقابل مع عنصر (الحمار) لاجتماع العنصرين في صفة (عدم العلم والمعرفة)، كما تقابلت (حالة انعدام القلب) بحالة (انعدام الرأس)، لكون كل منهما يمثلان الجزء الأساسي في كلا الطرفين: (الإنسان والحمار). وكذلك نجد التقابل بين عنصري (الأدب والرسن) لكونهما يجتمعان في صفة هي

---

(1) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب - م 1 ص 377

(السيطرة والتحكم) عند الإنسان والحمار. ومن أمثلة هذا القبيل ما نلمسه في قول الشاعر:

يا حرُّ أمسى سواد الرأس خالطه ... شيب القذال اختلاط الصفو بالكدر (1)

ففي هذه الصورة المركبة نجد بعض العناصر تتقابل في علاقات تجمعها إذا أجرينا هذه المقابلة فمثلا نجد(سواد الرأس) في الطرف الأول يتقابل مع (الكدر) في اللون. وكذلك نجد عنصر (الشيب) في الطرف الأول يتقابل مع عنصر (الصفو) في الطرف الثاني. والأفضل كما سبق القول في هذه النماذج المركبة المتقابلة العناصر أن يؤخذ المعنى جملة دون تجزئته، لِمَا في التجزئة من تفكيك للمعنى العام وتقليل من بلاغة الصور التشبيهية. وعلى هذا المنوال يمكننا أن نقيس باقي الأمثلة التي تندرج تحت هذا التركيب التقابلي.

ونظن بهذا القدر من الأمثلة أن النوعية الثانية المركبة - بشقيها المزجي والتقابلي - قد اتضحت بعض الشيء، ولا مانع بعد ذلك أن ننتقل إلى معالجة النوعية الثالثة التي يمكن أن تبرز من خلالها الصورة الرابعة.

النوع الثالث: القلب أو العكس:

لم نعثر من خلال تقصينا للأمثلة التشبيهية - الشعرية والنثرية، سواء المتوارثة عند علماء البلاغة في كتبهم، أو المبثوثة في دواوين الشعراء وكتب المؤلفين - على نماذج معكوسة لهذه الصورة الرابعة بصنفيها (البليغ والضمني). وما وجدناه من قبيل القلب أو العكس في الصورة المحذوفة الأداة يتعلق بالصورة الثانية، وقد مثلنا لذلك فيما سبق. ولكن لا بأس من أن نذكر ببعض صيغ هذه الأمثلة المعكوسة، حتى لا يختلط الأمر مع نوعية القلب في هذه الصورة الرابعة.

ومن صيغ القلب أو العكس في الصورة المحذوفة الأداة ما يورده عبد القاهر الجرجاني في قوله: {{...واعلم أن هذه الدعوى وإن كنت تراها تشبه قولهم: لا يدري أوجهه أنور أم الصبح ؟ وغرته أضواء أم البدر؟ وقولهم إذا أفرطوا: نور الصباح يخفى في ضوء وجهه، أو نور الشمس مسروق من جبينه، وما جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة...}}(2). ففي هذه الصيغ التي ذكرها عبد القاهر عكس للمألوف وقلب للصورة الطبيعية في المبالغة مع حذف لأداة التشبيه، وذكر لوجه الشبه؛ ففي قوله: (لا يدري أوجهه أنور أم الصبح ؟) مبالغة في قوة نسبة النور إلى الوجه، إلى درجة اختلط فيها الأمر في التفضيل بين نوره ونور الصبح. وهي كما

(1) التشبيهات - ابن أبي عون - المصدر السابق - ص 219

(2)أسرار البلاغة - المصدر السابق - ج 2 - ص 87

نرى تسوية بين الطرفين في وجه الشبه. بينما نجد المبالغة في عكس الصورة واضحة في الصفتين الأخيرتين: (نور الصباح يخفى في ضوء وجهه أوتور الشمس مسروق من جبينه) إذ يرتفع النور في الوجه فيصير أقوى منه في الصبح، وكذلك الأمر بالنسبة لنور الجبين الذي يطغى على نور الشمس فيغطيه. وصيغ القلب هذه المُبالِغة في جعل المشبه به مشبها، أو العكس، تدخل كلها تحت القاعدة البلاغية للصورة الثانية المعكوسة، لأن وجه الشبه مصرح به في هذه النماذج.

وبالرغم من عدم حصولنا على نماذج - شعرية أونثرية - معكوسة أو مقلوبة لهذه الصورة الرابعة، فإننا نستطيع أن نمثل لها بنماذج مبسطة، اعتمادا على القاعدة البلاغية الموضحة لشروط القلب أو العكس وذلك بأن نحذف الأداة ووجه الشبه، ثم نعكس أي صورة مألوفة في جل التشبيهات العادية. كما يمكننا أن نستعين بالتشبيهات المعكوسة في الصور التي سبق ذكرها. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نمثل لهذه النوعية بتحوير قول الشاعر السابق نثرا:

وبدا الصباح كأن غرته   وجه الخليفة حين يمتدح(1)

فنثره بقولنا: (وما غرة الصباح إلا وجه الخليفة حين يمتدح) وبهذا العمل نكون قد حذفنا وجه الشبه، وهو غير مصرح به في الصورة التشبيهية من الأساس، وكذا نكون قد تخلصنا من أداة التشبيه (كأن). وبهذه الطريقة نكون قد تحصلنا على النوعية المعكوسة للصورة الرابعة. وعلى هذا المنوال يمكننا أن ننسج هذا المثال الموالي: (وما البدر للسارين بالليل إلا محمد بين أهله حين يحل بهم الخطر)، والمعنى المفصل لهذا المثال: إن حاجة السارين للبدر بالليل لهدايتهم كحاجة هؤلاء القوم إلى محمد لينقذهم من الخطر ويهديهم إلى الرشاد وبهذه الكيفية يمكننا التمثيل لنوعية القلب أو العكس لهذه الصورة الرابعة من طور التشبيه، والتي تمثل آخر الجوانب الشكلية في كلامنا عن النوعية الثالثة، قبل أن نتطرق إلى الجوانب الدلالية من خلال تناولنا للنوع الرابع والأخير.

النوع الرابع: الجانب الدلالي:

أ - الدلالة الحسية: قلنا فيما سبق أن ألفاظ الطرفين في الصورة التشبيهية الواحدة قد تخضع جميعا للإدراك الحسي أي أنها تؤدي دلالات حسية يمكن إدراكها بواسطة إحدى الحواس الخمس. والأمثلة من هذا القبيل - ضمن ألفاظ الصورة الرابعة - كثيرة ومتنوعة، نستطيع أن نمثل لها من النثر الفني بقول القائل: {(...ثم قيل لأبي الحارث جُمَّيْن: كيف وجه محمد بن يحي على غدائه ؟

(1)هذا البيت سبقت نسبته إلى محمد بن رهيب - في هذا الفصل في النوع الثالث ص 105

قال: أما عيناه فعينا مجنون}}(1) فلفظتا (العينين) في كل من المشبه والمشبه به تخضعان للحس البصري، مع العلاقة الجامعة بينهما، وهي: (عدم استقرار البصر وتغيره في كل الإتجاهات مع جحوظ العينين الذي يميز الإنسان المجنون على وجه الخصوص)، وأما من الشعر فيمكن التدليل على المعاني الحسية التي تؤديها الألفاظ التشبيهية بقول أبي الطيب المتنبي:

فكنت الشمس تبهر كل عين   فكيف وقد بدت معها اثنتان (2)

إن ضمير الرفع المتصل في (كنت) يعود على المخاطب وهو الممدوح وهوبطبيعة الحال محسوس، وكذلك الأمر بالنسبة للفظة (الشمس) مع وجود علاقة تربطهما وهي (الإنارة) التي تخضع هي الأخرى إلى الإدراك البصري، ولا نريد الإطالة في سرد الأمثلة من هذا النوع، فهي متواجدة بكثرة، وإدراكها أمر بسيط لا يكلف عناءً ولا تعبًا.

الدلالة المعنوية:وهي أن تحمل ألفاظ الطرفين معاني لا تخضع لأي حاسة من الحواس الخمس المعروفة. ولهذا فإنها تحتاج إل إعمال فكر وتدبر عقل للعثور على العلاقة الرابطة بين الطرفين بطبيعتهما غير المحسوسة. والأمثلة التي أشار إليها علماء البلاغة تدور حول تشبيه (الجهل بالموت) أو تشبيه (العلم بالحياة) إلخ..ونستطيع أن نتبين ذلك من خلال هذا المثال النثري لمصطفى صادق الرافعي: {{فإذا قرضتُ شعرا واستوى لي ما أحب أحسست إحساس الملك الذي يضم إلى مملكته مدينة جديدة، وإذا تناولت طاقة من الزهر وتأملتها على ما أحب شعرت بها كأجمل غانية من النساء توحي إلي وحي الجمال كله}}(3). نلاحظ أن (الإحساس) في طرفي الصورة الأولى شيئ معنوي لا يمكن إدراكه بواسطة الحواس الخمس، ومن ثم فالعلاقة هي الأخرى تابعة للطرفين في نفس المعنى. وكذلك الأمر ينطبق على لفظة (الوحي) المرتبطة بـ(الزهر والجمال) في الصورة الثانية، والتي لا تخضع لمقياس الحواس، وإنما تخضع لمقياس العقل في فهم طبيعة العلاقة بينهما على وجه من التأويل ويبرز هذا المعنى الدلالي أكثر في قول خليل مطران يرثي البارودي:

تَظَمتَ المعالي نظم المعاني   ففتح الكلام كفتح القرى (4)

---

(1) البخلاء - المصدر السابق - ص 210

(2) الديوان - المتنبي - ناصيف اليازجي - دار بيروت للطباعة والنشر - 1401 هـ - 1981 م - م 2 ص 458

(3) وحي القلم - المصدر السابق - م 3 - ص 85

(4) خليل مطران شاعر القطرين - إيليا الحاوي - دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان - 1978 م - ط 1 - ج 1 ص 96

يضم الشطر الأول من هذا البيت صورة تشبيهية محبوكة النظم ، استعمل فيها الشاعر الفكر في مقابلة طرفيها معتمدا في ذلك على تصور عقلي بحت فقد جمع بين صورة (المعالي) السامية وبين صورة (المعاني) الرفيعة، ثم ترك القارئ يبحث عن العلاقة بين هاتين الصورتين لشيئين مختلفين طبيعة وجوهرا

وإذ تبين لنا من خلال النقطة الأولى والثانية إمكانية انفراد الطرفين بإحدى الدلالتين الحسية والمعنوية، فلا يفوتنا أن نشير إلى إمكانية المزج بينهما في صورة تشبيهية واحدة. وفي هذا الغرض يشترط بعض علماء البلاغة أن يكون الطرف الأول من الصورة غير محسوس: أي يدرك بواسطة العقل، بينما يكون الطرف الثاني محسوسا يدرك بواسطة الحواس، ولا يجيزون عكس الصورة أي تشبيه المحسوس بالمعقول: {{لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها ولذلك قيل من فقد حِسًّا فقدَ فقد عِلما، وإذا كان المحسوس أصلا للمعقول فتشبيهه به يكون جعلا للفرع أصلا وللأصل فرعا وهو غير جائز..ولذلك لو حاول محاول المبالغة في وصف الشمس بالظهور والمسك بالطيب، فقال الشمس كالحجة في الظهور، والمسك كخلق فلان في الطيب كان سخيفا من القول}}(1). وأما التشبيهات الحسنة التي وردت على هذا المنوال فهم يشترطون فيها التقدير، أي أن يقدر المعقول بالحس، ويجعل كالأصل على طريق المبالغة. وفي هذا المعنى يقول الرازي: {{واعلم أن الوجه الحسن في هذه التشبيهات أن يقدر المعقول محسوسا ويجعل كالأصل في ذلك على طريق المبالغة وحينئذ يصح التشبيه}}(2). وما دام الأمر بهذه الكيفية - أي أن يشبه المحسوس بالمعقول - نحاول التطرق إلى بعض الأمثلة النثرية والشعرية لهذين الصنفين حتى تكتمل النظرة العامة لهذه الصورة الرابعة من صور التشبيه. فمن أمثلة تشبيه المعقول بالمحسوس قولنا: (الحضارة طفرة حصان جامح على شفا جرف عال قد يؤدي بصاحبه إما إلى النجاة، وإما إلى الهلاك) فـ(الحضارة) لفظ عام قد يفسر بأشياء مادية، وأخرى معنوية، إلا أن الجانب المعنوي هو الغالب على إدراكنا لها. بينما (طفرة الحصان) فهي تخضع للحس والمشاهدة والتجربة. ومن أمثلة هذا النوع أيضا قولنا: (الجهل حيوان مفترس إذا لم تقتله قتلك) والأصل في القول: (الجهل كالحيوان المفترس إن لم تقتله قتلك). ومن الأمثلة الشعرية التي تؤدي هذا الغرض ندرج قول الشابي في وصف الدنيا:

---

(1) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - المصدر السابق - ص 93

(2) المصدر نفسه - ص 94

وتلك هي الدنيا رواية ساحر   عظيم غريب الفن مبدع آيات (1)

يجسد لنا الشاعر (الدنيا) - وهي شئ معنوي - في شئ مادي على شكل رواية حبك فصولها روائي ماهر اعتمد الخوارق الساحرة طريقة في سرد أحداثها. ومما يضاهي هذا النوع ما جاء في قول البحتري:

وأشرق عن بشر هو النور في الضحى   وصافى بأخلاق هي الطل في الصبح (2)

يحتوي الشطر الثاني من هذا البيت على صورة تشبيهية جمعت بين طرفين أحدهما معنوي ، والذي تمثله لفظة ضمير الرفع المنفصل (هي) العائد على الأخلاق الصافية. بينما نجد الطرف الثاني يمثل الجانب المادي المحسوس وهو (الطل) قطرات الندى وقت الصباح. وبهذا تكون هذه الصورة الرابعة قد جمعت بين المعقول والمحسوس على وجه الترتيب. ومما يستدل به في هذا النوع قول أحمد بن فراج:

وربّت ريح امتزجت بنفسي   مزاج الماء الراح الزلال(3)

يشتمل الشطر الأول من البيت على جزئين: أحدهما مادي وهو (الريح)، والثاني معنوي وتمثله لفظة (النفس) وهما متحدان يمثلان طرفا واحدا وهو الشعور النفسي الخاص الذي لا يظهر للعيان. فأبرزه الشاعر في صورة تشبيهية مجسدة تمثلت في عملية امتزاج الماء بالخمر المتصفة بخاصية العذوبة والصفاء. إذاً فقد جمعت هذه الصورة بين طرفين: الأول يخضع للادراك العقلي، بينما الثاني يخضع للإدراك الحسي الذوقي ،البصري. ونكتفي بهذا المثال الأخير للتدليل على تشبيه المعقول بالمحسوس. وأما فيما يخص تشبيه المحسوس بالمعقول فيمكننا معاينة ذلك في قول الشابي واصفا شعبه:

أنت روح غبية تكره النو   ر وتقضي الدهور في ليل ملس(4)

يمثل ضمير الرفع المنفصل (أنت)- الموجه إلى الشعب - الجانب المحسوس في هذه الصورة المقابل لـ(الروح)- الجانب المعنوي فيها - لأن (الشعب) يتمثل في مجموعة من الناس تخضع للمعاني الحسية. بينما (الروح) لا تخضع لهذا الإدراك الحسي، لأنها عبارة عن شئ معنوي يدرك

(1) الديوان - ابو القاسم الشابي - المصر السابق - ص 393

(2)الديوان - البحتري - المصدر السابق - ص 445

(3) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس - المصدر السابق - ج 1 ص37

(4) الديوان - الشابي - المصدر السابق - ص 247

بواسطة التصور العقلي. ومما يمكن إدراجه تحت هذا النوع قول بشار:

علِّليني ياعبد أنت الشفاء　　　واتركي ما يقول لي الأعداء

كل حي يقال فيه وذو الحلم　　　مسريح وللسفيه الشقاء (1)

ففي قوله (أنت الشفاء) صورة تشبيهية جمعت بين طرفين أحدهما محسوس، والآخرغير محسوس فضمير (أنت) العائد على (عبد) يمثل الجانب المحسوس فيها، بينما (الشِّفاء) يمثل الجانب المعنوي فيها، لأنه لا يدرك بواسطة أي حاسة من الحواس الخمس المعروفة. إذا أردنا أن نطبق أشراط الرازي في تقدير المعقول بشئ محسوس لقلنا أن (الروح) تمثل شيئا ماديا، وهو الكائن الحي الذي يمثلها في هذا البيت بميزة الغباء. كما أن (الشِّفاء) يقدر بمادة الدواء الصالح لمرض معين يحمل الشفاء.

وانتهاء بهذا العنصر الأخير من عناصر الصورة الرابعة من صور التشبيه يكون الكلام في الجانب النظري قد أتى على آخره، لننتقل إلى الجانب التطبيقي، فنتتبع وجود هذه الصور بأنواعها في القرآن الكريم، وسنخصص لهذه الدراسة الفصل الموالي بحول الله تعالى.

---

(1)الديوان ـ بشار بن برد ـ المصدر السابق ـ م 1 ص 140

الفصل الثالث

التشبيه صوره أنواعها

(الجانب التطبيقي في القرآن الكريم)

الجانب التطبيقي في القرآن الكريم:

بعد أن تتبعنا صور التشبيه الأربعة بأنواعها من الجانب النظري لها، ومثلنا لكل صورة بنماذج شعرية ونثرية فنية ومبسطة، وذلك انطلاقا من القواعد النظرية لكل صورة قصد؛ إبانة وتوضيح وتحديد أشكال الصور التي سنتتبعها في الجانب التطبيقي في تشبيهات القرآن الكريم، ولذا فإننا سنتناول كل صورة بأنواعها على حدة ابتداء بالصورة الأولى وانتهاء بالصورة الرابعة.

أولا: وضعية الصورة الأولى في القرآن الكريم:

لقد سبق القول - فيما تقدم - عن قلة هذه الصورة التشبيهية وندرتها في مجمل الأعمال الأدبية الفنية - شعرية كانت أم نثرية - وأرْجعت الأسباب حسب اجتهادنا إلى بساطة هذه الصورة، وذلك لاعتمادها على التفصيل في التصريح بالأركان الأربعة (المشبه والمشبه به والأداة ووجه الشبه). ونفس هذه الملاحظة انتقلت معنا إلى نماذج هذه الصورة في القرآن الكريم، مع اختلاف في طريقة التصريح بوجه الشبه، أي في العلاقة الرابطة بين المشبه والمشبه به؛ فقد اعتدنا أن تأتي عناصر هذه الصورة على إحدى الطريقتين:

الأولى:أن يُسبق فيها التصريح بوجه الشبه أداة من أدوات الجر، وهي على وجه الشيوع حرف (فيْ) كأن نقول: (محمد كالأسد في الشجاعة).

الثانية :أن يُصرح فيها بوجه الشبه على أسلوب الخبرية، كأن نقول مثلا: (محمد كالأسد شجاعة).

وهذا ما لاحظناه من خلال الأمثلة الشعرية والنثرية في الجانب النظري لهذه الصورة، وذلك لوجود فاصل لفظي يجعل الصورة التشبيهية تستقل لذاتها دون انتظار التصريح بوجه الشبه. وينطبق هذا الأمر على جل أنماط هذه الصورة التي تم حصرها من بين تشبيهات القرآن الكريم. وستتعرف على مدى صحة هذه الملاحظة من خلال مناقشتنا لبعض هذه النماذج. وللتمثيل لذلك نأخذ قوله تعالى في وصف قلوب بني إسرائيل الذين أمروا بذبح البقرة: [[ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة]](1) حيث نجد الصورة التشبيهية في هذه الآية محددة بجملة (فهي كالحجارة)؛ لأن ضمير الرفع المنفصل (هي) يمثل القلوب التي سبق ذكرها في بداية

(1)البقرة آية73

الآية، وهي المشبه، وأما (الكاف) فهي أداة من أدوات التشبيه، وأما (الحجارة) فهي الجهة المقابلة للقلوب، وهي المشبه به.- فهذه صورة تشبيهية قائمة بذاتها مع انعدام ذكر وجه الشبه .

وإذا بحثنا عن العلاقة القائمة بين قلوب بني اسرائيل الذين عاندوا في ذبح البقرة، وبين الحجارة بوجه عام لما وجدنا أمامنا سوى صفة القسوة. وإذا كان الأمر كذلك فإن الآية الكريمة ذكرت هذه الصفة (القسوة) في بداية الآية وفي نهايتها. فإذا افترضنا أن اللفظة الأولى هي المناسبة لتكون وجه الشبه، وبالتالي يكون سياق الصورة التشبيهية كالآتي: [[ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة]](1)- وبهذه الكيفية يكون وجه الشبه المتمثل في فعل: (قست) المبني للماضي في وضعية المشبه المتعلق بالقلوب في مقابل الحجارة. وهذا التعبير يتطلب وجه شبه آخر يتمثل في قوة الصفة أو ضعفها، لأن المألوف في التشبيهات المبدوءة بفعل ماض يبنى فيها وجه الشبه على حالة الصفة، ويكون السياق فيها على العموم كالآتي: (جاهد محمد جهاد الأبطال ، وفاز الجيش فوز الأبطال، وقست قلوب القوم قسوة الحجارة). وهنا يكون وجه الشبه محذوفا يتعلق بقوة صفة الجهاد، وصفة الفوز، وصفة القسوة، قسوة الحجارة كما هو الحال في الآية.

وأما إذا افترضنا أن اللفظة الثانية هي المناسبة لأن تكون وجه الشبه، فإن سياق الصورة التشبيهية يكون تاما كما جاء في الآية: [[ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة]](2) فلفظة القسوة الأخيرة جاءت منفصلة عن الصورة التشبيهية (فهي كالحجارة) بفاصلين لفظيين هما أداة التخيير (أو) ولفظة (أشد) التي تدل على المفاضلة، الشئ الذي يجعل صفة (القسوة) تعني طبيعة المفاضلة بين القلوب والحجارة، وهي بذلك تنوب مناب وجه الشبه ، أو هي وجه الشبه في حد ذاتها، لأن التعبير في السياق العادي يكون- والله أعلم- بهذه الكيفية: (قلوب بني إسرائيل كالحجارة في القسوة أو أشد من ذلك) وبهذه الكيفية تكون هذه الصفة (قسوة) هي التي تؤدي دور وجه الشبه أكثر من سابقتها.

ونفس الأمر ينطبق على وجه الشبه المذكور في الصورة التشبيهية الموالية في قول الله تعالى : [[ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أوهو أقرب]](3). فقوله تعالى : (أو هو أقرب) يدل على أن صفة القرب هي التي أشارت إليها أداة التشبيه (الكاف)، فبدلاً من أن يصرح بوجه الشبه تصريحاً عادياً كأن يقال: (إن قيام الساعة يشبه حركة لمح البصرفي القرب)

---

(1)(2) البقرة آية 73

(3)النحل آية 77

جيء بفعل من أفعال التفضيل (أقرب) لينوب مناب وجه الشبه (القرب) بطريقة فنية لمّاحة.

وإذا انتقلنا إلى مناقشة مثال آخر من أمثلة هذا النوع نأخذ قوله تعالى: [[ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون]](1). نلاحظ أن هذه الصورة التشبيهية كسابقاتها لانجد فيها وجه شبه مصرح به تصريحاً عادياً، ولكن نتوصل إليه عن طريق محاورة جملة التفضيل (بل هم أضل)؛ لأن المفاضلة لاتكون إلا إذا ذكرت صفة المفاضلة. فلفظة (أضل) دلت على أن المفاضلة كانت في الضلالة، وزادت في طرف دون آخر، فهؤلاء القوم يشبهون الأنعام في الضلالة، بل هم أشد ضلالة منها، وعلى هذا الأساس تكون لفظة (أضل) هي وجه الشبه في حالة التصريح به في السياق اللفظي العادي: (هؤلاء القوم يشبهون الأنعام في الضلالة بل هم أضل منها). ونجد هذه العلاقة التشبيهية (الضلالة) تتكرر بنفس الطريقة في صورة تشبيهية أخرى من قوله تعالى:[[أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً]](2) ولكن (الضلالة) هنا فُسِّرت بلفظه (سبيلا) دلالة على أنها وجه الشبه الذي يربط بين هؤلاء القوم وبين الأنعام، مع طفو هذه الصفة في المشبه أكثر من المشبه به، وهي زيادة في التخصيص. ويقترب من هذا المثال مثال آخر تظهره ألفاظ الآية الكريمة من قوله تعالى: [[مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون]](3)، ولتحديد عناصر هذه الصورة التشبيهية نقول: إن المشبه هنا مركب من المشركين والأولياء، والمشبه به مركب من العنكبوت وبيتها، والأداة هي (الكاف) بينما وجه الشبه وهو الذي يبدو للوهلة الأولى غير موجود؛ لأن الصورة التشبيهية كما هي في الآية تنتهي عند قوله تعالى: (اتخذت بيتا)، غير أن الجملة الإستئنافية -المؤكدة (بأن) والمتضمنة لمعنى التفضيل الذي تحمله لفظة (أوهن)- تدل على أن الصفة المراد ربطها بين لجوء المشركين للأولياء من دون الله، وبين اتخاذ العنكبوت بيتا تسكن فيه - هي (الوهن) التي تدل على ضعف الملجأ، ولكن هذه المرة يقوى وجه الشبه في المشبه به أكثر من المشبه خلافا للصور التشبيهية السابقة.

تعد الأمثلة السابقة متقاربة في طريقة التصريح بوجه الشبه، إذا ما قوبلت بالأمثلة الآتية

(1) الأعراف آية 179

(2) الفرقان آية 44

(3) العنكبوت آية 41

في نفس الغرض، وللتمثيل لذلك نأخذ قوله تعالى: [[يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم يكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما]](1) تبنى الصورة التشبيهية في هذه الآيات القرآنية على تشبيه حالة بحالة: فأما الحالة الأولى: وهي (المشبه) تؤكد حالة الإنسان الذي لم يكن له نصيبٌ فيما أصاب القوم من فضل بعد تخلفه عنهم، وأما الحالة الثانية: وهي (المشبه به) فإنها تبين حالة الإنسان الذي لم تسبق له مودة ومعرفة بهؤلاء القوم، وقد ربطت هاتان الحالتان بأداة التشبيه (كأن)، وأما وجه المماثلة فإننا لانصل اليه بالطريقة المألوفة، ولعل هذا ما أشار إليه صاحب التحرير في تحديده لوجه الشبه: {{.أنه لما تمنى أن لو كان معه،وتحسر على فوات فوزه لو حضر معهم}}(2). وهذا المعنى نتوصل إليه عن طريق جملة التحسر: (يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما). فإن هذا القول المصرح به لا يحدث إلا من إنسان لم تكن له صلة بهؤلاء القوم، وأما صاحبه أي (القول) فقد كانت له صلة وثيقة بهم ولكنه تأخر عنهم، وبالتالي لقد تشابه معه في هذه المقولة. وعليه تكون هذه الجملة الأخيرة بمثابة وجه الشبه الذي يربط بين هذين الطرفين المتقابلين.

وآخر مثال لهذه النوعية نجده مجسدا في قوله تعالى: [[إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون]](3). من الواضح أن هذه الآية قد أشارت إلى العلاقة القائمة بين خلق عيسى وخلق آدم بالنسبة إلى قدرة الله، فالقدرة التي استطاعت أن تخلق آدم من تراب ثم تنفخ فيه وتقول له كن فيصير إنسانا، قادرة على ما هو أقل منه صعوبة في الخلق؛ وهو أن تخلق إنسانا من إمرأة دون أن يمسها إنسان. وبهذا تكون العلاقة واضحة وهي الإستطاعة الآمرة،والتي تمثلها عبارة (كن فيكون) إذاً فالكينونة الآمرة والمُنفِّذة هي وجه الشبه الذي يجمع بين العمليتين: عملية خلق عيسى، وخلق آدم وهذا ما يؤيده قوله تعالى: [[ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون]](4).

---

(1)النساء آية 71-72-73

(2)التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 3 - ص 263

(3)آل عمران آية 58

(4)مريم آية 33، 34

من خلال مناقشتنا لما تقدم من أمثلة تبين لنا أنها تخضع لمقاييس الصورة التشبيهية الأولى، وهذا الأمر سيتيح لنا البحث عن الأنواع التي وردت من خلالها هذه الأمثلة التشبيهية القرآنية.

النوع الأول:الإفراد:

إذا تتبعنا هذه النوعية الفردية في الأمثلة القرآنية السابقة وجدناها تبرز في معظمها من بين مجموعها العام، وقد تراوحت هذه النوعية بين الإفراد المطلق والمتعدد دون الإفراد المقيد.

أ- المطلق: ومن أمثلة هذا النوع ما نجده في المثال السابق من قوله تعالى واصفا قلوب بني إسرائيل بالقسوة، [[فهي كالحجارة أوأشدقسوة]](1). فالإفراد اللفظي واضح في الضمير العائد على القلوب (هي)، وكذا في (الحجارة)المقابلة لهذه القلوب، وكلا الطرفين لم يسبقا بأي قيد لفظي يوجه وضعيتهما داخل إطار الصورة التشبيهية. ونفس الأمر ينطبق على المثال الموالي في قوله تعالى: [[وما أمر الساعة إلا كلمح بالبصر أو هو أقرب]](2)، فالطرف الأول يتكون من لفظتي (الأمر والساعة) وهما معا يؤديان أحادية الحدث، حدث الساعة. وهذا الحدث مطلق لم يتبع بأي قيد لفظي يحد من علاقته، وكذا الطرف الثاني يتكون من اتحاد لفظتي (اللمح والبصر) في تأدية معنى واحد وهو سرعة الحركة، حركة البصر؛ وهذه الحركة هي الأخرى لم تقيد بأي صفة تحدد لها قوتها ولا طريقة سرعتها.

ب - المتعدد: لم نعثر من خلال النماذج التي بين أيدينا على صور تشبيهية ذات فردية متعددة في الطرفين المتقابلين، والتعدد الذي نجده في هذه النماذج يكون في طرف واحد فقط. كما هوالحال في تعدد لفظتي (الجن والإنس) وما تبعتهما من خصائص فسيولوجية متعددة مثل (لايفقهون، ولايبصرون، ولايسمعون) في مقابل طرف واحد مفرد غير متعدد والمتمثل في لفظة (الأنعام)(3) في الآية السابقة. والتعدد نفسه يتكرر في مثال آخر ولكن بكيفية مغايرة إذ تتعدد بعض الصفات الفسيولوجية لموصوف واحد بدلا من موصوفين كما مر في المثال السابق، وفي طرف واحد من الصور التشبيهية وهذه الصفات هي (يسمعون، يعقلون)، والمتعلقة بالكفار والمشركين في مقابل طرف واحد (الأنعام) الآية السابقة. وهذا الطرف كما هو واضح مفرد غير متعدد الصفات.

---

(1)البقرة آية 73

(2)النحل آية 77

(3)الأعراف آية 179

وبهذا يمكننا القول أن التعدد في هذه النماذج القرآنية يختلف شكلا عن التعدد الذي تطرقنا إليه في الجانب النظري، لأن وجه الاختلاف يكمن في أن التعدد هنا تجاوز الأطراف إلى الصفات. بينما التعدد المعهود يكون إما في الأطراف أو في أوجه الشبه، وقد مثلنا لذلك نظريا،إذاً فالتعدد اكتفى بالطرف الأول من الصورة وتقابل مع المفرد المطلق في الطرف الثاني منها. وكل هذا مندرج تحت الإفراد في النوع الأول.

النوع الثاني: التركيب:

سبق القول حول التركيب في الصورة الأولى في الجانب النظري بأن التصريح بوجه الشبه يعوق عملية التركيب؛ ولهذا وجدنا نماذج قليلة في أدبنا العربي شعره ونثره، وكذا الأمر ينطبق على القرآن الكريم، إذ أن قلة هذه النوعية ارتبطت جدليا بقلة الصورة الأولى بعامة في نماذجه التشبيهية. وعلى هذا الأساس سنكتفي بما عرضناه من نماذج سابقة للتدليل على هذا النوع المركب بفرعيه المزجي والتقابلي.

أ- التركيب المزجي: ويتمثل هذا النوع - حسب النماذج السابقة - في تشبيه حالة بأخرى، ويبرز جليا في قوله تعالى واصفا حالة المنافق المتحسر عن عدم صحبته المسلمين في ساعة النصر عند جمع الغنائم، بحالة الإنسان الذي لم تكن بينه وبين هؤلاء المسلمين مودة أو معرفة سابقة، الآية(+). وهذه الحالة تنطبق على جل المنافقين، وفي هذا قال أحدهم: {{وشبّه حالهم بحال من لم تسبق بينه وبين المخاطبين مدة حقيقية أو صورية، فاقتضى التشبيه أنه كان بينه وبينهم مودة من قبل هذا القول}}(1). والحالة نفسها تنطبق على الصورة التشبيهية التي جمعت بين عمليتي (خلق عيسى وخلق آدم) في الآية السابقة، لأن كلا العمليتين تمّت بكلمة (كن) والجامع بينهما: {{محل التمثيل كون كليهما خلق من دون أب}}(2)، ولكن بطريقتين مختلفتين ؛ تجسدت الأولى في القصة الطويلة التي حدثت لمريم (عليها السلام) في عملية الحمل الذي حملته ووضعته دون أن يمسها أحد من البشر، وذلك كله بإرادة الله ومشيئته. والثانية تمثلت في العملية التي تم بها خلق آدم من طين، ثم عملية نفخ الروح فيه فصار بذلك إنسانا بلحم ودم. وهذا ما لخصته ألفاظ هذه الصورة التشبيهية في الربط بين العمليتين.

(+)النساء آية 72

(1)التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 5 ص 120

(2)المصدر نفسه - ج 3 - ص 263

ب - التركيب التقابلي: نريد القول بأن المراد بهذا التركيب هو ما يمكن المقابلة فيه بين أجزاء الطرفين بواسطة علاقة تجمعهما. ولم نجد في مجموع الأمثلة السابقة لهذا النوع إلا صورة واحدة تمثلت فيها خاصية المقابلة بين أجزاء طرفيها. ويمكننا أن نلحظ ذلك في المثال الموالي من قوله تعالى: [[مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت]](1). فالمشبه المكون من (المشركين والأولياء) يقابل المشبه به المركب من (العنكبوت وبيتها)، والعلاقة الجامعة بين الطرفين هي (الوهن) في كل من منهما. وفي نفس الوقت يمكن أن نقابل بين (المشركين) من الطرف الأول وبين (العنكبوت) من الطرف الثاني، وذلك في الغباء وضعف التدبير، وكذلك الأمر بين (الأولياء) و(البيت) من كلا الطرفين، في عدم دفع الضرر. وهذا يخول لنا القول بأن التركيب هنا في هذه الصورة تركيب تقابلي، غير أن المراد من إقامة العلاقة التشبيهية هو التركيب الكلي؛ سواء داخل الطرف الواحد أو الطرفين معا. فالأساس إذاً هو التركيب وليست التجزئة مع صحة إقامتها في مقابلة الأجزاء بعضها بالبعض الآخر. وهذا ماسبقت الإشارة إليه في الجانب النظري. وإذا كان حديثنا عن التركيب التقابلي - باعتباره آخر محطة للنوع الثاني - قد استنفد الأمثلة التشبيهية القرآنية التي بين أيدينا، ننتقل إلى تقصي نماذج النوع الثالث.

النوع الثالث: القلب أو العكس:

لقد قيل: {{إن من شرطِ بلاغةِ التَّشبيه أن يشبَّه الشئُ بما هو أكبرُ منه وأعظمُ}}(2). وأما إذا تم عكس ذلك بأن يشبه الأكبر بالأصغر يسمى التّشبيه معكوسا، ويكون هذا العكس صحيحا ومقبولا إذا كان المعكوس مألوفا عند الناس، جرت العادة بأن يشبه شئ ما بشئ آخر في خصائص معينة، ثم يأتي شاعر أو أديب فيقلب المشبه به مشبها، أو العكس. وإذا بحثنا عن هذه النوعية العكسية بحسب ما تعارف عليه الناس، فإننا لا نجد لها مثالا واحدا ضمن النماذج التشبيهية القرآنية التي بين أيدينا لهذه الصورة التشبيهية الأولى التامة الأركان. وإذا كنا لم نوفق في إيجاد أمثلة تشبيهية قرآنية لهذه النوعية الثالثة فإننا نتحول إلى معالجة النوعية الرابعة والأخيرة، والتي تتعلق بالجانب الدلالي لألفاظ الصوره التشبيهية السابقة.

(1) العنكبوت آية 41

(2) المثل السائر - المصدر السابق - م 2 - ص 132

النوع الرابع :الجانب الدلالي للألفاظ:

من الطبيعي أن تحمل ألفاظ هذه الصورة التشبيهية معنيين: إما لحسي، وإما معنوي عقلي، أو هما معا؛ ويكون ذلك متمثلا في إقامة العلاقة التشبيهية بين طرفي الصورة.

أ ـ الدلالة الحسية: وإذا حللنا الأمثلة التشبيهية التي بين أيدينا ـ لهذه الصورة الأولى- لوجدنا أن الجانب الحسي يبرز في معظمها وعلى الخصوص في الطرف الثاني من الصورة (المشبه به)، ومن أمثلة ذلك ألفاظ كل من (الحجارة)(1)، و (أدم خلق من تراب)(2) وكذا (الأنعام)(3) و (واللمح بالبصر)(4) و (العنكبوت اتخذت بيتا)(5). وهذا طبيعي جدا في التشبيه لأن من بين مهامه على تقسيم العسكري: {{...أحدهما إخراج ما لا تقع عليه الحاسة ...فأخرج ما لا يُحس إلى ما يُحس...}}(6)؛ أي تشبيه المعقول بالمحسوس في قاموس المتأخرين ، وهو أن تخضع ألفاظ الطرف الثاني من الصورة إلى معاينة إحدى الحواس الخمس المعروفة. وهذا ما ينطبق على الألفاظ السابقة بوضوح تام ماعدا الألفاظ المتعلقة بعملية خلق آدم من تراب فإننا لم نشاهد العملية معاينة عينية. وهنا يمكن أن يسأل سائل فيقول: كيف أخضعتم هذه العملية إلى الإدراك الحسي ؟ مع كونها تمت قبل أن يخلق الكون، أو بالأحرى قبل أن تخلق ؟! وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: إنه ليس من الضروري أن نرى الأشياء أونلمسها، أو نشمها، أو نتذوقها، حتى نحكم عليها بأنها تخضع للحس، لأننا قد نسمع عنها فنصدق ما سمعناه إذا كنا على يقين بصدق مصدر القول، لأنه لا يمكن أن نُخضع كل شيئ للمعاينة والتجربة. وبهذا تعد الحركة الفعلية لهذه العملية (خلق آدم من تراب) خاضعة لحاسة السمع دون غيرها من الحواس ، وإذا كانت الناحية الحسية هي طبيعة ألفاظ الطرف الثاني (المشبه به) في الصور التشبيهية السابقة ، فما هي طبيعة الألفاظ المقابلة لها من الطرف الأول (المشبه)؟.

ب ـ الدلالة المعنوية: إذا كان وضوح الجانب الحسي يكتنف طبيعة ألفاظ المشبه به في الصور التشبيهية السابقة، فإننا لا نجد هذا الوضوح في طبيعة ألفاظ المشبه من نفس الصور. ويمكن

---

(1)البقرة آية 73

(2)آل عمران آية 58

(3)الأعراف آية 179، الفرقان آية 44

(4)النحل آية 77

(5)العنكبوت آية 41

(6)الساعتين ـ المصدر السابق ـ الباب السابع ـ فصل 1 ـ ص 262

إرجاع ذلك إلى عدم استقلالية لفظة بعينها في أداء العلاقة القائمة بين طرفي التشبيه؛ فلو أخذنا على سبيل المثال ألفاظ الطرف الأول من قوله تعالى: [[...ثم قست قلوبكم]](1) المقابلة لـ(ـالحجارة)، وقلنا إن القلوب شيئ مادي يمكن أن يُرى ويُلمس، فهو يخضع لحاسة البصر واللمس. ولكن هل هذا هو المراد من إقامة الصورة التشبيهية، أم أن المقصود من هذا هو النتائج والأفعال التي كانت تصدر من هؤلاء الناس؟ وإذا كان الأمر الأخير هو المراد، فالجانب العقلي هو الذي يميز طبيعة الأفعال والأقوال التي تنتج عن طبيعة قساوة القلوب، ومن هنا يمكن القول بأن لفظة القلوب دلت على شيئ مادي يحمل في طياته شيئا معنويا، وهو المراد من إقامة الصورة التشبيهية، لأنها جاءت لتؤكد طبيعة بني إسرائيل: {{في تاريخهم الحافل بالكفر والتكذيب والالتواء واللجاجة، والكيد والدس، والقسوة، والجبن والتمرد والفسوق...}}(2).إذاً فالنوعية الحسية التي حملتها لفظة (القلوب) ليست هي الخاضعة لمقياس القسوة، بل ما ينتج عنها هو الذي يمكن أن يُعايَن بمثل هذه الصفة قوة أو ضعفا. ولتوضيح هذا الجانب أكثر نحلل قوله تعالى: [[ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها...]](3). هذه الألفاظ تشترك في الأخير مع الأنعام في العلاقة المتمثلة في الضلال كما سبق القول. ولكن هل هذا المعنى الحسي الظاهر هو الذي يؤدي هذه العلاقة؟ أم أن المراد من ذلك هو المعنى الخفي الذي يفهم بالعقل دون إخضاعه للحس العادي؟ الظاهر على هذه الألفاظ أنها تحمل دلالة مادية لها كيانها الخاص في هذا الوجود، وهي تؤدي في الظاهر المعنى الحسي المعروف. ولكنها في هذا السياق القرآني قُيِّدت بألفاظ أخرى أخرجتها من طبيعتها الحسية وجعلتها تؤدي معنى غير حسي يدرك بواسطة العقل، ونمثل لذلك بلفظة (القلوب) التي تلتها عبارة (لايفقهون بها) وهي صفة دلت على عدم الإنتفاع بهذه القلوب، وبالتالي خرجت لفظة (القلوب) عن مجال المادة إلى ما وراء المادة، ويتمثل في التصرفات الدالة على مرض هذه القلوب، وهكذا الأمر ينطبق على كل من لفظتي (الأعين، الآذان) وهي في مجملها تؤدي معنى واحدا هو (الضلال) الذي اتصف به هؤلاء القوم، وهو شيئ معنوي يفهم بواسطة العقل.

---

(1) البقرة آية 73

(2) في ظلال القرآن - المصدر السابق - م 1 - ج 1 - ص 80 - 81

(3) الأعراف آية 179

وبهذه الكيفية التحليلية يمكن أن نتناول ألفاظ الأمثلة الأخرى للطرف الأول من الصور المتبقية، باستثناء مثالين اثنين: المثال الأول في قوله تعالى: [[إن مثل عيسى عندالله]](1) والثاني: [[وما أمر الساعة]](2)؛ ففي الأول دلت ألفاظه على حادثة وقعت فعلا وهي ولادة عيسى عليه السلام بدون أب. وهذا الأمر يعد حقيقة شاهدها جماعة من الحاضرين بعد ولادته، ثم نقلت إلينا عن طريق السماع، والقرآن الكريم يستخدمها هنا على أساس أنها معلومة عند هؤلاء المنكرين الجاحدين المشككين في هذه الولادة، فشبهها بحادثة أخرى هي أغرب منها، وتتمثل في خلق آدم من تراب. وبهذا تكون هذه الألفاظ قد أدت معنى حسيا يدرك بواسطة السمع. وأما ألفاظ المثال الثاني والتي تتعلق بيوم القيامة عبر عنها القرآن الكريم بقيام الساعة، والساعة المعروفة عندنا هي فترة من الوقت، وتستخدم هذه اللفظة (ساعة) للدلالة على دخول الوقت. والساعة التي يريد القرآن توضيحها: (بلمح البصر) ليست الساعة العادية، ولكنها ساعة أخرى تدل على نهاية العالم هذا، وبداية عالم جديد وبالتالي فهي تدل على بداية زمن جديد لم يحن بعد، ولكن رغم هذا فهي تدخل في إطار حيز من الوقت القصير عُبِّر عنه بـ(لمح البصر) في سرعة الحركة. وعلى هذا الأساس يمكن أن نلتمس المعنى الحسي لهذه الألفاظ أكثر من غيره، لأن لفظة (الساعة) دلت ببعديها القريب والبعيد على الزمن الذي يمكن أن يخضع لمقاييس الزمن.

وإذا جئنا للبحث عن طبيعة العلاقة الرابطة بين طرفي الصورة التشبيهية في إطار الدلالتين الحسية والمعنوية لوجدنا أن ما كان طرفاه يخضعان للحس كانت العلاقة الجامعة بينهما حسية؛ كما مر معنا في قوله تعالى: [[وما أمر الساعة إلا كلمح بالبصر أو هو أقرب]](3). فلفظة (القرب) هنا تحمل المعنى الزمني، وبالتالي فهي تخضع للمعاينة المادية المحسوسة. وأما ما كان طرفاه يخضعان للعقل دون الحس، فالعلاقة بينهما تكون خاضعة للإستنتاج العقلي الخالي من الجوانب التي تدركها الحواس العادية. وهذا ما لم نعثر عليه في إطار الأمثلة السابقة. وأما ما كان أحد طرفيه يخضع للإدراك الحسي، والآخر يخضع للإدراك العقلي، فإن العلاقة بينهما تكون خاضعة للإدراك العقلي وهذا ما هو ملاحظ من خلال ما تقدم من أمثلة: ففي

(1)آل عمران آية 58

(2)(3)النحل آية 77

قوله تعالى: [[أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا]](1)

فصفات عدم السمع و عدم العقل هنا غير محسوسة، قابلتها لفظة (الأنعام) وهي محسوسة، وربطت بينها لفظة (الضلالة)، وهي صفة غير محسوسة تدرك بواسطة الإستنتاج العقلي.

بهذه الطريقة التطبيقية يمكننا تتبع الدلالتين الحسية والمعنوية في الأمثلة القرآنية التي تخضع لمقاييس الصورة الأولى من صور التشبيه.

ثانيا: وضعية الصورة الثانية في القرآن الكريم:

تندر هذه الصورة في تشبيهات القرآن الكريم أكثر من سابقتها، والدليل على ذلك أننا لم نعثر إلا على مثال واحد لها من خلال ما تجمع لدينا من مجموع تشبيهات القرآن الكريم. وإلى جانب هذه الندرة نجد أن نفس الملاحظة التي تعلقت بطريقة التصريح بوجه الشبه في الصورة الأولى تنطبق على هذه الصورة الثانية، ويمكننا أن نتبين ذلك من خلال معالجتنا لقوله تعالى [[ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا]](2). ولمعرفة وجه الشبه يجب أن نضع هذه الصورة التشبيهية في الميزان من خلال أقوال بعض المفسرين لهذه الآية، فقد جاء في روح المعاني: {{أي دعاء كدعائه فحذف الموصوف وحرف التشبيه وانتصب المجرور على المصدرية وهو مراد من قال: مثل دعائه (بالخير) فرضا لا تحقيقا}}(3). وورد في الجامع لأحكام القرآن : {{أي كدعائه ربه أن يهب له العافية}}(4). لقد أشار المفسر الأول إلى المشبه وهو (الدعاء الأول) وإلى المشبه به (الدعاء الثاني) المتعلق بالخير، واكتفى المفسر الثاني بالإشارة إلى المشبه به عن طريق تفسير معناه، وهو الدعاء بالعافية، ولكنهما أهملا وجه الشبه .أي العلاقة الرابطة بين المشبهين التي لم يهملها صاحب التحريرفي قوله: {{وقوله (دعاءه بالخير) مصدر يفيد التشبيه، أي يستعجل بالشر كاستعجاله بالخير، يعني يستبطئ حلول الوعيد كما يستبطئ أحدنا تأخر خير وعد به}}(5).إذاً فالإستعجال الذي ورد في هذا التفسير يؤكد أن لفظة (عجولا) التي وردت في جملة العطف التابعة للصورة التشبيهية (وكان الإنسان

---

(1) الفرقان آية 44

(2) الإسراء آية11

(3) روح المعاني ـ الألوسي البغدادي ـ دار الفكر بروت 1403 هـ 1983 م ـ م 5 ـ ج 15 ص 23

(4) الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ـ دار إحياء التراث العربي بيروت ـ 1966 م ـ م 5 ـ ج 10 ـ ص 225

(5)التحرير والتنوير ـ المصدر السابق ـ ج 15 ـ ص ـ 42

عجولا) هي العلاقة التي تربط بين دعائي الإنسان بتحقيق الخير والشر، وهي وجه الشبه الذي نميل إليه في رسم هذه الصورة التشبيهية. وبهذا نستطيع القول: بأن التطابق اللفظي الذي ورد في بعض عناصر الصورة لا يعني التطابق المعنوي لأنه لو صح هذا لخرج التشبيه عن فنيته إلى الحقيقة، وعليه يكون الأمر تشابها حقيقيا لا تشابها فنيا. ومما يُغلّب الجانب الفني في هذه الصورة التشبيهية، أن الدعاء الأول يختلف لفظا ومعنى عن الدعاء الثاني كما جاء في التفسير السابق :{{...فرضا لا تحقيقا}}(1).

فالفرضية يمكن أن تفسر على أنها الطريقة أو الكيفية التي استخدمت في طلب حلول الخير والشر، وهي على وجه التقريب (العجلة) التي يتصف بها الإنسان مصداقا لقوله تعالى : [[خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون]](2). وإذا صحت لدينا الناحية الفنية لهذه الصورة التشبيهية في إطار الصورة الثانية، يتعين علينا التطرق إلى الأنواع التي وردت من خلالها هذه الصورة.

تفرض علينا وحدوية هذه الصورة في القرآن الكريم عدم التطرق إلى جميع الأنواع، لأنه لا يعقل أن تحتويها جميعا. ومن هنا سنكتفي بتناول الأنواع التي تمثلتها.

النوع الأول: الإفراد:

لقد أشرنا في الجانب النظري إلى أن التصريح بوجه الشبه يجعل الإفراد في اللفظ هو السمة المميزة للصورتين: الأولى والثانية؛ ففي قوله تعالى السالف الذكر: [[ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير]](3). نجد الطرف الأول للصورة التشبيهية يتكون من ثلاثة ألفاظ هي : (الدعاء، الإنسان، الشر) بينما احتوى الطرف الثاني لفظتي (الدعاء، الخير) مع وجود ضمير يعود على الإنسان المتصل بلفظة (دعاءه). إذاً فعنصر الإنسان قد تكرر في طرفي الصورة ، وتكرره هذا لايدل على تنوعه فيهما. فالمصدر واحد ثابت لم يتغير. وكذلك الأمر مع لفظة (الدعاء) فقد تكررت هي الأخرى مرتين، وهذا يعني أنها تمت بطريقة واحدة في كلا الطرفين ولكن الشئ الذي يبدو متغيرا في طرفي هذه الصورة هو طبيعة الدعاء؛ فنوعية الأول: (شرا) ونوعية الثاني (خيرا).

وانطلاقا من هذا التحليل نستطيع أن نوحد بين مصدر القول في كلا الطرفين وهو (الإنسان)، ثم

(1) روح المعاني - المصدر السابق - م 5 - ج 15 - ص 23

(2) الأنبياء آية 37

(3) الإسراء آية 11

نوحد بين القول وهو (الدعاء) وبين طبيعته الشريرة في الطرف الأول، وبينه وبين طبيعته الخيِّرة في الطرف الثاني. وبهذا تكون فردية هذه الصورة مكونة من عنصرين أساسيين هما (الإنسان، الدعاء بنوعيه). وهذه الفردية المكونة من لفظتين قد أشرنا إليها بالتمثيل فيما سبق في الجانب النظري، وقلنا أننا لا نستطيع الاستغناء بلفظة بعينها عن باقي الألفاظ الأخرى في رسم الصورة التشبيهية. فالدعاء لابد أن يرتبط بالإنسان، وكذلك الخير والشر لابد أن يرتبطا بالدعاء لأنهما عنصران أساسيان في الصورة، لأننا لايمكن أن نقف عند عبارة (ويدع الإنسان) في الطرف الأول، ثم نقابلة بلفظة (دعاءه) في الطرف الثاني، فالكلام يبقى مبتورا لا يؤدي المعنى المطلوب إلى ذهن السامع.

نفهم مما تقدم أن نوع الإفراد هو الذي ميَّز ألفاظ طرفي هذه الصورة التشبيهية مع انعدام النوعين الثاني (المركب) والثالث (القلب أو العكس). وهذا ما سيجعلنا ننتقل إلى معالجة النوع الرابع والأخير.

النوع الرابع: الجانب الدلالي:

إذا تتبعنا طبيعة ألفاظ هذه الصورة وجدناها تؤدي دلالات معنوية تخضع في مجملها إلى الإدراك العقلي، فمثلا لو حذفنا لفظة (الدعاء)مجردة بأنواعها فإننا لا نستطيع إخضاعها للإدراك الحسي العادي عن طريق الحواس الخمسة - لأن الدعاء إلى جانب كونه داخليا مضمرا أو خارجيا مجهرا - طريقة معينة لها معاني وأساليب مميزة تستخدم في توظيف الصوت توظيفا يختلف عن باقي الأصوات الأخرى. ولهذا فهو يخضع في الفهم إلى الجانب العقلي. والأمر نفسه ينطبق على لفظتي: (الشر، الخير) فكلاهما لا يقدر إلا بالميزان العقلي بحسب ما تعارف عليه العقل الجمعي في كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية.

وختاما لكلامنا هذا حول هذه الصور التشبيهية من نماذج الصورة الثانية نقول: إن الطابع الفردي والعقلي هما اللذان ميَّزا طبيعة ألفاظها مع اختفاء الجوانب الأخرى، وما دمنا في الجانب التطبيقي فإننا لا نستطيع افتراض ما لم يكن موجودا في القرآن الكريم. ومن هنا نتحول إلى تتبع هذه الأنواع مع الصورة الثالثة من صور التشبيهات القرآنية.

وضعية الصورة الثالثة في القرآن الكريم:

تحتل هذه الصورة صدارة تشبيهات القرآن الكريم بكثرتها وانتشارها في مجموع آي الذكر الحكيم، إضافة إلى هذا فإنها تحتري على أكبر قدر من التشبيهات المركبة لخلوها من الطرف

الأخير (وجه الشبه) لأن عدم التصريح به يسهل مهمة التركيب كما سبق القول في الجانب النظري لهذه الصورة. كما تمتاز أيضا باحتوائها أكبر عدد من أدوات التشبيه، وبخاصة في التشبيهات المركبة. والأدوات التي استخدمت في مجموع نماذج هذه الصورة هي: (الكاف، كأن، مثل، حسب) ويكثر تواجد (الكاف وكأن) في التشبيهات المفردة، بينما يكثراستخدام (مثل) في التشبيهات المركبة، سواء أفادت التشبيه أم لم تفده، وسنتطرق إلى هذه الأدوات بنوع من التفصيل في ثنايا كلامنا عن الأنواع الآتية.

النوع الأول:الإفراد:

من المألوف أن تتصف إحدى الصور التشبيهية بالفردية، سواء كانت مطلقة أم مقيدة أم متعددة، وهذا ما أورده بعض علماء البلاغة، فقالو مثلا: تشبيه المفرد بالمفرد، وتشبيه المفرد بالمركب، أو تشبيه المركب بالمفرد، وغيرها من التفصيلات الأخرى(+). ولكن الشئ الذي نركز عليه في هذه الدراسة هو الطرف الثاني من الصورة التشبيهية (المشبه به) الذي على غراره يقال: تشبيه مفرد أو مركب في الغالب الأعم عند علماء البلاغة، لأنه يمثل الجانب المتجدد دوما في مجموع نماذج الصور التشبيهية.

أ - المطلق:إذا بحثنا عن هذا النوع من الإفراد المطلق في الأمثلة القرآنية لوجدناها تتصف بطابعين: طابع اللفظة الواحدة، وطابع اللفظتين للمعنى الواحد. ونجد كذلك الطابع الأول هو الغالب على هذا النوع من الإفراد المطلق، وأمثلته كثيرة ومتعددة نأخذ منها على سبيل التمثيل قوله تعالى في مخاطبة موسى عليه السلام: [[. وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب]](1). وقوله أيضا في وصف حالة السماء: [[يوم تكون السماء كالمهل]](2). ومنه كذلك قوله تعالى في وصف الموج: [[وإذا غشيهم موج كالظلل]](3). إن أول ما يتجلى أمامنا في هذه الأمثلة أن العلاقة التي تربط بين المشبهين غير مصرح بها، وعليه فهي واقعة فعلا داخل مقاييس الصورة الثالثة التي يحذف فيها وجه الشبه. كما يتضح أمامنا أيضاأن الفرديه المطلقه غير المقيدة هي التي ميزت ألفاظ هذه الصور الثلاثة ؛ فمثلاً نجد لفظة (جان)

(+) الإيضاح في علوم البلاغة - المصدر السابق - ص 364 .+ المثل السائر - المصدر السابق - ج 1 ،ص 388 - 422
(1) النمل آية 10
(2) المعارج آية 8
(3) لقمان آية 31

اكتفت بمعناها العام المعروف عن الجن لتقابل عصا موسى - المتمثلة في الضمير المتصل بالأداة (كأنها) - في طريقة اهتزازاتها، وكذا لفظة (المهل) التي انفردت بخاصيتها الطبيعية المعروفة لتقابل لفظة (السماء) - في حالتها أثناء قيام الساعة - في ذوبانها وسيولتها. ونفس الأمر ينطبق على لفظة (الظلل) التي قابلت لفظة (الموج) في علوها وعظمتها.

وبهذه الكيفية تندرج معظم تشبيهات النمط الأول من النوعية الفردية المطلقة للصورة الثالثة. وإذا ما تناولنا الطابع الثاني لهذا النوع المفرد المطلق لوجدنا أن الأمثلة التي توصلنا إليها قليلة وأنها تختلف في شكليتها عن الطابع الأول، إذ نجد أن الإفراد المطلق فيها يتكون من لفظتين بدلاً من لفظة واحدة، وهنا يمكن للقارئ أن يتساءل: كيف يكون الافراد المطلق بلفظتين مترادفتين في طرف واحد من طرفي الصورة التشبيهية؟ والجواب عن هذا التساؤل يكون من خلال تقصينا للأمثلة القرآنية التي تجمعت لدينا لهذا النوع من التشبيهات . فمثلاً لوأخذنا قوله تعالى: [[والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم]](1) لوجدنا أن الطرف الثاني من هذه الصورة التشبيهية يتكون من لفظتي (تأكل، الأنعام) ولو حاولنا فصل كل لفظة عن الأخرى لما استطعنا، لأن الآية تريد أن تبين طريقة أكل الكفار فشبهتها بطريقة أكل الأنعام مع اختلاف طبيعة الجنسين. وعلى هذا الأساس يمكن القول: بأن الفردية المعنوية واحدة ومطلقة في كلا الطرفين (المشبه والمشبه به). ونفس الشئ ينطبق على قوله تعالى في وصف شجرة الزقوم: [[تغلي في البطون كغلي الحميم]](2) ليس المراد كما يبدو من هذه الآية تشبيه شجرة الزقوم بالحميم، ولكن المقصود من هذه الآية هو تشبيه غليان هذه الشجرة داخل بطون أهل النار بغليان الحميم، وذلك في هيئة غليانه كما جاء في بعض التفاسير(+).

إذاً فإن كل لفظتين مترادفتين في طرف واحد من أطراف هذين المثالين متحدتان لاتنفصلان عن بعضهما البعض في أداء المعنى المراد من الصورة التشبيهية. ونشير هنا إلى أنه رغم هذا الإتحاد المركب فإننا لانستطيع أن ننسب هذه النماذج التشبيهية إلى النوعية المركبة ولا إلى

---

(1) محمد آية 13

(2) الدخان آية 42 - 43

(+) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 26 - ص 315

الفردية المقيدة، وهذا ما جعلنا نطلق عليها مصطلح (الإفراد المطلق) بطابع ثاني مميز.

وقبل أن ننهي حديثنا عن هذه النوعية الفردية بطابعيها الأول والثاني، يجب أن نشير إلى الأدوات التي ربطت العلاقة التشبيهية حتى تكتمل الصورة التشبيهية. وعلى العموم فإن الأدوات التي أستخدمت في الأمثلة التي بين أيدينا (الكاف، كأن، مثل)

1 – الكاف: يكثر استخدام هذه الأداة بشكل واضح في هذه الأنواع الفردية المطلقة ، وتميزت بارتباطها ارتباطاً وثيقاً بالطرف الثاني من الصورة (المشبه به)، ويكون هذا على وجه الشيوع في أمثلة الطابع الأول من النوعية الفردية المطلقة وأمثلته هي : (كالمهل، كالعهن، كالجبال ، كالفخار، كالرميم) وغيرها من الأمثلة الأخرى. وأما عن وضعيتها بين ألفاظ الطابع الثاني لنوعية الإفراد المطلق فإنها ترتبط باللفظة الأولى من الطرف الثاني، وهذه اللفظة حسبما تجمع لدينا من أمثلة فإنها عبارة عن صيغة للمفعول المطلق. والأمثلة التي سبق أن أوردناها تبين ذلك: ففي قوله تعالى: [[كغلي الحميم]](1) ترتبط الأداة (الكاف) بلفظة (الغلي)، وهذا الارتباط الوثيق بينهما أفاد في تأكيد قولنا عن أحادية الطرف الثاني، لأن صيغة المفعول المطلق تتطلب لإتمام المعنى لفظة أخرى مثل لفظة (الحميم) باعتبارها المادة التي تبين طبيعة الغليان.

ولم ترتبط أداة (الكاف) في الأمثلة التي بين أيدينا دوماً باللفظة الأولى من الطرف الثاني، بل تعلقت بأداة أخرى كما هو واضح في المثال السابق من قوله تعالى: [[كما تأكل الأنعام]](2). فلفظة (تأكل) – وهي المضارع من فعل أكل – انفصلت عن الكاف تاركة المجال للإسم الموصول (ما) ليرتبط بها، وذلك لتدل على الحالة التي كان عليها المشبه به ويكون عليها المشبه.

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة في تبيان وضعية أداة التشبيه (الكاف) بين عناصر هذه النوعية الفردية المطلقة لننتقل الى تتبع الأداة الثانية.

2 – كأن: لم تحظ هذه الأداة بالمكانة التي حظيت بها أداة (الكاف) ،فقد تمخضت الأمثلة التي حصرناها لهذه النوعية – التي نحن بصدد الكلام عنها- عن حالتين فقط ارتبطت فيهما هذه الأداة بالطرف الأول (المشبه)، وقد تساوى في هذه الحالة الطابع الأول والثاني في هذه النوعية

---

(1) الدخان آية 43

(2) محمد آية 13

المفردة المطلقة. وتمثيلاً للطابع الأول نعيد المثال السابق من قوله تعالى: [[تهتز كأنها جان]](1) فالأداة (كأن) كما هو واضح اتصلت بضمير الرفع المتصل (ها) العائد على العصا (عصا موسى عليه السلام) ويمثل الطرف الأول من الصورة التشبيهية وللتمثيل للطابع الثاني ندرج قوله تعالى في وصف شجرة الزقوم طعام أهل النار: [[طلعها كأنه رؤوس الشياطين]](2) حيث نجد نفس الأمر ينطبق على الأداة (كأن) في اتصالها مع ضمير الرفع (ها) الذي يمثل الطرف الأول من هذه الصورة التشبيهية المفردة المطلقة بلفظتين هما (الرؤوس والشياطين). وبعد هاتين الأداتين (الكاف وكأنَّ) لم تبق معنا سوى أداة واحدة هي:

3. مثل: وردت هذه الأداة في الأمثلة التي نحن بصدد الحديث عنها في حالة واحدة في قوله تعالى: [[إنه لحق مثلما أنكم تنطقون]](3) من الواضح أن الأداة وقعت في الطرف الثاني من هذه الصورة التشبيهية، وارتبطت بالأداة (ما) واتحدت معها لتقر صحة النطق عند المخاطبين ، في إقرارها لصحة ما وعد الله بوقوعه وتحققه في المستقبل.

كل هذه الأمثلة التي أوردناها إلى حد الآن دارت حول النوعية المفردة المطلقة، وسننتقل إلى النوعية المفردة المقيدة لهذه الصورة الثالثة.

ب ـ المقيد: يبرز هذا النوع في الأمثلة التي بين أيدينا عن غيره من الأنواع الأخرى (المطلق والمتعدد)، ويمكن أن نبرر هذا البروز بكون القيود التي تلحق بالتشبيهات تقترب من التركيب، بل أحيانا يصعب فصلها عن التشبيهات المركبة، ويمكن أن نمثل لذلك بقوله تعالى:[[وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما]](4)

فالجملة التشبيهية (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) تبدو مركبة من عدة ألفاظ هي (كأنما،أغشيت، وجوههم، قطعا، الليل، مظلما)، ولكن إذا حللنا هذه الصورة إلى مشبه ومشبه به وأداة تشبيه ووجه شبه وجدنا أن الألفاظ الثلاثة الأولى وهي (كأنما،أغشيت، وجوههم) تمثل في مجملها الطرف الأول،أي (المشبه)، بينما تمثل الألفاظ المتبقية (قطعا، الليل، مظلما) الطرف الثاني أي (المشبه به)، والذي يبدو مركبا من هذه الألفاظ الثلاثة، لكن حقيقة التشبيه

(1) النمل آية 10

(2) الصافات آية 65

(3) الذاريات آية 23

(4) يونس آية 27

واقعة بين وجوه الكفار والليل، وأضيفت لفظة (الظلام) للّيل على شكل قيد يبين حالة الوجوه المراد تشبيهها بالليل، لأن الليل قد يكون مقمرا غير مظلم، ولهذا فقد قُيِّد بالظلام الدامس لزيادة في توضيح صفة وجوه الكفار والمنافقين. والملاحظة نفسها تنطبق على الصورة التشبيهية من قوله تعالى: [[إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر]](1)، إذ ينحصر الطرف الأول في الضمير المتصل بأداة التشبيه (كأنهم) العائد على القوم المصروعين، بينما تمثل ألفاظ كل من (أعجاز، نخل، منقعر) الطرف الثاني من الصورة. وتكمن أهمية هذه الألفاظ في رسم الصورة التشبيهية بحسب ترتيبها في الآية؛ إذ تمثل لفظة (الأعجاز) الطرف الأساسي في الشجرة، والمراد هنا هو عجز النخلة لأن لفظة (النخل) التي جاءت بعدها أكدت ذلك، ثم جاءت بعد ذلك لفظة (المنقعر) وهي الصفة التي قيدت هذه الأعجاز في مقابلتها بجثث المذكورين في بداية الآية القرآنية.

وتأتي القيود في معظم التشبيهات المفردة في هذه الصورة الثالثة على شكل صفات تضاف إلى اللفظة الأساسية لتقيِّد خاصيتها، وتزيد في قوة معناها البلاغي الذي أوجبه بعض علماء البلاغة كما بينا ذلك في الجانب النظري. وأما باقي التشبيهات المقيدة فإنها تتركب من لفظتين فقط:الأولى هي: الطرف الثاني من الصورة (المشبه به)، واللفظة الثانية هي: الصفة أو القيد الذي يُخصِّص حالة اللفظة السابقة. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة نقتصر على ذكر ثلاثة أمثلة فقط: المثال الأول تقترن فيه الصورة التشبيهية بأداة التشبيه (كأن) في قوله تعالى: [[يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم جراد منتشر]](2). والمثال الثاني تقترن فيه الصورة بأداة التشبيه (الكاف) من قوله تعالى: [[وتكون الجبال كالعهن المنفوش]](3). وأما المثال الثالث فتكون فيه الأداة فعلا من أفعال الشك وهي (حسب) وذلك في قوله تعالى: [[ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيته حسبتهم لؤلؤا منثورا]](4). فالقيود في هذه الأمثلة الثلاثة واضحة وهي (الإنتشار، النفش، النثر)، فصفة الإنتشار بيَّنت الوضعية التي رمت إليها الصور التشبيهية من استخدامها للفظة (الجراد)، فقدأضافت لفظة (الإنتشار) إلى هذا المعنى معنى آخر يتمثل في التغطية الشاملة للأرض.إذاً فصفة (الإنتشار) قيد جعل معنى

(1)القمر آيتان 19-20

(2)القمر آية 7

(3)القارعة آية 4

(4) يونس آية 19

الصورة التشبيهية يتغير من معنى العموم إلى معنى الخصوص. وهكذا الأمر مع لفظة (المنفوش) بالنسبة (للعهن) فإلى جانب خاصية (اللين) التي يمتاز بها الصوف أضافت إليه هذه اللفظة خصوصية أخرى من خصوصيانه وهي (الإنتفاش)، وهي الصفة التي يؤول إليها الصوف بعد تفتت جزيئاته. وأما بالنسبة للصفة الثالثة فنجد أن لفظة (منثورا) التي أضيفت إلى اللؤلؤ، فإنها ميزته عن اللؤلؤ المنظوم المرتب. وجعلت منه شكلا آخر وهو المراد من تبيان وضعية الولدان وهم في خدمة أهل الجنة.

والملاحظ هنا أن هذه القيود الثلاثة ليست خصائص طبيعية تنتسب إلى الألفاظ التشبيهية التي سبقتها، بل هي عبارة عن خصائص عامة يمكن لأشياء أخرى أن تتصف بها. وهذا يوضح لنا بأن القيود التشبيهية لا يشترط أن تكون جزءا طبيعيا من أجزاء الصورة التشبيهية، لأنه لو صح ذلك لتطلب منا الأمر إلى أن نلحقها بالصورة المركبة. وهذا يعد فرقا بينا بين الصورة ذات النوع المركب والمفرد المقيد.

ج - المتعدد: لقد ذكر بعض علماء البلاغة أن التعدد يقع بين الأطراف العديدة في الصورة الواحدة، كأن يشبه زيد ببكر، وثوب زيد بثوب بكر. فهذان في نظر السبكي تشبيهان منفصلان متعددان(+). كما يقع التعداد أيضا في وجه التشبيه، فقد أورد صاحب فن التشبيه قول البحتري مثالا لهذا التعداد(+) في وصف جواد:

أوكالغراب بدا يباري صحبه   بسواد نقبته وحسن قوامه(1)

إذاً لقد شبه البحتري الجواد وهو مفرد بالغراب وهو مفرد كذلك، وجمع بينهما بوجهي شبه هما (السواد والقوام)، وهذا ما يسمى بالتعدد في وجه الشبه. وينطبق هذا التعدد على الصورة الأولى التامة الأركان.

إذا نظرنا إلى هذين المثالين حول الفردية المتعددة وقابلناه مع ما تجمع لدينا من تشبيهات القرآن الكريم في هذه الصورة الثالثة لوجدنا اختلافا بيّنا في طريقة تعدد عناصر الصورة الواحدة؛ فالمثال الذي جاء به السبكي وقع التعدد فيه بين الأطراف المتقابلة، فزيد يشبه

(+)ينظر البهاء السبكي وآراؤه البلاغية والنقدية - د عبد الفتاح لاشين - دار الطباعة المحمدية الأزهر - 1389م - 1978 - ط 1 - ص 326 - نقلا عن عروس الأفراح - ج 3 - ص 423 - 424

(+)ينظر فن التشبيه (بلاغة - أدب - نقد) المصدر السابق - ف 12 - ص145

(1)الديوان - البحتري - المصدر السابق - م 3 ص 1992

بكرا وثوب زيد يشبه ثوب بكر، وهكذا...إلخ ، بينما التعدد في مثال علي الجندي وقع في ذكر صفتي (السواد والقوام) وهما وجها شبه لمشبهين اثنين، غير أن التعدد في الأمثلة القرآنية يقع بين طرف واحد وعدة أطراف أخرى، أي بين مشبه واحد ومشبهات عدة، والأمثلة التي سنوردها تشرح لنا هذا التعدد على قلتها، فالمثال الأول لهذا التعدد نجده متمثلا في قوله تعالى: [[مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع]](1)، فقد شبهت الآية طرفين بعدة أطراف، فالطرف الأول هو الفريق الضال، شُبّه بطرفين اثنين هما (الأعمى والأصم) بينما شُبّه الطرف الثاني وهو الفريق المهتدي بطرفين اثنين هما (البصير والسميع).

ولتوضيح صفة هذا التعدد في هذه الصورة الثالثة أكثر ندرج قوله تعالى: [[فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان كأنهن الياقوت والمرجان]](2) فقد أشار ضمير الرفع (هن) المتصل بأداة التشبيه (كأن) إلى مشبه واحد وهو أهل الجنة (قاصرات الطرف). ورُبط هذا المشبه بمشبهين بهما (الياقوت والمرجان) ؛ حسب العلاقة التي ترابطه بكل طرف على حدة.

مما هو واضح في هذه الأمثلة التي سقناها للتعددية الفردية أن أوجه الشبه لم يصرح بها، وعلى هذا فإنها تنتمي قاعديا إلى النوعية الفردية من الصورة الثالثة. وبهذه الطريقة يمكن أن نلتمس هذه التعددية في جل الأمثلة المتبقية.

لقد أشرنا في بداية حديثنا هذا إلى أن الفردية المقيدة تقترب من التشبيهات المركبة، وأن التركيب يتميز عن القيد، وأن هذه الصورة الثالثة في القرآن الكريم تحتوي على تشبيهات مختلفة. وهذه التشبيهات ستكون موضوع كلامنا ضمن محوري النوع الثاني.

النوع الثاني: التركيب:

أ ـ التركيب المزجي: لقد سبق أن بينا في الجانب النظري المعنى المراد من وراء هذا المصطلح، ولو كان ذلك بنوع من الإيجاز. ونحاول الآن ـ قبل الشروع في تتبع هذه النوعية ضمن تشبيهات القرآن الكريم ـ أن نشير إلى صعوبة التفريق بين الجانب المزجي والجانب التقابلي، وذلك لدقة التشابه بينهما، وخصوصا إذا تعلق الأمر بتشبيهات القرآن الكريم. وهذا ما وقع فعلا عند بعض المفسرين. فمثلا لو أخذنا رأي صاحب التحرير في قوله تعالى: [[وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، الله يستهزئ

---

(1)هود آية 24 (2)الرحمان/الآية 56 ـ 57 . 58

بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون.أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين. مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون]](1)، فإننا نجده يجمع التركيبين المزجي والتقابلي في قوله: {{ومن بدائع القرآن هذا التمثيل مع ما فيه من تركيب الهيئة المشبه بها ، ومقابلتها للهيئة المركبة من حالهم ، هو قابل لتحليله إلى تشبيهات مفردة، فكل جزء من هيأة أحوالهم بجزء من الهيأة المشبه بها، فشبه استماعهم القرآن باستيقاد النار، ويتضمن تشبيه القرآن في إرشاد الناس إلى الخير والحق، والنار في إضاءة المسالك للسالكين، وشبه رجوعهم إلى كفرهم بذهاب النور، وشبَّه كفرهم بالظلمات، ويُشبَّهون بقوم انقطع إبصارهم}}(2).إذاً فالإشكالية واقعة عند الرأي الواحد في الصورة الواحدة، ولعل هذا سيبرر بعض الاجتهادات التي نميل إليها في ترجيح جانب على آخر. وعليه نرجح الرأي المصنف لهذه الصورة التشبيهية تحت التشبيهات المركبة المزجية ، والتي أدخلها ضمن التمثيل المركب في قوله: {{والتمثيل المركب الآتي على شكل وحدة مركبة متداخلة، دون اشتراط التقابل بين مفرداتها ومفردات ما ضرب له المثل، ويمكن أن نمثل له بما جاء في القرآن الكريم من تمثيل المنافق المحتار المتردد بين الخوف والطمع، وبين الإيمان والكفر، وبين شهوات النفس المسيطرة على ساحتها وومضات الضمير، بالذي استوقد نارا في ليل مظلم ليرى طريقه ، فلما أضاءت النار ما حوله وانكشفت عنه الظلمات انطمس بصره بسبب منه، فانحجب عن إدراك النور الذي حوله فعادإلى ظلمة قاتمة كان هو السبب فيها}}(3).

وترجيحنا لهذا الرأي لا لكونه مصيبا فحسب، بل لأنه حافظ على الوحدة الموجودة بين أجزاء الصورة التي حاول صاحب التحرير في رأيه الثاني أن يفصلها عن بعضها البعض. وهذا ما جعلنا نشير إلى أن قضية الاختلاف هذه بين الآراء تعود إلى عدم وضوح القاعدة - في التركيبين المزجي والتقابلي - عند البلاغيين والمفسرين؛ فمثلا لو عدنا إلى الرأي الأخير (الميداني) للاحظنا فيه غموضا بيِّنا، ففي قوله: (دون اشتراط التقابل بين مفرداتها) يعني حسب فهمنا أن التقابل موجود ، ولكن لا نلزم بإجرائه، وإذاما أجريناه فإنه لا ينقص شيئا من بلاغة

---

(1)البقرة الآية13 ـ14 ـ15 ـ 16

(2)التحرير والتنوير ـ المصدر السابق ـ ج 1ـ ص 320 ـ 321

(3)الأمثال القرآنية ـ عبد الرحمان حسن حنبكة الميداني دار القلم دمشق .1400 هـ ـ 1980 م ـ ط 1 ـ ص 8ـ 9

الصورة التشبيهية. وهذا يختلف مع قوله: (والتمثيل المركب الآتي على شكل وحدة مركبة متداخلة)؛ لأن التداخل هنا يعني امتزاج العناصر ببعضها إلى درجة لا تسمح بتقابل أي جزء مع الآخر.

ومما تقدم نستنتج حقيقتين: الأولى: أن الاشتراط في وجود التقابل بين مفردات الصورة المركبة الواحدة، يوجب وجود أوجه التلاقي بين هذه الأجزاء المفردة. وإذا ما تحقق هذا فإن الصورة تكون مركبة تركيبا تقابليا، يمكننا الإشارة إليه إذا أردنا التفصيل. ولعل هذا ما أراده صاحب التحرير في قوله السابق: (وهو قابل لتحليله إلى تشبيهات مفردة...). وهذا الضرب من التشبيهات المركبة نادر في تشبيهات السورة الثالثة من تشبيهات القرآن الكريم. ونمثل له من الشعر ببيت بشار المشهور.

وكأن مثار النقع فوق رؤوسهم وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه(1)

وأما الحقيقة الثانية فتتمثل: في أن انعدام وجود أوجه التشابه بين العناصر المتقابلة في الطرفين المشبهين - إن وجدت هذه العناصر - يخول لنا اعتبار التركيب فيها تركيبا مزجيا، فنضع بذلك حدا فاصلا بين التركيبين، ويمكن أن نمثل لهذا النوع من التركيب بقول البحتري:

دنوت تواضعا وبعدت قدرا فشأناك انحدار وارتفاع

وكذاك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع(2)

وهذا الضرب من التشبيهات المركبة تركيبا مزجيا كثير ومتنوع في تشبيهات الصورة الثالثة من تشبيهات القرآن الكريم، ولا يسمح المجال لذكرها جميعا، ولهذا نكتفي بذكر بعض الأمثلة للتدليل على ذلك؛ فمثلا نأخذ قوله تعالى: [[الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور]](3). فإذا تتبعنا تحليل هذه الصورة وجدناها قد شكلت من طرفين الأول: مفرد، وتمثله لفظة (نوره)، أي نور الله تعالى. والثاني: مركب من عدة أجزاء ليس لها نظير في الطرف المقابل (المشبه). وهذا القول لا يوافق ما جاء في التفسير حول هذه الصورة التشبيهية [[وهذا بالغ كمال الإفصاح

(1)الديوان - بشار بن برد - تحقيق الطاهر بن عاشور - نشر الشركة التونسية للتوزيع - والشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ج1 - قافية الباء - ص 335

(2)الديوان - البحتري - تحقيق حسن كامل الصيرفي - دار المعارف مصر - ط2 - مجلد 2 صفحة 1247

(3) النور آية 35

بحيث هو مع أنه تشبيه هيئة بهيئة ،هو أيضا مفرق التشبيهات لأجزاء المركب المشبه مع أجزاء المركب المشبه به.}}(1).إذاً فالمقابلة في هذه الصورة معدومة لعدم وجود العناصرالمصرح بها التي يحق لنا مقابلتها بالعناصر الأخرى؛ وحتى إن وجدت ـ كما سنمثل لذلك فيما بعد يشترط أن تكون أوجه الشبه الجامعة بين العناصر المتقابلة موجودة.

وزيادة للإيضاح أكثر نتناول قوله تعالى: [[مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء]](2). يحتوي الطرف الأول على عنصر واحد وهو لفظة (أعمالهم)، ويحتوي الطرف الثاني على عدة أجزاء هي (الرماد، الرياح، اليوم، العاصف) مع إضافة صفة عدم المقدرة، وبالتالي فلا وجود للتقابل بين عنصر واحد وعدة عناصر على ما هو ظاهر في معنى الألفاظ المستعملة في رسم الصورة التشبيهية. إذاً فالحالة الفردية تمثلت في طرف دون آخر، وعليه يتعذر علينا إجراء أي مقابلة بين العناصر عن طريق التأويل؛ كما فعل صاحب التحرير في المثال السابق من قوله تعالى: [[...كالذي استوقد نارا]](3). كما أنه ليس من الضروري إذا توفرت عدة عناصر في الطرف الأول والثاني أن نقيم المقابلة بينها؛ ونفككها إلى تشبيهات مفردة؛ فلوا أخذنا المثال الموالي من قوله تعالى: [[واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث]](4) لوجدناه يتكون من طرفين مركبين (مشبه ومشبه به) وكل طرف فيه عناصر عديدة، ولكن هل بتعددها هذا نستطيع مقابلتها ببعضها البعض؟ طبعا لا نستطيع ذلك لأن العناصر في الطرف الأول المكونة من (الذي أوتي آيات الله، ولكنه انسلخ منها، ثم وقع في غواية الشيطان، بركونه إلى الأرض، واتباع هواه) لا توجد بينها وبين عناصر الطرف الثاني المتمثلة في (الكلب، وحركة الحمل عليه مع صفة اللهث، وعدم الحمل عليه مع صفة اللهث المستمر) أوجه الإلتقاء الظاهرة بين مفرداتها فعنصر (الإنسان الذي آتاه الله الآيات) ليس بينها وبين عنصر(الكلب) اللاهث وجه تشبيهي منفرد عن بقية عناصر الصورة التشبيهية بعامة .

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج18 - ص 242

(2) ابراهيم - آية 18

(3) البقرة آية 16

(4)الأعراف آية 176،175

وهكذا الأمر مع بقية ألفاظ وعناصر الطرفين المشبهين. ويمكن أن نطبق هذه الكيفية على عناصر الصورة التشبيهية القرآنية الموالية من قوله تعالى: [[ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل]](1). فإذا بحثنا عن أوجه المقابلة بين ألفاظ عناصر الطرفين فإننا لا نعثر عليها؛ لأننا إذا أردنا أن نقابل بين الذين ينفقون أموالهم وبين الجنة التي هي بربوة، لمّا وجدنا عناصر التلاقي بين الطرفين. كما أنه إذا قابلنا بين الجانب المعنوي من الطرف الأول وهو (ابتغاء مرضات الله) وبين (الوابل) لا نجد علاقة بيّنة تجمع بين هذين الطرفين المفردين. وهكذا الأمر مع باقي الأطراف الأخرى من هذه الصورة. وهذه العملية تنطبق على جل تشبيهات الصورة الثالثة المركبة تركيبا مزجيا من تشبيهات القرآن الكريم.

وبعد إذ تبين المراد من هذه النوعية المركبة المزجية نحاول معالجتها ضمن عدة نقاط أو ملاحظات نتعرف من خلالها على الناحية الفنية الجمالية للتشبيه.

الوحدة العضوية: تمتاز تشبيهات هذه النوعية المركبة باتحاد عناصرها ببعضها، إلى درجة لو قدمنا أو أخرنا عنصرا من العناصر الأساسية في الصورة لاختل المعنى الذي يراد من وراء إقامة العلاقة التشبيهية بين الطرفين المشبهين؛ ويمكن أن نأخذ مثالا لهذه الوحدة العضوية قوله تعالى : [[إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس]](2)في هذه الصورة نجد الطرف الثاني منها يتكون من مجموعة عناصر أساسية وردت مرتبة ترتيبا مرحليا. فلو حاولنا مثلا تأخير مرحلة نزول المطر من السماء إلى مرحلة ما بعد اختلاطه بنبات الأرض لما صح لنا ذلك؛ لأن المطر هو العنصر الحي الذي ينزل من السماء فيختلط بالنبات، فيبعث فيه الحياة، وهكذا تتم أطوار النبات بعد نزول المطر الى غاية الدمار الذي يصيبه، سواء بالهلاك كما هو في الآية أم باليبس والحطام. وإذا حاولنا أن نحذف أي عنصر من هذه العناصر الأساسية - رغم كثرتها - فإن المعنى لا يستقيم معنا؛ لأن الهيأة العامة للصورة المركبة يعتريها البتر والنقصان، وهذا ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني في تعليقه حول هذه الصورة التشبيهية: [[...وهي وإن كان

(1) البقرة آية264

(2)يونس آية 24

قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة فإن ذلك لايمنع من أن تكون صورة الجُمل معناها حاصلة تشير إليها واحدة واحدة، ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، وإفراد شطر من شطر؛ حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه}}(1). والوحدة العضوية التي يريدها الجرجاني من خلال كلامه هذا هي التناسق بين الجمل: الثانية مع الأولى، والثالثة مع الثانية، وهكذا الأمر مع باقي الجمل المتبقية في الطرف المركب الواحد.

والوحدة العضوية هذه تجرنا إلى ذكر وحدة الموضوع، لأن عناصر الصور إذا كانت متناسقة متكاملة في تأدية المعنى فإنها لا تخرج من معالجة موضوع واحد.

وحدة الموضوع: ونستشف معناها من قول عبد القاهر في ذكر محاسن التمثيل:{{...وإنه ليأتيك من الشيئ الواحد بأشياء عدة، ويشتق من الأصل الواحد أغصانا في كل غصن ثمر على حدة...}}(2). تمثل عبارة (الأصل الواحد) وحدة الموضوع في الطرف المركب، بينما تمثل لفظة (أغصانا) الأجزاء التابعة للموضوع وأما (الثمار) فهي ما تفرع عن هذه الأجزاء من معاني جزئية لها دورها في رسم الصورة التشبيهية. ويمكننا أن نتتبع هذه الوحدة الموضوعية في قوله تعالى: [[إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما]](3) يحتوي الطرف الثاني المُمَثّل به في هذه الصورة التشبيهية على عدة عناصر فيها الأساسي وفيها الفرعي، والعنصر الأساسي هنا هو (النبات) وكل ما جاء قبله من (غيث) أو بعده من (إعجاب الكفار) أو (هيجان) أو (إصفرار) أو (تحطم) يتعلق بهذا النبات. وهذا ما أكده صاحب التحرير والتنوير في قوله : {{والمقصود بالتمثيل هو النبات،وإنما ابتدئ بغيث تصويرا للهيئة من مبادئها لإظهار مواقع الحسن فيها لأن ذلك يكتسب منه المشبه حسنا}}(4) ويمكن أن يجري هذا التحليل لزيادة في التوضيح أكثر على الصورة التشبيهية من قوله تعالى: [[ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها]](5) تمثل (الشجرة

---

(1)أسرار البلاغة ـ المصدر السابق ـ ج 1 ـص 218ـ219

(2)المصدر نفسه ـ ج 1 ـ ص 252

(3) الحديد آية 19

(4)التحرير والتنوير ـ المصدر السابق ـ ج 27 ص 404

(5) إبراهيم آية 26ـ27

الطيبة) المحور العام الذي تتفرع منه جميع الأجزاء ، أو بالأحرى فهي الموضوع الأساسي الذي تهدف باقي الفروع إلى تبيان حالته العامة المراد تشخيصها ؛لتقابل الطرف الأول من هذه الصورة التشبيهية. فالشجرة الطيبة إذاً كل متكامل بأصلها الثابت وفرعها الذي في السماء وأكلها الدائم في كل حين.

وعلى هذا النمط تأتي الوحدة العضوية في التشبيهات النوعية المركبة بطريقة التركيب المزجي وإلى جانب هاتين النقطتين، الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية، هناك نقطة أخرى يجب أن نتطرق إليها وتتمثل في الأدوات المستعملة في هذه التركيبة المزجية للصورة الثالثة من تشبيهات القرآن الكريم.

أدوات التشبيه: تنحصر الأدوات المستعملة في هذه الصورة التشبيهية المركبة تركيبا مزجيا - في ثلاثة أدوات هي - الكاف ومثل وكأن.

1 - الكاف: فإذا تتبعنا هذه الأداة وجدناها تبرز في التشبيهات المركبة المزجية في شكلين أساسيين: الأول تكون فيه مستقلة عن لفظة (مثل) في الصورة التشبيهية الواحدة وفي هذه الحالة نجدها إما متعلقة بـ(ما) المصدرية ؛ التي تدل على تكرار الفعل الواحد مرتين في الطرفين المشبهين، الأول والثاني، ويتمثل في قوله تعالى واصفا أكلة الربا: [[لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس]](1) وإما متعلقة به مباشرة، سواء كان فاعلا كما هو الشأن في قوله تعالى: [[كالذي ينفق ماله رئاء الناس]](2)أو اسم فاعل كما يظهر في قوله تعالى ممثلا حال المشركين في دعائهم الأصنام وعدم استجابة هذه الأخيرة لهم بشئ : [[كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه]](3) أو متعلقة بالمصدر مباشرة كما توضح ذلك أوائل الصور التشبيهية: [[كسراب]](4). و[[أو كظلمات]](5) أو [[كصيب]](6).

وأما الشكل الثاني الذي تبرز من خلاله هذه الأداة (الكاف) في الصور التشبيهية الواحدة فإنه يكون دوما متعلقا بلفظة (مثل) التي سنتكلم عنها فيما يلي

2 - مثل: تكون العلاقة بين الأداتين (مثل) و (الكاف) على نمطين: منفصل ومتصل، ويكون

(1)البقرة آية 274

(2)البقرة آية 263

(3)الرعد آية 15

(4)(5)النور آية 38 - 39

(6)البقرة آية 18

المنفصل في تقابل الأداتين في الصورة الواحدة تفصل بينهما ألفاظ أخرى، غير أن العلاقة بينهما تبقى متصلة، وتتعدد الألفاظ التي بين الأداتين من لفظة إلى لفظتين، وتمثيلا للشكل الأول ندرج قوله تعالى في الصورة التشبيهية السابقة: [[مثل نوره كمشكاة]](1). وتمثيلا للشكل الثاني نأخذ هاتين الصورتين: [[ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة]](2)و[[ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة]](3). فالفصل بين الأداتين واضح وجلي في هذه الأمثلة. فموقع لفظة (النور) كان بمثابة حالة بين الأداتين: (مثل) و (الكاف) المتصلة بلفظة (المشكاة). كما فرقت بينهما ألفاظ كل من (الكلمة الطيبة) و (الكلمة الخبيثة) في المثالين الأخيرين.

وإذا ماانتقلنا إلى الحالات التي يتم فيها الوصل بين الأداتين، فإننا نجد إلى جانبها حالات الفصل التي سبق التمثيل لها، وسنتعرف على هتين الوضعيتين بنوع من التفصيل.

يتم اتصال (مثل) بالأداة (الكاف) في جل الأمثلة التي بقيت بين أيدينا لهذه النوعية التركيبية المزجية، غير أن هذا الإتصال يصاحبه انفصال بين الأداتين في نفس الصورة التشبيهية إذا استثنينا ما ورد في الصورة التشبيهية من قوله تعالى في وصف الحياة الدنيا [[كمثل غيث]](4)؛ حيث ينفرد اتصال الأداتين (مثل، الكاف) دون أن تتعدد لفظة (مثل) كما سنرى في الأمثلة الآتية.

تنفرد الأداة (مثل)- في الأمثلة التي سنوردها - في بداية الصورة التشبيهية لتتصل بالكاف في بداية الطرف الثاني من نفس الصورة، ويفصل بين الإنفصال والإتصال ألفاظ أخرى،إذا استثنينا حالة واحدة كانت فيها لفظة (مثل) قرينة لفظة (كمثل) دون فاصل لفظي بينهما، وتتمثل هذه الصورة في قوله تعالى واصفا المرائي في الإنفاق: [[فمثله كمثل صفوان عليه تراب]](5).

وإذا تتبعنا قضية الفصل التي تحدث في الصورة الواحدة بين الأداة (مثل) منفصلة، وبين الأداة (مثل) متصلة بالكاف في (كمثل) فإننا نجد هذا الانفصال يحدث بواسطة ألفاظ تتعدد في التصاعد من لفظتين إلى أربعة أو خمسة أو ثمانية ألفاظ. وللتمثيل لصيغة التعدد بلفظتين

---

(1)النور آية 35

(2)إبراهيم آية 26

(3)إبراهيم آية 28

(4)الحديد، آية 20

(5)البقرة آية 263

نأخذ هذه الآية من قوله تعالى: [[ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع]](1) بينما نمثل للتعدد بأربعة ألفاظ بقوله تعالى في وصف نفقة الكفار والمنافقين [[مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر...]](2).وأما التعدد بخمسة ألفاظ فندرج له هذا المثال من قوله تعالى: [[مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة]](3). وأما التعدد الثامن والأخير فنورد له هذا المثال من قوله تعالى في وصف نفقة المؤمنين: [[ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة]](4).

تمثل هذه الأمثلة التي سقناها الوضعيات المختلفة التي وردت على منوالها أداتا التشبيه (الكاف، مثل) منفصلة ومتصلة في آن واحد ولم يبق معنا الآن إلا الأداة الثالثة والأخيرة.

3 ـ كأن: لم ترد هذه الأداة في التشبيهات المركبة ـ المزجية ـ التي توصلنا إلى فرزها إلا في شكلين اثنين الأول: ترتبط فيه الأداة بضمير الرفع المتصل (هم) الذي يمثل الطرف الأول من الصورة، ويتبين هذا في آيتين في وصف حالة الخلق يوم البعث [[كأنهم إلى نصب يوفضون]](5) و[[كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة]](6) وأما الشكل الثاني فترد فيه الأداة متصلة بـ(ما) المصدرية ـ الدالة على الحالة التي يكون عليها الطرف الأول مشبهًا بالطرف الثاني أي أنها تتعلق هي الأخرى بالمشبه، وتبرز هذه الحالة في قوله تعالى: [[يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون]](7).

والإهتمام بهذه الأدوات التشبيهية التي ضمتها الصور التشبيهية المركبة تركيبا مزجيا يعود إلى كثرتها وتنوعها وأهميتها في تحريك أطراف هذه الصور، فكلما تعددت الأدوات في الصورة الواحدة كلما ازداد الجانب الحركي في عناصر الصورة أكثر، وسنتطرق إلى هذه الحركة عندما نتناول الجانب الدلالي في آخر عنصر من عناصر هذه الصورة الثالثة.

وإذا كان الحديث عن التركيب المزجي قدأخذ نصيبا وافرا وذلك لكثرة نماذجه وتنوعها، فإن الحديث عن التركيب التقابلي لا يحظى بنفس القدر من الأهمية وذلك لقلة نماذجه وندرتها.

---

(1)البقرة آية 171

(2)آل عمران آية 117

(3)البقرة آية 260

(4)البقرة آية ـ 264

(5)المعارج آية 43

(6)المدثر آية 49 ـ50

(7)الأنفال آية 6

ب - التركيب التقابلي: وقبل الشروع في تناول هذا النوع من التركيب - الذي نستطيع مقابلة أجزائه ببعضها البعض في الطرفين المشبهين - نناقش حقيقته مرة أخرى مناقشة نصية من خلال صورة تشبيهية واحدة، والمتمثلة في قوله تعالى: [[قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا]](1). يقول في هذه الصورة أحد المفسرين: {{وهذا التركيب البديع صالح للتفكيك بأن يشبه كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبه بها؛ بأن يشبه الإرتداد بعد الإيمان بذهاب عقل المجنون وشبه الكفر بالهيام في الأرض، ويشبه المشركون الذين دعوهم إلى الإرتداد بالشياطين، وتشبه دعوة الله الناس للإيمان، ونزول الملائكة بوحيه بالأصحاب الذين يدعونه إلى الهدى}}(2). ولكن عندما نريد أن نطبق طريقة المقابلة بين أجزاء هذه الصورة التشبيهية فإننا لا نجد علاقة التقابل صريحة في التعبير النصي للآية: ودليلنا في ذلك أن الطرف الأول يتناول قضية ظاهرها يراد به الجانب الخفي منها، وهذا ما يقول به أحد المفسرين في قوله: {{...والكلام من المركب العقلي ومن التمثيل حيث يشبه فيه من خلص من الشرك ثم نكص على عقبيه بحال من ذهبت به الشياطين في المهمه وأضلته بعدما كان على الجادة من الصواب}}(3). إذاً فالظاهر في الشطرالأول من الصورة والمتمثل في (القول بعدم الدعوة إلى غير الله ورفض الإرتداد إلى العقب بعد الهداية) أنه يراد به: {{من خلص من الشرك ثم نكص على عقبيه}}(4)إذ شبهت حالته بحالة من أضلته الشياطين فحاد عن جادة الصواب، وعلى هذا الأساس فإن هذه الصورة لاتدخل ضمن التشبيهات المركبة تركيبا تقابليا، وعليه نقيس باقي التشبيهات المركبة.

لقد أشرنا في بداية هذا الحديث إلى أن هذه النوعية قليلة ونادرة في الأمثلة القرآنية التي بين أيدينا، وذلك حسب الشرط الأساسي الذي أكدنا على وجوده فيما سبق، وهو أن تتواجد العناصر المتقابلة في الطرفين مع وجود أوجه الشبه التي تربط بين هذه العناصر الجزئية في الصورة الواحدة؛ مبتعدين في ذلك عن عملية التأويل التي استخدمها بعض المفسرين (+).

---

(1) الأنعام آية 71

(2) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج7 - ص 302 - 303

(3)(4) روح المعاني المصدر السابق - م3 - ج 7 - ص 189

(+) ينظر التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 7 - ص 303

وانطلاقا من هذا المبدأ فإننا لم نعثر على هذه النوعية بالمعنى الواضح الذي أشرنا إليه في بيت بشار السابق (كأن مثار النقع...). ورغم هذا فقد التمسنا مثالين تتوفر فيهما بعض عناصر التلاقي في بعض أوجهها، فمثلا لوأخذنا قوله تعالى في الحث على الوفاء بالعهد وبعدم نقضه: [[وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم]](1). فإننا نعثر على تلاقي بعض العناصر مثل (نقض الأيمان) و (نقض الغزل)، كما نجد أيضا التلاقي بين عنصري (التوكيد، القوة)، زيادة على هذا فإن وجه التلاقي بين عناصر الطرف الواحد مجتمعة في التركيبة الواحدة وبين عناصر الطرف الثاني مجتمعة كذلك، وهوكما أشرنا الأساس في إقامة الصورة التشبيهية، وليس التقابل بين العناصر هو الغرض المرام من إقامتها. ومما يزيد في تغليب وجود عناصر التقابل في هذه الصوره ماجاء به صاحب الجامع لأحكام القران في تفسيرها: {{النّقض والنّكث واحد، والاسم: النّكث والنّقض، والجمع الأنكاثُ. فشبهت هذه الآية الذي يحلف ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة التي تغزل غزلها وتفتله حكما ثم تحله}}(2) نلمس في هذا التحليل ترتيب العناصر الموجودة في الصورة التشبيهية حسب العلاقة التي تجمع بين الجزأين المتقابلين.

يعد هذا المثال السابق أقرب الصور التركيبية الصالحة لإحراء المقابلة بين أجزائها، وأما المثال الثاني الذي سنورده يبتعد نوعا ما عن المثال السابق في إمكانية التقابل بين أجزائه، وذلك لكثرتها وابتعادها في السياق النصي عن بعضها البعض، إذ نجد بين العناصر الموجودة في الطرف الأول - التي تصلح أن تتقابل مع العناصر الموجودة في الطرف الثاني بواسطة الأداة - عدة آيات. وما دام الأمر يحتاج إلى دليل نصي فإنه يتحتم علينا سرد الآيات القرآنية - رغم طولها - بحيثياتها لنلتمس أوجه التقابل بين عناصر الصورة التشبيهية الواحدة. وموضوع هذه الآيات يتكلم عن النفاق والمنافقين وإغوائهم للكفار والمشركين يقول تعالى في هذا السياق: [[ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن

(1) النحل آية 91-92

(2) الجامع لأحكام القرآن - التفسير السابق - م 5، ج 20 ص 171

الأدبار ثم لا ينصرون، لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون، لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون، كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريئ منك اني أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين]](1). في هذه الصورة التشبيهية المترامية الأطراف اقتصر صاحب التحرير في ربط العلاقة بين طرفيها على لفظة العذاب فيقول: {{أي مثلهم في تسبيبهم لأنفسهم عذاب الآخرة كمثل الشيطان إذ قال للانسان بأن يكفر ثم يتركه ويتبرأ منه فلا ينتفع أحدهما بصاحبه ويقعان معا في النار}}(2). يبدو من خلال كلامه هذا أنه اعتمد على الأجزاء الأخيرة من الصورة، ولكن إذا بحثنا مليا عن عناصر التقابل بين الطرفين المشبهين لاختلفنا معه، إذ نلتمس عناصر الطرف الأول في بداية الآيات عن النفاق والمنافقين ففي جملة (ألم تر إلى الذين نافقوا) تمثل عبارة (الذين نافقوا) الجزء المقابل لعبارة (كمثل الشيطان) والجامع بينهما هو الغواية، بينما تقابل جملة (يقولون لإخوانهم الذين كفروا) في الطرف الأول عبارة (إذ قال للانسان أكفر) في الطرف الثاني من الصورة، والجامع بينهما هو الأمر بالتمرد، وأما باقي الأجزاء الأخرى في الطرف الأول فتتقابل مجتمعة مع باقي الأجزاء الأخرى من الطرف الثاني مجتمعة كذلك، مع تواجد الجمل المعترضة ابتداء من (لأنتم أشد رهبة في صدورهم) إلى غاية (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون). وأما موقع جملة (كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) فيمثل الجزء النهائي من أجزاء الطرف الأول من الصورة التشبيهية، فهو عبارة عن حالة نهائية للمنافقين الغاوين والكافرين والمغويين على حد سواء؛ وسندنا فيما ذهبنا إليه ما أورده صاحب روح المعاني أثناء تفسيره لهذه الصورة التشبيهية: {{...كأنه قيل مثل أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب في حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم، ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال إغراء الآمر للمأمور به...}}(3). وبالرغم من إمكانية إجراء التقابل بين أجزاء هذه الصورة - كما سلف القول - فإن الجانب التركيبي يبقى هو الغرض الأساسي من إقامتها. وإذا كان النوعان الفردي والتركيبي واضحي المعاني في هذه

---

(1)الحشر/الآية 11إلى17

(2) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 1- ص 108- 109

(3)روح المعاني - المصدر السابق - م 11- ج 1ص 59

الصورة الثالثة، فإننا لا نجد هذا الوضوح في النماذج المقلوبة أو المعكوسة، كما سنرى ذلك من خلال معالجتنا للنوع الثالث من أنواع هذه الصورة.

النوع الثالث: القلب أو العكس:

لا يراد بعكس الصورة أن يقدم المشبه به على المشبه كما سبق أن بيّنا ذلك في الصورة التشبيهية السابقة في قوله تعالى: {{أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا مما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله، كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض}}(1)، وإنما يقصد به أن يتحول المشبه مشبها به، أو العكس، كأن يصير المشبه به عادة أقل درجة من المشبه، ومن أمثلة ذلك من الشعر قول ابن المعتز المشهور:

قد اغتدي على الجياد الضمر والصبح في طرة ليل مسفـر

كأنه غرة مهر أشقـر والوحش في أوطانها لم تُغدَر(2)

ففي هذا البيت توجد صورة تشبيهية، قابل فيها ابن المعتز بين بياض الصبح العالق بسواد آخر الليل، وبين البياض الموجود في جبهة المهر الأشقر، وقد جعل من الأول مشبها ومن الثاني مشبها به، ولكن المتعارف عليه في الطبيعة أن بياض الصبح في آخر الليل أبرز وأوضح للعيان من بياض غرة المهر؛ ولهذا كان من المعتاد أن يشبه الطرف الثاني بالطرف الأول، أي يشبه الأدنى بالأعلى، وبالرغم من هذا فالعكس في هذه الصورة التشبيهية طبيعي على حد قول فخر الدين الرازي، لأنه يدخل في إطار: {{الجمع بين الشمس في مطلق الصورة أو الشكل أو اللون، فالعكس مستقيم فيه، وهو تشبيه الصبح بغرة الفرس الأدهم لا لأجل المبالغة في الضياء بل لأجل وقوع منير في مظلم وحصول بياض في سواد مع كون البياض قليلا بالإضافة إلى السواد}}(3).

وأما إذا كانت الصورة في نظره على غير هذا الحال فلا يصح عكسها كأن: {{يكون الغرض من التشبيه إلحاق الناقص من الزائد مبالغة في إثبات الحكم للناقص فهذا يمتنع عكسه وهو كما إذا شبهت شيئا أسود بما هو الأصل في شدة السواد كخافية الغراب والقار، امتنع فيها العكس لأن تنزيل الزائد منزلة الناقص يضاد المبالغة في الإثبات}}(4) نفهم من قول الرازي أن

---

(1) الرعد - آية 19

(2) الديوان - ابن المعتز - دار بيروت للطباعة والنشر - 1400 هـ - 1980 م - ص 243

(3)(4) الايجاز في دراية الإعجاز - المصدر السابق ص 110

عملية عكس الصورة التشبيهية تخضع للغرض المراد من إقامتها، وفي حالة ما إذا وجدنا صورة معكوسة دون أن يكون لقائلها غرض يهدف إليه من عملية عكس الطرفين المشبهين، سوى أنه يريد المبالغة في التصوير، فإننا لا ندرجها ضمن الصور التشبيهية المعكوسة ، ولكن الأولى بالرفض نوعية هذه الصور إذا كان الغرض من عملية عكس طرفيها الجانب التقريري ، لا الجانب التصويري، وهذا ما سنتعرف عليه من خلال مناقشتنا لبعض النماذج فيما بعد.

وإذا انطلقنا من حتمية صحة عكس الصورة التشبيهية بصحة الغرض، فإننا لا نجد ضمن تشبيهات الصورة الثالثة من تشبيهات القرآن الكريم أي صورة معكوسة، وبعد هذا تكون النماذج التي أوردها بعض المفسرين وعلماء البلاغة بعيدة عن القاعدة التي وضعها الرازي والتي تعتمد على عدم المبالغة في عكس الصورة، وتحديد الغرض من عكسها، وهذا لا يمنع من مناقشة النماذج التي سيقت للتمثيل لهذه الصورة الثالثة المعكوسة.

من النماذج التي عثرنا عليها في كتب التفسير و علوم البلاغة قوله تعالى: [[ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا]](1)، تدخل هذه الصورة في زمرة تشبيهات الصورة الثالثة؛ لتوفر الأركان الثلاثة فيها (المشبه، الأداة، المشبه به). وهي كالتالي (البيع، مثل، الربا) مع حذف الطرف الرابع وهو (العلاقة) التي تربط بين الطرفين المشبهين. ولقد أقر معظم من تناول هذه الصورة التشبيهية بأنها معكوسة بحجة الأولى أن يقال: {{إنما الربا مثل البيع}}(2)، لأن الكلام في الربا وليس في البيع. ونحن نقول: كان الأولى لهؤلاء أن يتساءلوا أولا هل عملية العكس هذه تدخل في إطار الصور التشبيهية التي عمد القرآن الكريم إلى إقامتها لأغراض تصويرية وتوضيحية مختلفة ؟أم أن القرآن الكريم جاء بها على لسان الكفار والمنافقين ليبين لنا طريقة تفكيرهم في هذه العملية الربوية ؟ والجواب عن هذين التساؤلين يكمن في الجملة السابقة لهذه الصورة والمتمثلة في قوله تعالى: [[ذلك بأنهم قالوا]](3). فالقول هنا يشير إلينا بأن الصورة كانت من نسج أكلة الربا. وهنا نتساءل أيضا، هل هذا النسيج كان من أجل إقامة القياس للتسوية بين عملية الربا والبيع ؟ أم كان من أجل المبالغة بأن جعلوا الأصل فرعا والفرع أصلا؟ وإذا كان الأمر الأول هو المراد من قولهم هذا، فعملية التقديم والتأخير لا تؤثر في الأمر شيئا، لأن الطرفين في نظرهما متساويان، سواء قالوا: (إنما الربا مثل البيع

(1) البقرة - آية 274

(2) التحرير والتنوير - التفسير السابق - ج 1 ص 383

(3) البقرة آية - 274

أو البيع مثل الربا): {{أي هو نظيره فلم حرم هذا وأبيح هذا؟..أي هذا مثل هذا وقد أحل هذا وحرم هذا..}}(1). وهذا التساوي يؤكده الرازي في تفسير هذه الصورة؛ إذ يرى أن البيع والربا تساويا عندهم فصار البيع مثل الربا وعكسه سواء.(+). وإذا اعتمدنا هذا التساوي بين الطرفين فلا تكون أمامنا صورة تشبيهية معكوسة، بل نرى أن هذه العلاقة بين الطرفين علاقة تقريرية، أي أنها تقر بوجود تشابه تطابقي جمع بين الطرفين، وهذا الطرح يخول لنا نقلها إلى النوع الأول من التشابه التقريري. وأما إذا كان الأمر الثاني - وهو المبالغة هو المراد من قولهم هذا خلافا للصورة العادية المفصلة للتشبيه - كما جاء في الكشاف: {{..فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه، وكانت شبهتهم أنهم قالوا: لو اشترى الرجل ما لا يساوي إلا درهما بدرهمين جاز، فكان ذلك إذا باع درهما بدرهمين..}}(2) - جاز لنا أن نسميه تشبيها معكوسا. وإذا كان لا بد من ترجيح رأي على آخر، نميل إلى التحليل الأول ونستند في ذلك إلى تفسير صاحب الكشاف نفسه للجملة التي أعقبت هذه الصورة مباشرة فيقول: {{وقوله: (وأحل الله البيع وحرم الربا) إنكار لتسويتهم بينهما}}(3).إذاً فالتسوية هي المراد من قولهم السابق (إنما البيع مثل الربا)، أي أنهم ساووا بين البيع والربا إلى درجة استوى عندهم التقديم والتأخير كما جاء في تفسير الرازي السابق. ومما يزيد في ترجيحنا للغرض الأول، أن عملية الربط بين الطرفين المشبهين جاءت على لسان الكفار والمشركين، ولم تأت على طريقة التشبيهات الأخرى في التصوير القرآني لأكلة الربا: [[الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس]](4) كما أن التشبيهات التي تأتي على ألسنة البشر في أسلوب القرآن الكريم تفيد دوما التقرير دون التصوير ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: [[قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم]](5) وقوله تعالى أيضا: [[قل إنما أنا بشر مثلكم]](6). ومثله قوله عز وجل: [[فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم]](7)

(1) تفسير ابن كثير - المصدر السابق - ج 1 - ص 327

(+) ينظر التفسير الكبير - الفخر الرازي - المصدر السابق - م 4- ج 7 ص 66

(2)(3) الكشاف - المصدر السابق - ج 1ص 391

(4) البقرة آية279

(5) ابراهيم آية 14

(6) الكهف آية 105

(7) المؤمنون آية 24

ويتبعه في ذلك قوله تعالى: [[فليأتنا بآية كما أرسل الأولون]](1). فالتشابه في هذه الأمثلة واضح من خلال التصريح القولي (قالت، قل، فقال). أوعن طريق الطلب (فليأتنا). والمراد في هذه الأمثلة - كما هو واضح - تقرير التطابق في الطبيعة البشرية بين الأطراف المشبهة في كل من المثال الأول والثاني والثالث، وأما المثال الرابع فالتطابق فيه يخضع لتحقق نفس القول من نفس المصدر الذي صدرت منه، والأمثلة من هذا النوع في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة لا يسمح المجال لذكرها؛ لأنها ذكرت، في الفصل الأول من هذا البحث، وهي دليل بيّن على تغليب الجانب التقريري على الجانب التصويري في مجمل التصريحات البشرية في القرآن الكريم. ويؤيد هذا كله ما جاء في التفسير بشأن جوازطبيعة هذه الصورة التقريرية : {{ويجوز أن يكون التشبيه غير مقلوب بناء على ما فهموه أن البيع إنما حل لأجل الكسب والفائدة وذلك في الربا وفي غيره موهوم }}(2).

ويصادفنا - إلى جانب هذه الأنواع المعكوسة السابقة - نوع آخر عده بعض المفسرين ، وبعض علماء البلاغة من قبيل التشبيهات المعكوسة، وهذا النوع سبق أن صنفناه ضمن الصور المنكرة للتشابه في إطار حديثنا عن التشابه في الفصل الأول، ولكن لا مانع من إعادة مناقشة بعض هذه النماذج لنتعرف على وضعيتها اللائقة بها في مصاف الصور التشبيهية: ومن بين هذه النماذج نأخذ قوله تعالى: [[أفنجعل المسلمين كالمجرمين]](3) والسؤال الذي نطرحه أولا هو: هل هناك صورة تشبيهية في هذه الآية القرآنية قبل أن تعكس ؟ فإذا افترضنا - كماجاء في بعض التخريجات التفسيرية أن الأصل في الكلام (أفنجعل المجرمين كالمسلمين)(+). فإننا لا نجد صورة تشبيهية مُقامة على أساس وجه الشبه، والدليل على ذلك أن الآية تنفي وحدة العلاقة بين الطرفين (المجرم والمسلم) عن طريق الاستفهام الإنكاري (أفنجعل)، وهذا ما يؤكده صاحب التحرير بقوله: {{والهمزة للاستفهام الإنكاري، فرع إنكار التساوي بين المسلمين والكافرين على ما سبق من اختلاف جزاء الفريقين}}(4) وإذا كان النفي هوأساس هذه الآية فالتقديم والتأخير لا يغيران من الأمر شيئا، وبالتالي فلا توجد صورة تشبيهية على الإطلاق،

(1) الأنبياء آية 5

(2) روح المعاني - المصدر السابق - م 1 - ج 3 - ص 50

(3) القلم آية 35

(+) القرآن والصور البيانية - عبدالقادر حسين - دار نهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة القاهرة ص 85

(4) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 22 - ص 31

حتى وإن سلمنا بقول القائل: {{...أما إذا جعل المعنى ليس المصلحون كالمفسدين والمتقون كالفجار، والمسلمون كالمجرمين في سوء الحال فلا عكس في التشبيه}}(1)وبهذه الطريقة نفسها يمكننا تحليل النماذج الباقية وبخاصة التي تتصف بالأسلوب الإنكاري سواء كان ذلك بهمزة الإنكار كما هو الأمر في قوله تعالى: [[أفمن يخلق كمن لا يخلق]](2) وقوله تعالى: [[أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار]](3) أو بأداة من أدوات النفي كما هو الشأن في قوله تعالى: [[يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن]](4)، أو في قوله عز وجل: [[فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى]](5).

لقد اعتمدنا في تناولنا لهذه النماذج المعكوسة على القاعدة الأساسية المتبعة من طرف علماء البلاغة في التمثيل للصور المقلوبة في ميداني الشعر والنثر، وإن لم تتفق هذه القاعدة مع تخريجات بعض هؤلاء العلماء لنماذج القرآن الكريم، في مثل قول أحدهم: {{ومنها إخراج الكلام بالتشبيه مخرج الإنكار كقوله تعالى: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر)(6)...}}(7) وقوله (إخراج الكلام بالتشبيه مخرج الإنكار) يعني أن هناك تشبيه في هذه الآيات، ولكن الحقيقة يؤكدها هو نفسه في قوله: {{...وهذا إنكار على من جعل حرمة الجهاد كحرمة من آمن بالله واليوم الآخر، وذلك أوفى دلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان، وأنه لا يساوى به مخلوق على صفته بالقياس...}}(8). إذاً فالتشبيه في هذه الآية لم يصرح به لأنه وقع من قبل الكفار، ولكن صُرِّح بنفيه وإنكاره بصريح الآية.

وانطلاقا من هذه الرؤيا الضيقة في تطبيق القاعدة النظرية للصورة الثالثة المعكوسة نخلص إلى القول بعلم وجود أي نموذج تشبيهي لهذه الصورة من تشبيهات القرآن الكريم وبهذا ننهي حديثنا عن هذه النوعية الثالثة المعكوسة لننتقل إلى معالجة النوعية الرابعة والأخيرة

(1) القرآن والصور البيانية - المصدر السابق ص 58

(2) النحل آية 17

(3) ص آية 27

(4) الأحزاب آية 32

(5) آل عمران آية 36

(6) التوبة آية 19

(7)(8) بديع القرآن - المصدر السابق ص 58

النوع الرابع: الجانب الدلالي للألفاظ:

تدرك دلالات ألفاظ الصور التشبيهية بنوعيها - المفرد والمركب - بواسطة الحواس الخمس المعروفة، أو بواسطة حاسة العقل، ولهذا السبب أطلق علماء البلاغة على الأولى (التشبيهات المحسوسة) وعلى الثانية (التشبيهات المعقولة)، وعادة ما يكون تركيزهم حول وجه الشبه، كما سيتضح ذلك معنا في قول القزويني: {{ووجه الشبه إما واحد أو غير واحد والواحدإما حسّي أو عقلي}}(1). ومن وجه الشبه ينطلقون في التعرف على طرفي الصورة، فما كان فيها وجه الشبه محسوسا كان طرفاها بالضرورة محسوسين، وأما إذا كان وجه الشبه عقليا فإن طرفيها لا يخلوان من أمور ثلاثة كما ورد في الإيضاح: {{...والعقلي طرفاه إما عقليان أو حسيان أو مختلفان}}(2).

وأما الطريقة التي سنسلكها في هذه الدراسة فتتناول طبيعة الطرفين أولا، ثم تتناول طبيعة العلاقة بينهما؛ أي أنها دراسة شاملة لدلالات ألفاظ الصورة الواحدة. وهذه الدراسة ستضطرنا إلى الجمع بين ما هو حسي، وبين ما هو معنوي، يدرك بواسطة العقل، وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالتشبيهات المركبة؛ حيث تجتمع الدلالتان الحسية والمعنوية في صورة واحدة، بل في طرف واحد. ولهذا سنحاول التطرق إلى الجانبين الحسي والمعنوي في الصورة المفردة أولا، ثم المركبة ثانيا.

الدلالة الحسية والمعنوية في الصورة المفردة:

أ - الدلالة الحسية: يبرز الجانب الحسي في تشبيهات الصورة الثالثة بوجه عام وبخاصة في الطرف الثاني منها، ويشمل الطرفين في الصور التشبيهية المفردة، سواء المطلقة أو المقيدة أو المتعددة، ويطغى الحس البصري - على وجه الخصوص - على الصورة التشبيهية في النماذج التي بين أيدينا، وبالتحديد فيما كان طرفاه مفردين، ولم تخل الصورة البصرية في هذه النماذج من أمور ثلاثة، إما متحركة، وحركتها تشمل الطرفين المشبهين، وإما ثابتة غير متحركة، ويكون ذلك في كلا الطرفين، أو تجمع بين الحركة والثبات فيكون أحد الطرفين متحركا والآخر ثابتا أو العكس.

نبدأ أولا بالصورة المتحركة، وهي قليلة نمثل لها بقوله تعالى: [[وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر]](3). تنم ألفاظ كل من الطرفين الأول والثاني لهذه الصورة على الحركة، فلفظة

(1)(2) الإيضاح - المصدر السابق - ص 343

(3) القمر آية 50

(واحدة) تعني الزمن الذي تستغرقه الإستجابة لأمر الله، فهي إذاً تمثل الحركة السريعة التي تقابلها في الطرف الثاني حركة لمح البصر، والجامع بينهما كما هو واضح السرعة الفائقة، وهي رمزالحركة ودليلها، والذي يلاحظ على هذه الحركة - حسب مدلول الألفاظ - أنها تتميز بطابع الخفة، ولكن نتيجتها تكون شديدة الوقع ونلمس هذه الشدة في وضعية ألفاظ بعض الصور الأخرى كما هو الأمر في تشبيه غليان شجرة الزقوم؛ طعام أهل النار بغليان الحميم، فالحركة هنا تتمثل في قوة الإهتزازات المتتالية ذات الطابع الثوري البركاني، وتشتد هذه الحركة الإهتزازية أكثر في معاني ألفاظ هذه الصورة التشبيهية من قوله تعالى مُشبّها اهتزازات عصا موسى بحركة الجن: [[فلما رآها تهتز كأنها جان]](1) ، فحركة (الجن) وإن كانت خفية إلا أن الحس الإجتماعي تعارف على قوتها وشدتها. ويمكن القول بأن الحركة التصويرية في الصور التشبيهية القرآنية ترتبط بالموقف الذي تعالجه كل صورة؛ فمثلا لو أخذنا الصورة التي تعالج موقفا من مواقف يوم البعث، والمتمثل في رسم ساعة الخروج من القبور، فالحركة التي ستحدث في هذه الآونة غير معروفة، ولتعريفها للناس وضع الله تعالى صورة أخرى معتمدة على حركة تقاربها في الطريقة، وليس في القوة والهول، ألا وهي الكيفية التي كان عبدة الأصنام يسلكونها يوم الذهاب إلى زيارتها وما يتبع تلك الزيارة من طقوس دينية. فلنتأمل قوله تعالى: [[يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون]](2) وهذا اليوم كما عرفه القرآن الكريم شديد وصعب: [[يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه]](3) ولكن هذه الصورة التشبيهية اكتفت بِرَسم جزء يسير من هذا اليوم، والذي ينحصر في تلك الحركة السريعة التي تحمل معنى الخوف والهلع في كلا طرفي الصورة، فالحركة التي كانت في الدنيا تجاه الآلهة كان يدفعها الخوف من بطش الآلهة وغضبها، ولهذا تكون مصحوبة بنوع من الفوضى والإضطراب، ونفس الأمر ينطبق على الحركة التي تحدث يوم مشهد البعث ولكن بحركة تكون أكثراضطرابا لشدة الموقف وهوله، وهذا ما يؤكده صاحب الظلال في شرحه لمعنى هذه الصورة التشبيهية بقوله: {{...في مشهدهم ومشيتهم وحركتهم في ذلك ما يثير الفزع والخوف}}(4). فالحركة إذاً كانت متناسبة مع الموقف فلم تكن شديدة ذات أثرصوتي، بل

---

(1) النمل آية 10

(2) المعارج آية 43

(3) عبس الآية34إلى37

(4) في ظلال القرآن المصدر السابق م6 ج 29 ص 3703

اكنفت بالأثر البصري؛ لأن المراد من إقامة الصورة كما هو واضح هو الكيفية أو الطريقة التي يسلكها هؤلاء الكفار يوم خروجهم من القبور.

وفي نفس الموقف - موقف يوم البعث وبنفس الحركة، حركة الخروج من القبور - تأتينا صورة تشبيهية أخرى لتلتقط لنا جانبا آخر مغايرًا، لا يتمثل في الإفاضة إلى النصب، بل يتمثل في الهيأة التي يكون عليها الناس في هذا اليوم، في صورة بصرية أفقية، تتغلب فيها الهيأة على الحركة؛ لأن الحركة تكاد تنعدم أمام تجمهر الناس في المكان المخصص لرسم الصورة. ورغم هذا فتبقى الصورة التشبيهية مليئة بالحركة والحيوية التي تحملها ألفاظ كل من (الخروج والسرعة والإنتشار) من قوله تعالى: [[يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر]](1) ورغم ما في هذه الصورة من حركة، فإن الجانب البصري يبقى هو المُقيِّد لها؛ لأن الجانب الصوتي الذي يلازم هذه الحركة غير مصرح به في دلالات ألفاظ عناصرها.

لم تأت الصور البصرية في التشبيهات المفردة متحركة فحسب، بل نجد الجانب الأكبر منها ثابتاً يدل على انعدام الحركة وفقا لدلالة الألفاظ التي تشكل كل صورة من هذه الصور. ويكون ثبات الصور البصرية متمثلا في ثبات الطرفين المشبهين، أي أن كل صورة واحدة تشتمل على جزأين متقابلين تجمع بينهما علاقة ثابتة غير متحركة. فمثلا لو أخذنا الصورة التشبيهية من قوله تعالى: [[ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون]](2)، فعلى قدر ما تحمل لفظة (الطواف) من حركة، إلا أن الغرض من سوق هذه الصورة المعبِّرة عن وضعية الغلمان لا يتمثل في الحركة كما هو واضح من السياق، بل نجد الغرض منها كما يبدو في عمومها يتمثل في الشكل الظاهري الذي يُبيِّن حالة بروز الغلمان أمام أهل الجنة. ولهذا فقد قوبل بشكل آخر لشيئ آخر وهو (اللؤلؤ) المرتبط بلفظة (المكنون)؛ لما تحمله هذه اللفظة من معنى الصفاء والنقاوة، الأمر الذي يؤكد ثبات الصورة البصرية الظاهرة الخالية من الحركة أو تكاد.

ويتكرر الحس البصري الثابت في الأمثلة الأخرى ولكن مع تغاير في الموقف، فنجد (الحور العين) تقابل (اللؤلؤ المكنون)، وكذلك (الولدان) يقابلون (اللؤلؤ المنثور) في صور بصرية ثابتة. ونفس الشيئ ينطبق على (قاصرات الطرف) المناظرة (للبيض المكنون) في صورة، و (للياقوت والمرجان) في صورة أخرى. وكل هذه الصور وما يماثلها لا نجد فيها الحس البصري المتحرك بقدر ما تبرز فيها السكينة والثبات في جميع أجزائها المتقابلة.

---

(1) القمر آية 7

(2) الطور آية 22

وقد يسبق الصورة الثابتة ما يوحي بالحركة كما سبق القول مع فعل(الطواف للغلمان)، ولكن الشيئ الأساسي فيها هو الشكل المجيد بالطرفين، مع وجود الأداة المشيرة إلى إمكانية التقابل، وكذا العلاقة الرابطة بينهما، فلو أخذنا على سبيل المثال قوله عز وجل: [[فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم]](1) لوجدنا أن ألفاظ كل من (الوحي، الضرب، الإنفاق) تحمل معاني الحركة، ولكن إذا تناولنا ألفاظ الصورة التشبيهية ذاتها مثل (الفرق، الطود) وجدناها يحملان معنى الثبات المصحوب بالقوة التي يبرزها الشكل الظاهري الذي يخضع للحس البصري.

وإلى جانب الصورة البصرية المتحركة، والصورة البصرية الثابتة، هناك صورة بصرية تحمل معنيي الحركة والثبات في آن واحد، أي أن أحد طرفيها يحمل معنى الحركة، والآخر يحمل معنى الثبات وهذا ما لاحظناه من خلال تقصينا للنماذج القرآنية للصورة الثالثة من صور التشبيه . وعلى قلة نماذج هذه النوعية فإنه لايمكن أن نغفل بعض ما ورد منها، وأبرز ما تمثل لها به قوله تعالى في وصف الزجاجة: [[...الزجاجة كأنها كوكب دري]](2) وبالرغم من معنى الثبات الذي يوحي به الطرفان المشبهان (الزجاجة، الكوكب) إلا أن لفظة (الدري) الموجودة كقيد في الطرف الثاني تؤكد الحركة الضوئية التي تنطلق من (الكوكب)، وبهذا يكون الطرف الثاني من الصورة يؤكد معنى الحركة لا السكون، لأن السكون يعني الكوكب المظلم الذي لا يشع ، وليس هو المعنى المطلوب من إقامة الصورة التشبيهية، وهذا يزيد في قوة الحس البصري الذي يميز طابع هذه الصورة الثابتة في جانب، والمتحركة في الجزء الثاني من الجانب الآخر.

لقد تعلقت الحركة في هذه الصورة بالطرف الثاني، ولزم الثبات الجانب الأول منها، ولكن يختلف الأمر في المثال الذي سنورده، إذ ترتبط فيه الحركة بألفاظ الطرف الأول، بينما يخيم السكون والإستقرار على مدلول ألفاظ الطرف الثاني، وهذا ما عايناه في الصورة التشبيهية من قوله تعالى: [[إنها ترمي بشرر كالقصر]](3). تعني لفظتا كل من (ترمي، الشرر) حركة مستمرة متباينة، وتقابلها لفظة (القصر) التي تنم عن الثبات المصحوب بالإرتفاع الشاهق، وإذا ما قابلنا هذين الطرفين في صورة بصرية مرئية لتبين لنا أن الجزء الأول يتحرك في تصاعد شاهق مستمر، وأن الجزء الثاني صامد ثابت يتميز بالعلو الشاهق، وهذه هي العلاقة التي

---

(1) الشعراء آية 63

(2) النور آية 35

(3) المرسلات آية 32

تربط بين الطرفين المشبهين. والملاحظة نفسها يمكننا تطبيقها على لفظة (الموج) المتواجدة في مثالين اثنين؛ الأول: تقابلت فيه هذه اللفظة مع لفظة (الظلل) وذلك في قوله تعالى: [[وإذا غشيهم موج كالظلل]](1) والثاني: تقابلت فيه مع لفظة (الجبال) وذلك في قوله تعالى :[[وهي تجري بهم في موج كالجبال]](2). ففي المثال الأول تعني جانبا واحدا - في مقابلتها مع (الظلل)- وهو العلو والإرتفاع الذي حدث بعد الحركة القوية للموج؛ لأن الموج شيئ متحرك باستمرار، ولهذا فرغم الثبات الذي قد يبدو من مغزى إقامة هذه الصورة التشبيهية - إثر مقابلة استقرار الموج بعد العلو المرتفع بـ(الظل) المرتفع من كل شيئ من سحاب أو غيره - تبقى الحركة القوية تسيطر على الحس البصري بعد قراءة هذه الصور التشبيهية، لأن لفظة (الموج) تحمل مدلولا حركيا، وبخاصة إذا كانت تصدرعن شيئ متحرك، كالماء أو الهواء، أوغيره من الأشياء المتحركة. ونفس التحليل ينطبق على لفظة (الموج) المقابلة للفظة (الجبال)، مع اختلاف طفيف في الشكل الظاهري للموج؛ في الأولى: ارتفع إلى درجة الإنحناء فكان بمثابة (الظلة)، وأما في الثانية: فكان ارتفاعه شاهقا دون أن تنحني ألسنته، بل كانت مسننة تشبه شكل الجبال العالية، ومادام (الموج) في كلا الصورتين لا يستقر على حال بعد ارتفاعه (كالظلة، كالجبال) فإن الجانب الحسي الحركي يبقى دوما يلازمه ويطغى على مدلوله، وأما الثبات فيلازم كلا من (الظلة والجبال) في الطرف الثاني من كل صورة. وبهذا تكون الصورة البصرية الحسية متحركة في الجانب الأول، وثابتة في الجانب الثاني منها.

وإذا أردنا أن نلتمس صورة حسية غير بصرية في التشبيهات المفردة من الصورة الثالثة من تشبيهات القرآن الكريم التي بين أيدينا، فإننا لا نعثر على أي نموذج من هذا القبيل، إلا إذا التمسنا جانب الحس اللمسي في جزء من العلاقة الرابطة بين (شجرة الزقوم) وبين (المهل) من قوله تعالى: [[إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل تغلي في البطون]](3)، والتي تتمثل - كما جاء في أحد التفاسير(+) - في سواد اللون وشدة الحرارة. والسواد كما هو معروف يخضع للحس البصري، بينما تُمَيَّز الحرارة بحاسة اللمس. وهكذا الأمر ينطبق على العلاقه الرابطة بين (السماء) و (المهل) من قوله تعالى: [[يوم تكون السماء كالمهل]](4). ويبقى الحس البصري في

---

(1) لقمان آية 31

(2) هود آية 42

(3) الدخان آية 41-42

(+) ينظر التحرير والتنوير- المصدر السابق- ج 25 - ص 315

(4) المعارج آية 8

هذين المثالين بارزا يميز الطابع العام للصورتين التشبيهيتين.

ب ـ الدلالة المعنوية: يمثل الجانب المعنوي لدلالات ألفاظ الصور التشبيهية المفردة نسبة قليلة في نماذج هذه الصورة الثالثة. وقد برز هذا الجانب في ثلاث حالات أساسية هي:

الأولى: يكون فيها متمثلا في الطرفين المشبهين بما في ذلك وجه الشبه.

وأما الثانية: فيكون فيها في طرف دون آخر، يتبعه في ذلك وجه الشبه في نفس الخاصية.

وأما الحالة الثالثة: فيتجسد فيها وجه الشبه دون الطرفين المشبهين.

وللتمثيل للحالة الأولى نأخذ قوله تعالى مخاطبا نبيه الكريم: [[إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم]](1). من الواضح أن الطرف الأول من هذه الصورة التشبيهية يتمثل في (زوال العداوة) وهي شئ معنوي نخلص إليه بالإدراك العقلي. وعلى هذا الأساس تكون العلاقة الجامعة بينهما. وهي على رأي أحد المفسرين: {{المصافاة والمقاربة}}(2) ـ تخضع للتمييز العقلي.

لقد تبين لنا من خلال هذا المثال أن الطابع المعنوي ميَّز كلا الطرفين المشبهين وكذا وجه الشبه. وإذا انتقلنا إلى الحالة الثانية حيث يكون أحد الطرفين يتميز بالطابع المعنوي، والثاني بالطابع الحسي، فإنه يمكن أن نمثل لها بجواب القسم الذي نجده في قوله تعالى: [[فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون]](3). يتمثل الطرف الأول في عبارة (إنه لحق) التي تعني كما جاء في الظلال(+) صدق الحديث الذي سبق القسم؛ والصدق كما هو معلوم صفة معنوية لا نستطيع إدراكها بواسطة الحواس العادية المعروفة. بل نتمكن من كنهها ومغزاها باستخدامنا للعقل. بينما يختلف الأمر في الطرف الثاني الذي تمثله لفظة (النطق) في قوله تعالى: [[مثلما أنكم تنطقون]](4). {{...فكونهم ينطقون حقيقة بين أيديهم، لا يجادلون فيها ولا يمارون، ولا يرتابون. ولا يخرصون}}(5). فخاصية النطق إذاً تدرك بواسطة حاسة السمع

---

(1) فصلت آية 33

(2) التحرير والتنوير ـ المصدر السابق ـ ج 24 ـ ص 293

(3) الذاريات آية 23

(+) ((وبعد هذه اللمسات الثلاث في الأرض والنفس والسماء يقسم الله سبحانه بذاته العليا على صدق هذا الحديث))في ظلال القرآن ـ المصدر السابق ـ م 6 ـ ج 27 ـ ص 3381

(4) الذاريات آية 23

(5) في ظلال القرآن ـ المصدر السابق ـ م 6 ـ ج 27 ـ ص 3381

بالدرجة الأولى، وأما العلاقة الجامعة بين الطرفين فهي بالضرورة تدرك بواسطة العقل: {{لأن وجه الشبه مشترك بين الجانبين فلو كان محسوسا لكان المعقول الموصوف به محسوسا من ذلك الوجه وهومحال}}(1).

وبنفس الطريقة نحلل قوله تعالى: [[مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع]](2). تدخل هذه الصورة - كما سبق أن ذكرنا - زمرة التشبيهات المفردة المتعددة؛ والفردية المتعددة تتمثل في مقابلة الفريق الكافر بالأعمى والأصم، ومقابلة الفريق المؤمن بالبصير والسميع، وبهذه المقابلة يتضح لنا أن التشبيه وقع بين عنصرين أحدهما يخضع للإدراك العقلي، ويتمثل في (الفريقين الكافر والمؤمن)؛ بينما يخضع الطرف الآخر للإدراك الحسي العادي، ويتمثل في (العمى الصمم، الإبصار، السمع)، وينطبق على العلاقة الرابطة بين الأطراف المتقابلة ماانطبق على العلاقة في الصورة السابقة؛ فهي بالضرورة تخضع للإدراك العقلي، وهي على وجه التقريب عدم الإنتفاع في كل من الطرفين الأولين، والإنتفاع والإهتداء في كل من الطرفين الأخيرين.

ولم يبق أمامنا بعد أن تعرفنا على نماذج الحالتين الأولى والثانية، إلا أن نتعرف على الحالة الثالثة، حيث تكون طبيعة الطرفين تخضع للإدراك الحسي العادي؛ بينما تكون العلاقة الرابطة بينهما تخضع للإدراك العقلي. ومن الأمثلة الموضِّحة لهذه النوعية، الصورةُ التشبيهيةُ المتواجدة في قوله تعالى: [[والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم]](3). كل الناس يأكلون وعن طريق واحد وهو الفم، ولكن ياترى هل يأكلون بطريقة واحدة ؟ من الواضح في الصورة المحسوسة البارزة عند الناس في حياتهم اليومية، أنهم يتناولون الطعام بطريقة واحدة، وإن اختلفت الأدوات وتنوعت المأكولات، ولكن الجانب الذي تريد الصورة أن توضحه من خلال مقابلة طريقة أكل الكفار بطريقة أكل الأنعام، ليس هو الجانب الحسي كما يبدو من هاتين الطريقتين، بل هو الجانب الخفي الآخر الذي لا يبرز للعيان، أي لا يخضع للإدراك المحسوس بأنواع الحواس الخمس المعروفة، وإنما يفهم بواسطة الإدراك العقلي. وهذا ما يؤكده صاحب روح المعاني في تفسيره لهذه الصورة التشبيهية - بعد استعراضه لرأي سيبويه ورأي أكثر المعربين - بقوله: {{...والمعنى أن أكلهم مجرد من الفكر والنظر كما تقول للجاهل تعيش كما تعيش البهيمة لاتريد التشبيه في مطلق العيش ولكن في خواصه ولوازمه، وحاصله

(1) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - المصدر السابق - ص 98

(2) هود آية 24

(3) محمد آية 13

أنهم يأكلون غافلين عن عواقبهم ومنتهى أمورهم}}(1). إذاً فالعلاقة الجامعة بين طريقة أكل الكفار وطريقة أكل الأنعام تتمثل في خلو الفكر في كل من الطرفين، فالحيوانات تأكل بدون عقل، وهذه طبيعتها، وتمثل الجانب الطبيعي في الصورة، بينما الكفار يأكلون دون عقل رغم توفره لديهم، وهذا هو الجانب الملفت للنظر في هذه الصورة التشبيهية.

وبنفس الطريقة يمكننا أن نتوصل إلى العلاقة التي تربط طرفي الصورة التشبيهية من قوله تعالى: [[من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً]](2). إن عملية القتل في كلا الطرفين يمكن أن تدرك بواسطة الحس عموماً، والبصر منه خصوصاً، ولكن هل العلاقة التي تجمع بين العمليتين، الأولى والثانية تدرك بواسطة الحواس الخمس المعروفة ؟ على اعتبار أن طبيعة الطرفين حسية، أم أنهم غير ذلك ؟ لقد اختلفت في بادئ الأمر الآراء حول إيجاد العلاقة القائمة بين قتل النفس الواحدة وبين قتل الناس جميعاً، فمنهم من يرى أن العلاقة تكون في كون المقتول نبياً أو إماماً عادلاً، وعليه يكون قتله بمثابة قتل لعقول الناس جميعاً، وذلك لأن الإمام أو النبي هو الروح النيّرة التي يحيا بها هؤلاء الناس حياة طيبة، فإذا قتل أصبحوا أمواتاً وهم أحياء، كما تفسر هذه العلاقة أيضاً بكونها قائمة عند أهل المقتول؛ لأن الناس جميعاً في نظرهم لايعدلون قتيلهم، ومنهم من يفسرها بأنها تتمثل في أحادية الجزاء، فالجزاء واحد، ففي الدنيا غضب ولعنة على القاتلين، وفي الآخرة جهنم وعذابها الأليم(+). وأما صاحب الظلال فيذهب في تفسير هذه العلاقة إلى أبعد من ذلك فيقول: {{إنّ قتل نفس واحدة - في غير قصاص لقتل، وفي غير دفع فساد في الأرض - يعدل قتل الناس جميعاً؛ لأن كل نفس ككل نفس، وحق الحياة ثابت لكل نفس، فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته، الحق الذي تشترك فيه كل النفوس}}(3). ويدل اختلاف هذه الآراء حول تحديد العلاقة الرابطة بين الطرفين المشبهين على صعوبة التوصل إلى إدراكها، وذلك لغموضها وابتعادها عن الإدراك الخاضع للحواس الخمس. وهذا يرجح إمكانية التوصل إلى إدراكها عن طريق العقل، ومن هنا وقع وجه الإختلاف بين العقول في إدراكها، لأنها لو كانت معلومة لاستطاعت الحواس بكل سهولة معرفة طبيعتها.

---

(1) روح المعاني - المصدر السابق - م 9 - ج 26 - ص 46

(2) المائدة آية 34

(+) ينظر الجامع لأحكام القرآن - المصدر السابق - م 3 - ج 6 - ص 146 - 147

(3) في ظلال القرآن - المصدر السابق - م 2 - ج 6 - ص 877

ولعل بهذين المثالين النموذجين تكون الحالة الثالثة للجانب المعنوي في الصورة التشبيهية المفردة قد اتضحت بعض الشئ وبها ننهي الحديث عن هذا المحور لننتقل إلى تقصي الجانبين المعنوي والحسي في التشبيهات المركبة من الصورة الثالثة من تشبيهات القرآن الكريم.

ب ـ الدلالة المعنوية والحسية في الصور المركبة:

قد قلنا في بداية كلامنا عن النوعيتين : الحسية والمعنوية لألفاظ الصورة الثالثة أن الجانب الحسي هو المُمَيِّز لها ، خصوصا في الطرف الثاني منها، وهذا ما تؤكده النماذج المركبة من هذه الصورة، إذ نجد الطرف الأول على العموم يتسم بالطابع العقلي، إذا استثنينا بعض النماذج القليلة ذات الدلالة الحسية، بينما يُمَيِّزُ الطَّرفَ الثاني الطَّابَعُ الحسي في مجمل دلالات ألفاظه. ويعد هذا طبيعيا ؛ لأن هدف التشبيه في جل التشبيهات القرآنية هو تشبيه الخفي بالجلي؛ والجلي عادة ما يكون معروفا ومدركا بالحواس، حتى تتضح صورة الطرف الأول الذي يُراد توصيله إلى إدراك الآخرين، وهذا ما ستتعرف عليه من خلال تناولنا للدلالة المعنوية للصور المركبة.

1 ـ الدلالة المعنوية:فإذا تناولنا الأمثلة التي بين أيدينا بالتحليل وجدنا أن الطابع العقلي يُمَيِّز طبيعة معظم ألفاظ الأطراف الأولى فيها؛ سواء كانت جل ألفاظها مستقلة في دلالاتها، كما هو الحال في الصور التي تبتدئ بوصف الحياة الدنيا مثل: [[إنما الحياة الدنيا]](1) أو [[واضرب لهم مثل الحياة الدنيا]](2)، أو [[اعلموا أنما الحياة الدنيا]](3)،أو كالتي تبين تيه وضلال المنافقين والكافرين على حد سواء في مثل: [[أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين]](4)، ومنها كذلك: [[واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه]](5)، من الواضح على دلالات هذه الأطراف الأولى المشبهة أنها تنحو إلى تجميع المعنى في الفكر؛ فالحياة الدنيا تعبير عام يضم جميع المتناقضات؛ فهي تؤدي معنى شاملا لكل ما هو ظاهر أو خفي، عقليا كان أم حسيا، ولهذا لا نستطيع تمييزها بمُميزات دون أخرى. وكذلك الأمر بالنسبة لباقي التعبيرات مثل (الضلالة، الهدى، الإنسلاخ

(1) محمد آية 37

(2) الكهف آية 44

(3) الحديد آية 19

(4) البقرة آية 15

(5) الأعراف آية 175 ، 176

من الآيات، الغواية من الشياطين، الخلود إلى الأرض، اتباع الهوى)، فكل هذه المعاني حسب منظورنا تخضع للإدراك العقلي، وذلك بعد إجالة الفكر في تجميع عناصرها. وعلى العموم فجل معاني الألفاظ السابقة يمكن تفسيرها بواسطة الفكر بعيدا عن الحواس الخمس المعروفة.

ونبقى دائما مع الأطراف الأولى إذ تعترينا بعض النماذج التي تختلف دلالات ألفاظها عن بعضها البعض، فمنها ما يمكن تفسيره عن طريق الإدراك الحسي، ومنها ما يمكن تفسيره عن طريق الإدراك العقلي. وللتمثيل لهذه النوعية ندرج الأطراف الآتية: [[ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة]](1) و [[ومثل كلمة خبيثة]](2) و [[مثل النين ينفقون أموالهم في سبيل الله]] (3) و [[مثل النين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم]](4). فلو أخذنا المثال الأول وبحثنا عن طبيعة لفظة (الكلمة) وجدناها تتكون من حروف وألفاظ تختلف باختلاف حجمها؛ فهي إما تنطق فتسمع، أوتكتب فتقرأ أو تشاهد. وذلك على اختلاف آراء المفسرين في تحديد معناها(+). ولهذا نستطيع القول أن دلالاتها المختلفة تقترب من المعنى الحسي، السمعي أو البصري. وأما إذا تناولنا لفظتي كل من (الطيبة، الخبث) في نفس المثالين - وهما صفتان: إحداهما تمثل الجانب الحسن، والأخرى تمثل الجانب السيئ الرديئ - وجدناهما تخضعان لمنحنى النسبة والتناسب، فالذي يبدو عندك طيب، فقد يبدو لي عكس ذلك، أو على الأقل ليس بالدرجة التي قيّمته بها. وهكذا الأمر بالنسبة لصفة (الخبث) فبعض المجتمعات ترى أن بعض السلوكات خبيثة، وفي نفس الوقت تنظر إليها مجتمعات أخرى على أنها عكس ذلك. ولذا نرى أن هاتين اللفظتين (الطيبة والخبث) من الصواب تركهما للتقييم العقلي؛ حسب طبيعة وميول العقل الجمعي في كل مجتمع من المجتمعات، بل في كل فئة من الفئات ذات الطابع العقلي المميّز. ولكن إذا عدنا إلى مدلول كل لفظة مع نظيرتها في السياق لتبين لنا أن لفظة (الطيبة مجتمعة مع لفظة (الكلمة) تميلان إلى تأدية المعنى الحسي أكثر من المعنى العقلي، والدليل على ذلك الأثر الحسي الذي ينتج من وراء هذه (الكلمة الطيبة) وهذا مصداقا لقوله تعالى: [[ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينكَ وبينه عداوة كأنه ولي حميم]](5). فالتأثير إذاً يمكن أن

---

(1)(2) إبراهيم/الآية26 - 27 - 28

(3)(4) البقرة/الآية260إلى264

(5) فصلت آية 33

(+) (شهادة أن لا إله إلا الله ...القرآن ...)إلخ - روح المعاني - المصدر السابق - م 5 - ج 13- ص 214 - 215

ندركه بواسطة حواسنا، لأن أثر الكلمة يبدو من تجاوب الآخرين معها، وكذلك الأمر بالنسبة للكلمة (الخبيثة) التي تؤثر سلبا في نفسية السامع فينفعل معها في اتجاه عكسي ندرك عواقبه بواسطة حواسنا المعروفة حسب طبيعة الانفعال وسلوكاته المختلفة.

وبهذه الطريقة نفسها يمكن تحليل المثالين المتبقيين، لأن (نفقة الأموال) عملية نستطيع معاينتها بواسطة الحواس العادية، بينما لا تخضع العبارات المقيِّدة لهذه النفقة (في سبيل الله أو (ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم) إلى نفس المعاينة؛ لأنها تتعلق بالجانب الداخلي للنفس البشرية؛ فهي لا تدرك بواسطة الحواس، بل تبقى خفية يمكن الوصول إليها عن طريق الإحساس الداخلي الذي يبقى خاضعا للإستنتاج العقلي.

من الواضح بعد استعراضنا لهذه النماذج التي تمثل الأطراف الأولى للصورة التشبيهية أن الجانب المعنوي ينفرد أحيانا بمدلول ألفاظ الجزء الواحد من هذه الصورة، ويتصل أحيانا بالجانب الحسي لدلالات ألفاظ أخرى؛ تشترك في نفس الطرف، وكل هذا الأمر ينطبق على الأطراف المشبهة، بينما يختلف الأمر عندما تكون الأطراف الأولى مشبها بها، إذ ينفرد الجانب الحسي فيشمل جميع دلالات ألفاظ الطرف الأول، كما هوالحال في قوله تعالى: [[أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله]](1). تمثل ألفاظ هذا الطرف الأول مشاهد متكررة لا ينكرها النظر، كما أن مادة (الزبد) التي تطفو فوق سطح مياه السيول وما تحمله من غثاء عمليةٌ بارزة للمعاينة والمشاهدة بحاسة البصر. ولا يعد هذا التقديم والتأخير - الذي طرأ على هذه الصورة - من قبيل عملية القلب أو العكس التي يتحول فيها المشبه به إليها أو العكس؛ لأن العملية التشبيهية قائمة على أصولها الطبيعية، مع فرق في تقديم الطرف الثاني على الأول، وهذا نوع من أساليب القرآن الإعجازية.

والوصول إلى هذه النوعية الحسية الوحيدة في مجموع الأطراف الأولى يجعلنا نقلب الصورة لنرى طبيعة الطرف الثاني منها، ليكون بمثابة منعطف لدراسة الجوانب الحسية والمعنوية في الأطراف الثانية التي لم نتطرق إليها أثناء تناولنا للأطراف الأولى السابقة، وذلك لتيسير التحليل، وتجنب التكرار والملل.

2 - الدلالة الحسية: نعود فنقول أن هذاالطرف الحسي البصري المركب يمكن تقسيمه إلى

---

(1) الرعد آية 19

قسمين لارتباطه بتعددية الطرف الثاني - على الرغم من اتحاده في صورة مرئية واحدة - الذي يتمثل في لفظتي (الحق و الباطل)؛ فلفظة (الحق) التي تعني الجانب المعنوي تقابل الجانب المحسوس المتمثل في (الماء) وما يتبعه من الأشياء النافعة للناس، كالحطب وغيره، بينما لفظة (الباطل)- والتي تمثل كذلك الجانب المعنوي - تقابل هي الأخرى لفظة (الزبد) المحسوس من نفس الصورة المركبة. وعلى هذا الأساس تكون هذه الصورة بمثابة المثال لإنفراد الطرف الأول بالطابع الحسي ولانفراد الطرف الثاني منها بالطابع المعنوي الخاضع للإدراك العقلي.

وإذا تتبعنا بقية الأطراف الثانية في مثل هذه الصور المركبة وجدنا أن الطابع الحسي هو الغالب على مجموع طبيعة ألفاظها - مع تواجد بعض الألفاظ التي يمكن إخضاعها إلى الإدراك العقلي - وأن كل طرف من هذه الأطراف يمثل صورة مركبة قائمة بذاتها، وأن هذا التركيب يعتمد في جل نماذجه على الإحساس البصري الذي يتميز بالثبات أحيانا، وبالحركة أحيانا أخرى، والجمع بينها أحيانا أخرى؛ فمن الصور المركبة ذات التصوير الحسي الثابت قوله تعالى في وصف نوره: [[كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار نور على نور]](1). تمثل هذه الألفاظ صورة بصرية ثابتة بدءا من (المشكاة) التي تحتوي على (المصباح) الموجود داخل (الزجاجة) التي تشبه في لمعانها (الكوكب الدري)، والمصباح نفسه يوقد من زيت يخرج من شجرة الزيتون كماقيل(+)، والتي تمتاز بصفاء زيتها الذي يكاد يضيئ من صفائه. والبصر في هذه الصورة يمكن أن يستقر على أجزائها الثابتة مثل (المشكاة، المصباح، الزجاجة، الكوكب، الشجرة، الزيت)، وكل هذه الأجزاء ترسم لنا صورة واحدة ثابتة، إذا استثنينا الحركة الخفيفة التي تحدث من لمعان الكواكب.

ومن الصور البصرية الثابتة الأجزاء أيضا ماتجده مجسما في ألفاظ الطرف الثاني من قوله تعالى في وصف الأموال التي تُنفق في سبيل الله: [[كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة]](2). تمثل هذه الألفاظ لوحة طبيعية تحتوي على عناصر ثابتة، فالحبة تستمد ثباتها باستقرارها بين طيات التراب، وأما السنابل فهي الأخرى تستمد ثباتها في استنادها إلى

---

(1) النور آية 35

(+) ((أي يوقد هذا المصباح من دهن شجرة مباركة هي شجرة الزيتون ..)) صفوة التفاسير - م 2 - ص 341

(2) البقرة آية 261

الحبة المغروسة في الأرض، وإلى عدم مغادرتها الحيز الذي تملؤه خارج الأرض في الهواء. وأما الحبات فيرجع استقرارها إلى استقرار نمو السنبلة في الأرض، لأن حركة النمو قد تمّت وانتهت في هذه الصورة الأخيرة الثابتة.

وإلى جانب الصورة البصرية الثابتة الأجزاء، هناك صور بصرية متحركة الأجزاء، وحركة الأجزاء تعني عدم استقرارها، أي أنها توحي بالحركة الناجمة عن طبيعة ألفاظها المستعملة في الصورة؛ فلو أخذنا على سبيل المثال الطرف الثاني من الصورة التشبيهية التي تُبيِّن صفة أعمال الكفار فهي: [[كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيئ]](1) لوجدنا أن الحركة قوية، وقوته تكمن في قوة الرياح التي تمثل مجموعة من التيارات الهوائية التي تهب من كل مكان، وهبوبها هذا يكون في يوم عاصف، حيث تزداد حركة ذرات الرماد إلى درجة تجعلها لا تجتمع أي جزئية مع الأخرى، وهذا ما يتراءى للناظر لهذه الصورة المعبِّرة عن الحركة الفوضوية غير المستقرة.

وقد تندمج الحركة مع الثبات في الصورة البصرية الواحدة، وذلك بتغير في المشهد إذ تأخذ الصورة مشهداً آخر تتغير بعض عناصره، الأمر الذي يجعل البصر يتحرك من الإدراك الأول إلى الإدراك الثاني. ونمثل لهذا الموقف بألفاظ الطرف الثاني المقابلة للألفاظ التي تصف نفقة المرائي للناس والذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر: [[فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً]](2). إن عناصر الثبات في هذا الطرف تتمثل في (الصفوان) تلك الصخرة الملساء، وفي التراب الجاثم فوقها، وهذا هو المشهد الأول الذي تستقر العين عليه أول مرة ، بينما تمثل عناصر (الوابل)- وهو المطر الغزير - وكذلك (الصلد)- الذي يعني الصفة التي يؤول إليها الصخر بعد زوال ذرات التراب من فوقه عقب نزول المطر - المشهد الثاني المتحرك الذي تنتقل المعاينة البصرية فيه إلى رؤية جديدة تختلف عن رؤية المشهد الأول من الصورة.

لقد مثلت عمليتا الثبات والحركة في هذه الصورة الجانب البصري الموضوعي الذي لا دخل للمشاعر النفسية فيه، بينما يختلفُ الوضع في الصورة المرئية الموالية المقابلة لأعمال الذين كفروا التي هي: [[كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً]](3) تمثل عملية (السراب) حركة بصرية تتحرك في مجال ثابت يتمثل في (القِيعَةِ) أو الصحراء بالمعنى

(1) إبراهيم آية 21

(2) البقرة آية 263

(3) النور آية 38

المعروف، وتشاهد في لوحة بصرية واحدة، بينما تمثل لفظة (الماء) صورة بصرية أخرى رسمتها الحالة النفسية التي عبرت عنها جملة (يحسبه الظمآن ماء) فالظمآن دفع العطشان إلى تخيل صورة للماء، والعطشان هو الآخر دفع بالمستمع أو القارئ إلى تصور نفس المشهد، فهي رؤية ثانية للسراب قسمت الصورة إلى مشهدين متشابهين في الشكل دون المضمون.

إن هذه الحركة البصرية في هذه الأمثلة السابقة لا تستغرق زمنا طويلا فانتقال البصر من المشهد الأول إلى المشهد الثاني يتم بطريقة عادية، بينما يتباعد الزمن في أمثلة أخرى، إذ تتطلب منا الحركة البصرية انتظار زمن طويل لكي تتغير المشاهد في أذهاننا؛ وتمثيلا لذلك نأخذ ألفاظ الطرف الثاني من الصورة التشبيهية التي تصف المراحل التي تمر بها الحياة الدنيا نحو الزوال: [[كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فَتَرَاهُ مصفرا ثم يكون حطاما]](1). يصور عنصر (الغيث) عملية نزول المطر النافع الذي يساهم في نمو الزروع والنبات، إلا أن نزول المطر لا يعني مباشرة نمو الزرع، بل لا بد من انتظار مدة من الزمن ليتم ذلك، وهذه المرحلة وصفتها ألفاظ عبارة (أعجب الكفار نباته)؛ أي أنها مرحلة لعملية نمو الزرع الذي أعجب الزراع، وبعد هذه العملية لا بد من انتظار فترة زمنية محددة ليصير الزرع ناضجا، وعملية النضج هذه عبرت عنها لفظة (يهيج) لأن الهيجان يعني أن النبات أو الزرع اكتسب قوة تخول له عملية الإستواء والنضج وبعد عملية الإستواء يتحول النبات ليأخذ صفة أخرى وهي الذبول التي عبرت عنها لفظة (مصفرا)، فالإصفرار علامة لزوال الحياة من النبات، فهو مؤشر للنهاية التي دلت عليها لفظة (حطاما)، وهي المشهد الأخير الذي تنتهي به هذه الصورة البصرية المركبة والمتحركة حركة داخلية عن طريق النمو المتواصل للزرع، والثابتة في بعض مراحل نموها، وآخر ثباتها يتمثل في انعدام الحركة والحيوية التي جعلته ينتهي إلى صورة بصرية جامدة لا حياة فيها. نريد القول من هذا كله أن أطوار نمو الزرع المتتالية التي رسمتها ألفاظ هذه الصورة التشبيهية في مشاهد بصرية متتالية تحتاج منا إلى تصور كل مرحلة على حدة، نستطيع جمعها في صورة مركبة واحدة، وتتطلب منا عملية استحضار هذه المشاهد زمنا تختلف مدته قياسا بالزمن الذي يستعمل في ربط أجزاء الصور البصرية المركبة السابقة.

ومما سبق يتبين لنا أن الصورة التشبيهية المرئية تؤدي دورا فعالا في التأثير النفسي، سواء كانت متحركة أم ثابتة أو جامدة بين الحركة والثبات، ويزداد تأثيرها أكثر عندما يجتمع فيها

(1)الحديد آية 19

السمع مع البصر، والحركة مع الثبات. وسيتضح لنا هذا من خلال تناولنا للطرف الثاني من الصورة التشبيهية التي تصف حالة المرتد عن دينه: [[فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث]](1). ترسم لنا ألفاظ الطرف الثاني من هذه الصورة التشبيهية صورة بصرية يتراءى فيها العنصر الحيواني (الكلب) المتبوع بالعنصر الإنساني، دلت عليه حركة الهجوم والمتابعة المتمثلة في فعلي المضارعة (تحمل وتترك)، وهنا تكمن عملية الحركة والثبات؛ حركة الإنسان خلف الكلب، وحركة الكلب أمام الإنسان، وكذا وقوف الإنسان عن الحركة المصحوبة بالصوت، حركة لسان الكلب اللاهث في حالتي الجري والثبات، وكذا صوت الهواء المتدفق من رئتي الكلب المحدث للإهتزازات الصوتية المتتالية. وبالرغم من ضآلة هذه الحركة داخل الإطار العام للصورة، فإن لها دورا فعالا في مضاعفة قوة التأثير، وقد برز هذا في تكرارها مرتين في المشهدين الأول والثاني.

وكلما ازدادت القوة الصوتية في الصورة، كلما ازداد تأثيرها في النفس، وهذا ما نلمسه في ألفاظ الطرف الثاني في الصورة المعبرة عن حالة التيه والضلال التي يتخبط فيها المنافقون، والمعطوفة على الصورة التشبيهية التي قبلها: [[أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا]](2). ترسم لنا هذه الألفاظ لوحة طبيعية تتداخل فيها العناصر الصوتية والبصرية، فمن أصوات الأمطار المتهاطلة، إلى أصوات الرعود والصواعق المخيفة التي ترهق السمع بل تصمه. ومن الظلام الدامس إلى البرق اللامع الخاطف للأبصار، إضافة إلى هذا كله تلك العناصر البشرية المتفاعلة مع هذه العناصر، فهي تتحرك بحركة البرق، وتجمد بزواله إثر انسدال الظلام الحالك عليهم. كل هذه العناصر مجتمعة - صورة وصوتا، حركة وثباتا - جسدت لنا تلك الحالة النفسية التي يمكن أن يشعر بها كل من عاش تلك التجربة تجربة الخوف من الموت، والضياع وسط العناصر الطبعية القاهرة للإستطاعة البشرية الضعيفة.

نكتفي بهذه الأمثلة التوضيحية للنوعيتين الحسية والعقلية في الطرفين الأول والثاني من الصورة الثالثة المركبة لننتقل إلى تتبعهما في العلاقة الرابطة بين كل طرفين مشبهين.

---

(1) الأعراف آية 176

(2) البقرة آية 18 ـ 19

لقد قلنا فيما مضى أن طبيعة العلاقة التي تجمع بين الأطراف تخضع إلى طبيعة الأطراف نفسها، واستنادنا في ذلك إلى قول الرازي السالف الذكر المفصل لهذه النقطة (+). وتجنبا لتكرار نفس الأمثلة نكتفي بعرض بعض النماذج للزيادة في التوضيح أكثر؛ فمثلا لذلك نأخذ قوله تعالى: [[ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين. فإن لم يصبها وابل فطل]](1). إذا بحثنا عن العلاقة التي تربط بين الطرفين المتمثلين في عملية الإنفاق في سبيل الله وفي الجنة الواقعة فوق الربوة - التي تثمر بوجود المطر أو بالقليل منه - لما تبيَّنت لنا جليا بواسطة مانمتلك من حواس عادية، لأن النفقة وما فيها من ماديات تعد عطاء من الإنسان إلى أخيه الإنسان، ومايتبعها من معنويات، في مثل النية الداخلية التي تصطحب هذه العملية: عملية الإنفاق - بعيدة كل البعد عن الجانب الطبيعي لعملية نزول المطر على الجنة؛ وخروج الثمار منها ضعفين، وفي حالة عدم نزوله، فتكفيها قطرات قليلة من الندى لتؤتي ثمارها. وعلى هذا الأساس إذا أردنا أن نربط بين هذين الطرفين المشبهين يتحتم علينا استخدام الجانب العقلي لاستنتاج العلاقة الجامعة بينهما. ولهذا عده بعض المفسرين بالتشبيه العقلي. ويمكننا أن نلتمس هذه العلاقة في قول صاحب روح المعاني في: {{النمو المقرون بالزكاء على الوجه الأتم}}(2).وعلى العموم فالعلاقة تبقى مرتبطة بحالة الطرفين المشبهين بحسب التأويل.

وبنفس الطريقة يمكن أن نتتبع العلاقة التي تجمع بين الطرفين المشبهين في قوله تعالى: [[يجادلونك في الحق بعد ماتبين كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون]](3). يحتوي الطرف الأول على جزأين؛ الأول: يتمثل في لفظه (المجادلة) وهي النوعية المميِّزة للكلام وتمثل الجانب المحسوس. وأما الثاني: فيتمثل في لفظة (الحق) التي ترمز إلى الجانب المعنوي. وباجتماع هذين الجزأين تكون الغلبة في هذا الطرف الأول للجانب المعنوي. وأما الطرف الثاني فيضم عدة أجزاء هي: السائق والمسوق وحتمية الموت)، وتمثل هذه الأجزاء جميعا الجانب المحسوس في هذه الصورة. إذاً من الطبيعي أن تكون العلاقة بين هذين الطرفين بعيدة عن الإدراك الحسي، لأن طريقة المجادلة في الحق ليست هي المراد تبيانها في الطرفالأول، بل

(+) ينظر ص 167 من البحث

(1) البقرة آية 264

(2) روح المعاني - المصدر السابق - م 1 - ج 3 - ص 36

(3) الأنفال آية 6

الغرض - والله أعلم - هو تبيان حالة المجادلين النفسية والجسدية معا. هذه الحالة تقابلهاحالة الذين يُدفعون إلى الموت دفعا، شاخصة أبصارهم إلى مواطن حتفهم، محاولين مقاومة الدفع بكل مايمتلكون من قوة. إذاً فالعلاقة بين هذين الطرفين علاقة حالية تخضع للإدراك العقلي. ويؤكد هذا صاحب التحرير في تفسيره لهذه الصورة فيرى أن الصورة واقعة في: {{تشبيه حالهم في حين المجادلة في اللحاق بالمشركين بحال من يجادل من يسوقه إلى ذات الموت}}(1).

واستئناسا بماتقدم من أمثلة وآراء نقول: إنه كلما كان التشبيه مركبا كانت طبيعة العلاقة تدرك بواسطة العقل (الإستنتاج العقلي)؛ بغض النظر عن طبيعة الطرفين الحسية والمعنوية. يمكننا أن نستند في هذا إلى النص الذي سنورده لعبد القاهر الجرجاني أثناء حديثه عن وجه الشبه، أو كما يسميه بالشبه المنتزع من التمثيل: {{...وخصائص هذا النوع من التمثيل أكثر من أن تضبط، وقد وقفتك على الطريقة، فهذا أحد الوجوه التي يكون الشبه العقلي بها حاصلا لك من جملة من الكلام، وأظنه من أقوى الأسباب والعلل فيه. وعلى الجملة فينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو الأولى أن يسمى تمثيلا ما نجده لا يحصل لك من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر، حتى إن التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقليا محضا كانت الحاجة إلى الجملة أكثر}}(2). ومما يزيد في قوة وجهة نظرنا استدلاله على رأيه هذا بمثال قرآني مركب آخر يحتوي على طرفين مختلفين، وذلك بقوله: {{ألاترى إلى نحو قوله عز وجل: (إنما مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس)(3) كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت...}}(4). ولكي نتعرف على طبيعة العلاقة التشبيهية في هذه الصورة، لابد أن نتعرف أولا وقبل كل شئ على طبيعة كل منهما (الطرفين). تتميز هذه الصورة التشبيهية بفردية الطرف الأول وتركيبية الطرف الثاني؛ فالحياة الدنيا كماسبق أن بيّنا - إثر تقصينا لطبيعة الطرف الأول - لفظ عام يحتمل كل ما هو موجود فوق هذه المعمورة، وعليه لا نستطيع حصرها في موضوع دون

---

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 9 ص 268

(2) أسرار البلاغة - المصدر السابق - ج1 - ص 218

(3) يونس آية 24

(4) أسرار البلاغة - المصدر السابق - ج 1 - ص 218

آخر من موضوعات الحياة الدنيا، ولكن بإمكاننا تغليب الجانب المعنوي على الجانب الحسي، إذا نظرنا إلى الوضعية المناسبة لمفهوم الحياة الدنيا في هذه الصورة، وهذا ما نلمحه في قول أحدهم: {{شبه الله عز وجل الدنيا في سحرها وفتنتها وإغرائها..}}(1). إذاً فالجانب المعنوي تمثله صفات (السحر، الفتنة، الإغراء) وغيرها مما يدل على بهرجة الدنيا ونعيمها. وأما فيما يخص الطرف الثاني فإن الجانب الحسي قد تغلب على طبيعة ألفاظه؛ فصورتا (الماء والنبات، ومايصحبهما من حس بصري متحرك وثابت وآخر معنوي) يمثلان هيئة واحدة تقابل هيأة الحياة الدنيا بمركباتها التي لم يصرح بها. وبهذا نخلص إلى القول: بأن العلاقة بين المشبهين تتمثل في الهيأة المنتزعة من مركب الهيأتين: الأولى والثانية، وأن طبيعتها تخضع للإدراك التصوري العقلي. وهذا النسق التحليلي لهذا المثال وغيره من الأمثلة السابقة يمكن تطبيقه على باقي النماذج الأخرى من الصورة الثالثة المركبة.

وإذا كان الحديث عن الدلالتين الحسية والمعنوية لألفاظ الصورة الثالثة المركبة قد أتى على نهايته، يمكننا الانتقال إلى تناول الصورة الرابعة والأخيرة من صور التشبيه في القرآن الكريم.

وضعيـة الصورة الرابعة في القرآن الكريم:

إذا أردنا أن نطبق المقياس الشكلي العام في تحديد معالم الصورة الرابعة، والمتمثل في حتمية التصريح بالطرفين المشبهين مع حذف الأداة ووجه الشبه . فإننا سنلاقي صعوبات في ذلك، نظراً لعدة تداخلات نجدها في الصورة الواحدة، وسنحاول التعرف عليها بنوع من الإيجاز:

أ- اشتراك الصورة مع الحقيقة: أي إمكانية إجراء المثال الواحد على وجهين، فإذا أجريناه على وجه الحقيقة فلا تكون هناك صورة تشبيهية، أو العكس. وهذا ما جعل المفسرين يختلفون في إثبات التشبيه، أونفيه، إلى درجة أن الواحد منهم يدرج إمكانية تحقق الحالتين معا. وهذا ما ستتعرف عليه من خلال تحليلنا لبعض النماذج فيما بعد.

ب - اشتراك الصورة التشبيهية مع الصورة المجازية: تعترينا بعض النماذج تحتمل أن نجريها على الوجه التشبيهي، وعلى الوجه المجازي بصفة عامة والإستعارة بصفة خاصة في آن واحد. وللتمثيل للإشكالية الأولى نأخذ قوله تعالى: [[وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قِددا]](2). ففي عبارة (كنا طرائق قِددا) تتوفر عناصر الصورة الرابعة وهي المشبه

---

(1) هامش أسرار البلاغة . المصدر نفسه. ج ١ص 219

(2) الجن آية 11

الضمير في (كنا)، والمشبه به لفظة (الطرائق) مع حذف الأداة ووجه الشبه. وأما لفظة (قِددا) فهي صفة تُقيِّد نوعية الطرائق، الأمر الذي دفع بأحد المفسرين إلى القول: {{...(كنا طرائق قِددا) تشبيه بليغ شبه تخالف الأحوال والعقائد بالطرائق تفضي كل واحدة منهاإلى مكان لا تفضي إليه أخرى}}(1). ويكون هذا مقبولا في حالة اعتمادنا الجانب القاعدي الذي يحدد هذه الصورة، ولكن إذا اعتمدنا المعنى القريب للفظة (طرائق) في مدلول الآية وهو: {{...الفِرَق ...}}(2) فإن الأمر يكون إلى الحقيقة أقرب، وهذا هو الذي ورد في التفسير: {{أي كنا فرقا شتى، ومذاهب مختلفة}}(3) على أساس أن الكلام يدور حول تقرير الحقيقة ويبتعد عن المبالغة في وصفها، لأن الأمر يتعلق بالصدق الواقعي في الحياة الأخرى. ولهذا عمد بعض المفسرين إلى: {{عدم اعتبار التشبيه...لأن المحل ليس محل المبالغة}}(4) ورغم بروزالجانب الواقعي في هذا المثال إلا أن بعض المفسرين يرون إمكانية جواز إجراء الحالتين معا كما جاء في قول أحدهم: {{كنا طرائق قِددا ذوي طرائق أي مذاهب أو مثل طرائق في اختلاف الأحوال، أو كانت طرائقنا طرائق قِددا متفرقة مختلفة}}(5). يتبين لنا من خلال هذه الآراء أن النموذج الذي بين أيدينا يمكن إدراجه ضمن نماذج الصورة الرابعة ويمكننا إدراجه أيضا ضمن الأساليب التقريرية التي تصف الحقيقة دون المبالغة في التصوير.

ومن الأمثلة الأخرى التي يمكن أن تجتمع فيها الحقيقة مع التصوير قوله تعالى في وصف المشركين: [[يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس]](6). تمثل لفظة (المشركون) الطرف الأول من الصورة التي تقابل لفظة (نجس) وهي الطرف الثاني منها مع انعدام الأداة والعلاقة التي تربط بينهما صراحة وهذا الشكل في نظر قواعد التشبيه يدخل في إطار الصورة الرابعة أو ما يسمى بالتشبيه البليغ، لأن المعنى كما جاء في التفسير {{...أي كالنجس في خبث الباطن وخبث الاعتقاد حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغا}}(7). ويكون هذا مقبولا إذا

---

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 28 ص 24

(2) اللسان - المصدر السابق - م 10 - مادة (طرق)ص 222

(3) صفوة التفاسير - المصدر السابق - م 3 - ص 459

(4) روح المعاني - المصدر السابق - م 10 - ج 30 - ص 110

(5) تفسير البيضاوي - المصدر السابق - ص 764

(6) التوبة آية 28

(7) صفوة التفاسير - المصدر السابق - م 1 - ص 532

سلمنا بأن النجاسة شئ مادي، ولكن إذا اعتبرناها صفة لموصوف، فالأمر يختلف فتكون بذلك : {{..نجاسة معنوية نفسانية وليست نجاسة ذاتية}}(1). وبالتالي فالتعبير في الآية تقرير حقيقي لحالة المشركين الداخلية. ولهذا لا نستغرب إذا وجدنا من المفسرين من يضع عدة احتمالات موضع التحقق كما جاء في روح المعاني: {{أخبرعنهم في المصدر للمبالغة كأنهم عين النجاسة، أو المراد ذوو نجاسة لخبث بواطنهم وفساد عقائدهم، أو لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس}}(2).

ويمكننا تطبيق نفس الملاحظات على باقي النماذج القرآنية التي نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر قوله تعالى في وصف الحيض: [[قل هو أذى]](3)، وكذلك قوله عز وجل في تبيين علاقة المسلمين فيما بينهم: [[إنما المؤمنون إخوة]](4)، وكذلك قوله تعالى: [[وإن تخالطوهم فإخوانكم]](5)، ومنه قوله جل ذكره: [[إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا]](6) ومثله قوله عز وجل: [[وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو]](7).

تعد هذه النماذج في نظر المفسرين قابلة لأن تدخل في إطار الحقيقة، أو في إطار الصورة الرابعة (التشبيه البليغ). وهذا التداخل بين الحقيقة والصورة في المثال الواحد يفتح أمامنا مجالا واسعا ؛ لاعتماد بعض النماذج دون غيرها تبعا للجانب التصويري الذي نراه الغالب على دلالات ألفاظها.

وإلى جانب تداخل الحقيقة مع التشبيه هناك تداخل آخر ذكرناه سابقا وهو تداخل الحقيقة والمجاز مع التشبيه، وإن كان التداخل يخضع لتباين آراءالمفسرين وينحصرفي نماذج معدودة. فمثلا لو تناولنا قوله تعالى: [[ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن]](8) يرى بعض المفسرين(+) أن عبارة (هو أذن) تشبيه بليغ على أساس أن أصل الكلام هو كالأذن في تلقي

---

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 10 - ص 163

(2) روح المعاني - المصدر السابق - م 4- ج 10 ص 76

(3) البقرة آية 221

(4) الحجرات آية 10

(5) البقرة آية 218

(6) المائدة آية 22

(7) الأنعام آية 33

(8) التوبة آية61

(+) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 10 - ص 242 -+ صفوة التفاسير المصدر السابق - م 1 - ص 549

المعلومات فحذفت منه الأداة ووجه الشبه على سبيل التشبيه البليغ، ولكن يرى البعض الآخر أن هذا القول يمكن أن يخرج على ثلاثة أوجه: فإما على طريق المجاز، وإما على طريق التشبيه، وإما على طريق الحقيقة، وهذه الأراء الثلاثة أوردها صاحب روح المعاني في قوله: {{وهي في الأصل إسم للجارحة وإطلاقها على الشخص بالمعنى المذكور كما يؤيده بعض الروايات من باب المجاز المرسل على ما في المفتاح :كإطلاق العين على ربيئة حيث كانت العين المقصودة منه، وصرح غير واحد أن ذلك من إطلاق الجزء على الكل للمبالغة كقوله:

إذا ما بدت ليلى فكلي أعين وإن هي ناجتني فكلي مسامع

وقيل إنه مجاز عقلي كرجل عدل وفيه نظر..وما قيل إن مرادهم بكونه عليه الصلاة والسلام أذنا تصديق لكل ما يسمع من غير فرق بين ما يليق بالقبول بمساعدة أمارات الصدق له ، وبين ما لا يليق به فليس من قبيل إطلاق العين على الربيئة، ولذا جعله بعضهم من قبيل التشبيه بالأذن ..وقيل إنه على تقدير مضاف أي ذو أذن }}(1).

وهناك نماذج أخرى ذهب بعض المفسرين في تخريجها مخرج الاستعارة بالرغم من خضوعها لقواعد الصورة التشبيهية الرابعة. وهناك نماذج أخرى أخرجوها مخرج التشبيه بالرغم من خضوعها لقواعد الإستعارة: ونمثل للنوع الأول بقوله تعالى: [[هن لباس لكم وأنتم لباس لهن]](2). فيرى صاحب التحرير والتنوير أن في هذه الآية استعارتين والجامع بين طرفي كل استعارة هو شدة الإتصال(+) ويؤيده صاحب صفوة التفاسيرفي تحليل هاتين الصورتين بقوله: {{استعارة بديعية شبه كل واحد من الزوجين لاشتماله على صاحبه في العناق..باللباس}}(3).

ولكن بعض المفسرين يخرجون هاتين الصورتين مخرج التشبيه باعتبار أن إلتصاق وامتزاج كل من الزوجين بصاحبه يشبه الثوب في امتزاجه بالجسد(+). ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى : [[اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله]](4). فهذه الصورة تشتمل على طرفين، مشبه: ويتمثل في قوله (أحبارهم ورهبانهم) وهو مفرد متعدد، ومشبه به وهو قوله (أربابا)

---

(1) روح المعاني ـ المصدر السابق ـ م 4 ـ ج 10 ـ ص 126

(2) البقرة آية 186

(+) التحرير والتنوير ـ المصدر السابق ـ ج 1 ـص 182

(3) صفوة التفاسير ـ المصدر السابق ـ م 1 ـ ص 123

(+) الجامع لأحكام القرآن ـ المصدر السابق ـ م 1 ـ ج ص 316 ـ+ روح المعاني ـ المصدر السابق ـ م 1 ـ ج 2 ـ ص 66

(4) التوبة آية 31

مفرد مطلق. وبتوفر الطرفين مع عدم التصريح بالأداة ووجه الشبه تدخل هذه الصورة طبيعيا في مجال الصورة الرابعة، أو ما يسمى بـ(بالتشبيه البليغ). غير أن بعض المفسرين لا يرون هذا بل يُخرجون هذه الصورة مخرج الإستعارة والمجاز أحيانا، والحقيقة أحيانا أخرى.

ومن ذلك قول أحدهم: {{...ونظير ذلك قولهم: فلان يعبد فلانا إذا أفرط في طاعته؛ فهو استعارة بتشبيه الطاعة بالعبادة، أومجازا مرسلا بإطلاق العبادة وهي الطاعة مخصوصة على مطلقها والأول أبلغ، وقيل اتخاذهم أربابا بالسجود لهم ونحوه مالا يصح إلا للرب عز وجل وحينئذ فلا مجاز...}}(1). ويذهب البعض الآخر إلى اعتماد التشبيه وتثبيته بتقدير الأداة ووجه الشبه، على أساس أن تكون الصورة عند تمامها تشبيه الأحبار والرهبان بالأرباب في الطاعة في كل شيء(+)

وأما النوع الثاني فنمثل له بقوله تعالى: [[ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد]](2). لقد ذهب أكثر من واحد إلى تخريج هاتين الصورتين مخرج التشبيه على اعتبار تشبيه قيام الديار بالزرع القائم، وتشبيه خراب القرى بالزرع المحصود بجامع الهيئة والشكل في كلا الطرفين المتقابلين. ويعد هذا الكلام عموما سليما، ولكن هذا التخريج يجب أن يكتمل ليتعدى بذلك من التشبيه إلى الاستعارة، لأن لفظة الزرع غير مذكورة، ولكن ذكرت لها صفتان هما (القيام والحصيد) للدلالة عليها، وبالتالي نستطيع إخضاع هاتين الصورتين إلى قواعد الاستعارة المكنية التي يحذف فيها المشبه به ويصرح بشيئ من لوازمه ليدل عليه. وهذا ماذهب إليه أحد المفسرين في قوله: {{...شبه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه وشبه من هلك أهله ولم يبق له أثر بالزرع المحصود بالمناجل على طريق الإستعارة المكنية}}(3)

ومن الأمثلة الأخرى التي أجراها بعض المفسرين مجرى التشبيه البليغ (الصورة الرابعة)، ولكنها تخضع إلى قواعد الاستعارة ومن بين هذه النماذج قوله تعالى: [[وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر]](4). يرى البعض أن في هذه الآية تشبيها، ودليلهم في ذلك أن التصريح بلفظة (الفجر) أخرج الصورة من دائرة الإستعارة إلى دائرة

---

(1) روح المعاني ـ المصدر السابق ـ م ـ ج 10، ص 84

(+) صفوة التفاسير ـ المصدر السابق ـ م 1 ص 532 ـ + الكشاف ـ المصدر السابق ـ م 5 ـ ج 2 ص 190

(2) هود آية 100

(3) صفوة التفاسير ـ م 2 ـ ص32

(4) البقرة آية 186

التشبيه(+). ويرى البعض الآخر أنه لا وجود للتشبيه على الإطلاق؛ لأن التعبير القرآني في الآية عادي ليس فيه مبالغة(+). وإذا أردنا أن نعرف طبيعة هذه الصورة، فيجب أن نخضعها للتحليل البياني؛ فإذا سلمنا بأنها تشبيه في إطار الصورة الرابعة - حيث يكون المشبه عين المشبه به - فأين المشبه ؟ وأين المشبه به ؟ فإذا افترضنا أن بياض الفجر شبِّه بالخيط الأبيض، وأن سواد الليل شبه بالخيط الأسود، وحذفت الأداة ووجه الشبه - على حد قول أصحاب الرأي الأول - فإن كلا من البياض والسواد لم يصرح بهما. وإن سلمنا كما قيل بأن لفظة (الفجر) دلت على الطرف المحذوف وحلت محله، وهذا يتنافى مع قواعد التشبيه، لأن من شروط التشبيه أن يصرح بالطرفين تصريحا بيِّنا، وبهذا فإن احتمال إجراء الصورة الرابعة على هذه الآية يبقى ضعيفا، وهذا ما يقوي إمكانية إجراء الجانب الإستعاري في هذا المثال، لأن من شروط الاستعارة حذف أحد الطرفين، وقد لاحظنا هذا الحذف في هذه الآية. ثم إنه من قواعد الإستعارة التصريح بالقرينة التي تمنع أن تكون اللفظة المعارة حقيقة. أي أن لفظة (الفجر) منعت من أن يكون كل من الخيطين الأبيض والأسود على وجه الحقيقة. وهي بهذا تكون استعارة تصريحية طبقا لقواعد الاستعارة المتعارف عليها عند علماء البلاغة المتأخرين.

نريد بهذه الاختلافات المذكورة لدى المفسرين حول التخريجات المختلفة للصورة الواحدة أن نمهد للنماذج التي سيكون كلامنا حولها ضمن محاور هذه الصورة الرابعة في الأنواع الأربعة السالفة الذكر.

النوع الأول: الإفراد:

لقد بينا فيما سبق أن لهذا النوع ثلاثة أنماط هي: (المطلق، المقيد، المتعدد) وسنتعرف على جل هذه الأنماط من خلال تناولنا لنماذج الصورة الرابعة.

أ- المطلق: سبق أن بينا أن الإطلاق نعني به خلو الطرفين المتقابلين من أي قيد لفظي وأنه يتعلق بالتشبيهات المفردة دون المركبة. وخلو الطرفين من القيود اللفظية في هذه الصورة الرابعة - التي تحذف منها الأداة ووجه الشبه - يسمح لقيام صور بلاغية لها تأثيراتها المختلفة؛ تتميز عن وضعيتها في الصور التي يصرح فيها بقيد لفظي، أو بقيود لفظية متنوعة، وهذه التأثيرات تبرز من خلال الحالة التي يكون عليها الطرفان المتقابلان؛ ففي قولنا

(+) روح المعاني - المصدر السابق - م 1 - ج 2 - ص 66 . + الكشاف - المصدر السابق - م 1 - ص 213

(+) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 1 - ص 183

(محمدأسد) جعلنا الطرفين يتحدان في كل شيء؛ دون أن نفصل أو نخصص جانبا أو جوانب معينة بلفظة أو بلفظتين؛ مما يدل على القيد الجزئي للصورة. وهذه الميزة هي التي جعلت المفسرين يذهبون في أكثر ما مرة - كما سبق أن بينا - إلى تفسير النماذج القرآنية لهذه الصورة الرابعة تفسيرا حقيقيا يبتعد عن المبالغة، ساعدتهم في ذلك الأساليب التي سلكها القرآن الكريم في تبيان دلالات الأطراف المتقابلة، التي سنتعرف عليها فيما بعد .

لقد اعتمد القرآن الكريم الأسلوب الخبري في جل نماذجه التي بين أيدينا، ولكنه نوَّع في طبيعة الجمل التي اتخذها لتبليغ طبيعة ونوعية الأخبار، فنجده يتخذ الجملة الفعلية وسيلة من وسائل التبليغ، اعتمد فيها أربعة أفعال أساسية؛ ساهمت في تحريك نماذج هذه النوعية المفردة المطلقة وهي (جعل، كأن، اتخذ، أصبح). وفعل (جعل)- كما جاء في كتب اللغة يؤدي معانيَ مختلفة حسب وقوعه في الجملة؛ فقد يؤدي مثلا معنى(أوجد) كما هو الحال في قوله تعالى: [[وجعل الظلمات والنور]](1) أو بمعنى (أنشأ أو شرع) كما في قولنا مثلا: (جعل يقلب كفيه) أو بمعنى (الإعتقاد) كما في قوله تعالى: [[وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا]](2)، أو يؤدي معنى التصيير أو التحويل كما في قوله تعالى: [[إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون]](3). وأما عن المعنى الذي يؤديه هذا الفعل (جعل) في سياق الأمثلة التشبيهية القرآنية التي بين أيدينا هو معنى (التصيير أو التحويل)، وهذا المعنى يبرز في أمثلة جليا، ويختفي في أخرى، إلى درجة أنه يتشاكل مع معنى الخلق والإيجاد؛ فمن الأمثلة التي يبرز فيها هذا المعنى جليا قوله تعالى: [[وقال انفخوا حتى إذاجعله نارا]](4) تعود الهاء في (جعله) على الحديد أي أن الحديد بعد النفخ صار نارا، وهل الحديد يتحول إلى نار ؟ الجواب طبعا بالنفي، لأن الحديد لا يتحول نارا ! وإنما يصير الحديد بعد النفخ أحْمَرَ كأنه نارا في اللون والحمرة. ويبرز معنى (التصيير والتحويل) في كون الحديد كان بشكل ثم صار بشكل آخر، وهذا يدل على أن فعل (جعل) مبني على معنى (التصيير والتحويل)، الأمر الذي جعل الصورة التشبيهية واضحة دون غموض. ومن أمثلة هذا الضرب قوله عز وجل: [[فأخذتهم الصيحة بالحق

(1) الأنعام آية 1

(2) الزخرف آية 18

(3) الأعراف آية 26

(4) الكهف آية 92

فجعلناهم غثاء]](1). تبين لنا هذه الصورة الوضعية الأخيرة التي آل إليها هؤلاء القوم فبعد أن كانوا أجساما متكاملة الأطراف تغيروا بعد الصيحة إلى أجزاء دقيقة متناثرة لا معنى لها، فهي كالغثاء. إذاً ففعل (جعل) هنا أدى معنى (التصيير والتحويل) بشكل بَيِّن، وهو ما جعل الصورة التشبيهية أوضح وأبين للعيان.

ومن الأمثلة التي يَدِق فيها معنى (التصيير والتحويل) لفعل (جعل) قوله تعالى: [[الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء]](2). يشير فعل (جعل) هنا حسب المعنى الظاهر إلى حقيقتين هما: أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض والسماء وأوجدهما بهذه الكيفية (فراشا وبناء). وبهذا نستطيع القول: أن الأرض خلقت مفروشة والسماء خلقت مبنية. هذا إذا أخذنا بالمعنى الظاهر لفعل (جعل)، ولكن إذا تساءلنا هل الأرض والسماء خلقتا على هذه الهيئة (فراشا وبناء)؟ والجواب يكون بلا؛ لأن القرآن الكريم أكد أن الأرض ليست مبسوطة، فهي على شكل كرة مفلطحة: [[والأرض بعد ذلك دحاها]](3). كما أنه أكد بأن طبيعة السماء كانت تشبه طبيعة الدخان فهي: {{..كانت قبل خلقها مثل الدخان، والتخصيص في التشبيه بالدخان يشير إشارة قوية إلى أن مادة السماء الأولى كانت تشبه الدخان العادي في أهم صفاته فكانت مفككة الأجزاء مظلمة وخفيفة منتشرة في الفضاء كالغاز والسحاب، وساخنة إلى حد ما..}}(4). وإذا اقتنعنا بأن طبيعة الأرض والسماء كانت بشكل ثم تغيرت بشكل آخر، جاز لنا أن نثبت لهذا الفعل (جعل) معنى التصيير أو التحويل. ومن هذا المنطلق يكون الجانب التشبيهي أبلغ في هاتين الصورتين. فالأرض رغم كرويتها وكثرة الجبال والنتوءات بها في مقابل الأجزاء المبسوطة تشبه الفراش؛ سواء في الهيئة أو فيما يتعلق بخصائص الفراش المختلفة. وكذلك الأمر بالنسبة للسماء، فبالرغم من أن طبيعتها جزئيات الدخان المتحركة، إلا أنها شُبِّهت بـ(البناء) - الذي هو الحائط كما جاء في كتب اللغة - لثباتها وعدم زوالها من مكانها، فهي متراصة متماسكة تماسك أجزاء البناء مع بعضها البعض.

ويمكن تطبيق هذا التحليل على النماذج التي تأتي بهذه الصفة في مثل قوله تعالى: [[الذي

---

(1) المؤمنون آية 41

(2) البقرة آية 21

(3) النازعات آية30

(4) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن - حنفي أحمد - دار المعارف بمصر - ط 3 ص 227

جعل لكم الأرض مهادا]](1) وكذلك في قوله تعالى: [[ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا]](2). ومثله أيضا: [[والله جعل لكم الأرض بساطا]](3). ونعتمد في هذا أولا: على توفر عناصر هذه النوعية المفردة المطلقة للصورة الرابعة، وثانيا: لتشابه هذه النماذج في الأسلوب الذي صيغت به. ولهذا لا نستبعد إذا وجدنا معظم المفسرين يخرجون هذه الصورة على المنوال الذي سلكه أحدهم في تخريج الصورة الأخيرة: {{فالإخبار عن الأرض ببساط تشبيه بليغ أي كالبساط ووجه الشبه تناسُب سطح الأرض في تعادل أجزائه بحيث لا يوجد أرجل الماشين ولا يقض جنوب المضطجعين، وليس المراد أن الله جعل حجم الأرض كالبساط لأن حجمها كروي، وقد نبه عن ذلك بالعلة الباعثة في قوله (لكم) والعلة الغائية في قوله (لتسلكوا منها سبلا) وجعل مجموع النعم التي تحصل من تسوية سطح الأرض مثل الحرث والزرع وإلى نعمة خاصة وهي السير في الأرض}}(4).

ومما يؤكد لنا أن صيغة الفعل الماضي (جعل) لا تؤدي معنى الإيجاد أو الخلق، بل تؤدي معنى التصيير أو التحويل، ما نجده متمثلا في المثالين الآتيين من قوله تعالى: {{وجعلنا الليل لباسا]](5). وقوله عز وجل: [[وجعل الشمس سراجا]](6). ففي المثال الأول يؤكد الفعل (جعل) تأكيدا صريحا بأن الليل واللباس شيئ واحد لا فرق بينهما إلا في التسمية، وهذا ماجعل أحد المفسرين يخرج هذه الصورة تخريجا طبيعيا فيقول: {{أي غطاء وسترة يستر كل شيئ بظلمته وسواده}}(7). وهذه الخاصية معروفة لليل لا ينكرها أحد، ولكن إذا أمعنا النظر قليلا وجدنا في هذين الطرفين المتقابلين أوجها للإلتقاء بين الليل - الذي هو ظاهرة طبيعية - وبين اللباس الذي يطلق على كل ما يرتديه الإنسان من الثياب، وهذه الوجوه حصرها أحدهم في: {{...ثلاث معان: أحدها أن الليل ساتر للانسان كما يستره اللباس...والمعنى الثاني من معنى وجه الشبه باللباس: في المشابهة في الرفق باللابس والملاءمة لراحته، فلما كان الليل راحة للانسان

---

(1) الزخرف آية 9

(2) النبأ آية 6 - 7 .

(3) نوح آية 19

(4) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 26 - ص 205

(5) النبأ آية 10

(6) نوح آية 16

(7) مجمع البيان - المصدر السابق - ج20 - ص 6

وكان محيطا بجميع حواسه وأعصابه شبه باللباس في ذلك المعنى الثالث: أن وجه الشبه باللباس هو الوقاية}}(1) إذاً ففعل (جعل) هنا تجاوز المعنى الحقيقي إلى المعنى التصويريي الذي يعتمد على أوجه الاختلاف والائتلاف بين الطرفين المشبهين، وهذا ما سيتأكد لنا فعلا عند تحليلنا للمثال الثاني حيث (جعلت الشمس سراجا) والشمس كما نعلم كوكب، والسراج هو المصباح المستعمل في إيقاد النار، فطبيعة الشمس تختلف عن طبيعة السراج، وعليه فالتعبير لايهدف إلى اتحاد الجنسين بحكم الاختلاف البيِّن بينهما ولكنه يهدف إلى تبيان علاقة أو علاقات تجمع بينهما؛ وأول علاقة معروفة لدى الجميع هي: خاصية الإنارة في كل من الشمس والسراج، التي يعرفها الخاصة من بدو وحضر. وأما الخاصية الثانية فيمكن أن نستخلصها من الوظيفة الداخلية لمادتيهما، فالسراج تحترق مادته لتعطي نورا، وكذا الشمس فقد أثبت العلم أن مادتها الداخلية تتفاعل في هيجان مستمر لتعطي ضوء ،وهذا التفاعل يسبب في تآكل أجزائها المضيئة. وأما الخاصية الثالثة فنستنتجها من الخاصية الثانية، وهي أن الاحتراق أو التآكل في كل من السراج والشمس يؤدي حتما إلى انطفاء النور المنبعث من كل منهما. وهذا ماهو موجود فعلا في حياة السراج، وما هو متوقع من العلماء لحياة الشمس. وبهذه الكيفية يجتمع الجانب العلمي مع الجانب البلاغي في هذه الصورة التشبيهية، وهذا ما يؤكده قول أحدهم: {{وجعل تعالى الشمس ذات ضياء وشبهها بالسراج الوهاج، فطبيعتها إذاً كتلة نارية من اللهب المضئ والمحيط لمصدر الإتقاد}}(2).

تبيّن لنا بعد المناقشة لهذه الأمثلة السابقة أن أسلوب الجعل يؤدي معنى التصيير أو التحويل الذي يؤدي بدوره معنى التشبيه - الذي تتحد فيه أجزاء وتختلف فيه أخرى بين الطرفين - ولا يؤدي معنى الإتحاد الكلّي بين الطرفين المتقابلين، لأن هذا ينقل الصورة من التشبيه إلى التشابه.

ومايطبق على هذه الأمثلة المتصدرة بفعل (جعل) من ملاحظات ينطبق علىأمثلة أخرى يتصدرها فعل (اتخذ) الذي يؤدي نفس الوظيفة اللغوية التي يؤديها فعل (جعل) فالأمثلة التي

سنتناولها توضح هذه الخاصية، فعندما نأخذ قوله تعالى: [[اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله]](3) نجد أن فعل (اتخذوا) في هذه الآية يفيد معنى (جعل) أي: {{اتخذوا أحبارهم

---

(1) التحرير والتنوير- التفسير السابق - م 12- ج 10 - ص 20، 21

(2) التفسير العلمي للآيات الكونية المصدر السابق - ص 162

(3) التوبة آية 31

ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء}}(1) والجعل هنا أيضا يفيد معنى (التصيير). فقد بالغوا في طاعتهم حتى حوّلوا هذه الطاعة من طاعة عادية في تلبية أوامرهم إلى طاعة خاضعة خضوعا تاما لجميع الأوامر بدون استثناء، وهذه الطاعة عادة تكون للرب الخالق القدير الذي يحيط بكل شيء . وإذا بحثنا عن العلاقة التي جعلت طاعة هؤلاء تقترن بعبادة الأرباب وجدناها متمثلة في قوله عليه الصلاة والسلام: <<إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم>>(2). وهنا يكون هؤلاء الناس قد منحوا خصائص ومميزات لهؤلاء الرهبان والأحبار ليست لهم، بل حوّلوها من مصادرها الطبيعية وهم (الأرباب) إلى هؤلاء (الرهبان والأحبار). وهنا تكون الصورة التشبيهية قوية قوة الحدث المستعمل في غير موضعه، والمتمثل في عملية العبادة المتخذة من قبل هؤلاء الأقوام لهؤلاء الأشخاص من: (أحبار ورهبان). وهذا التدليل ينطبق على المثال الثاني من قوله تعالى: [[اتخذوا أيمانهم جنة]](3). ومعناه كما ورد في التفاسير: {{أي اتخذوا أيمانهم التي حلفوا بها أي أيمانهم الذي أظهروه جنة،أي يستترون بها من المؤمنين ومن قتلهم}}(4). وتصيير الإيمان مثل (الجنة) يعني أنهم حوّلوا طبيعة الإيمان الصادق إلى إيمان كاذب، واستغلوا هذا الإيمان في طريق غير طريقه المعتاد، واتقوا به كما يتقى بالدرع أو بأي شيء آخر، لأن (الجنة) تعني - كما جاء في كتب اللغة كل شيء يستتر الإنسان من ثوب أو درع أو شجر أو أي شيء من الأشياء المادية الساترة، ثم استعملت استعمالا مجازيا فقالوا مثلا: الصوم جنة، والإمام جنة، كما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة.

ومن خلال هذه النماذج التي اعتمدناها لتكون مقياسا لبقية النماذج الأخرى التي تؤدي معنى (التصيير أوالتحويل) نستطيع القول: بأن صيغتي (الجعل والإتخاذ) بارزتان في أساليب التشبيه القرآنية، لأن المعتاد في الصور التشبيهية - وبخاصة الصورة الرابعة - أن نشير عن طريق المبالغة إلى تطابق الطرفين في مثل قولنا: (أنت بحر) وفي مثل قول الشاعر: {{فإنك شمس والملوك كواكب}}(5). ولكن الموجود هنا في أمثلة القرآن يتميز بكون الصورة التشبيهية وقعت

(1) الجامع لأحكام القرآن - المصدر السابق - م 4 - ج 8 - ص 120

(2) تفسير ابن كثير - المصدر السابق - م 2 - ج 2 ص 348

(3) المجادلة آية 16

(4) الكشاف - المصدر السابق - م 4- ص 77.

(5) ديوان النابغة الذبياني - المصدر السابق - ص 18

بعد حدوث الفعل الذي أوجد بين الطرفين نقاط الإلتقاء والمشابهة، أي أن الطرف المشبه صُيِّر ليكون كالطرف المشبه به عن طريق فعل(جعل) أو (اتخذ)، ولكن مع هذا التَّميِّز تبقى الصورة التشبيهية واحدة حتى وإن اختلفت الأساليب. ولكن الموجود هنا في أمثلة القرآن يتميز بكون الصورة التشبيهية وقعت بعد حدوث الفعل الذي أوجد بين الطرفين نقاط الالتقاء والمشابهة، أي أن الطرف المشبه صُيِّر ليكون كالطرف المشبه به عن طريق فعل (جعل) أو (اتخذ) ولكن مع هذا التميز تبقى الصورة التشبيهية واحدة حتى وإن اختلفت الأساليب،، فمثلا لو أخذنا النماذج التي ورد فيها فعل الماضي (كان) لوجدنا أن هذا الفعل يؤدي معنى غير المعنى الذي يرتبط به في السياق العادي؛ ويمكننا أن نلحظ ذلك في الأمثلة الآتية في مثل قوله تعالى: [[وسيِّرت الجبال فكانت سرابا]](1). تتحدث الآية عن حدث لم يقع بصيغة الماضي من الفعل (كان)، ولكنها أكدت على وقوعه فعلا في المستقبل من الفعل الماضي المبني للمجهول (سُيِّرت)، فبعد التسيير يكون فعل الماضي (كانت) قد أدى دوره في إثبات نتائج الحدث بعد التصيير والتحويل الذي يطرأعلى طبيعة الجبال التي تصبح شبيهة بالسَّراب. إذاً ففعل الكينونة (كانت) قد أفاد معنى التصيير، (فصارت) الذي أدى بدوره معنى التوكيد. لأن الكلام عن الصيرورة بالماضي من الفعل. (كان) يفيد حتمية وقوع الفعل، أي حتمية تحقق الصورة التشبيهية التي تكون فيها الجبال: {{... مدكوكة مبسوسة مثارة في الهواء... فلا وجود لها كالسراب الذي ليس له حقيقة، أو أنها تنعكس إليها الأشعة وهي هباء فتبدو كالسراب}}(2).

نلاحظ من خلال هذا المثال أن فعل الماضي (كان) رغم كونه ساهم في تأكيد تحقيق وقوع الحدث، إلا أن هذا لم يمنع مساهمته في رسم الصورة التشبيهية في الأذهان قبل وقوعها، لأننا نعرف طبيعة الجبال، ونعرف طبيعة السراب، ونستطيع أن نربط بينهما في صورة تخيلية كما رسمتها الآية الكريمة. ومما يحذو حذو هذه الصورة التشبيهية ما نجده متمثلا في قوله تعالى: [[وفتِّحت السماء فكانت أبوابا]](3) إذا ربطنا ضمير الرفع المتصل في (كانت) بالسماء وهو الغالب عند المفسرين ، يكون الكلام طبيعيًا مع مبالغة مجازية، كأن يطلق الكل ويراد به الجزء؛ أي أن السماء ليست كلها أبوابا، ولكن المقصود منه: {{...كثرت أبوابها المفتحة لنزول الملائكة كأنها

---

(1) النبأ آية 20

(2) في ظلال القرآن ـ المصدر السابق م 6 ـ ج 30 ـ ص 3807

(3) النبأ آية 19

كأنها ليست إلا أبوابا مفتحة كقوله ـ وفجرنا الأرض عيونا. كأن كلها عيون ...]](1) ولكن لو جاز لنا ربط الضمير في (كانت) بمتقدم محذوف دل عليه الفعل الماضي المبني للمجهول (فتّحت) أي فتحات وشقوق ـ فإن الأمر يتغير، إذ تستقيم لنا الرؤيا. التصويرية للأبواب في مقابل الشقوق والفتحات، أي أن الفتحات التي ستفتح في المستقبل المؤكّد عنه بفعل الماضي (كان) تشبه في هيأتها الأبواب التي نراها ونستخدمها. ويؤكد قولنا هذا أن القرآن الكريم سبق وأن شبه السماء بالبناء أي (الحائط) ومن هنا تكون فتحات السماء شبيهة لفتحات الحائط وهي الأبواب . وهذه صورة تشبيهية تقريبية وضحت لنا ما سيكون في صورة حية نعيشها ونلمسها في حياتنا اليومية.

لقد لاحظنا من خلال مناقشتنا لما تقدم من نماذج، أن التوكيد المباشر بالأفعال التي استخدمها القرآن الكريم مثل (جعل، اتخذ، كان) لا يحمل الحقيقة فحسب، بل يحمل إلى جانبها الصورة الموضحة لهذه الحقيقة، وهذا ما نلمسه أيضا في النماذج التي تتصدرها أداة التوكيد (إن)؛ فمثلا لو أخذنا قوله تعالى: [[إنما المؤمنون إخوة]](2) لوجدنا أن الآية أكدت أخوة المؤمنين وهذا ما نسلم به جميعا نحن المؤمنين، ولكن هل هذه الأخوة كاملة وشاملة لجميع معاني الأخوة المتعارف عليها، أخوة الدم والرحم ؟ طبعا لم يقر الإسلام اتحاد أخوة الدين مع أخوة الرحم في جميع مظاهر الإخاء، لأن أخوة الدين تتمثل في معاني محددة تختلف جزئيا عن معاني أخوة الرحم، لأن هذه الأخيرة هي الأصل الذي يربط بين الناس منذ الأزل، وعليها تقاس جميع أنواع الأخوة. ومن هذا المنطلق يتضح جليا أن التوكيد في هذه الآية قد أفاد في توضيح العلاقة التي يجب أن تكون بين المؤمنين عن طريق توظيف مصدر العلاقة المتمثل في الأخوة؛ فالمؤمنون يجب أن يكونوا في جميع مظاهرهم وسلوكهم مع بعضهم كالإخوة.

ويتكرر هذا التوكيد بنفس الأداة (إن) في نماذج أخري وبنفس الأسلوب الذي يقر ظاهريا بامتزاج الطرفين المتقابلين في مثل قوله تعالى: [[إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين]](3). يؤكد ظاهر الآية حقيقة ذهب إليها بعض المفسرين وهي: أن إبراهيم كان إماما يؤمه الناس ليتعلموا منه أمور دينهم ودنياهم، وهذا مأخوذ من التفسير المباشر للآية المصرح عنه عن طريق التوكيد المصحوب بالماضي من الفعل (كان). ولما تبين لنا مما سبق أن أسلوب

---

(1) الكشاف ـ المصدر السابق ـ م 4 ـ ص 208 ـ 209

(2) الحجرات آية 10

(3) النحل آية 120

التوكيد لا يدل على التطابق الفعلي بين اللفظ القرآني وبين الواقع، وأن هذه الألفاظ يمكن أن تصطحب المبالغة لتُبلِّغ لنا الحقيقة في بعض أجزائها، وإذا اقتنعنا بهذا، فإنه يمكن أن نلتمس في هذه الآية معنى آخر غير المعنى الأول، والمتمثل في كون لفظة (الأمة) تعني الجماعة وليس كل الجماعة، وإنما الجماعة المؤمنة التي تتوزع فيها مظاهر الخير والرحمة، وعليه يكون تفسير الآية إن إبراهيم: {{كان في الفضل والفتوة والكمال بمنزلة أمة كاملة}}(1) وبهذا الشكل يبرز الجانب البلاغي في صورة تشبيهية واضحة ومؤكدة في صورة الفرد مقابل أمة كاملة، حيث ينطلق الخيال بانطلاقة معاني هذه الصورة غيرالمقيدة ليبحث عن أوجه الائتلاف التي تجمع بين طرفي هذه الصورة التشبيهية المفردة المطلقة.

وبهذه الثنائية التقريرية والتصويرية يستمر الأسلوب القرآني في عرض نماذج النوعية المفردة المطلقة، مما جعل المفسرين يذهبون مذاهب شتى في تأويل اللفظة الواحدة داخل الصورة الواحدة؛ ففي قوله تعالى: [[ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا]](2)، تعددت آراء المفسرين حول لفظة (الزهرة) في ربطها بسياق الآية، فالذي ربطها بالحياة الدنيا أوَّلها عدة تأويلات منها: {{ولا تمدن عينيك إلى الحياة الدنيا زهرة أي في حال زهرتها}}(3)، ومنها أيضا: {{أي جعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا}}(4)، ومن هذه التأويلات كذلك: {{...جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة}}(5)، وكل هذه التقديرات جمعها أحد المفسري في مدلول الزينة والبهجة فقال: {{...أي زينتها وبهجتها}}(6) وأما من ربطها بالتعبير السياقي مباشرة فقد ارتأى في ذلك صيغة المبالغة كأن يقال: {{أو على جعلهم نفس الزهرة مبالغة}}(7)، ولكن من فسر الزهرة على أساس أنها نوْر الزهرة والنبات ربطها بالمتاع الذي مُتِّع به هؤلاء الناس: {{وهو متاع زائل كالزهرة سرعان ما تذبل}}(8)، وعلى أي حال فلفظة (الزهرة) استعملت في هذه الآية استعمالا غير حقيقي، سواء ربطت بالحياة الدنيا، أم ربطت بالمخاطَبين في الآية أم

(1) التحرير والتنوير- المصدر السابق - ج 14 - ص 315

(2) طه آية 128

(3) الجامع لأحكام القرآن - المصدر السابق - م 6 ج 16 - ص 262

(4)(5) المصدر نفسه - م 6 - ج 16 - ص 261

(6) روح المعاني - المصدر السابق - م 6 - ج 16- ص 283

(7) المصدر نفسه - م 6 - ج 16 - ص 284

(8) في ظلال القرآن - المصدر السابق - م 4 - ج 16 - ص 2357

رُبطت بالمتاع. وهذا يرجح تغليب الجانب التصويري في هذا المثال بصفة خاصة والتشبيهات المتميزة بالفردية المطلقة من الصورة الرابعة بصفة عامة التي ضمت ثنائية التصوير والتقرير.

وتتباعد هذه الثنائية كل ما ابتعدت دلالات الطرفين المتقابلين في تأدية المعنى بالرغم من استمرارية الأسلوب التقريري، الذي ينم عن المبالغة في الربط بين شطري الصورة الواحدة. ويمكننا أن نستشف هذا من المثال الآتي من قوله تعالى: [[مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء]](1)، ففي جملة (وأفئدتهم هواء) تكاد تجمع الآراء والتفاسير على أن لفظة (الهواء) استعملت استعمالا تشبيهيا، لأن الأفئدة ليست هواء وإن وجد من يلتمس في الآية إضمارًا على أن تفسيرها يكون على غير التشبيه: {{...أي ذات هواء وخلاء}}(2). وهذا الرأي قليل، ولكن الإختلاف يكمن في تفسير اللفظة نفسها؛ فمنهم من يرى أنها تعني: {{...الخلاء الذي لم تشغله الأجرام}}(3) ومنه من يرى: {{أن الهواء ليس بمعنى الخلاء بل بالمعنى الذي يهب على الذهن من غير أعمال مروحة للفكر}}(4) ومهما يكن من اختلاف في مدلول (الهواء) فإن الجامع بين الطرفين (الأفئدة والهواء) يبقى دوما الخلو والفراغ في كل منهما.

وكلما ازداد التباعد الدلالي بين الطرفين كلما كان التصوير هو الغالب على الصورة التشبيهية وبخاصة إذا جاء في السياق ما يؤكد ذلك، كما هو الشأن في مثل قوله تعالى في وصف يوم قيام الساعة: [[وترى الناس سكارى وما هم بسكارى]](5).

يصف الجزء الأول من الآية حالة من حالات الناس يوم تقوم الساعة، ويتمثل هذا الصنف في صورة مرئية نرى فيها الناس سكارى يترنحون يمينا وشمالا: {{يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة في خطواتهم المترنحة}}(6). ولكن هل هؤلاء الناس سكارى فعلا بالمعنى الذي تعارف عليه الناس بواسطة الشراب؟ فالجواب دل عليه الموقف الذي تناولته الآية، وهو موقف البعث، ذلك الموقف الرهيب الذي تشخص فيه الأبصار وتضطرب فيه النفوس وتحير فيه العقول، والذي لا يعقل أن يكون موقفا للأكل والشرب. وأما الدليل الثاني فهو الجزء الثاني من الآية والمتمثل في عبارة

(1) إبراهيم آية 45

(2) الجامع لأحكام القرآن - المصدر السابق - م 2 - ج 3 - ص 124

(3) الكشاف - المصدر السابق - م 2 - ج 13 - ص 124

(4) روح المعاني - المصدر السابق - م 5 - ج 13 - ص 247

(5) الحج آية 2

(6) في ظلال القرآن - المصدر السابق - م 2 - ج 18 - ص 2406

(ماهم بسكارى)، والذي يؤيد أن السكر ليس حقيقيا بل هو معنوي قول أحدهم إذ: {{تراهم سكارى من الخوف وماهم بسكارى من الشراب}}(1). ويستند هذا الرأي إلى القرينة التي تميزت بها هذه الصورة التشبيهية المطلقة المتمثلة في التصريح بعدم السكر في عبارة (وماهم بسكارى) التي يراها البعض: {{قرينة من قصد التشبيه}}(2). ولبروز الجانب التصويري أكثر في هذا المثال حمل بعض المفسرين إلى تخريجه مخرج التشبيه(+). وجوّز أحدهم أن يكون الكلام على الحقيقة ولا تأكيد فيها(+)، وهذا احتمال ضعّفت منه القرينتان السابقتان كما سبق أن بينا.

وتنعدم هذه الثنائية تماما عندما تنعدم أوجه احتمالات التشابه التقريري الذي قد تؤديه دلالات ألفاظ الطرفين المتقابلين، وخاصة إذا كانت الأمثلة القرآنية قد سيقت لتبيين المظاهر الحالية للأشياء، أي لتربط بين شيئ وآخر في حالة من حالات الالتقاء. وفي هذه الأمثلة ينعدم الجانب التقريري، ويبرز الجانب التصويري المصحوب بالحيوية المُجسّدة للعلاقة الجامعة بين طرفي الصورة التشبيهية الواحدة. وفي هذه الأمثلة تبرز كذلك الفردية المطلقة بلفظتين بدل لفظة واحدة بتكرار الفعل الدال على الحدث مرتين مع اختلاف الفاعل لهذا الحدث. وتمثيلا لهذا الصنف نأخذ قوله تعالى في وصف حالة الجبال يوم قيام الساعة: [[وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب]](3) لم تختلف آراء المفسرين التي بين أيدينا حول طبيعة ألفاظ هذه الصورة التشبيهية، وذلك للأسباب التي ذكرناها آنفا، ولكن أوجه الاختلاف بينهم دارت حول طبيعة العلاقة التي تربط بين طرفي هذه الصورة التشبيهية، ويعود ذلك في نظرنا إلى الشمولية التي تميز بها الطرف الثاني من الصورة، لأن مرور السحاب مختلف فيه؛ فمنهم من يرى أنه يسير على مهل مثل ما جاء في بيت الأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها ... مر السحاب لا ريث ولا عجل (4)

ومنهم من يرى أنه يسير سيرا سريعا، و هو الغالب: {{...والمشهور في وجه الشبه السرعة}}(5).

---

(1) الكشاف - المصدر السابق - م 3 ص 4 - 5

(2) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 17 - ص 191 .

(+) مجمع البيان - المصدر السابق - م 4 - ج 17 - ص 17 - + في ظلال القرآن - المصدر السابق - م 4 - ج 17 ص 2408 .

(+) روح المعاني - المصدر السابق - م 6 - ج 17 - ص 1013

(3) النمل آية 90

(4) الديوان - الأعشى الأكبر - شرح محمد حسين - المكتب الشرقي للنشر والتوزيع بيروت 1968 م - ص 219

(5) روح المعاني - المصدر السابق - م 7 - ج 20 - ص 34

ومنهم من يلتمس - إلى جانب هذه السرعة - الوضعية التي يكون عليها السحاب في تفتت أجزائه وانتفاشها: {{وجعلوا اختيار التشبيه بمرور السحاب مقصودا منه إدماج تشبيه حال الجبال حين ذلك المرور بحال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشها}}(1).

إن هذا الإختلاف في تحديد طبيعة وجه الشبه يزيد الصورة التشبيهية قوة وجمالا؛ لأن الصورة إذا حُددت وعُينت وأصبحت مألوفة لاجتهاد فيها ملتها الأنفس، وأصبحت بمرور الزمن ميدانا خصبا لإجالة الفكر في كشف مكنوناتها وخباياها الجمالية. وتبرز هذه الميزة في المثال الموالي من قوله تعالى: [[فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم]](2). تبدو الصورة التشبيهية واضحة لاختلاف بين العلماء والمفسرين حول تحديد طبيعة طرفيها، ولكن موطن الخلاف هذه المرة يكمن في تعيين مدلول الجزء الثاني منها، والذي تمثله لفظة (الهيم) لأن الشرب فعل واحد وإن اختلفت وسيلته وطريقته، والفاعل في الطرف الأول من الصورة معروف وهو: أهل النار الذين يأكلون من شجرة الزقوم، ثم يشربون من الحميم، ولكن الفاعل في الطرف الثاني غير محدد بشيء معين، لأن لفظة (الهيم) حملت معنيين الأول: {{وهو الجمل الذي أصابه الهيام بضم الميم وهو داء يشبه الإستسقاء يصيب الإبل فتشرب حتى تموت، أو تسقم سقما شديدا، ويقال إبل هيماء وناقة هيماء، كما يقال جمل أهيم قال الشاعر:

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد   صداها ولا يقضي عليها هُيامها}}(3)

أما المعنى الثاني فيتمثل في: {{الأرض الرملية التي لا تروى بالماء}}(4)، وكلا هذين المعنيين يؤديان غرضا واحدا وهو (عدم الارتواء)، ولكن المعنى الأول يمتاز عن المعنى الثاني بكونه يلتقي مع الطرف الأول في الطبيعة الحيوانية، وكذلك يلتقي معه في وسيلة الشرب وهي (الفم) كما يمكن أن يلتقي معه في الشكل أي في طريقة الشرب؛ فالإبل تشرب بمد رقبتها إلى الماء دون أن تستعمل أي حاسة أخرى من الحواس، سوى عملية الامتصاص. وقد يحدث مثل هذا العمل من الإنسان، ولكنه غير محبب، لأنه مخالف لطبيعته التي تفرض عليه استخدام يديه للشرب، كما يمكن أن يلتقي معه في خاصية أخرى وهي (الألم) لأن شراب أهل النار يتمثل في الحميم الشديد

---

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 20 - ص 47

(2) الواقعة آية 58

(3) روح المعاني - المصدر السابق - م 9 - ج 27 - ص 146

(4) مجمع البيان - المصدر السابق - م 6 - ج 27 ص 124

الحرارة الذي يقطع أمعاءهم، ورغم هذا فهم يشربونه بنهم فكذلك الإبل المريضة بداء (الهُيام) الذي يجعلها تشرب: {{حتى تموت أو تسقم سقما شديدا}}(1). وبهذه القرائن يمكننا أن نرسم مشهدين متقابلين أحدهما: لقطيع من الإبل وهي تشرب من دون أن تتوقف، والثانية: لجماعة من البشر يقومون بنفس العملية؛ عملية الشرب، فالأول بارد، والثاني يغلي من شدة الحرارة. وتعددأوجه الالتقاء بين المشهدين كما سبق أن بينا يعطي لهذه الصورة التشبيهية استمرارية التأثير الفني الجمالي في النفس.

هذا ما لاحظناه من خلال اختلاف المفسرين لطبيعة النماذج التي مرت معنا، ويبقى هذا الإختلاف دوما ساري المفعول في جل نماذج النوع المفرد المطلق، وهو ميزة من ميزات الصورة الرابعة بوجه عام. وسنرى ذلك عندما نتناول باقي الأنواع الأخرى ابتداء من النوع الموالي:

ب ـ المقيد: يأتي هذا النوع في الدرجة الثانية بالنسبة للكثرة والقلة ـ بعد النوع المفرد المطلق كما أن نفس الأساليب التي وجدناها في النوع المطلق نجدها في المقيد؛ ومن أبرز هذه الأساليب أسلوب (الجعل) الذي يدل على وقوع تغيير في مادة الشئ من حالة إلى أخرى، ويكون بصيغة الماضي (فجعلناه) و (وجعلنا) ويشترك معه في هذه الصيغة أسلوب الكينونة الذي يدل على معنيين: معنى التقرير، ومعنى التغيير، فالأول: يقر بالحالة التي كانت عليها طبيعة الشئ في مثل قوله تعالى: [[كنا طرائق قددا]](2). وأما الثاني فيُبيِّن التغيير الذي سيطرأعلى الأشياء في المستقبل بصيغة الماضي من الفعل في مثل قوله تعالى: [[وكانت الجبال كثيبا مهيلا]](3).

وإلى جانب هذين الأسلوبين (الجعل والكينونة) هناك أساليب أخرى متنوعة سنتطرق إليها في حينها. وقد ساهم هذا النوع من الأساليب في استمرارية الثنائية (التقريرية والتصويرية) في الصورة التشبيهية المفردة المقيدة إلى جانب طبيعة الطرفين المشبهين ـ فكلما كان الطرفان المتقابلان متقاربين في طبيعتهما، كلما كوّنت هذه الثنائية إشكالية في تفسير مدلول الصورة التشبيهية الواحدة؛ فمثلا عندما تتقابل (الجبال) مع (الكثيب)ـ الذي هو الرمل ـ بأسلوب الكينونة (كانت) الدال على التصيير: {{فلا مانع من أن تكون رملا حقيقية}}(4) لأنه من الطبيعي

---

(1) روح المعاني ـ المصر السابق ـ م 9 ـ ج 27 ـ ص 146

(2) الجن آية 11

(3) المزمل آية 13

(4) روح المعاني ـ المصدر السابق ـ م 10 ـ ج 28 ص 135

أن: {{تصير حجارة الجبال دقيقا}}(1). ولكن إذا أخذنا هذه الصورة من الجانب الإيضاحي لوجدناها تنحو نحو التشبيه شكلا ومضمونا ؛ أي أنها صيغت بطريقة الصورة الرابعة. فربطت بين طبيعتين معروفتين لدينا هما: طبيعة الجبال الصلبة، وطبيعة الرمال الرخوة المتفرقة: {{... والمعنى أن الجبال تنقلع من أصول فتصير بعد صلابتها كالرمل السائل}}(2).

وكلما اختلفت طبيعة الطرفين المتقابلين، كلما ازداد الجانب التصويري أكثر في الصورة حتى وإن ضم التعبير السابق للصورة أسلوبي (الجعل والكينونة). ويمكن أن نلحظ هذا في مقابلة أعمال الكافرين والمنافقين يوم القيامة بـ[[الهباء المنثور]](3) عن طريق أسلوب الجعل (فجعلناه) الآية ، وهذا واضح للعيان؛ لأن (الأعمال) أشياء مختلفة، بينما (الهباء) شئ مادي واحد ومعلوم. وبهذا يكون الجانب التصويري قد فرض نفسه وقطع طريق الإختلاف حول تأويل المعنى المراد من إقامة المقابلة في هذه الآية. وهذا ما يمكن ملاحظته أيضا من خلال التصوير القرآني في ربطه (الأكواب بالقوارير الفضية)(+) بواسطة فعل الكينونة (كانت) ، الذي أفاد التصوير دون التقرير ؛ فالأكواب لا تصير في طبيعتها قوارير وإنما: {{تكون شبيهة بالقوارير في صفاء اللون والرقة حتى كأنها تشف عما فيها }}(4)

بهذه الكيفية نستطيع تتبع الثنائية التقريرية والتصويرية في الأمثلة المتبقية كما تتبعناها في صور الإفراد المطلق. والذي يلفت انتباهنا الآن أكثر - في هذه النوعية - القيد اللفظي الذي يأتي عقب كل صورة تشبيهية؛ فمن خلال النماذج التي في حوزتنا تبين لنا أن القيد الغالب في معظم الصور التشبيهية يكون عبارة عن صفة من الصفات التي تلازم الطرف الثاني ويعرف بها. وهذه الصفة عادة ماتأ تي على صيغة صرفية واحدة وهي صيغة المفعول التي تقوم بدور الموضح لوضعية المشبه به التي هو عليها، وتتحكم في وضعية المشبه التي سيكون عليها؛ فمثلا: لوأخذنا المثال الذي يصور حالة الجبال يوم قيام الساعة: [[وبُسّت الجبال بسا فكانت هباء منبثا]](5)

لوجدنا أن لفظة (منبثا) تمثل القيد الذي يفرض على (الهباء) الشكل الذي يجب أن يكون عليه.

---

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 28 - ص 277

(2) مجمع البيان - المصدر السبق - م 6 - ج 29 ص 58

(3) الفرقان آية 23

(+) الإنسان آية 15 - 16

(4) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 28 - ص 392

(5) الواقعة آية 5 6

فتقتت الجبال حتى تصبح شبيهة بذرات الهباء، شكل أساسي في الصورة، وللانبثاث أو التفرق وضعية جزئية تشارك في رسم الصورة وتفرض عليها كيفية خاصة، لأنه لو افترضنا حذف هذه الصفة (منبثا) وتركنا الصورة مفردة مطلقة (فكانت هباء) لاختلف تفسيرنا الآن للصورة عن التفسير السابق، لأن لفظة (الهباء) مفردة مطلقة تؤدي معنى عاما يحتمل عدة علاقات، يمكن تخريجها للربط بين الطرفين المتقابلين (الجبال والهباء)، إذاً فلفظة (منبثا) أفادت في تعريف الصورة شكلا وفي تخصيصها معنى، وهذا الأمر ينطبق على الصفات التي تأتي على هذا المنوال مثل (منثورا) التي قيَّدت لفظة (الهباء) في مقابلتها لنتيجة أعمال الكفار يوم القيامة. وكذلك ينطبق هذا الحال على صفة (مهيلا) في تقييدها للفظة (الكثيب) المقابلة لحالة (الجبال) يوم قيام الساعة.

تشترك هذه القيود السابقة في إضفاء الجانب الشكلي على الصورة التشبيهية الذي يترتب بعد سكون الحركة، ولكن تنفرد صفة (منبثا) بإمكانية استمرارية حركة (الهباء) المتطاير، دلت على ذلك طبيعته التي يعرف بها، وهي عدم استقراره في الهواء، وكذا الصيغة الصرفية للصفة نفسها (منبثا)، التي يمكن أن تحمل المعنيين معا (استمرارية الحركة وانتهائها) لأنهاتعني (متنشرا)، والانتشار قد يكون تم وانتهى، وقد يكون مازال مستمرا والأرجح في هذه الصورة التشبيهية أن تكون الحركة هي الغالبة على مدلول ألفاظها. وهذا ما ينطبق أيضا على لفظة (منيرا) القيد الذي يربط الصورة التشبيهية من قوله تعالى في وصف نبيه الكريم: [[يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا]](1). وهذا يدل على أن السراج المذكور لا يضيئ من ذاته بل يستقبل الضوء ويعكسه كما هو الحال للقمر العاكس لنور الشمس(+)، وتقييدالمشبه به بهذه الكيفيه يعني أن المشبه مقيد هوالآخر في نفس الصفة، صفة (الإنارة). ومن هنا يكون تفسير هذه الصورة في مجمل القول: {{أنت يا محمد كالسراج الوضاء في الهدايه والإرشاد}}(2). وفي ضوء هذا كله يمكن الوصول إلى نتيجة عامة أشارت إليها الإنارة وهي: {{...أن وصفه عليه الصلاة والسلام بالسراج المنير يفيد معنيين على تخصيص القرآن: معنى الضياء والنور كما بينه تعالى، وبأنه يبلغ رسالة هدى وأن هذه الرسالة

---

(1) الأحزاب آية 45-46

(+) يلتمس تفصيل هذا المعنى في كتاب التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن - حنفي أحمد - دار المعارف مصر - ط 3 - ص 153

(2) صفوة التفاسير- المصدرالسابق ج2 ص 553

منزلة عليه (1).

وبهذا التحليل يتبين لنا الدور الأساسي الذي أدته وتؤديه هذه القيود في رسم الإطار الشكلي للصورة التشبيهية؛ وهناك نماذج أخرى تحتوي على صفات تساهم في تقييد الصورة تقييدا معنويا يختلف عن التقييد الشكلي في النماذج السابقة؛ فمثلا إذا تناولنا قوله تعالى :[{وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور}] (2)، وسلمنا بأن الكلام في هذه الآية لا يؤخذ على سبيل الحقيقة، كما عن بعض المفسرين تخريجه (+)، بل يؤخذ على سبيل التشبيه، لأن الآية تتكلم عن عنصرين مختلفين (الحياة الدنيا) وهي شئ معنوي ، و(المتاع) الذي هو شئ مادي، وبالتالي يكون تفسير الآية :{{ . . .معناه والعمل للحياة الدنيا متاع الغرور وإنه كهذه الأشياء التي مثل بها في الزوال والفناء}} (3). وبهذا تكون لفظة (الغرور) قيد معنوي لكل من (المتاع والحياة الدنيا)، وهذا يعني أن هناك (متاعا) لا يتصف بهذه الصفة، وهذا ما يتضح في قول أحدهم :{{... الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى وطلب الآخرة، فنعم المتـاع ونعـم الوسيلة}} (4). وهذا يبين لنا أن المقصود من المتاع :{{المتعة : الزاد القليل}} (5)، الذي لا يبلغ صاحبه إلى مبتغاه. وهنا تبرز صفة الغرور في تجسيد علاقة الزوال والفناء التي تجمع بين طرفي هذه الصورة التشبيهية وينطبق هذا التحليل على قوله تعالى :[{وجعلنا السماء سقفا محفوظا}] (6). يدل فعل (الجعل) كما مر معنا على معنيين : الأول : (الخلق)، والثاني : (التصيير والتحويل). وإذا اعتمدنا الأول يكون تفسير الآية على الحقيقة، أي أن الله تعالى:{{بين خلقها على تلك الصفة...}} (7). وأما إذا اعتمدنا المعنى الثاني فيكون تفسير الآية :{{أي رفعنا السماء فوق الخلق كالسقف...}} (8). وهذا يعني أن السماء شكّلت بعد خلقها على هيئة سقف، ولكن هذا السقف تختلف طبيعته عن طبيعة السقف الذي نعرفه، وكذلك تختلف هيئته ومساحته عن السقف المعتاد، وكذلك أن هذا الأخير يرفع فوق أركان وأعمدة نراها، بينما السماء رفعت بغير

---

(1) التفسير العلمي للآيات الكونية . المصدر السابق . ص 152

(2) الحديد آية 19

(+) << أي هي متاع فان غار لمن ركن اليه>> تفسير ابن كثير المصدر السابق . م 4 . ص 313

(3) مجمع البيان . المصدر السابق . م 6 . ج 27 . ص 153

(4) روح المعاني . المصدر السابق . م 9 . ج 27. ص 185

(5) لسان العرب . المصدر السابق . مادة (متع) ص 332

(6) الانبياء آية 32

(7) الكشاف . المصدر السابق . م 2. ج 2. ص 571

(8) مجمع البيان . المصدر السابق . م 4. ج 14. ص 23

عمد تدركها الابصار، كما أن مساحة السقف العادي مهما امتدت فإنها تبقى محددة بمساحة معينة، بينما مساحة السماء لا ندرك حدودها ولا نراها، ولكن هناك نقاطا يمكن أن تجمع بين السماء والسقف من بينها: الشكل المسطح، وكذا الوقاية والحفظ، وما يصحب ذلك من أمن وطمأنينة وغيرها من عوامل الاستقرار البدني والنفسي. وهذا ما يمكن أن نستخلصه من لفظة (السقف) مطلقة في مقابلتها للفظة (السماء)، ولكن إذا أضف: لها لفظة (محفوظا) على اختلاف معانيها لدى المفسرين(•)، فإنها تمثل قيدا معنويا يحدد إحدى وظائف السقف التي جعلت على منوالها وظيفة السماء.

وبهذا القدر من الأمثلة التوضيحية يتبين لنا أن القيد في الصورة المفردة يؤدي دورا بارزا في تحديد معالم الصورة التشبيهية، والتدقيق في جوانبها الأساسية التي تقوم عليها. وهذا بدوره ساهم في تقوية جمال وبلاغة الصورة التشبيهية.

وبعد هاتين الخاصيتين (الإطلاق) و(التقييد) ننتقل إلى الخاصية الثالثة التي تميز أيضا النوعية المفردة من الصورة الرابعة، وهي التعددية في الأطراف المفردة.

ج - **المتعدد** : يكون انطلاقنا في معالجة هذه الخاصية من خلال ماتجمع لدينا من نماذج، وعليها يحق لنا القول بأنها قليلة تأتي في الدرجة الثالثة بعد حالتي (الإطلاق والتقييد). وبناءً على هذه القلة نقول : إنها تناولت موضوعين على العموم هما : وصف الحياة الدنيا، ووصف الفريق الضال من المنافقين والكفرة. والى جانب هذا هناك ميزات أخرى أهمها : انعدام الثنائية التي وجدناها في الخاصيتين السابقتين (التقريرية والتصويرية)، وكذلك غلبة الجانب التصويري على النماذج التي بين أيدينا، ويبرز هذا أكثر في النماذج التي تتناول وصف الطرف الضال بأنواع الحالات المرضية الفسيولوجية من (صمم وبكم وعمى). ويعود هذا في نظرنا الى السياق العام للآيات القرآنية، لأن الكلام في هذه الآيات يدور حول عدم استغلال هؤلاء الجاحدين لحواسهم الطبيعية السليمة، استغلالاً فطرياً؛ وهذا ما ذهب اليه المفسرون في مثل قول أحدهم : {(إنهم صم لايسمعون بكم لايتكلمون، غارقون في الظلمات لايبصرون إنهم

(•) «... وذكر في وجهه ان المراد حفظها ليس كحفظ دور الأرض فان السراق ربما تسلقت من سقوفها بخلاف هذه، وقيل : إنه للدلالة على حفظها عمن تحتها... » روح المعاني - المصدر السابق - م 17 و 18 - ج 7 - ص 39 .

كذلك لا من ناحية التكوين الجثماني المادي، فإن لهم عيونا وآذانا وأفواها... ولكن إدراكهم معطل فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل!..}}(1).

وإذا كان السياق في هذه النماذج هو الذي ميّزها بطابع التصوير، وأبعدها عن جانب التقرير، فإن طبيعة الطرفين في نماذج أخرى هي التي أوضحت حتمية الجانب التصويري فيها. ويمكننا ملاحظة ذلك في النماذج التي يكون طرفها الأول دوما (الحياة الدنيا) وطرفها الثاني (اللعب واللهو والزينة)؛ لأن الطرف الأول يغلب عليه الطابع المعنوي، بينما الطرف الثاني يخضع للمقاييس المادية من حس ومشاهدة وغيرها من أساليب المعاينة.

ومن خلال ما تقدم شرحه من نماذج تتضح لنا أحادية الطرف الأول وتعددية الطرف الثاني وهذا التعدد في الإفراد يكون منفصلا لفظا ومتحدا معنًى أحيانا، ومنفصلا لفظا ومعنى أحيانا أخرى: فمن الأول نأخذ على سبيل التمثيل لفظتي (اللعب واللهو) المترادفتين في وصف (الحياة الدنيا)؛ إذ تمثل كل لفظة منهما جزءًا مستقلا، يمكن مقابلته بالطرف الأول المشترك وهو (الحياة الدنيا)، وذلك من الناحية الشكلية. ولكن من الناحية المعنوية فإن هاتين اللفظتين تتحدان في المدلول اللغوي بحسب ما جاء في المعاجم اللغوية: {{واللهو: اللعب، ويقال لهوت بالشئ ألهو به لهوا وتلهيت به إذا لعبت به وتشاغلت وغفلت به عن غيره}}(2) وإذا سلمنا بهذا المعنى اللغوي فإن وقوع اللفظة الثانية يكون بمثابة زيادة في التأكيد، ومن هنا تكون التعددية الفردية بهذا الشكل قد أفادت في توضيح الصورة وتجليتها للأبصار أكثر. وإذا لم نسلم باتحاد اللفظتين في المعنى، والتمسنا المعنى الجزئي لكل لفظة من خلال المعاني الجزئية المتناثرة في كتب اللغة؛ إذ تشير هذه الأخيرة إلى أن اللعب يعني على العموم: {{ضد الجد}}(3). ومن هنا يصح بأن: {{يقال لكل من عمل عملا لا يجدي عليه نفعا: إنما أنت لاعب}}(4)؛ وعلى هذا الأساس فإن هذا المعنى يختلف عن المعنى الجزئي للفظة (اللهو) الذي يعني الانشغال بالشئ عن شئ آخر سواء كان هذا الشئ مفيدا أو غير مفيد، وقد ورد هذا في القرآن الكريم في أكثر من مرة، وقد استدل به صاحب اللسان عن ابن عرفة في قوله تعالى: [[لاهية قلوبهم]](5).{{أي

(1) في ظلال القرآن ـ المصدر السابق ـ م 2 ـ ج 7 ـ ص 1080-1081

(2) لسان العرب ـ مادة (لها)ص 259

(3) معجم متن اللغة ـ مادة (لعب) ص 183

(4) اللسان مادة (لعب) ص 739

(5) الأنبياء آية 3

متشاغلة عما يدعون إليه، وهذا من لها عن الشيء إذا تشاغل بغيره يلهى؛ ومنه قوله تعالى: (فأنت عنه تلهى) أي تتشاغل، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يلهو، لأنه صلى الله عليه وسلم قال: ما أنا من داد ولا الداد مني.}}(1). ويفيدنا هذا التحليل في أن ذكر لفظة (اللهو) بعد (اللعب) تعني جزءًا من الحياة مستقلا عن اللعب استقلالا جزئيا ويؤيدنا في ذلك صاحب التحرير في تفسيره لهاتين اللفظتين: {{واللهو: ما يلهوبه الناس أي يشتغلون به عن الأمور المقدرة أو يعمرون به أوقاتهم الخالية عن الأعمال، واللعب ما يقصد به الهزل والانبساط}}(2).

ومن هذا المنطلق يكون التعدد قد أفاد في تحديد معالم الصورة التشبيهية وحصرها في مجال معين، وهذا ما سنلمسه في أساليب الحصر التي وردت في بداية ووسط كل صورة تشبيهية، ونأخذ على سبيل المثال ثلاثة نماذج تجري في مسلك واحد وهي قوله تعالى: [[وما هذه الحياة الدنيا إلا لعب ولهو]](3) وقوله عز وجل: [[إنما الحياة الدنيا لعب ولهو]](4)، وقوله عز وجل: [[إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد]](5)

تعالج هذه النماذج موضوعا واحدا وهو (الحياة الدنيا)، وبأسلوب واحد هو أسلوب الحصر المتمثل في أداة الإستثناء (إلا) وأداة التوكيد (إن)، ورغم هذه الوحدة الموضوعية والأسلوبية فإن وضوح الصورة يختلف باختلاف موقع الأداة، وطريقة التعبير عنها؛ فمثلا نجد في المثال الأول أن الأداة توسطت طرفي الصورة (الحياة الدنيا واللهو واللعب)، وهذا التوسط سهل مهمة تقدير الأداة، فيمكننا تأويلها بقولنا: {{...أي كاللهو واللعب}}(6). إضافة إلى هذا طبيعة التعبير الذي تصدر الآية (وما هذه) الذي ينم عن: {{ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها}}(7) اجتماع هاتين الصفتين (التقدير والتحقير) جعل الجانب التشبيهي أبين وأوضح. وهذا ما نلمسه في كلام المفسرين لهذه الآية القرآنية. بينما الأمر يختلف بالنسبة للآية الثانية والثالثة: ففي الثانية نجد أن الأداة تصدرت الكلام وأخبرت عن الحياة الدنيا، وحصرت ذلك في شيئين اثنين

---

(1) اللسان ـ المصدر السابق ـ مادة(لها) ص 259

(2) التحرير والتنوير ـ المصدر السابق ـ م 8 ـ ج21 ـ ص 31

(3) العنكبوت آية 64

(4) محمد آية 36

(5) الحديد آية19

(6) صفوة التفاسير ـ المصدر السابق ـ م 2 ـ ص 461

(7) الكشاف ـ المصدر السابق ـ م 2 ـ ج 4 ـ ص 253

هما (اللهو واللعب) ووقوعها في صدارة الصورة التشبيهية جعل كلام المفسرين عنها يتغير قليلا عما قيل في سابقاتها؛ فمنهم من اكتفى بذكر مقتضيات أسلوب الحصر، وأخذ الكلام على ظاهره ، كقول أحدهم: {{أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل}}(1). ومنهم من أخرجها مخرج التشبيه على اقتناع بأن المعنى واحد وإن تغير موقع الأداة، ويبدو ذلك في قول أحدهم: {{... شبّهت أحوال الدنيا باللعب واللهو في عدم ترتب الفائدة عليها لأنها فانية منقضية والآخرة هي دار القرار}}(2). ويختلف الحال أكثر في الآية الثالثة عن الأولى والثانية، إذ نجد أن الأداة سبقت بفعل (اعلموا) الذي زاد في قوة الإخبار المؤكد بالأداة (إن)، وهذا التعبير لا يفتح مجالا لتأويل مباشر لأداة التشبيه، لأن التعددية الفردية في الطرف الثاني من الصورة التشبيهية لا تسمح ظاهريا بالتماس أداة للتشبيه، بالرغم من كونها معطوفة على لفظتي (اللهو واللعب) حيث يمكن تأويل الأداة في كل من هاتين اللفظتين (كاللهو وكاللعب). ولعل هذا ما جعل بعض المفسرين يلتمسون التقرير الواقعي من وراء هذا التعبير السياقي القرآني ، ويتضح هذا الموقف في قول أحدهم: {{...هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو منها من جد حافل واهتمام شاغل}}(3)، وجعل البعض الآخر يقسم الطرف الثاني من الصورة إلى قسمين الأول: يتكون من (اللعب واللهو والزينة) ويمثل هذا القسم الجانب الذي يمكن أن تبرز فيه أداة التشبيه، ويمكن مقابلة كل طرف على حدة مع (الحياة الدنيا) في جامع بينهما وهو (الزوال والفناء). بينما يحتوي القسم الثاني على باقي الأطراف التي لا يسمح التعبير المباشر فيها بوضع الأداة موضع التأويل، ولكن يمكن جمعهما في معنى واحد يقابل (الحياة الدنيا) في نفس العلاقة التشبيهية (الزوال والفناء)، وهذا ما نستخلصه من قول القائل: {{...أي بمنزلة اللهو واللعب...(وزينة) تتزينون بها في الدنيا وقيل أراد بذلك أنها تتحلى في أعين أهلها ثم تتلاشى (وتفاخر بينكم) أي يفاخر الرجل بها قرينه وجاره،عن ابن عباس (وتكاثر في الأموال والأولاد) قال: يجمع ما لا يحل له تكاثرا به ويتطاول على أولياء الله بماله وولده وخدمه، والمعنى أنه يفني عمره في هذه الأشياء...}}(4).

---

(1) تفسير ابن كثير - المصدر السابق - م 4 - ج 4 - ص 181
(2) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 26 ص 136
(3) في ظلال القرآن - المصدر السابق - م 6 - ج 2 - ص 348
(4) مجمع البيان - المصدر السابق - م 5 - ج 27 - ص 152

ويتضح من خلال ما تقدم أن مدلول الصورة التشبيهية يتغير بحسب التغير الجزئي للأساليب القرآنية في كل صورة بالرغم من تكرار الأطراف المشبهة، سواء كانت أحادية أو متعددة.

لقد دار جل حديثنا هذا حول الأطراف المتعددة المنفصلة لفظا والمتحدة في المعنى الجزئي؛ حسب تخريج كل صورة. وإذا انتقلنا إلى الصنف الثاني من الأطراف المتعددة المنفصلة لفظا ومعنى، فإننا نجده يضم ألفاظ (الصمم والبكم والعمى)، والتي تقابل دوما الفريق الضال الذي يمثل الطرف المعنوي في الصورة، بينما تمثل الصفات المرضية الطرف الحسي فيها. وهذه الصفات كما هو معلوم تنفصل عن بعضها البعض بحكم التركيب الفسيولوجي لها، ولكن تبقى إمكانية جمع هذه الصفات المرضية في شخص واحد فيكون الشخص (أصم وأبكم وأعمى). ولكن هذا الجمع لا يغير من التعددية في شيئ فيبقى الإنفصال اللفظي والمعنوي متواجدا، لأن جمع الصفات المرضية في شخص واحد يزيد التعددية قوة وجمالا بيانيا، لأنها تعبر عن اكتمال مواطن العجز الكلي في شخص بعينه. إن الإنفصال اللفظي والمعنوي بين عناصرالطرف الثاني يسهل مهمة مقابلة كل عنصر من العناصر المتعددة بنظيره في الطرف الأول؛ فيمكن أن يقال (هم صم وهم بكم وهم عمي). وبهذه الكيفية يكون التعدد قد ساهم في رسم ثلاث صور تشبيهية ءيمكن فصلها عن بعضها البعض، الأمر الذي يجعل الطرف الأول المفرد لفظا متعددا معنى. وبهذا نتأكد من حتمية الجانب التصويري في هذه النماذج واستبعاد الجانب التقريري فيها. غير أن هذا التصوير يشكل ثنائية أخرى تتمثل في اجتماع الاستعارة مع التشبيه في صورة واحدة، كما سنرى ذلك من خلال هذين المثالين؛ الأول: يتمثل في قوله تعالى: [[ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون]](1) يأتي هذا التعدد في سياق الآية بعد صورة تشبيهية واضحة الأطراف تتمثل في المشبه (الذين كفروا) وأداة التشبيه (كمثل والمشبه به (الذي ينعق بما لا يسمع) وإذا كان هذا التعدد منفصلا دون ان نربطه بأي طرف آخر، على أن يكون هذا الطرف محذوفا، يحق لنا أن نجري هذا التعدد مجرى الاستعارة، والمانع الذي يمنع من أن تكون هذه الصفات قد وردت في إطار معناها الحقيقي في جملة (فهم لا يعقلون)؛ لأن العقل شيئ والصفات المذكورة شيئ آخر. ولكن إذا ربطنا هذا التعدد بالطرف الأول من الصورة التشبيهية الأولى، وهو (الذين كفروا) على أساس أن الذم موجه إليهم حق لنا أن نأخذ هذا التعدد مأخذ الصورة التشبيهية متباعدة الطرفين، وهذا الذي ذهب إليه بعض المفسرين في مثل

---

(1)البقرة آية 170

قول أحدهم: {{...ثم شبه تعالى الكافرين بأنهم صم بكم عمي}}(1).

وتبرز الثنائية أكثر في المثال المتمثل في قوله تعالى: [[فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون]](2). تجتمع الإستعارة والتشبيه في هذه الآية حسب تأويل المعنى الذي يمكن أن تحمله الأطراف المتقابلة في هذه الصورة؛ ففي حالة حمل الطرف الأول على أنه يمثل حالة نفسية تستنتج من مجموع الألفاظ الأولى ؛ وهو الطرف المعنوي المحذوف ، وحمل الطرف الثاني على أنه صفات مرضية تتعلق بالذات البشرية - وهو الطرف الحسي المصرح به - تكون الصورة على طريقة الاستعارة التصريحية، ولكن إذا حملنا الطرف الأول على أنه يمثل الجانب الحسي في ذوات المنافقين على أساس تأويله بضمير الرفع المنفصل - (هم) فتكون الصورة المتعددة منفصلة (هم صم) و (هم بكم) و (هم عمي)، ففي هذه الحالة تكون الصورة التشبيهية أوضح وأبين وأولى من الصورة الاستعارية، وهذه المفاضلة يؤيدها أحد المفسرين بقوله: {{غير أنهم ذكروا هنا بحثا وهو أنه لا نزاع في التقدير (هم صم) إلخ لكن ليس المستعار له حينئذ مذكورا؛ لأنه بيان أحوال مشاعر المنافقين لا ذواتهم. ففي هذه الصفات استعارة تبعية مصرحة ، وإلا أن يقال تشبيه ذوات المنافقين بذوات الأشخاص؛ الصم متفرع على تشبيه حالهم بالصمم فالقصد إلى إثبات هذا الفرع أقوى وأبلغ وكأن المشابهة بين الحالتين تعدت إلى الذاتين فحُملت الآية على هذا التشبيه برعاية المبالغة}}(3).

لقد تكلمنا قبل قليل عن الجملة التي منعت أن تكون العناصر المتعددة في الطرف الثاني قد وردت في معناها الحقيقي، ونشير الآن إلى أن هذه الجملة ومثيلاتها تعد ميزة من ميزات هذا الصنف من الصور التشبيهية، ويُعد البعض منها نتائج شاملة لأطراف متعددة في مثل قوله تعالى: [[فهم لا يرجعون]](4)، وفي قوله عزوجل: [[فهم لايعقلون]](5)- وذلك بأن العاهات المرضية المذكورة قبل هاتين الجملتين هي التي منعت هؤلاء القوم من الرجوع إلى الطريق المستقيم ، و العمل على استخدام العقل في إدراك الحق. ويُعد البعض منها قيدا لما قبله لمتعدد ويشارك في رسم الصورة التشبيهية وهويتها، ونلاحظ ذلك في قوله تعالى: [[والذين كذبوا بآياتنا

---

(1) الجامع لأحكام القرآن - المصدر السابق - م 1 - ج 2 - ص215

(2) البقرة آية 17

(3) روح المعاني - المصدر السابق - م 1 - ج 1 - ص 169

(4) البقرة آية 17 - (5) البقرة- آية 170

صم وبكم في الظلمات]](1) إذ تمثل عبارة (في الظلمات) صفة بصرية مكملة للعجز الذي أصاب حاستي الأذن والفم: {{أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهوالذي لا يسمع، أبكم وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر فكيف يهتدي هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه}}(2). وهذا يقوي شلل هؤلاء، ويضاعفه أكثر ويعطي قوة بلاغية لهذه الصورة التشبيهية.

من خلال ما تقدم من الصور التشبيهية يتبين لنا أن التعدد فيها اقتصر على الأطراف المشبه بها دون أن نعثر على التعدد الذي يقتصر على وجه الشبه الذي ذهب إليه علماء البلاغة في تمثيلهم للتشبيه المفرد المتعدد؛ كما مر معنا في الجانب النظري. وبهذا يكون التعدد قداقتصر على الأطراف الثانية من النوع المفرد الذي يمثل الوجه البارز في الصورة الرابعة من صور القرآن الكريم التشبيهية، الأمر الذي لا نجده في النوع المركب من تشبيهات هذه الصورة الرابعة.

النوع الثاني: التركيب:

يقل هذا النوع في الصورة الرابعة من تشبيهات القرآن الكريم ولعل هذه القلة تعود إلى طبيعة هذه الصورة، التي تعتمد المبالغة التي تقتضي ذكر الطرفين المتقابلين، مع حذف الأداة والعلاقة التي تجمع بينهما. كما يمكن أن تعود إلى طبيعة التركيب الذي يفرض قوة التمثيل، الأمر الذي يقوي جانب الإستعارة التمثيلية في مثل هذه الصور التشبيهية. وسنرى ذلك من خلال معالجتنا لبعض النماذج التي تجمعت لدينا من القرآن الكريم في ضوء التركيبين المزجي والتقابلي بصورة عامة:

التركيب المزجي والتقابلي: وانطلاقا من النماذج التي بين أيدينا تبين أن التركيب المزجي هو الذي ميّزها وأعطاها صيغة الفردية، فردية الحالة التشبيهية؛ لأن التركيب المزجي كماسبق أن بيّنا يؤدي إلى رسم حالة موحّدة الأعضاء لا يمكن الاستغناء عن جزء واحد منها لما له من دور في نظم بنائها الكلي. ولقلة هذه النماذج نكتفي بتحليل ثلاثة منها بوجه عام:

المثال الأول: يتمثل في قوله تعالى: [[سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضهاالسماوات والأرض أعدت للمتقين]](3) نلتمس صورة التشبيه في جملة (وجنة عرضها السماوات والأرض)

---

(1) الأنعام آية 40

(2) تفسير ابن كثير - المصدر السابق - م 2 - ص 131 - 132

(3)آل عمران آية 133

لأن هذا الوصف جار : {{على طريقة التشبيه بدليل التصريح بحرف التشبيه في نظيرتها في آية سورة الحديد}}(1). إذاً فالأداة محذوفة وهي (الكاف) وكذا اللفظة المشبه بها (عرض) والتي دلت عليها نظيرتها في الطرف الأول (عرضها) وبهذه المواصفات نستطيع ضم هذا المثال ضمن نماذج الصورة الرابعة. وأما إذا أردنا أن نبحث عن الجانب التركيبي في هذا المثال، فإننا نجده متمثلا في الطرف الثاني دون الأول، لأن هذا الأخير مفرد يمثله عرض الجنة (وجنة عرضها). بينما تمثل الطرف الثاني لفظتا (السماوات،الأرض) وطبيعة هذا التركيب واضحة وجلية لأن الجانب الكلي المزجي تجسده الغاية من جمع السماوات والأرض للحصول على عرض يقابل عرض الجنة. ولعل هذا الوصف المباشر هو الذي فتح بابا للثنائية (التقريرية والتصويرية) عند المحللين والمفسرين لهذه الآية القرآنية، فمنهم من حملها على الحقيقة القياسية: {{...تقرن السماوات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض فذلك عرض الجنة ولا يعلم طولها إلا الله وهو قول الجمهور}}(2) ومنهم من حملها على التصوير والمبالغة: {{والمراد وصفها بالسعة والبسطة، فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خَلقه وأبْسَطِه، وخص العرض بأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة كقوله بطائنها من استبرق...}}(3). وهذا التحليل الثاني هو الذي نرجحه لتمييزالصورة التشبيهية، وذلك لأن الغرض من الآية - كما هو واضح - الترغيب في دخول الجنة عن طريق الحث على فعل الخيرات، وهذه الجنة واسعة وسعتها تستوعب الناس جميعاً إلا من أبى أن يدخلها. وانطلاقاً من هذا فإن سعتها كبيرة بحيث أن عرضها فقط يماثل ويضاهي عرض السموات والأرض مجتمعتين. ونحن وإن كنا نعلم عرض الأرض فإننا لانعلم مقدار عرض السموات والأرض، ولكن ندرك أن هذا المقدار كبير لم نستطع حصره. ومن هنا يكون غرض التشبيه هو تقريب الصورة إلى الأذهان عن طريق الوصف التصويري.

وإذا كان التركيب في المثال الأول قد اقتصر على الطرف الثاني من الصورة التشبيهية فإنه في المثال الموالي شمل كلاًّ من الطرفين الأول والثاني.

المثال الثاني: ويتمثل في قوله تعالى: [[فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت]](4). ترتكز هذه الصورة

---

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 4 - ص 89 (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) الحديد - آية 20.

(2) الجامع لأحكام القرآن - المصدر السابق - م 2 - ج 4 - ص 204 - 205

(3) الكشاف - المصدر السابق - م 1 - ج 1 - ص 463

(4) محمد آية 21

التشبيهية من الناحية الشكلية على عنصرين أساسيين هما : نظرة المنافقين ، ونظرة المحتضر (ينظرون إليك نظر). فحذفت الأداة لأن التقدير (كنظر)، وحذف وجه الشبه المتمثل في الشكل الظاهري لكلا الطرفين، وبهذه الكيفية ينسب هذاالمثال إلى الصورة الرابعة. وإذا بحثنا عن التركيب المزجي فإننا نجده متمثلاً في مشهدين أولهما: جمع من الناس يسمعون آيات الله تتكلم عن القتال، ومن بين هؤلاء فئة من المنافقين ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم نظرة غير طبيعية. وأما المشهد الثاني: فيتمثل في شخص ممدود يعاني سكرات الموت ينظر إلى عواده نظرة غير طبيعية، وبهذا يكون مضمون هذه الصورة التشبيهية قد انحصر في تبيان

حالتين غير طبيعيتين، حالة المنافقين، وحالة المريض الذي يحتضر، وهاتان الحالتان جسدتهما ألفاظ تآلفت فيما بينها حيث أدت كل لفظة دورها في نسج معالم كل مشهد؛ فتبدأ في المشهد الأول بالتدرج من الأسفل إلى الأعلى، من المفاجأة المصحوبة بالشرط (فإذا) إلى حدوث الفعل المُفاجَأ (أنزلت سورة) وليست أي سورة، بل هي سورة (محكمة): {{... مبنية غير متشابهة}}(1). وإحكامها يشتد بتشريع عملية القتال: (وذكر فيها القتال)، وهذه الأفعال المُفاجِئة المشروطة تجد جوابا في أفعال أخرى تبدأبفعل الرؤية (رأيت) المُحدَّدة برؤية فئة معينة (الذين في قلوبهم مرض) والمُستأنَفة بفعل النظر الموجه (ينظرون إليك)، وأما في المشهد الثاني: فتبدأ في النزول من الأعلى إلى الأسفل، من الكل إلى الجزء، من التركيب إلى التحليل، من المُسبِّب إلى السَّببِ من النظرة، نَظرةُ الإنسان غير السوي (نظر المغشي عليه)- لا من المرض، ولا من أي عمل مؤثر من العوامل التي يمكن أن تزول بعد فترة من الزمن - إلى ما وراء النظرة ، إلى ذكر الموت (من الموت). إذاً فهذه الغَشية وحيدة وفريدة من نوعها في قوة التأثير، لأنها حدثت من جراء سكرات الموت التي تفقد الإنسان التصرف في حواسه، ومنها حاسة البصر التي تشخص في اتجاه واحد لا تتحرك.

إذاً فقد جمع هذان المشهدان بين حدثين، أحدهما قولي والآخر فعلي في حالة واحدة مشتركة بينهما، مُبيِّنة في ذلك مفعول الكلمة في النفوس ودورها الفعال في حياة الناس، إذ أنهم بمجرد أن سمعوا ذكر القتال تغيرت ملامحهم فانطبعت في نظراتهم الشاخصة التي حاكت نظرة المحتضر الذي يعاني من سكرات الموت. لقد أشارت هذه الصورة المركبة تركيبا لفظيا إلى نوع من التركيب النفسي الذي يختلج نفوس بعض الناس المطبوع على قلوبهم، فهم داخليا، لا يؤمنون

(1) الكشاف - المصدر السابق - م 3 - ج 4 - ص 535

بما يسمعون، وخارجيا يحاولون إبداء خلاف ما يكنون، وهذا التركيب النفسي ينم عن إزدواجية الشخصية، كشفته الآية الكريمة في رسمها لمعالم نظراتهم التائهة الحائرة فانزاح بذلك القناع الخارجي المزيف الذي يخفي بداخله عداء هؤلاء المنافقين نحو حقيقة التوحيد. ومما تقدم نستنتج أن التركيب في هذه الصورة التشبيهية مزجي بالرغم من وجود العناصر المتقابلة، مثل النظر المتكرر في طرفيها، ومثل القتال الذي يقابل الموت بحكم كونه يؤدي إليها، إلا أن هذا التقابل يؤخذ جملة ويذوب داخل الإطار العام لمعنى الصورة التشبيهية.

وإذا كان التركيب المزجي في هذا المثال واضحا شكلا ومضمونا لاقتراب الطرفين المشبهين ببعضهما في اللفظ وابتعادهما معنى ودلالة، الأمر الذي جعل تخريج هذه الصورة بيِّنا وسهلا غير أن هذا الأمر يصعب معنا في الجانب الشكلي في المثال الثالث والأخير.

المثال الثالث: لقد اعتدنا أن يكون الطرفان المتقابلان مذكورين ومتقابلين من بعضهما حسبما تقتضيه القواعد والأسس النظرية للتشبيه، ولكن هذا المثال يحتوي على صورة تشبيهية تختلف عما ألفناه من أنماط وأفعال تشبيهية لهذه الصورة الرابعة.

وتأتي هذه الصورة على هذا النمط: بأن يفصل بين الطرفين بكلام يجعل الطرف الثاني ينفرد بوحدة تصوُّرٍ يمكننا الاستغناء بها كوحدة مستقلة، وخير مثال لهذا النوع قوله تعالى: [[أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت]](1) إذا نظرنا إلى هذه الآية منفصلة عما سبقها من الآيات القرآنية لَمَا وجدنا فيها من الناحية الشكلية ما يدل على أن هناك عملية تشبيهية، لأن الطرف المشبه محذوف، وكذلك تنعدم فيها أي أداة من أدوات التشبيه، وذلك لكون الآية تخاطب المسلمين عن طريق الإستفهام المتبوع بما يكرهون والذي يستوجب جوابا بالنفي لسبب معرفتهم لنتائج العمل الذي يجب أن لا يعملوه. وهذا النوع من الطرح يتطلب طرح تساؤل لماذا هذا السؤال المعروف جوابه؟ والجواب عن هذا التساؤل يكمن في البحث عن الطرف الغائب، والذي يحتم علينا الرجوع إلى ما قبل الآية حتى ندرك العلاقة بين هذا الطرح وبين ما هو مطروح قبله؛ وفي هذا الصدد نجد أن السياق القرآني قبل هذه الآية مباشرة يتكلم عن النفقة في سبيل الله، وذلك في صورة تشبيهية: [[ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم...إلخ]](2). وإذا حاولنا أن نربط معنى هذه الآية بما بعدها لما وجدنا

---

(1)البقرة آية 265

(2)البقرة آية 264

علاقة واضحة تجمع بينهما على حد تصورنا،لأن النفقة في سبيل الله شئ محبب ومرغب فيه، وهذا يحتم علينا الرجوع إلى الآية التي قبل هذه، والتي نجدها تتكلم عن الصدقة التي تُحبط بالمن والأذى، وعن النفقة غير المقبولة التي تكون رياء أمام الناس ولا تكون خالصة لوجه الله. وهنا يمكننا أن نجد العلاقة التي تجمع بين مجموع الأعمال التي قام بها ذلك الرجل ونتائجها السلبية وبين أفعال المتصدق ونتائج صدقته السلبية، ويتبعها في ذلك عمل المرائي ونتائج أعماله الخاسرة. وهذا النوع من الاستنتاج بين طرح وآخر عن طريق السياق يمكننا أخذه على وجه التشبيه الضمني، الذي من علاماته عند علماء البلاغة أن تكون الأداة محذوفة، والسياق هو الذي يحدد علاقة الطرفين كما سبق أن بينا في الجانب النظري، كما يمكننا أخذه على وجه التشبيه العادي الذي تضمر فيه الأداة ووجه الشبه أي ما يسمى بالتشبيه (البليغ)، على اعتبار أن الطرف الأول ـ رغم بعده عن الطرف الثاني ـ فهو يتعلق به معنى ونتيجة.

وعلى أي وجه نأخذ هذا المثال فهو لا يخرجه عن دائرة الصورة الرابعة المركبة التي نحن بصدد الكلام عنها. وإذا بحثنا عن التركيب المزجي في هذه الصورة التشبيهية لالتمسناه في ترابط عدة صور في الطرف الواحد. فمثلا لو أخذنا الطرف المتمثل في قوله تعالى: [[يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شئ مما كسبوا]](1). لوجدنا عناصر هذه الصورة مسترسلة في طرح قضية واحدة تريد أن تؤكدها بعدة مشاهد.

المشهد الأول: يتمثل في أناس يتصدقون ثم يتبعون صدقاتهم بالكلام وبالعمل الذي يبطل هذه الصدقات. وهذا المشهد يرتبط بالمشهد الثاني المتمثل في إنسان يبادر دوما إلى الإنفاق، يريد به وجه العباد، لأنه في داخله لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر. وهذا المشهد بدوره يتعلق بالمشهد الذي يليه وهو طرف منه والمتمثل في الصفوان الذي وقعت عليه طبقة من التراب ثم يسقط عليها المطر الغزير فيمسح هذا التراب من فوق الحجر. ودليل هذا الترابط المعنوي قوله تعالى: (لا يقدرون على شئ مما كسبوا)، وهو نتيجة لما تقدم لأن الخيبة والخسران هي نتائج فرعية مشتركة في تلك المشاهد التي ذكرت.

وأما التركيب في الطرف الثاني فيتكون هوالآخر من مشهدين؛ الأول: منظر عام للجنة الوارفة

---

(1) البقرة آية 263

الظلال بما فيها من أشجار وأنهار وجميع الثمرات، وبجانبها رجل قوي البنية ما زال في ربيع شبابه. وأما المشهد الثاني: فيتمثل في منظر آخر لنفس الجنة ونفس الشخص ولكن بشكل مغاير إذ يكون منظر الجنة بعد أن هبت عليها رياح الهلاك فالتهبت واحترقت عن آخرها. ويكون منظر صاحبها بعد أن هبت عليه رياح الشيخوخة والكبر وبجانبه أطفال صغار ضعفاء لا حول لهم ولا قوة لإعادة زرع هذه الجنة بعد احتراقها وهلاكها. ثم بعد هذا كله تلتحم مشاهد الطرف الأول بمشاهد الطرف الثاني في لوحة تركيبية، يبرزها مشهد بصري واحد، تزدوج فيه الحركة بالثبات:

حركة الفعل، فعل الصدقة والإنفاق، وحركة الحياة المتمثلة في نماء أشجار الجنة ونخيلها، وجريان أنهارها، وكذا في هبوب الرياح العاصفة التي تسببت في توقف الجانب الحركي في الصورة؛ بسبب عصفها لكل ما هو حي أخضرداخل الجنة. تضاف إلى هذا حركة قوة وفعالية هذا الرجل في خدمة جنته في فترة شبابه. هذا عن الجانب الحركي، وأما عن الجانب البصري الثابت في الصورة، فيتمثل في صورة الشيخ العجوز الذي توقف عن العمل، وفي صورة الخراب الذي حدث لجنته؛ إذ أصبحت ميتة لا حركة أو حيوية تذكر داخل أشجارها ونباتاتها وثمارها وأنهارها. وهذه الإزدواجية تؤدي دورا كبيرا في تحريك النفس الإنسانية؛ لاعتمادها على التشخيص المتضمن لأساليب الترغيب والترهيب: {{وهكذا يقوم المشهد الحي الشاخص بما فيه أول الأمر من رفي ورقة ومتعة، وما فيه من نضارة وروح وجمال، ثم بما يعصف به عصفا من إعصار فيه نار... يقوم هذا المشهد العجيب بالإيحاء الشعوري الرعيب الذي لا يدع مجالا للتردد في الاختيار قبل أن تذهب فرصة الاختيار وقبل أن يصيب الجنة الوارفة الظليلة المثمرة إعصار فيه نار! }}(1).

وإذا عدنا إلى سر التركيب المزجي في هذا المثال، لوجدناه في الطرف الأول متمثلا - كما سبق أن بينا- في المعنى دون اللفظ، لأن العناصر المذكورة يمكن فصلها عن بعضها البعض، فمثلا نفصل الصدقة المتبوعة بالمن والأذى عن غيرها ، ويمكننا أن نقابلها بالطرف الثاني، وهذا فعلا ما ذهب إليه بعض المفسرين إلى القول: {{...والمعنى تمثيل حال من يفعل الحسنة ويضم إليها ما يحبطها كرياء وإيذاء في الحسرة والأسف إذا كان يوم القيامة واشتد حاجته إليهاوجدها محبطة بحال من هذا شأنه وأشبههم به...}}(2). كما يمكن فصل المنفق المرائي ومقابلته بالطرف الثاني، وهذا ما ذهب إليه أحد المفسرين بقوله: {{هذا مثل ضرب الله للمرائين بالأعمال

---

(1) في ظلال القرآن - المصدر السابق - م 1 - ج 3 - ص 310

(2) تفسير البيضاوي - المصدر السابق - ص 61

يبطلها يوم القيامة أحوج ما كان إليها كمثل رجل كانت له جنة وله أطفال لا ينفعونه فكبروا وأصاب الجنة إعصار...}}(1).

وأما عن سر هذا التركيب المزجي في الطرف الثاني فيكمن في اللفظ والمعنى معا، إذ نجد أن ألفاظه تساهم كلها دون استثناء في بناء المشهد المركب؛ فمثلا لو أخذنا كل لفظة أو عبارة على حدة، لما استقام معنا المعنى إلا بعد إتمام بقية الألفاظ والعبارات؛ فمثلا لو وقفنا عند عبارة (أيود أحدكم) لتساءلنا ماذا ؟ ثم لو أضفنا لها عبارة (أن تكون له جنة) لكان جوابنا على العموم (نعم)، وإذا أضفنا إلى هذه الجنة (من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار فيها من كل الثمرات) لما تم المعنى الذي رمى إليه السؤال. وهكذا الأمر مع بقية الألفاظ والجمل حتى ينتهي هذا التركيب عند آخر وصف لهذه الجنة (فاحترقت)، وهنا يكتمل المعنى وتكتمل الصورة المطلوبة الشاخصة المعبرة عن الهدف الدقيق من وراء السؤال المطروح، وهذا ما يسميه علماء البلاغة بالتشبيه التمثيلي.

إن هذه الوحدة المتكاملة في الأطراف المركبة لا يمكن الاستغناء عنها حتى في التشبيهات المتقابلة، ولكن الفارق يكمن في إمكانية مقابلة عناصر الطرف الأول بما يقابلها في الطرف الثاني كما سبق تبيينه في الجانب النظري والتطبيقي. وإذا بحثنا عن هذا النوع من التشبيهات المركبة المتقابلة في هذه الصورة الرابعة من تشبيهات القرآن الكريم لما وجدناه مجسدا بصورة واضحة، لأننا لو حاولنا أن نلتمس هذا النوع في المثال الموالي من قوله تعالى: [[إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا]](2) لوجدنا أن التقابل يمكن التماسه في عنصر واحد فقط بشكل واضح وهو عنصر الأكل في الطرفين، لأن عملية الأكل في الطرف الأول ليست مقصودة لذاتها، بل المقصود بها هو الاستهلاك بشكل عام، والذي يؤدي إلى الأكل بطريقة أوبأخرى. بينما عملية الأكل في الطرف الثاني هي المقصودة بعينها، والعلاقة بين العمليتين متعددة الجوانب، ومن جملة هذه الجوانب استنفاد ما هو موجود من المادتين المخصصتين للأكل. وإذا أردنا أن نقابل بين عنصري الطرفين المتبقيين من (أموال اليتامى) و (النار) لما وجدنا علاقة بينهما لاختلاف طبيعة مادتيهما، فشتان ما بين المال والنار. ولهذا السبب وغيره فضلنا أن يكون هذا المثل وأ شباهه داخل إطار التشبيهات المركبة

---

(1) الجامع لأحكام القرآن - المصدر السابق - م 2 ج 3 - ص 213

(2) النساء آية 10

تركيبا مزجيا لأننا إذا اكتفينا بذكر(إن الذين يأكلون) دون أن نضيف إليها العناصر المتبقية لما تم المعنى، وهكذا لو أضفنا لفظة (أموال) وتركنا الباقي لمااستقام المعنى. وينطبق هذا الأمر مع باقي ألفاظ الطرف الأول. ونفس الوضع ينطبق مع الطرف الثاني؛ إذ لو أخذنا لفظة (النار) وهي آخر عنصر ذكر في هذا الطرف لما استقام المعنى، لأن السؤال الذي يطرح هو ماذا؟ بعد (إنما يأكلون في بطونهم) فتضاف إليها (النار) وبها يتم المعنى العام من هذا الطرف الثاني فيكون بهذا الشكل (إنما يأكلون في بطونهم نارا) وعليه تكون الهيأة الأخيرة للصورة التشبيهية الرابعة المركبة تركيبا مزجيا وبها أيضا ينتهي كلامنا عن النوع الثاني لننتقل إلى معالجة أنماط النوع الثالث من هذه الصورة الرابعة.

النوع الثالث: القلب أو العكس:

لم نعثر إثر تتبعنا لنماذج هذه الصورة - سواء من خلال تطبيقنا للقاعدة البلاغية المتعلقة بعملية القلب أو العكس، أو من خلال تتبعنا لشروح المفسرين المختلفة لهذه النماذج - إلا على حالة تشبيهية واحدة تقدم فيها المشبه به عن المشبه، وذلك في آيتين اثنتين هما: [[أرأيت من اتخذ إلهه هواه]](1) و [[أفرأيت من اتخذ إلهه هواه]](2). وقبل أن نناقش عملية القلب أو العكس نتساءل: هل أن في هاتين الآيتين صورة تشبيهية أولا وقبل كل شيء ؟. تكاد تجمع آراء المفسرين التي في حوزتنا على وجود صورة تشبيهية في التعبير القرآني وذلك بتشبيه اتباع الهوى بالعبادة، فكأن الذي يتبع هواه يعبده كما يعبد الرجل إلهه (+). غير أن هناك من يُجوز إخراج الكلام في هاتين الآيتين مخرج التشبيه والحقيقة معا. وهذا ما يعبر عنه صاحب التحرير بقوله: {{و (إلهه) يجوز أن يكون أطلق على ما يلازم طاعته حتى كأنه معبود فيكون هذا الإطلاق بطريقة التشبيه البليغ، أي اتخذ هواه كإله لا يخالف له أمرا ويجوز أن يبقى (إلهه) على الحقيقة ويكون (هواه) بمعنى مهويه أي عبدا إلهاً لأنه يحب أن يعبده، أي الذين اتخذوا الأصنام آلهة لا يقلعون عن عبادتها لأنهم أحبوها، أي ألفوها وتعلقت قلوبهم بعبادتها}}(3).

(1) الفرقان الآية 43

(2) الجاثية آية 22

(+) ينظر الكشاف - المصدر السابق - م 3 - ج 25 - ص 248 -+ روح المعاني - المصدر السابق - م 9 - ج 25 - ص 152 - + صفوة التفاسير - المصدر السابق - م 3 - ص 186

(3) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج25 - ص 358

وإذا سلمنا مع هذه الآراء بوجود صورة مكررة في الآيتين، فهذا يدفعنا إلى إقرار عملية التقديم والتأخير الموجودة في الآيتين. ولكن هل هذا التقديم والتأخير يكفي لأن يجعل الصورة مقلوبة أو معكوسة؟ إذا بحثنا عن طبيعة عناصر الصورة التشبيهية لوجدنا (الإله) أعظم قدسية من (الهوى) ؛أي أنه أعلى مرتبة في القوة. وتصدره للصورة التشبيهية يعني أنه مشبه، أي أنه أقل درجة من (الهوى) في نظر القاعدة البلاغية. وأن (الهوى) رغم كونه أقل درجة فإنه مشبه به، وعلى هذا الأساس تكون عملية القلب أو العكس واقعة من الناحية الشكلية. وأما من ناحية المضمون فكلام المفسرين لا يؤكد ذلك، فالإله لم يشبه بالهوى، وإنما العكس هو الصحيح على حد قول أحدهم: {{أي هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعو إليه فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه}}(1).

ومما تقدم نستطيع القول بأن عملية القلب أو العكس في هذه الصورة التشبيهية تجسدت شكلا ولم تتحقق مضمونا وبهذا تكون عملية التقديم والتأخير لا تعني مطلقا تشبيه الأعلى بالأدنى قلبا أو عكسا. كما تعارف عليه - على سبيل الغلو والمبالغة.

بهذا القدر اليسير من التحليل ننهي حديثنا عن النوع الثالث لننتقل إلى النوع الرابع والأخير لهذه الصورة الرابعة.

النوع الرابع: الجانب الدلالي للألفاظ:

يتشابه الكلام حول دلالات ألفاظ هذه الصورة مع غيره من الصور السابقة، وذلك بحكم الحتمية الطبيعية لكل لفظة، فلا يمكن أن تخلو أي لفظة من معنى دلالي تؤديه، ولهذا فلا نرتقب جِدَّة من مناقشتنا لهذا النوع الأخير الذي تبرز من خلاله الصورةا لرابعة. إلا أن هذا لا يمنع من الإشارة إلى أهم السمات البارزة في هذا الجانب الدلالي لألفاظ هذه الصورة من خلال تتبعنا للدلالتين الحسية والمعنوية.

وتجنبا للتكرار - سواء في طرح إشكالية تنوع الجانب الدلالي بين ألفاظ عناصر الصورة الواحدة، أو في إعادة سرد النماذج التي سبق التطرق إليها أثناء تتبعنا للأنواع الثلاثة السابقة - سنحاول الوقوف عند أهم الدلالات شيوعا في نماذج هذه الصورة الرابعة انطلاقا من العموم إلى الخصوص: من الدلالة المتجانسة في ألفاظ الصورة الواحدة إلى تنوعها في الطرفين.

المبحث الأول: الدلالة الحسية:

(1) الكشاف - المصدر السابق - ج 25 - ص 248

إن أهم ما ميز ألفاظ تشبيهات هذه الصورة الرابعة هو الجانب الحسي بصفة عامة، سواء انفرد بعناصر الصورة الواحدة، وهذا هو الأعم، أو اكتفى بطرف دون آخر. ويغلب الحس البصري على معظم النماذج التي بين أيدينا، وبخاصة الثابت منه؛ فالصورة البصرية الثابتة تبرز جليا في النماذج المفردة المطلقة، وعلى وجه التخصيص في النماذج التي تحمل ثنائية التقرير والتصوير كما سبق أن بينا. وللتمثيل لذلك نأخذ قوله تعالى: [[الذي جعل لكم الأرض فراشا]](1). لقد اعتمدت هذه الصورة التشبيهية صورتين محسوستين مرئيتين؛ الأولى: هي (الأرض) والثانية هي (الفراش) - على اعتبار أنه الفراش المعروف، لا بمعنى المفروش على صيغة المفعولية - وأما الثبات في هاتين الصورتين فيكمن في الهيئة الأخيرة التي استقرت عليها كل من الأرض والفراش؛ فالأرض متحركة ولكن الجانب المأخوذ لها في هذه الصورة هو جانب الثبات والاستقرار. وكذلك الفراش بالرغم من كونه حدث من جراء فعل فاعل إلا أنه استقر وثبت على هيأته الأخيرة. وبهذا الشكل يتكرر معنا نفس الحدث مع الصور التي يجتمع فيها عنصر الأرض مع (المهد)(+)، ومع (البساط)(+). ولا تختلف هذه الصور البصرية عن مثيلاتها في مثل اجتماع عناصر كل من (الجبال والأوتاد) في قوله تعالى: [[والجبال أوتادا]](2). وكذا في اجتماع السماء مع البناء في قوله تعالى: [[والسماء بناء]](3) ومثله في اجتماع(الشمس مع السراج) في قوله تعالى: [[والشمس سراجا]](4) ولا تنحصر الصورة البصرية الثابتة في النماذج المفردة المطلقة فحسب، بل تتعداها إلى النماذج المفردة المقيدة التي نأخذ منها على سبيل المثال قوله تعالى في وصف طبيعة السماء: [[وجعلنا السماء سقفا محفوظا]](5). فصورتا الـ(السماء والسقف) تدركان بواسطة الحس البصري الثابت، وكذا الأمر في صيغة الحفظ (محفوظا) فهي الأخرى قد أكدت ثبات كل من السماء، والسقف، سواء دلت على الحفظ، أي أن السماء والسقف يحفظان ما دونهما، أو أنها دلت على كونهما محفوظتين من التصدع والزوال، وكل يؤدي معنى

(1) البقرة آية 21

(+) (الذي جعل لكم الأرض مهادا)طه آية 52 ـ الزخرف آية 9

(+) نوح آية 19

(2) النبأ آية 6

(3) غافر آية 64 ـ البقرة آية 21

(4) نوح آية 16

(5) الأنبياء آية 32

الحركة، وهذا ما نستشفه من لفظة (منيرا) التي قيّدت لفظة (السراج) المقابلة لشخص النبي صلى الله عليه وسلم، في قوله تعالى: [[يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا]](1)، فالإنارة رغم كونها تحمل صورة بصرية، إلا أنها في نفس الوقت تدل على الحركة: حركة أشعة النور التي تنبعث من السراج. ونفس الأمر ينطبق على لفظة (منبثا) التي قيّدت لفظة (الهباء) المقابلة للفظة (الجبال) من قوله تعالى: [[وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا]](2). نلمس الحركة في هذه الصورة التشبيهية البصرية في لفظتين: الأولى: تتمثل في فعل (بست) الذي نرجح أن يكون بمعنى(فتت أو حطمت) كما جاء في التفسير (+). وهذا هو المعنى المناسب في نظرنا لطبيعة الجبال، لأن التفتت أو التحطم عادة ما يكون للأشياء الصلبة المتماسكة الأجزاء. وعليه تكون الحركة الفعلية واضحة ومكررة مرتين في مقدمة الصورة، ثم تليها النتيجة النهائية التي استقرت عليها الصورة التشبيهية التي وصفت حالة الجبال بعد التفتت وهي هباء منتشرا هنا وهناك. وهذا ما يتراءى للناظر بعد زوال الجبال، وهي صورة مرئية بجزئياتها (هباء) حركتها الصفة التي تلتها (منبثا) بمعنى (متفرقا) والذي يقوي الجانب الحركي في هذه الصفة الطبيعية التي نراها لجزئيات الغبار التي تلوح في خيوط شعاع الشمس.(+)

وقد تعم الحركةُ الصورةَ التشبيهية البصرية بطرفيها وذلك ما تبينه عناصر الآية التشبيهية من قوله تعالى في وصف حركة الجبال: [[وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب]](3). لقد تجاوزت الحس البصري ألفاظ الطرف الأول (وهي تمر) أي (الجبال) إلى ما وراء الرؤية العادية؛ لأن البصر العادي لا يرى حركة الجبال، بل يرآها ثابتة. إذاً فالحركة في هذا الطرف تكمن خلف ستار الثبات والسكون الذي يعرف على صورة الجبال في الرؤية العامة لها. وأما الطرف الثاني فهو متحرك بحكم طبيعة السحاب المشاهد بالحس البصري. ومن أمثلة هذه الصورة أيضا نأخذ قوله تعالى في وصف طريقة شرب أهل النار: [[فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم]](4). تظهر الحركة في طرفي هذه الصورة التشبيهية في حركة فعل (الشرب) شرب

---

(1) الأحزاب آية 46

(2) الواقعة آية 5 ـ 6

(+) (أي فتت فتا)مجمع البيان ـ المصدر السابق ـ م 6 ـ ج 27 ـ ص 112

(+) (أي غبارا متفرقا في شعاع الشمس إذا دخل من الكوة)مجمع البيان ـ المصدر نفسه ـ م 6 ـ ج 27 ـ ص 113

(3) النمل آية 9

(4) الواقعة آية 57 ـ 58

أهل النار المقابل لشرب الإبل العطاش، وهي يمكن أن تؤخذ في صورة بصرية واضحة المعالم.

وسيطرة الصورة البصرية على الدلالات الحسية لعناصر هذه الصورة الرابعة لا يمنع أن نلتمس مثالا واحدا يكون فيه الحس السمعي هو البارز على عناصره، ويمكن أن نجد ذلك متمثلا في قوله تعالى: [[ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير]](1). يضم الطرف الأول صوتا دعويا يتسم بطابع الشر، وهذا الصوت قد يكون مجهورا فيسمع من قبل الناس، أويكون مستترا خفيا فيطلع الله تعالى عليه. وكذلك الأمر مع الدعاء الثاني الذي يتسم بطابع الخير.إذاً فحاسة السمع هي الأداة التي تستقبل صوت الدعاء وتميز بين خيره وشره.

كل هذه النماذج التي أوردناها تمثل الطابع الحسي الذي ميز عناصر الصور التشبيهية بصفة عامة. وأما عن النماذج التي يزدوج فيها الجانب الحسي مع الجانب المعنوي في عناصر الصورة التشبيهية الواحدة فسنتناولها أثناء معالجتنا للجانب الدلالي المعنوي.

النوع الثاني: الدلالة المعنوية:

لم نعثر من خلال النماذج التي بين أيدينا على أي صورة تشبيهية يستقل فيها الجانب المعنوي في جميع عناصرها، ولكن الشئ الذي وقفنا عليه هو الإزدواجية التي أشرنا إليها قبل قليل، والتي تتعلق بتزاوج الدلالتين معا، المعنوية والحسية في عناصر الصورة الواحدة. وحتى هذه النماذج فإنها قليلة بعكس ما لاحظناه في نماذج الصور السابقة. ولعل هذه القلة تعود إلى تميز هذه الصورة الرابعة بطابع الثنائية (التقريرية والتصويرية) كما سبق توضيحه في النماذج السابقة. ولتوضيح هذا الصنف من الصور التشبيهية نكتفي بعرض مثالين على سبيل التمثيل لا الحصر. وأول مثال نأخذه قوله تعالى في تبيين حقيقة الحياة: [[وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور]](2). تمثل (الحياة الدنيا) الجانب المعنوي في هذه الصورة بالرغم من كونها تضم الأشياء المادية والمعنوية معا، إلا أن هذه الأخيرة هي التي غلبت على حقيقتها، بينما يمثل (المتاع) الجانب الحسي في هذه الصورة، فهو الشئ المادي الذي يستعين به الإنسان في حياته اليومية. وأما صفة (الغرور) أو الغرر، فهي التي تقيد المتاع الدنيوي الزائل. ونفس الأمر يمكن تطبيقه على قوله تعالى: [[وما هذه الحياة الدنيا إلا لعب ولهو]](3) فالحياة سبق

---

(1) الإسراء، آية 11

(2) آل عمران آية 183

(3) الأنعام آية 33

تعريفها وهي الجانب المعنوي، بينما تمثل لفظتا (اللهو واللعب)ـ وهما فعلان حركيان يقوم بهما الإنسان ـ الجانب الحسي في هذه الصورة التشبيهية.

بهذا القدر اليسير من الحديث حول المبحث الثاني ـ للدلالتين الحسية والمعنوية للصورة الرابعة ـ ننهي حديثنا حول الفصل الثالث من فصول هذا البحث لننتقل إلى الفصل الرابع والأخير منه بحول الله تعالى.

الفصل الرابع

ألفاظ التشبيه في تشبيهات القرآن الكريم

ألفاظ التشبيه في تشبيهات القرآن الكريم

إن المقصود من هذه الألفاظ ما كان في صيغة المشبه به أي الألفاظ المشبه بها جئ بها لتوضيح الصورة وتقريبها إلى الإدراك بصفتها وسيلة من وسائل الإيضاح، وقد خصصنا هذا الفصل لألفاظ التشبيه التصويري، واستثنينا بذلك الألفاظ الأخرى المتعلقة بالتشابه بأنواعه المختلفة سلبا أو إيجابا، الذي سبق تناوله في الفصل الأول من هذا البحث وذلك لأن ألفاظه في معظمها مكررة لفظا أحيانا، ومعنى أحيانا أخرى، وأولينا الإهتمام لألفاظ التشبيه التصويري لتنوعها وقوة تصويرها لحالات المشبه المختلفة في مجمل الصور التشبيهية التي تناولناها في الفصل السابق، وسنحاول معالجتها في هذا الفصل ضمن محاور عامة هي:

أولا: الألفاظ المتعلقة بأعضاء الإنسان وأمراضه وجوانب أخرى في حياته:

والبدء بهذا النوع من الألفاظ يرجع إلى كونه يرتبط بالنفس البشرية التي حثنا الله سبحانه وتعالى على التمعن فيها لنعرف قدرته في الخلق، يقول تعالى: [[وفي أنفسكم أفلا تبصرون]](1). إذاً من المنطق أن ننطلق أولا وقبل كل شئ في معرفة الألفاظ التشبيهية التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بنفس الإنسان، سواء كانت جسدا ماديا أو سلوكا أخلاقيا كان أم حضريا، ولهذا فقد جزأنا الكلام حول هذا المحور العام إلى مبحثين، نتناول في الأول الألفاظ التي تعلقت بأعضاء الإنسان ذاته وأمراضه، ونتناول في الثاني الألفاظ التي تتعلق بالجوانب الحضرية في حياة الإنسان.

1 ـ الألفاظ المتعلقة بأعضاء الإنسان وأمراضه:

أ ـ ما يتعلق بالأعضاء: لقد منح الله تعالى لهذا الكائن الحي ميزات جسمية وعقلية تجعله يوظف حواسه وأعضاءه توظيفا يميزه عن كثير من المخلوقات الأخرى، فإذا لم يحسن توظيفها فإنه ينحدر إلى تلك المخلوقات، بل يكون أسوأ حالا منها، وإذا ما أحسن توظيفها فإنه يكون أرقى مخلوقات الله على الإطلاق، والقرآن الكريم قد عالج هاتين الحالتين في ألفاظه التشبيهية، فصوّر الحالة الأولى عدة مرات فمرة يستخدم حاسّتيّ السمع والنطق معا في لفظتين اثنتين، لفظة (الصمم) و (البكم) في قوله تعالى واصفا الضالين عن الهدى: [[...صم وبكم في الظلمات]](2) وينوع مرة أخرى فيجمع بين حاستي (السمع والبصر) في تشخيص الفريق

(1) الذاريات ـ آية 21

(2) الأنعام ـ آية39

الضال فيصف حالته بحالتي: [[الأعمى والأصم]](1)، وأما في المرة الثالثة فإنه يجمع بين الحواس الثلاثة السابقة (السمع والنطق والبصر) في آية واحدة في ثلاث ألفاظ متتالية [[صم بكم عمي]](2). فالمعنى كما جاء في أحد التفاسير: {{...كل واحد منهم كالأصم الأبكم الأعمى}}(3).

والجدير بالملاحظة فيما تقدم: هو أن القرآن الكريم إذ يذم هذه الحالات الخلقية المرضية لا يذمها لذاتها، بل يذم من لم تكن به وفعل فِعل من ابتلاه الله تعالى بها، لأن هذه الحالات المرضية في حد ذاتها ذميمة بالنسبة لأي إنسان، ولكن الأشد منها ذمامة هو أن تكون تصورات الإنسان السوي الصحيح المعافى مماثلة لمن أصيب بهذه العاهات الفسيولوجية المريضة التي تحمل شحنة معينة ، اعتمدها القرآن الكريم في تقبيح صورة عباده الضالين وتشنيعها مهما كانت سلامة حواسهم الفسيولوجية وعافيتها

ويستخدم القرآن الكريم مرة أخرى هذه الحواس نفسها ألفاظا تشبيهية عندما تكون سليمة معافاة؛ فنجده بعدما يذكر مَثلاً للفريق الضال من قوله تعالى: [[مثل الفريقين كالأعمى والأصم]](4). يمثل للفريق المهتدي: [[...والبصير والسميع]](5). إذاً فحاستا السمع والبصر استخدمتا هنا في وضع يختلف عن وضعهما السابق، لأن المشبه هنا اختلف عن المشبه في الجزء السابق من الآية؛ فحالة المشبه تشبه حالة من كان سليم البصر سليم السمع: {{فهو في هدى ويقين من مدركاته}}(6).

وإلى جانب هذه الحواس الثلاثة التي وظفها القرآن الكريم في ألفاظه التشبيهية، هناك حواس أخرى وُظِّفت في نفس الغرض، منها حاسة النطق التي تعد أكبر دليل يفرق بين الإنسان والحيوان، كما أنها تعد أعظم برهان حقيقي يُستندُ إليه في التفريق بين ما هو خيالي وبين ما هو حقيقي. ولذا فالقرآن الكريم عندما أراد أن يبرهن على تحقق ما أخبر عنه استخدم هذه الحاسة في قوله تعالى: [[إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون]](7)، لأنها: {{شيئ معلوم

---

(1) هود آية 24

(2) البقرة آية 17

(3) التحرير والتنوير - ج 1- ص 313

(4)(5) هود 24

(6) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 12 - ص 41

(7) الذاريات آية23

كالضرورة لامتراء في وقوعه وهو كون المخاطبين ينطقون}}(1)

وإذا عدنا إلى حاسة البصر بصفتها حاسة مشتركة بين كثير ممن خلق الله، فإننا نجدها تكاد تتميز بنفس الصفات والخصائص؛ ومن جملة هذه الخصائص خاصية الحركة، أو كما أطلق عليها القرآن الكريم صفة (اللّمح)، فهذه الاهتزازة الخفيفة لا يدركها إلا الإنسان، فهو يراها ويعيشها ويتمثلها دائما وأبدا للدلالة على الخفة والسرعة، ولهذا الغرض وظفها القرآن الكريم للدلالة على أقصر حركة تستغرق زمناً قصيراً وقد ورد هذا في آيتين اثنتين من قوله تعالى: [[وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصرأو هو أقرب]](2). وقوله: [[وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر]](3).

ومن الحواس الأخرى التي وُظّفت في تشبيهات القرآن الكريم حاستا (اليد و الرجل) وهما عضوان أساسيان في الجانب الحركي للإنسان؛ فاليد استخدمت في تجربة بسيطة يمكننا معايشتها بسهولة، فباستطاعة أي إنسان أن يبسط كفيه إلى الماء يريد أن يشرب دون أن يجوفهما فإنه لا يستطيع أن يوصل الماء إلى فمه، وهذه التجربة تعد مثالا حيا للمحال من الطلب جمعها القرآن الكريم في آية واحدة من قوله تعالى: [[..كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه]](4).

وإذا انتقلنا إلى حاسة القدم فنجدها قد استخدمت هي الأخرى في تجربة، ولكنها ليست بالسهلة، إذ يصعب على الإنسان معايشتها من أجل التجربة فقط؛ فمن يغامر بنفسه ويضع قدميه في مكان يعرف أنه هارٍ وأنه سيسقط بعد ثبوته من فوقه ؟ ويكون هذا طبعا للإنسان الذي يعرف حقيقة المكان الذي سيقف عليه، بينما الأمر يختلف مع الإنسان الذي يجهل حقيقته، فسيكون ولا شك سقوطه مفاجئا وخطيرا، ولعل هذه التجربة الخطيرة هي التي وظفها القرآن الكريم في الصورة التشبيهية من قوله تعالى: [[ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها]](5). إذاً فلفظة القدم هنا في هذه الصورة التشبيهية تعد محوراً رئيسياً انبنى عليه المعنى العام للطرف الثاني بعد وقوع فعل الزلل الذي تترتب عليه نتيجة الحدث، وهي العلاقة التي تربط بينَ الطرفين المشبهين.

---

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج26 - ص356

(2) النحل - آية 77

(3) القمر آية50

(4) الرعد آية 15

(5) النحل آية 94

ب - ما يتعلق بالمرض: إن الإنسان في هذه الحياة معرض لأمراض كثيرة؛ ومن جملة هذه الأمراض أن يصاب الإنسان بمس من الشيطان، أو ما يسمى بـ(الصرع)، وعلامة المصروع تبرز من خلال عملية الضرب القوية التي يتعرض إليها دون أن يشعر .أو يتألم لذلك: {{ولهذا قد يحتاج في إبراء المصروع ودفع الجن عنه إلى الضرب، فيضرب ضربا كثيرا جدا، والضرب إنما يقع على الجني ولا يحس به المصروع، حتى يفيق المصروع ويخبر أنه لم يحس بشيء من ذلك..}}(1). إذاً فالإنسان في هذه الحالة غير طبيعي، وبالضرورة تكون جميع تصرفاته غير طبيعية، فهو لا يمتلك زمام أمره، ولهذا نجد القرآن الكريم عندما أراد أن يبين لنا حالة المتعاملين- بالربا - في الدنيا أوفي الآخرة مع احتمال الوجهين (+). استخدم لفظة (المس) التي تكون من الشيطان المصحوبة بعملية (الخبط) المؤثرة في حركة قيام الإنسان، فهذه الألفاظ المتناسقة مع بعضها في وصف حالة الإنسان المصروع قد أدت وصفا دقيقا لحالة الناس ؛ أكلة الربا في حرصهم على الدنيا ،وقد وردت هذه الألفاظ في آية واحدة في قوله تعالى: [[...كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس]](2).

إن هذا المرض (المس) يكون في حالة ما إذا كان دخول الجن في بدن الإنسان (+). ولكن المرض الأخطر من هذا هو أن ينقاد الإنسان لوسوسة الشيطان وغوايته، ويظن أنه غير مريض البتة، وهذا الشخص يصعب علاجه، لأن الشيطان يستهويه ويزين له أفعاله حتى يصير عبدا له، وإذا ما دعي من قبل منقذيه من هذا المرض الخبيث، توهم أنه صحيح وأنهم مخطئون في حقه . وهنا يقع في حيرة من أمره؛ فالشيطان من جهة، والآخرون المنقذون له من جهة أخرى، فيصاب بعد ذلك بمرض نفسي حاد صورته لنا الألفاظ التشبيهية المركبة في قوله تعالى: [[...كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى]](3).

تلك هي بعض الحالات المرضية التي قد تصيب الإنسان في صراعه مع الشيطان منذ الأزل

---

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية - جمع وترتيب عبد الرحمان بن القاسم - مكتبة المعارف الرباط - م 19 - ج 1 - ص 60

(+) (فالمعنى أن حرصهم ونشاطهم في معاملات الربا كقيام المجنون تشنيعا لجشعهم، قاله ابن عطية، ويجوز على هذا أن يكون المعنى تشبيه ما يعجب الناس من استقامة حالهم ووفرة مالهم، وقوة تجارتهم بما يظهر من حال الذي يتخبطه الشيطان حتى تخاله قويا سريع الحركة) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج1 - ص81 - 82

(2) البقرة آية 264

(+) (ولهذا ذكر الأشعري في مقالات أهل السنة والجماعة أنهم يقولون أن الجني يدخل في بدن المصروع) مجموع فتاوى ابن تيمية - المصدر السابق - م 19 ج 1 ص 12

(3) الأنعام آية 71

صورتها لنا الألفاظ التشبيهية القرآنية أحسن تصوير، تتفاعل معها النفس البشرية التي عاشت وتعيش مثل هذه الأزمات النفسية الحادة

بهذا القدر اليسير من الأمثلة نكتفي بالكلام عن الألفاظ التي تعلقت ببعض الحالات المرضية التي قد تصيب الإنسان في جسمه، لننتقل إلى تناول الألفاظ التي تتعلق ببعض الجوانب الأخرى في حياة الإنسان.

2 - جوانب أخرى في حياة الإنسان:

أ- الجانب الحضري في حياته: والقصد بالحضر الأصل المشتق لغة من فعل:{{ حضر يحضر حضورا وهي نقيض المغيب أو الغيبة}}(1). وأما من الناحية الإصطلاحية، فالقصد منها الجانب المادي الذي يمثل: {{ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة}}(2). وهذه الثمرة التي هي حصيلة نتاج مجتمع من المجتمعات تدخل في إطار ما يسمى: بالحضارة التي هي: {{صفة للانسان بوجه عام}}(3). والتي لا نستطيع أن ننسبها إلى أي مجتمع إنساني دون آخر: {{فسكان البادية والقبائل الرحل وحتى سكان المناطق المنعزلة لا يمكن بحال من الأحوال أن ننفي عنهم صفة الحضارة}}(4). من هذا المنطلق العام للفظة (الحضر) نحاول الوقوف عند بعض الألفاظ الحضرية التي وردت في تشبيهات القرآن الكريم، والتي تمثل الواقع الحضري الذي يعيشه الإنسان في بعض جوانب حياته اليومية الحضرية.

إن أول ما يقابلنا من هذه الألفاظ لفظة (البناء). يمثل البناء الجزء الهام في حياة الإنسان ، فهو الملجأ الذي يأوي إليه، والمحطة التي يستريح فيها من مشاق الدنيا ومتاعبها، وهو لا يقتصر على إنسان دون آخر بل هو شائع بين الناس، سواء كانوا حضرا أو بدوا، لأن حقيقته كما جاء في التفسير: {{...ما يُرفع سمكه على الأرض للوقاية سواء كان من حجر أومن أدم أو من شعر ...}}(5). إذاً فالبناء معروف لدى كافة الناس ومستعمل لديهم على اختلاف أجناسهم وطبائعهم وعاداتهم. ولهذا السبب وغيره يمكن تفسير استخدام القرآن الكريم للفظة (البناء) في وصفه لحقيقة السماء بالنسبة للدنيا ووظيفتها الأساسية، فيخبرنا عن طريق التشبيه بأن

---

(1) اللسان - المصدر السابق - مادة (حضر)ص 196

(2) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن - البوطي - دار الفكر دمشق - 1405 هـ -1985 م ط 2 ص 19

(3)الإنسان والحضارة في العصر الصناعي - فؤاد زكريا - مركز كتب الشرق الأوسط - ص 10 - 11

(4) دراسات الحضارة الإسلامية - أحمد إبراهيم الشريف - دار الفكر العربي ص 21

(5) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 1 - ص 332

السماء تقينا من الأضرار التي تنجم في هذا الكون المترامي الأطراف، فهي تشبه في وضيفتها هذه (البناء) الذي يقي الإنسان من أضرار العوامل الطبيعية القاسية، كما يمكن أن تشبه من الناحية الشكلية: فهي مرفوعة بغير عمد نراها تشبه القبة المضروبة حول الأرض، ويمكننا أن نلتمس هذا المعنى في آيتين اثنتين: الأولى: في قوله تعالى من سورة البقرة: [[الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء]](1)، والثانية: من سورة غافر في قوله تعالى : [[والله جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء]](2).

ومن الألفاظ الأخرى التي ذكرت في تشبيهات القرآن الكريم والمتعلقة بالبناء لفظة (البنيان) التي تعني كما جاء في اللسان: {{...الحائط}}(3)، وكذا لفظة (السقف) التي تعني (الغطاء الواقي للبيت) (+). فأما لفظة (البنيان) فقد وظفها القرآن الكريم لتكون الوجه المقابل للمسلمين في اتحادهم وتعاطفهم وتراحمهم [[كأنهم بنيان مرصوص]](4). وأما لفظة (السقف) فإنها وُظفت هي الأخرى في وصف السماء، كما وُظفت لفظة (البناء) في نفس الموضوع

وقد سبق توضيح علاقة السماء التشبيهية بالبناء في الشكل والمضمون. وأما (السقف) الذي هو جزء من البناء فيحاكي (السماء) من الناحية الشكلية أكثر في كون كل منهما يغطي حيزا معينا من الفضاء، كما يمتاز كل منهما بخاصية الوقاية التي سبق ذكرها، قال تعالى: [[وجعلنا السماء سقفا محفوظا]](5).

والبناء بحيطانه وسقفه قد يتعاظم ويتطاول كلما ازدادت المدنية تقدما وتطورا؛ فمن المباني الضخمة التي شهدها العرب قديما في جاهليتهم قصور كسرى وقيصر، وتعد عندهم حينذاك أطول وأعظم بنيان يضرب به المثل في الطول والمتانة والإحكام، قياسا بما يمتلكون من دور وخيام، ولعل هذا ما نلتمسه تفسيرا لاستخدام القرآن الكريم للفظة (القصر)(+) في

(1) البقرة آية 21

(2) غافر آية 64

(3) اللسان - المصدر السابق - مادة (بني)ص 94

(+) المصدر نفسه - مادة (سقف)ص 155

(4) الصف آية 4

(5) الأنبياء آية 32

(+) طبعا نرجح معنى البناء لهذه اللفظة (القصر)عن مجموع دلالاتها التي وردت في اللسان في قراءة من سكّن الصاد - اللسان - المصدر السابق - مادة (قصر)ص 100 - 102

تشبيه عظمة شرر جهنم حتى يتجنبها الناس ويخافوا لفيحها، لأن شررها كما قال تعالى: [[...كالقصر]](1). وهذا المعنى هو الذي ذهب إليه أحد المفسرين بقوله: {{أي كل شررة كقصر، وهذا تشبيه في عظم حجمه}}(2).

إن من متطلبات البناء الأساسية باختلاف أشكاله (النور والنار)؛ فالنور يستخدم في إنارة كل ما هو مظلم في حياة الإنسان المادية، وبخاصة في البيوتات التي يسكنها، كما يستخدم حاليا في تشغيل الآلات الميكانيكية الحديثة، والقرآن الكريم إذ يوظف هذا الجزء الحضري - في حياة الإنسان - في تشبيهاته التوضيحية اعتمد على ما تعارف عليه الناس جميعا في بدوهم وحضرهم على أن وظيفة النور الأساسية هي الإضاءة؛ فالنهار فيه نور الشمس فهو يضيء طريق الإنسان، وأما الليل المظلم فإنارته تكون بوسائل مادية ينبعث منها النور، ومن بين هذه الوسائل (السراج) الذي هو: {{المصباح الزاهر الذي يسرج بالليل وجمعه سرج}}(3). وهذه اللفظة (سراج) بمعناها الإناري التشبيهي يمكننا معاينتها في قوله تعالى مخاطبا نبيه الكريم، مُبيِّنا له دورا من أدواره الأساسية تجاه الناس كافة: [[يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا]](4). ويمكننا معاينتها في الآية الكريمة التي تصف لنا إحدى وظائف الشمس الرئيسية وهي (الإنارة) التي بثها الخالق عز وجل فيها، قال تعالى: [[وجعل الشمس سراجا]](5).

ونختم كلامنا عن الإنارة والنور بذكر مجموعة من الألفاظ تجتمع في قوله تعالى واصفا نوره الإلهي: [[كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة...]](6) إلى آخر ألفاظ هذه الآية. إن هذه الألفاظ مجتمعة تؤدي معنى الإنارة الصافية حسب تفكير الإنسان سليم العقل، ولكننا لا نستطيع إفراد لفظة بعينها على أنها هي المشبه به، بالرغم من أن لفظة (المشكاة) قد وردت مقترنة بأداة التشبيه (الكاف)، فهي لا تؤدي معنى الإنارة التامة، لأنها عبارة عن: {{كوة، أو عمود، أو قصبة زجاجية، أو موضع للفتيلة}}(7) و كل هذه الأشياء تتعلق بمصباح الإنارة لا غير

(1) المرسلات آية 32

(2) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 29 - ص 437

(3) اللسان - المصدر السابق - مادة (سرج)ص 297

(4) الأحزاب آية 46

(5) نوح آية 16

(6) النور آية 35

(7) اللسان - المصدر السابق - مادة (شكا)ص 441

وحتى وإن أضيفت إليها لفظة (المصباح) الذي هو مصدر الإنارة لما استقام المعنى المراد من إقامة هذه الصورة التشبيهية. وهكذا يبقى المعنى مبتورا لو استثنينا لفظة واحدة من مجموع ألفاظ هذه الآية التشبيهية، ولكن الشيء الذي يمكن قوله هنا هو أن هذه الألفاظ قد أدت معنى حضريا واحدا تمثل في الإنارة الصافية، التي بالإمكان وضعها تحت التجربة الإنسانية الحضرية.

ومن متطلبات الحياة الحضرية - إلى جانب (النور) - (النار) بصفتها قوة طاقوية فاعلة لها دورها الإيجابي والسلبي في حياة الإنسان، ولهذا فقد كانت النار ولا زالت مصدرا حيا لازمت الإنسان منذ وجوده فوق هذه البسيطة، وقد ارتبطت النار بحياة الإنسان العربي فلم تفارقه في حله وترحاله، في ليله ونهاره، ومما زادها التصاقا به تلك الخاصية الأخلاقية التي عرف بها ألا وهي صفة الكرم؛ فقد تحدث الناس كثيرا عن النار التي كانت توقد خصيصا لهداية الأضياف ليلا، عرفت بعد ذلك بنار (القرى)، فهي في جانبها الأول تمثل دليلا ضوئيا يهتدى به، وتمثل في جانبها الثاني رمزا أخلاقيا للسخاء، والكرم، ولعل هذا ماجعل عنصر النار وسيلة إيضاح حية لها سندها البياني بين مجموع ألفاظ الآية الكريمة من قوله تعالى: [[كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون]](1). فالنار هنا استخدمت للدلالة على جانبين؛ جانب مبصر، وجانب مظلم، فهي سلاح ذو حدين، فإذا ما كانت مشتعلة فإنها تنير طريق الإنسان، وإذا ما انطفأت فجأة فإنها تؤثر في عملية الإبصار وتزيد الظلمة ظلاما دامسا.

وقد توظف(النار) توظيفا أكثر حضارة وتطورا؛ وذلك بأن تستعمل في صهر المعادن وتليينها لتكون صالحة لتشكيلها في شتى مناحي الصناعات الحضرية، وتشبيهات القرآن الكريم ذكرت هذه الخاصية وأبرزتها في قوله تعالى في وصف الحديد الذي صهره ذو القرنين: [[حتى إذا جعله نارا]](2). فالنار في هذه الآية لم تستخدم في إطارها التقليدي المعروف، من طبخ، أو تسخين، أو إنارة، بل وظفت توظيفا صناعيا مع الحديد الصلب، وقد أفادت في ناحيتين الأولى: بلاغية، والثانية: صناعية؛ فالناحية البلاغية تكمن في أن هذه اللفظة (نارا) عبّرت تعبيرا بليغا عن التحام صفائح الحديد المنصهرة بالنار حتى أصبحت شيئا واحدا في جميع الأوجه والصفات .

(1) البقرة آية 17

(2) الكهف آية 92

وأما من الناحية الصناعية فإنها دلت على أن الحديد لا يصير ليّنا سهلا للتشكيل الصناعي إلا إذا انصهر إلى درجة عالية تجعله والنار لونا واحدا .

إن من مخلفات النار العادية التي توقد بالحطب مادة (الرماد)؛ والرماد كما هو معروف: ذرات الفحم المتبقية بعد احتراق الحطب وانطفاء الجمر، وهذه الذرات البسيطة لها معان كثيرة في حياة الإنسان بعامة والبدوي بخاصة؛ ومن جملة هذه المعاني (الكرم) فهي ترمز بكثرتها إلى الكرم عن طريق الكناية فيقال مثلا (فلان كثير الرماد)، أي كثير الطبخ، وكثرة الطبخ تعني كثرة الضيافة، وهذه بدورها تؤدي معنى الكرم كما تعرف ذرات الرماد بخفتها ، فهي ترمز لخفة الشيء وعدم ثباته، ولعل هذا المعنى هو الذي قصده القرآن الكريم من لفظة (الرماد) حين وظفها في وصف أعمال الكفار في ميزانه تعالى يوم القيامة، فأعمالهم : [[كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف]](1). فلفظة (الرماد) هنا في هذه الصورة التشبيهية تقابل (أعمال الكفار) لتدل على خفتها وسرعة زوالها، إلا أنها لا تستغني عن لفظة (الرياح) التي تكون سببا قويا في زوالها وتشتت دراتها.

يحتاج الإنسان في حياته الحضرية إلى جانب (الماء والنور والنار والرماد) إلى أشياء يرتديها وأخرى يقتنيها، وأدوات يسخرها لأداء حاجاته اليومية الحضرية؛ والقرآن الكريم كتاب الله الذي أحاط بكل شئ علما ينطلق من هذه الأشياء الحضرية ويوظفها في تشبيهاته الفنية ليبين للناس الكثير من الأشياء الغامضة عليهم في الحياتين الأولى والآخرة، فنجده مثلا يستخدم لفظة (اللباس) في وصف وظيفة الليل الخفية، وذلك في قوله تعالى: [[وجعلنا الليل لباسا]](2)، كما استخدم أيضا لفظة (العهن) في وصف حالة الجبال يوم قيام الساعة وقد خصه في آيتين: الأولى في صورة المعارج من قوله تعالى: [[وتكون الجبال كالعهن]](3)، والثانية في سورة القارعة من قوله تعالى: [[وتكون الجبال كالعهن المنفوش]](4). يتبادر إلى الذهن أن (العهن) في الآيتين يدل على معنى واحد وهو التفرق في الأجزاء كما جاء في التفسير(+)، غير أن المعنى الذي نلتمسه في الآية الأولى يختلف نسبيا عنه في الآية الثانية

---

(1) إبراهيم آية 21

(2) النبأ آية10

(3) المعارج آية 9

(4)القارعة آية 4

(+) ينظر التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 29 ص 159

لأن لفظة (العهن) منفردة لها معان عدة من جملتها (اللون والرخاوة والخفة)، وعندما أضيفت إليها لفظة (المنفوش)- وهي المندوف التي تعني التفرق والتجزؤ - دلت إلى جانب تمازج الألوان المختلفة للصوف ورخاوته وليونته، التفرق والتجزؤ مع خفة الوزن وسهولته.

لاحظنا فيما سبق أن لفظة (العهن) تعني الصوف بصفتها مادة خام لتدل على (اللين والخفة والتفرق)، ونجدها مرة أخرى في موضع آخر من تشبيهات القرآن الكريم توظف بصفتها مادة صناعية متينة يسبب فكها تعبا ونصبا لناسجها، الأمر الذي جعل العرب يصفون هذه العملية (النقض) بالمعرّة والمذمة واتخذوها مثلاً يُتداول بينهم فقالوا: {{أخرق من ناكثة غزلها}}(1). ونكث الغزل أونقضه جعله القرآن الكريم الوجه المقابل للذين ينقضون الأيمان من المؤمنين بعد توكيدها، فعبّرت عن هذا المعنى ألفاظ الطرف الثاني من الصورة التشبيهية الفريدة من نوعها في قوله تعالى: [[كالتي نقضت غزلها من بعد قوة]](2).

ومن الأشياء الحضرية الأخرى المتطورة في حياة الإنسان الكتابة ولوازمها، وتعد الكتابة أمرا شائعا بين جميع البشر، سواء بالحروف أو بالرموز أو بالصور، فكل يكتب حسب وسائله المادية وتطوره الفكري، والشائع بين الناس قديما وحديثا أنها كانت تكتب بالقلم الذي أقسم به تعالى: [[ن والقلم وما يسطرون]](3)، وأنها كانت تكتب على الحجارة والعظام والجلود والورق بأنواعه المختلفة، وقد سُميت بعض هذه الأشياء بالصحف: [[صحف إبراهيم وموسى]](4)، وسُمي البعض الآخر منها بالكتب في مثل كتاب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : [[ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين]](5). نود القول من هذا كله أن صورة (الكتب) وما يتعلق بها بيّنة لكافة الناس منذ القدم، ويؤكد هذا قول ذي الرمة:

من دمنة نسفت عنها الصبا سفعا   كما تنشر بعد الطية الكتب (6)

والقرآن الكريم وظف هذا المعنى (طي الكتب) في تشبيهاته عندما أراد أن يبين قدرة الله تعالى على تغيير طبيعة السماء الحالية يوم قيام الساعة، فهو قادر على طيها في بعضها

---

(1) مجمع الأمثال - الميداني - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت لبنان - ط 2 - ج2 - ص 354

(2) النحل آية 92

(3) القلم آية 1

(4) الأعلى آية 19

(5) البقرة آية 1

(6) جمهرة أشعار العرب - ابن ابي الخطاب القرشي - دار المسيرة بيروت 1398 هـ - 1978 م ص 177

البعض: [[كطي السجل للكتاب]](1). إن لفظة (الطي) رغم وقوعها بعد أداة التشبيه (الكاف) غير كافية وحدها على تأدية المعنى العام للصورة التشبيهية، فهي لا تؤدي إلا جزء منها فقط ، وهو الجانب الحركي، ولكن إذا أضفنا لها لفظة (السجل) التي تعني - كما رجحها صاحب التحرير والتنوير على معاني أخرى - (الكتاب)(+)، أو الطاوي الذي هو المحرك، والذي يعطينا تفسيرا لنوعية الحركة؛ فعلى قدر قوة المُحرِّك تكون قوة الحركة؛ وبالرغم من هذا فإن الصورة التشبيهية لم تكتمل بعد، لأن طبيعة المُحرَّك أو المتحرك مجهولة، والتي على منوالها نتعرف على استطاعة الحركة، لأن هذه الأخيرة تكون ضعيفة إذا كانت قوة المُحرِّك أكبر من قوة المحرَّك، وبالتالي تحتم علينا إضافة لفظة (الكتب) إلى لفظتي (الطي والسجل) حتى نحصل على تفسير للحركة البسيطة والجهد القليل الذي يبذله الطاوي للكتاب. وعليه تتضح من هذه الصورة - التي رسمتها الألفاظ الثلاثة مجتمعة - قدرة الله تعالى على طي السماء، دون تعب أو نصب أو عناء.

ومن الأدوات الحضرية الأخرى التي اعتز بها الإنسان وتنافس في اقتنائها (الحلي والجواهر)، فمنذ فجر التاريخ البشري كانت ولا زالت لهذه المعادن قيمة مادية وأخرى جمالية، ولذلك فقد تنافس الناس في معرفة كنهها وخباياها، فعرفوا جيِّدها من رديئها وجميلها من قبيحها. ومن هنا لا نستغرب عندما نجد القرآن الكريم يوظف في تشبيهاته بعض هذه المعادن توضيفا جماليا، فنجده مثلا يستخدم جواهر (اللؤلؤ) ثلاث مرات؛ فمرة في وصف حور أهل الجنة، ومرتين في نعت غلمان أهل الجنة؛ ففي الأولى: وصفهن بـ[[اللؤلؤ المكنون]](2)، أي المستور، ووصف الولدان في الثانية والثالثة: بـ[[اللؤلؤ المنثور]](3) مرة وبـ[[اللؤلؤ المكنون]](4) مرة أخرى. والذي لا يخفى على أحد في هذا الوصف أن اللؤلؤ الذي يكون مستورا يكون أكثر صفاء من اللؤلؤ غير المستور، كما أن عملية نثر اللؤلؤ تعطي جمالا يختلف عن جماله وهو مجتمع في مكان واحد. إذاً فالجمال واقع لم يتغير، وإن تغيرت أحوال اللؤلؤ ووضعياته، وهذا هو الجانب الجمالي الطبيعي الذي قد يكون هدفا رمت إليه الصورة التشبيهية السابقة.

---

(1) الأنبياء آية 103

(+) ينظر التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 8 - ص 159

(2) الواقعة آية 25

(3) الإنسان آية19

(4) الطور آية 22

ويستخدم القرآن الكريم إلى جانب جواهر (اللؤلؤ) جواهر (الياقوت والمرجان) ويوظفها في صورة تشبيهية واحدة في وصفه تعالى لزوجات أهل الجنة: [[كأنهن الياقوت والمرجان]](1). فلفظتا (الياقوت والمرجان) وظّفتا هنا للدلالة على معنى اللون (الحمرة والبياض)، وعلى معاني (النقاوة والصفاء واللمعان)، وكل هذه المعاني تصلح لرسم هذه المقابلة التشبيهية أحسن تصوير لما لهذه المعاني من تأثيرات نفسية في حياة الإنسان الجمالية على وجه الخصوص.

من بين الأشياء الحضرية الأخرى التي استخدمها القرآن الكريم ألفاظا تشبيهية (القوارير، الفخار، الجوابي)؛ فاللفظة الأولى: وُظّفت توظيفا جماليا في نعت أكواب أهل الجنة في قوله تعالى: [[وأكواب كانت قواريرا قواريرا من فضة]](2)، ودلت بذلك على معنيين (الرقة والصفاء) كما جاء في التفسير (+)، بينما استخدمت لفظة (الفخار) استخداما صناعيا لتبيان الحالة التي يؤول إليها الصلصال الذي خلق منه الإنسان، استنادا إلى ما تحمله هذه اللفظة (الفخار) عند عامة الناس، بوصفها مادة طينية صناعية تصنع منها الأواني الفخارية، وقد وردت هذه اللفظة في قوله تعالى: [[خَلق الإنسان من صلصال كالفخار]](3) وأما لفظة (الجوابي) التي تعني الحياض العظام - كما جاء في التفسير(+) - فإنها وُظفت للدلالة على مدى قدرة الجان في صنع الأشياء، كما دلت أيضا على الجانب التاريخي في حياة سليمان عليه السلام، الذي يتمثل في قدرته النافذة على تسخير الجان في شتى جوانب الحياة وخصوصا الجانب الصناعي، كما نقلت لنا واقعا حضريا لقوم سليمان استنادا إلى مدلول هذه اللفظة الزراعي في واقعنا الحضري المعيش. ونتأمل ورود هذه اللفظة في قوله تعالى من سورة سبأ: [[...وجفان كالجواب]](4).

وإذا كنا قد تتبعنا في هذه الأمثلة التطبيقية الألفاظ التشبيهية التي عبرت عن الجانب الحضري في حياة الإنسان، نحاول الآن معالجة بعض الألفاظ التشبيهية التي تعبر عن مواقف

(1) الرحمن - الآية 55 إلى 57

(2) الإنسان آية 15 - 16

(+) ينظر تفسيرها في التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 20 ص 392

(3) الرحمن - آية 12

(+) روح المعاني - المصدر السابق - م 8 ج 22 - ص 119 (أي كالحياض العظام جمع جابية من الجباية)

(4) سبأ آية 13

أخرى في حياة الإنسان.

ب - مواقف أخرى في حياته:

إن للإنسان في هذه الحياة موقف حتمي مع الموت منذ بدء الخليقة إلى نهايتها، فهو أمام مشاهد يراها ويعيشها يوميا إن لم نقل آنيا؛ فهو إما يدفع إلى الموت دفعا وهو يرى مصيره الأخير؛ وهذه من أبشع الصور التي شخصت الحالة النفسية التي اعتمدتها ألفاظ هذه الآية التشبيهية من قوله تعالى في وصف حالة المؤمنين المجادلين في الحق: [[كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون]](1) - وإما يصل إلى مرحلة الإحتضار فتتغير ملامحه وتختل وظائف أعضائه الجسمية. وهذه الحالة المزرية التي يؤول إليها كل كائن حي وبخاصة الإنسان الذي يعاني من سكرات الموت أكثر من غيره من المخلوقات الأخرى. ولعل هذا ما رسمته الألفاظ القرآنية التشبيهية في آيتين اثنتين الأولى: في قوله تعالى: [[كالذي يغشى عليه من الموت]](2). والثانية في قوله عز وجل: [[نظر المغشي عليه من الموت]](3) إن ما يمكن ملاحظته حول هذين الموقفين هو أن ألفاظ الموقف الأول تعطينا حالة عامة من حالات الإحتضار الإنساني. وأما ألفاظ الموقف الثاني: فتعطينا - إلى جانب الحالة العامة وهي المحور المشترك بين الموقفين - التأثر والتأثير في نفسية كل من المشاهد والمُشاهَد.

فإذا كانت صورة المحتضر بشعة عند ناظرها، فإن صورة المقتول أبشع عند خالقها وخصوصا إذا كانت بدون مبرر يستوجب قتلها، ولذا فلقد صورت لنا ألفاظ القرآن الكريم قيمة هذه النفس في صورتين تشبيهيتين اعتمدتا على فعلي (القتل والإحياء)، وذلك في موقفين من مواقف حياة الإنسان تجاه النفس البشرية، فشنّعت له لذلك قتلها وعظمت له إحياءها لأن من قتل متعمدا بغير نفس: [[فكأنما قتل الناس جميعا]](4) وأما من قام بعمل ما فأحياها: [[فكأنما أحيا الناس جميعا]](5). إن المتأمل في هذه الألفاظ يجدها قليلة في كمها عظيمة في معانيها، وعظمتها تتوقف على ترابطها مع بعضها البعض، فلو أفردنا مثلا لفظتي (القتل والإحياء) في كل من العبارتين، لوجدنا أن معاني هاتين اللفظتين لا تتعدى واقعية الفعلين، ولكن إذا ما أضفنا إليهما لفظة (الناس) لتغير مدلولهما من الواقعية إلى التعظيم ولو زدنا

(1) الأنفال - آية 6

(2) الأحزاب - آية 19

(3) محمد - آية 21

(4)(5) المائدة آية 34

لفظة (جميعا) لتعدى هذا المدلول من التعظيم إلى التقديس، لأنه ليس من السهل القيام بقتل الناس جميعا، أو بإحيائهم جميعا.

وتقابلنا في نهاية هذا العنصر ألفاظ تشبيهية صورت لنا موقفين في حياة الإنسان يتمثلان في مشهدين اثنين هما: الأول: يبين علاقة الإنسان من عبادة الأصنام، ويتجسد هذا المشهد في حالة الإنسان وهو يتجه مسرعا إلى عبادة الأصنام، وهي الوضعية التي عبرت عنها الألفاظ التشبيهية من قوله تعالى: [[كأنهم إلى نصب يوفضون]](1). إن الإفاضة إلى النصب عبادة قديمة يعرفها الإنسان الذي كان يزاول مثل هذه الطقوس الوثنية، إذاً فهذا المعنى دقيق لا يدركه إلا الذين عايشوا مثل هذه التظاهرات الدينية، والآية الكريمة عالجت موقفا إنسانيا عاما يوم قيام الساعة، ولكن كيف تكون حالة الإنسان اليوم في فهم هذه العلاقة التشبيهية فهما عميقا ؟ والجواب عن هذا التساؤل يتمثل في أن النصب كانت ولا تزال تلازم الإنسان إلى يومنا هذا مع اختلاف الأشكال والأساليب، فالنصب القديمة تختلف عن النصب الحديثة في الشكل فقط، والقرابين التي كانت تقدم إليها قديما أصبحت مغايرة بقرابين النصب الحديثة، وإلا كيف نفسر الإفاضة إلى النصب التذكارية والإنحناء أمامها وتقديم الزهور لها مع إيقاد النار في صهاريجها؛ وأما الشئ الذي بقي عاملا مشتركا بينهما لم يتغير هو تلك الحركة الإنسانية لمجموعة البشر التي تتوجه إلى هذه النصب زرافات ووحدانا، وهذه الظاهرة الحركية هي التي أكسبت الصورة التشبيهية قوة في البلاغة واستمرارية في التأثير. هذا عن المشهد الأول .

وأما عن المشهد الثاني فإنه يصور علاقة الإنسان ببهيمة الأنعام، ويتمثل هذا المشهد في حالة الإنسان وهو يخاطب هذه البهيمة ناعقا عليها لتلبي رغبته وتنقاد لإرادته، ولكن هذه الأنعام لا تستجيب لطلبه لأنها لا تفقه ما يقول، إذا رجعنا إلى الألفاظ التي صورت لنا هذا المشهد فإننا لا نعثر على لفظة (الأنعام) صراحة بل نستشفها من لفظة (النعيق) التي ترتبط ارتباطا وثيقا ببهيمة الأنعام، وهذا ما يؤكده أحد المفسرين في هذه الصورة التشبيهية من قوله تعالى: [[مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء]](2) ف[[أضاف المثل إلى الذين كفروا ثم شبههم بالراعي ولم يقل كالغنم والمعنى - والله أعلم - مثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصوت، فأضيف التشبيه إلى الراعي والمعنى والله

---

(1) المعارج - آية 43

(2) البقرة - آية 170

أعلم في المرعي }}(1). والذي يهمنا في هذا كله أن هذه الألفاظ استطاعت أن ترسم لنا مشهدا عاما لجزء من حياة الإنسان في موقفه مع بهيمة الأنعام، وهو الجانب الطبيعي الذي جعل الحركة والصوت يشتركان معا في رسم معالم هذه الصورة التشبيهية الطبيعية، وبانتهاء هذين المشهدين ينتهي الحديث عن المبحث الثاني، فيكون كلامنا بالجملة قد انتهى من معالجة ألفاظ المحور الأول لننتقل إلى معالجة ألفاظ المحور الثاني المتعلق بعالم الجن والشياطين.

ثانيـــــــا : ألفاظ الجن والشياطين:

وقبل التطرق إلى بعض ما ورد في القرآن الكريم من ألفاظ تشبيهية تنفرد بالجن والشياطين، يجدر بنا أولا وقبل كل شيء التعرف على بعض المعاني والإيحاءات النفسية لهذه المخلوقات الخفية للتصور الإنساني، فبالرغم من اجتنان هذه المخلوقات الخفية عن الأعين فإن للعقل الإنساني تصورات وانطباعات فكرية ونفسية حول كل من (الجن والشياطين)؛ فقد انطبع في أذهان الناس أن الجن يمتاز بالقوة والبطش، ونمثل لهذا المعنى بقول النابغة الذبياني في تشبيه الجيش بالجان فقال:

سهيكين من صدإ الحديد كأنهم ... تحت السُّنور جِنة البقّار (2)

ويشبهه في ذلك قول لبيد:

غلب تشذر بالذحول كأنها ... جن البدي رواسيا أقدامها(3)

فالمشبه هنا في هذين البيتين يدل على المعنى المراد من المشبه به و هو (الجان) فوصفُ القوي وهم (الجنود) لا يكون إلا بما هو أقوى منه وهم (الجن).

وإلى جانب القوة والبطش عُرف (الجن) أيضا بسرعة الحركة، وأصبحت مضربا للمثل بين الناس وبخاصة عند الشعراء منهم، فأبوتمام يجسد لنا هذا المعنى في قوله:

طموح بأثناء الزمام كأنما ... تخال بها من عيونها طيف جنة (4)

حيث شبه طيف ناقته - وهي تجري بسرعة - بطيف الجن في سرعة الحركة والتنقل معتمدا في ذلك على ما تعارف عليه الناس من أن الجن يمتاز بالحركة المغايرة للمخلوقات الأخرى.

---

(1) معاني القرآن - م 1 ص 99

(2) ديوان النابغة الذبياني - المصدر السابق - ص 60

(3) شرح المعلقات العشر - عني بجمعه وتصحيحه الشيخ أحمد الشنقيطي - دار الأندلس - ط 5 - 1404 - 1983 - ص 134.

(4) ديوان أبي تمام - المصدر السابق - ص 126

يعد الشيطان فرعا من فروع الجان(+) مصداقا لقوله تعالى: [[وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه]](1). وقد نعت هو الآخر منفصلا عن (الجن) بنعوت كثيرة أشهرها قبح المنظر: {{ فإذا ما أراد الإنسان أن يذم منظرا من المناظر شبهه بالشيطان}}(2). كما تنسب إليه الأعمال الشريرة منذ القدم فيقال: {{تشيطن الرجل وشيطن إذا صار كالشيطان وفعل فعله}}(3). كما تنسب إليه حالات الصرع التي تنتاب الإنسان كما سبق توضيحه في المحور الأول.

نريد من هذه التوطئة الوقوف على المعطيات الواقعية التي اعتمدها القرآن الكريم في توظيف ألفاظ (الجن والشاطين) في تشبيهاته لنتمكن من معرفة الجوانب الفنية الجمالية التي أدتها هذه الألفاظ داخل إطار كل صورة تشبيهية.

وعلى العموم فإن كلامنا سيكون الآن حول ألفاظ (الجن والشياطين) بصفتها ألفاظاً مستقلة في الطرف الثاني من الصورة التشبيهية، وفي هذا السبيل يمكننا أن نستدل بأربع صور تشبيهية في أربع آيات قرآنية، ففي آيتين وردت فيهما لفظة (الجن)- وهي تؤدي معنى عموم الجنس - بنفس اللفظ: [[كأنها جان]](4). وفي نفس الموضوع وصف عصا موسى وبنفس المعنى : أي حركة الجان التي سبق أن بينا تصورها عند الناس. وأما في الحالتين المتبقيتين فقد ورد فيهما لفظ (الشيطان)- وهو فرع من فروع الجان كما سبق توضيحه في القرآن - باختلاف جزئي في اللفظ مع اختلاف كلي في المعنى؛ ففي إحداها ورد لفظ (الشيطان) مقرونا بالرؤوس: [[رؤوس الشياطين]](5). وفي أخرى ورد فيها مقرونا بالقول: [[كمثل الشيطان إذ قال..]](6). من الواضح في هذين المثالين أن المعنى الأول للفظة (الشياطين) المحدودة (بالرؤوس) يختلف عن معناها الثاني المسبوق بلفظة (القول). فالمعنى الأول يُفهم منه الشكل البشع الذي تعلق بأذهان الناس. والثاني يؤدي معنى الغواية والتضليل التي أكدها القرآن الكريم في أكثر من مرة في النصوص التي تذكر وظيفة الشيطان التضليلية.

(+) التفصيل في عالم الجن والشياطين - سليمان الأشقر- دار الشهاب للطباعةوالنشر باتنة - ص 13 - 14

(1) الكهف - آية 54

(2)(3) اللسان - المصدر السابق - م 13 - مادة (شطن)ص 238

(4) القصص آية 31

(5) الصافات - آية 65

(6) الحشر - آية 16

من الألفاظ التي شاع ذكرها في تشبيهات القرآن الكريم - إلى جانب ما سبق ذكره في العنصرين السابقين - الألفاظ المتعلقة بالنبات، والتي سنخصص لها العنصر الموالي من هذا الفصل.

ثالثا: ألفاظ النبات:

وقبل التطرق إلى معالجة هذه الألفاظ في تشبيهات القرآن الكريم يجب أن نتعرف على حقيقة النبات بصفة عامة وعلاقته الطبيعية بالإنسان: {{كل ما أنبت الله في الأرض فهو نبت، يقال أنبت الله النبات إنباتا }}(1).وعلاقة الإنسان بالنبات قديمة قدم التاريخ ، فقد فتح آدم عينيه في الجنة فوجد النبات فتعامل معه (+) فالنبات إذاً شيئ أساسي في حياة الإنسان، فلولاه لما أستمرت حياته ولا حياة أي كائن حي فوق هذه البسيطة، ولذلك خلقه الله قبل أن يخلق آدم ، فمنه يستمد جميع طاقاته الحيوية، كالغذاء والتدفئة، والكساء والسكن، وجميع الصناعات المختلفة، فهو ثروة هائلة لا يمكن له الإستغناء عنها. ولعل هذه الأهمية التي يتميز بها النبات في هذه الحياة نجد القرآن الكريم يوليه اهتماماً كبيراً ويذكره أكثر من مرة، فقد عدد فؤاد عبد الباقي في كتابه المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم عدة صيغ لفعل (نبت) فوجدها إحدى عشر صيغة لهذا الفعل(+).

والنباتات إحدى الكائنات الحية التي تعامل معها الإنسان وتعرف على أحوالها وأطوارها، وأعطاها صفات مختلفة، فمنها الجيد والردي، ومنها القصير والطويل، ومنها الكثيف والخفيف ، وفيها الطيب والخبيث، وفيها الحلو والمر، فتكونت لديه انطباعات حول جميع النباتات التي عرفها وألفها. والقرآن الكريم إذ يوظف بعض هذه النباتات في ألفاظه التشبيهية الفنية يستند إلى هذه الخلفية الإجتماعية لهذه النباتات في حياة البشر. ومن النباتات التي تعلقت بحياة الإنسان العربي في صحرائه نبات (النخيل) الذي يمثل بالنسبة إليه موردا أساسيا في حياته الإقتصادية والإجتماعية، ولذلك لا نذهل عندما نجد القرآن الكريم يستخدم في تشبيهاته هذا النوع من النبات أكثر من غيره من النباتات الأخرى، وقد ورد ذكر هذا النبات أربع مرات في أربع آيات بينات، إثنتان منها بلفظ صريح وبمعنى واحد مع اختلاف في لفظ

---

(1) اللسان - المصدر السابق - م 2 مادة (نبت) - ص 95

(+) [فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد - الخ] طه - آية 117 - 118

(+) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - فؤاد عبد الباقي - دار الفكر بيروت لبنان - 1401 هـ 1981 م - ط2 - ص 87 688.6

الصفة التي تقيد حالة النخلة، فمرة: [[أعجاز نخل خاوية]](1) وأخرى: [[أعجاز نخل منقعر]](2) فالخواء والتقعر بمعنى واحد يدلان على التجويف الذي يحدث لعجز النخلة بعدما يتآكل ليفها، وأما ورود لفظة النخلة في الآية الثالثة فقد جاء مختلفا عن الآيتين السابقتين، إذ لم يصرح بلفظ (النخلة) كما سبق، بل ذكر جزء من أجزائها وهو (العرجون) عندما أراد تعالى أن يقرب للأذهان حالة القمر في آخر منزلة من منازله فوصفه: [[كالعرجون القديم]](3)، فالعرجون كما هو معلوم جنين النخلة ووليدها، وهذه اللفظة أقرب الى أذهان المخاطَبين العرب وغير العرب ممن يقطنون البيئة الصحراوية، حيث تتضح لديهم صورة العرجون القديم: {{البالي إذا انقطع الثمر تقوس واصفار وتضاءل...}}(4) وأما ذكر النخلة في الآية الرابعة فإنه لم يأت بصراحة كلية أو بإشارة جزئية، بل يستنتج عن طريق الفهم والتأويل والتفسير، فقوله تعالى: [[كشجرة طيبة]](5) لفظ عام يدل على جميع الأشجار، والطيبة قد تكون لأكثر من شجرة إلا أنه ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سألهم عن الشجرة التي ضرب الله تعالى مثلا للمؤمنين فلم يجيبوه، ففسرها عليه الصلاة والسلام بقوله: <<ألا إنها النخلة>>(6)

ومن النباتات الأخرى - غير النخلة - التي استخدمها القرآن الكريم في تشبيهاته نبات (الزرع) وهذه اللفظة مشتقة من: {{زرع الحب يزرعه زرعا وزراعة بذره، والإسم الزرع وقد غلب على البر والشعير وجمعه زروع}}(7) والقرآن الكريم في تشبيهاته استخدم هذا النوع من النبات في ثلاث آيات؛ ففي الأولى: بلفظ صريح في قوله تعالى: [[كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه]](8) وفي الثانية: استخدم لفظة (الحبة) التي هي بذرة الزرع ونواته فقال تعالى: [[كحبة أنبتت سبع سنابل..]](9) وفي الثالثة: وظف لفظة (العصف)

---

(1) الحاقة - آية 6

(2) القمر - آية 20

(3) يس - آية 38

(4) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 23- ص 23

(5) ابراهيم آية 26، 27

(6) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير المصدر السابق - م 2 ص 53

(7) اللسان - المصدر السابق - م 8 - مادة (زرع)ص 141

(8) الفتح - آية 28

(9) البقرة - آية 260

- الذي قيل عنه بأنه الورق وما لا يؤكل من الزرع سواء كان أخضر أم يابسا، استنادا إلى قوله تعالى: [[والحَبُّ ذو العصف والريحان]](1) وقد جاء في اللسان توكيدا لهذا المعنى : {{يعني بالعصف ورق الزرع وما لا يؤكل منه وأما الريحان فالزرع وما أكل منه}}(2). في تشبيه أصحاب الفيل بالعصف المأكول(+). إذاً فالعصف جزء من الزرع سواء كان ورقا كما جاء في اللسان، أو تبنا أكلته الدواب وراثته كما ورد في روح المعاني (+) ومجمع البيان (+).

ومن بين النباتات الأخرى التي سيقت - في القرآن الكريم - بمثابة ألفاظ تشبيهية: (الهشيم ، الغثاء، الخشب، الشجرة الخبيثة، الأوتاد، الجنة).

إن لفظتي (الهشيم والغثاء) معناهما يكاد يكون واحدا، فالهشيم في هذه الآية: [[كهشيم المحتضر]](3) تعني: {{ما يبس من الورق وتكسر وتحطم}}(4) وأما لفظة (الغثاء) فتعني حسب ما ورد في اللسان كل ما طفا فوق سطح الماء من الزبد والوسخ (+)، وغيره كما أنها قد تعني : {{ورق الشجر الهالك البالي وجمعه أغثاء}}(5). والشيئ المتعارف عليه هو أن السيل يحمل عادة العيدان والقصب والورق وبعض الفضلات الحيوانية الأخرى، ولكن الغالب عليه هو النوع النباتي، سواء كان ورقا أو عيدانا أو قصبا فجميعها يعود إلى الأصل النباتي لأنه أخف الأشياء وأعمها في الطبيعة، وأكثرها طفوا فوق الماء. وأما فيما يخص لفظتي (الخشب والأوتاد في قوله تعالى: [[كأنهم خشب مسندة]](6). وفي قوله عز وجل: [[والجبال أوتادا]](7) فمصدرها واحد وهو الأشجار، فالخشبة تعني: {{ما غلظ من العيدان والجمع خشب}}(8). وأما الوتد

---

(1) الرحمن - آية 10

(2) اللسان - المصدر السابق - م 9 - مادة (عصف) ص 247

(+) [[ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ...فجعلهم كعصف مأكول]] الفيل آية 1 - 5.

(+) روح المعاني - المصدر السابق - م 9 - ج 27 - ص 103

(+) مجمع البيان - المصدر السابق - م6 - ج 27 - ص 86

(3) القمر - آية 31

(4) اللسان - المصدر السابق - م 12 - مادة (هشم)ص 612

(+) (5) المصدر نفسه - م 2 - مادة (غثا)ص 116

(6) المنافقون - آية 4

(7) النبأ - آية 4

(8) اللسان - المصدر السابق - م 1 - مادة (خشب) ص 739

فهو: {{القطعة من الخشب ترز في الحائط أو الأرض والجمع أوتاد}}(1).

وأما لفظة (الشجرة) المنعوتة بالخبث في قوله تعالى: [[كشجرة خبيثة]](2) فإنه لم يحدد معناها، بل اختلف فيه؛ فهي: إما الحنظل، أو الشوك، أو الطحلب، أو الكمأة، أو أنها نبات لم يخلق في الأرض، أو أنها معنى لكل نبات تتوفر فيه جملة الشروط المذكورة في الآية (+). ولكن الشيئ الذي تعتمده الصورة التشبيهية -على العموم- من هذه الشجرة هو أنها من النبات الذي لا يحتوي على جذور قوية متينة فهو سطحي الجذور قليلة الفائدة أو عديمها.

وإذا أخذنا اللفظة المتبقية من ألفاظ النباتات وهي لفظة (الجنة) في قوله تعالى: [[كجنة بربوة]](3) وجدناها تمثل مجموعة من النباتات فهي لفظ عام يطلق على البستان أو الحديقة المليئة بالأشجار والنخيل، والجمع جنات كما ورد ذلك في اللسان (+).إلا أن البعض اشترط: {{أن يكون فيها نخل وعنب وإلا سميت حديقة ولا تسمى جنة}}(4). ومهما يكن من اختلاف الأقوال حول تحديد عناصرها فالجنة تعني الجانب النباتي، وهو بيت القصيد الذي اعتمدنا عليه في تصنيف هذه اللفظة (جنة) ضمن مجموع ألفاظ النبات في تشبيهات القرآن الكريم.

وإذا أمكن لنا - بعد استعراضنا لمجموعة ألفاظ النبات السابقة - النظر إلى الأبعاد الدلالية التي يمكن أن تحملها هذه الألفاظ، ومن هذا المنطلق نستطيع تقسيم الألفاظ السابقة إلى مجموعتين؛ الأولى: تضم زمرة من الألفاظ هي: (أعجاز نخل منقعر، أعجاز نخل خاوية، العرجون القديم، العصف المأكول، الخشب المسندة، الغثاء، الهشيم المحتضر، الأوتاد). تشترك هذه المجموعة في بعدين دلاليين:البعد الأول هو: الموت؛ الموت المحتوم لكل كائن حي دبت فيه الحياة. فنجده كامنا في (النخل الخاوي والمنقعر)، وكذا في العرجون بعد قطعه وقدمه، كما أن (العصف المأكول) أصبح عديم الحياة بالي الأجزاء بعد أن لاكته الدواب ورمته، وأما (الخشبُ) فإن الحياة تفارقها بعد قطعها وقبل أن تسند، وتشترك معها في نفس الخاصية لفظة (الأوتاد) في كونها تمثل قطعا من الخشب ترز في الحائط أو في الأرض كما سبق توضيحها وهذا أيضاً ينطبق على لفظتي (الغثاء والهشيم) إذ لاحياة فيهما ولافائدة ترجى منهما. هذا

(1) اللسان، المصدر السابق، م 3، مادة (وتد)، ص: ٤٤٠٠.
(2) ابراهيم آية 28

(+) ينظر روح المعاني - المصدر السابق - م 5 - ج 13 - ص 215

(3) البقرة آية 264

(+) (الجنة.الحديقة ذات الشجر والنخل وجمعها جنان)اللسان المصدر السابق-م 13مادة (جنن)ص 100

(4) المصدر نفسه - م13. مادة (جنن) ص 100

عن البعد الدلالي الأول لهذه المجموعة. وأما فيما يخص البعد الدلالي الثاني لها فإنه يمكن أن نطلق عليه مصطلح (الجمود) وهو واضح من خلال الهيئة التي آل إليها كل نبات، إذ لا حركة تصدر منه ولا نماء ينبعث من داخل النبات أو خارجه بعد موته.

وإذا تركنا الحديث عن ألفاظ المجموعة الأولى عند هذا الحد وتناولنا ألفاظ المجموعة الثانية التي تضم خمسة ألفاظ هي (الشجرة الطيبة والخبيثة والجنة والزرع والحبة) نلاحظ من خلال ألفاظ هذه المجموعة أنها تختلف عن المجموعة الأولى من ناحية البعد الدلالي؛ فمقابلاً للفظتي (الموت والجمود)- اللتين رمزت إليهما ألفاظ المجموعة السابقة - نجد لفظتي (الحياة والحركة) من مدلولات هذه المجموعة الثانية، فذكر (الشجرة الطيبة) يدل على أن الحياة مازالت تدب فيها، ولولا هذه الحياة لما بقيت ثابتة تؤتي أكلها كل حين ولاتبخل بما عندها من ثمر رزقاً للعباد كما أن (الشجرة الخبيثة) تعني لوناً من الحياة واهياً، فهي بين الحياة وخطورة الموت لأن جذورها سطحية لاقرار لها. وأما لفظتا (الحبة والزرع) فكلاهما يرمز الى الحياة المتجددة، فالحبة تعطي زرعاً والزرع يعطي حباً، وهكذا تدور الحياة دورتها. وأما (الجنة) فهي بمثابة المسرح الذي تجتمع فيه حياة مجموع النباتات التي سبق ذكرها. وإذا تتبعنا جانب البعد الحركي لهذه الألفاظ النباتية في المجموعة الثانية لوجدناه ينبعث من داخل هذه النباتات فهو يعني نموها وتطورها من مرحلة إلى أخرى، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياتها، فلولا هذه الحركة الإنمائية لما أكتسب النبات الحياة والنضرة، ولولا الحياة الكامنة في هذه النباتات لما كان لهذه الحركة الإنمائية أثر. واعتماداً على ما تقدم يمكننا القول أن هذه الأبعاد الدلالية لها تأثيرات معينة، فالموت والجمود لهما تأثير سلبي، والحياة والحركة تأثيرهما إيجابي في نفسية الانسان. وانطلاقاً من هذه الثنائية النفسية نستطيع أن نلتمس تفسيراً للأسباب التي جعلت القرآن الكريم يوظف هذه الألفاظ في تشبيهاته الفنية.

لم يكتف القرآن الكريم بتوظيف عناصر النبات الى جانب العناصر السابقة - بصفتها وسائل إيضاح في صوره التشبيهية - بل نجده يستند إلى عناصر أخرى كعنصر الحيوان في نفس الغرض الإيضاحي وهذا ما سنتعرف عليه من خلال العنصر الموالي

رابعاً: ألفاظ الحيوان:

يعد الحيوان من الكائنات الحية التي شاركت الإنسان حيوانيته في الحس والحركة والغذاء، وغير ذلك من الجوانب الحيوانية الأخرى كما يعد رفيقا طبيعيا لحياة الإنسان؛ فقد شاركه في رحلة حياته منذ الأزل فإما حيوانا أليفا يستخدمه في قضاء حاجاته اليومية، وإما حيوانا

متوحشا يترصد له الدوائر للتغلب عليه، ولعل هذه الظروف وغيرها جعلته يتعرف على الكثير من أسراره وطبائعه وأشكاله المختلفة، وللإنسان العربي تجارب كثيرة مع الحيوانات الأليف منها والشريد، الصديق منها والعدو، فقد عايشها فعرف أحوالها وتعرف على خصائص طبائعها وعاداتها، مما جعله يخلص إلى أحكام وصفات تخص كل حيوان على حده؛ وقد ورد هذا في كلام العرب وأمثالهم فقيل مثلا: أن التيس نتن الرائحة (+)، وقيل أيضا: {{ماهو إلا الأسد على براثنه}}(1) وكذا: {{الذئب مغبوط بذي بطنه}}(2)، وغير ذلك من الأمثال التي تعطي خلاصة لتجربة الإنسان العربي مع الحيوانات التي خبرها، فوصفها في أمثاله مرة وفي أشعاره مرات أخرى، ومما اشتهر في ذلك من الشعر قول امرئ القيس:

دريـد كخنـروف الوليـد أمـره ... تتابع كفيـه كخيـط موصـل

له أيطلا ظبي وساقا نعـامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتـفل(3)

نلاحظ أن وصف الشاعرلفرسه كان يعتمد على تشبيهه بحيوانات أخرى في بعض أجزائها التي اشتهرت بها في بيئته، مما يدل على خبرة الإنسان العربي لأحوال الحيوانات التي عايشها في بيئته المترامية الأطراف. وانطلاقا من هذه البيئة، بل من هذه الخبرة الواسعة - للإنسان بعامة والعربي بخاصة - نجد القرآن الكريم يعتمد في تبيان كثير من القضايا الدينية والدنيوية على الحيوانات المختلفة في تشبيهاته الفنية، وأبرز هذه الحيوانات في البيئة العربية وأقربها إلى الإنسان العربي (الأنعام والجمال والحمير والكلاب) وهذه هي الحيوانات التي استخدمها القرآن الكريم ألفاظا تشبيهية توضيحية سنتطرق إليها بنوع من التحليل والتفصيل.

1 - الأنعام: لقد ورد في لسان العرب أن: {{... النعم: واحد الأنعام وهي المال الراعية }}(4). كما ورد فيه عن ابن سيدة أن: {{النعم الإبل والشاء..والجمع أنعام وأناعيم جمع الجمع}}(5). وبهذا المعنى فسر الأزهري في اللسان قوله تعالى: [[فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل

(+) (وقال صاحب الديك:أشياء تضاف إلى نتن الجلود وخبث الرائحة..وكنتن التيوس وصُنان عرقها) (+) الحيوان - الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - دار إحياء التراث العربي - ج 1 - ص 226

(1) المصدر نفسه - نفس الجزء ص 228

(2) مجمع الأمثال - الميداني - منشورات مكتبة الحياة بيروت - ط 2 م 1 - ص 287

(3) الديوان - المصدر السابق ص 85، 86

(4)(5) اللسان - المصدر السابق - مادة (نعم) ص 585

منكم]](1) غير أن الفراء يرى أن (النعم) لفظ مذكر تعني عند العرب الإبل فقط، وأما إذا ذكرت بلفظ (الأنعام) فإنها تعني عندهم الابل والبقر والغنم (+). وعلى العموم فإن اللفظة التي ذكرت في تشبيهات القرآن الكريم هي لفظة الأنعام التي تعني كما سبق (الإبل والبقر والغنم)، وقد وردت هذه اللفظة ـ حسب ما بين أيدينا من نماذج تشبيهية ـ ثلاث مرات في ثلاث آيات قرآنية، وكلها بلفظ العموم (الأنعام) ولفظة الأنعام هذه لها معاني كثيرة في نفسية الإنسان العربي، فهي ترمز لديه إلى الهدوء والإطمئنان والأمان، لأن الإنسان العربي في صحرائه القاحلة عندما يشاهد مثل هذه الحيوانات ترعى يستبشر خيراً أي أنه أصبح في مأمن من الضياع والهلاك عطشا وجوعا، كما تعني لديه الخصب والنماء، لأن وجودها يعني وجود الكلإ والماء، فلا حياة لهذه الأنعام بدون هذه المقومات الضرورية للحياة. كما أنها تعني بالنسبة إليه كذلك معنى آخر يتمثل في البلادة في عدم استخدامها لحواسها في التفكير والتدبر، لأنها جُبلت على هذه الطبيعة) وهذا المعنى العام للفظة (الأنعام) هو الذي يُرشح للدلالة على معنى الألفاظ القرآنية التي وردت في الآيات الثلاثة؛ الأولى في قوله تعالى واصفا الفريق الضال من الجن والإنس: [[...أولئك كالأنعام بل هم أضل...]](2). والثانية في تأكيد ضلال الكافرين والمشركين من قوله تعالى: [[إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا]](3). وأما الثالثة فكانت في وصف طريقة أكل الكافرين في قوله تعالى: [[...ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم]](4). إن لفظة (الأنعام) في الآيتين الأولى والثانية وردت بنفس الصيغة في اللفظ، وكذا بنفس المعنى وهو عدم الإنتفاع بالحواس والتفكير مطلقا، بينما الآية الثالثة خصّت جزء من حياة (الأنعام) وهو طريقة الأكل التي تميزت بها هذه الحيوانات الأليفة، وهذا هو المعنى(+) الذي ذهب إليه أحد المفسرين في تفسيره لهذه الآية: [[والذين كفروا يتمتعون ويأكلون...]](5) لأن طريقة الأكل هي المقصودة لذاتها، لأنها تكون بشره وبدون توقف أو

---

(1) المائدة آية 97

(+) اللسان ـ المصدر السابق ـ م 12 ـ مادة (نعم) ص 585

(2) الأعراف آية 179

(3) الفرقان آية 44

(4) محمد آية 13

(+) (والمعنى أن أكلهم مجرد من الفكر والنظر...) روح المعاني ـ المصدر السابق ـ م 9 ـ ج 26 ـ ص 46

(5) محمد آية 13

تفكير لدى هذه الحيوانات، وبخاصة إذا بلغ منها الجوع مبلغا عظيما. ويخص القرآن الكريم في ألفاظه التشبيهية (الإبل) بالذكر عن باقي الأنعام الأخرى، فيوظفها في لفظتين اثنتين هما (الجمالات والهيم).

أ ـ الجمالات: {{واحدها جمال مثل ما قالوا رجال ورجالات وبيوت وبيوتات، ويجوز أن يكون واحد الجمالات جمالة}}(1) و: {{...الجمالات بكسر الجيم جمالة، وهي جمع لطائفة من الجمال}}(2). وقد كان ورود هذه اللفظة في قوله تعالى في وصف شرر جهنم: [[كالقصر كأنه جمالات صفر]](3)

وإذا أردنا أن نلتمس المعنى الذي أدته هذه اللفظة (جمالات) داخل السياق اللفظي للآية لقلنا أنها تقترب من تأدية معنى (اللون والحجم والحركة)(+)؛ فاللون يكمن في الصفرة التي يتميز بها وَبرُ الجمال أثناء انعكاس أشعة الشمس عليه وبخاصة وقت الظهيرة، وأما الحجم فتمثله يكمن في شكل ظهور الجمال المحدودبة، وتأتي في الأخيرالحركة لتتمثل في اجتماع الشكل واللون في حركة أسنمة الجمال أثناء سيرها عندما تتراءى للناظر من بعيد.

ب ـ الهيم: ـ وأما فيما يخص اللفظة الثانية وهي لفظة (الهيم) فإنها صفة اشتهرت بها الإبل عن باقي الكائنات الحية الأخرى، وهي تعني معنى العطش أو الجنون: {{فيقال هام الرجل هياما فهو هائم وأهيم}}(4) و: {{...الهيمان العطشان}}(5) ويقال أيضا: {{هامت دوابنا أي عطشت}}(6) كما يقال: {{وقوم هيم أي عطاش}}(7) ولكن هذا المعنى يبقى عاما تتصف به جميع الأحياء يبرز أكثر عند الابل؛ فهو عبارة عن جنون أو دوار يصيب البعير حتى يهلك(+). ويؤكد هذا المعنى الفراء في تفسيره لقوله تعالى: [[...شرب الهيم]](8) في قوله: {{بأنها الإبل التي يصيبها داء فلا تروى من الماء}}(9). إلا أن هناك من يرى أن لفظة (الهيم) هنا في هذه الآية تعني

---

(1) اللسان ـ المصدر السابق ـ م 2 ـ مادة (جمل) ص 123

(2) التحرير والتنوير ـ المصدر السابق ـ ج 29 ـ ص 37

(3) المرسلات آية 33

(+) ((وقوله <<كأنه جمالات صفر >>تشبيه له في حجمه ولونه وحركته))التحرير والتنوير ـ المصدر السابق ـ ج 29 ـ ص 37

(4)(5)(6)(7) اللسان ـ المصدر السابق ـ م 12 ـ مادة (هيم) ص 627

(+) المصدر نفسه ـ م 12 ـ مادة (هيم) ص 627

(8) الواقعة آية 58

(9) معاني القرآن ـ الفراء ـ المصدر السابق ـ ج 3ـ ص 128

الأرض الرملية التي لا تروى من الماء (+). وإذا أردنا أن نقترب من المعنى المقصود من هذه اللفظة في الصورة التشبيهية السابقة، لاستندنا إلى عدة أمور أولها: أن خاصية الشرب لا تكون إلا لمن يمتلك عضو الشرب وأجهزته وفي مقدمتها الفم، وهذا أبرز دليل على أن الحيوان هو المقصود في هذه العملية لأن الجمادات تمتاز بخاصية امتصاص السوائل، فلا تنسب إليها عملية الشرب إلا مجازا، وأما السند الثاني: فيتمثل في أن العرب كانوا يشتقون أسماء الأشياء والحيوانات من صفاتها التي تشتهر بها؛ فيقال مثلا للسيف: (الصارم) لأنه حاد يصرم الأجزاء عن بعضها البعض، ويقال للرمح (يماني) نسبة إلى البلد الذي يصنع به، وإلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة والمتعددة. ولهذا لا نستبعد أن تكون صفة هذا المرض (الهُيام) إسما أطلق على (الإبل). وأما السند الثالث: الذي نرشح به لفظة (الهيم) على أنها تعني (الإبل) داخل سياق الآية هو بلاغة هذه اللفظة في إطار الصورة التشبيهية، لأن هيأة الابل وهي تشرب دون ارتواء أبلغ بالنسبة لهيأة الأرض الرملية أثناء امتصاصها للماء؛ والسبب في ذلك أن بيئة الإنسان العربي كانت في معظمها رملية، ومن هنا فإن ظاهرة امتصاصها للماء لا تلفت الإنتباه بقدر ماتلفته هيأة الأبل وهي تشرب دون توقف. وأما المعنى الذي تذهب إليه هذه اللفظة عموما هو عدم الإستواء، سواء كان عطشا أو مرضا أو جنونا، فكل هذه المعاني التي تتصف بها (الإبل) تدل على أن حالة الموصوف غير طبيعية، كما أنها تعني مدلولا خاصا يتمثل في كون الإستمرارية في الشرب دون توقف أوتمهل شئ غير محمود، بل إنه غير طبيعي بالنسبة لفطرة الكائنات الحية، وبخاصة الإنسان الذي يجب أن يكون أرقى مخلوقات الله على الإطلاق. ولعل هذا ما رمت الصورة التشبيهية الوصول إليه من استخدامها لهذه اللفظة (هيم) بوجه عام.

ومن الحيوانات الأخرى التي خصها القرآن الكريم بالذكر - في تشبيهاته الفنية - بوصفها وسائل إيضاح (الحمار أو الحمر).

أ. الحمار: إن لفظة (الحمار): {{تطلق على النهاق من ذوات الأربع أهليا كان أو وحشيا وجمعه أحمرةٌ وحُمُرٌ وحَمِيرٌ وحُمْرٌ وحُمُورٌ وحُمُراتٌ جمع الجمع، والأنثى حمارة}}(1). كما يطلق عليه اسم (العير) أهليا كان أو وحشيا(+). وعلى العموم فإن هاتين اللفظتين (الحمار والحُمُر) قد ذكرتا

(+) مجمع البيان- المصدر السابق - م 5 ج 27 - ص 124

(1) اللسان - المصدر السابق - م 4 - مادة (حمر) ص 212

(+) المصدر نفسه - م 4 - مادة (حمر) ص 212

في تشبيهات القرآن الكريم في آيتين اثنتين؛ الأولى بلفظة (الحمار) إذ بيّنت الصفات التي تلتها وهي: [[يحمل أسفارا]](1) أنها تعني الحمار الأهلي الذي يخصص للحمل، كما دلت هذه اللفظة بأجزائها على أنها ترمز إلى خاصية الغباء والجهل بالشيء، فقال تعالى: [[...كمثل الحمار يحمل أسفارا]](2) لكن هل الحمار وحده يجهل ما يحمل ؟ وإذا كان غير ذلك فلماذا خصه القرآن الكريم بهذه الصفة؟

إن جميع الحيوانات على العموم تجهل ما تحمل فالجمل مثلا يجهل أن الذي يحمله قمحا أو شعيراً أو أي شئ آخر، وقس على ذلك بقية الحيوانات الأخرى، ولعل استخدام القرآن الكريم لهذه اللفظة (حمار) وتخصيصها بهذه الخاصية دون غيرها من الألفاظ الحيوانية الأخرى- في هذه الصورة التشبيهية - يعود إلى ما تحمله هذه اللفظة من دلالة إجتماعية؛ فقد شاع بين الناس أن الحمار يمتاز عن غيره من الحيوانات بالجهل، فقالوا مثلا: {{أجهل من حمار}}(3). وتعارفوا أيضا على أن الغباء صفة بارزة عند هذا الحيوان، واجتماع الجهل مع الغباء عند هذا الحيوان يجعلان هذه اللفظة (حمار) تعطي قوة تأثيرية للصورة التشبيهية في النفس البشرية.

ب - الحُمُرُ: وأما اللفظة الثانية من قوله تعالى واصفا حالة إعراض الكافرين عن ذكر الله : [[...كأنهم حُمُرٌ مستنفرة فرت من قسورة]](4). هي الأخرى عيّنتها الأجزاء والصفات التي تلتها (مستنفرة + قسورة) على أنها الحمر الوحشية وليست الأهلية لأن الأسود لا تعيش مع الإنسان ، بل تعيش في البراري والقفار مع باقي الحيوانات الشريدة غير الأليفة، كما عرف عن الحمار الوحشي أنه يعيش في مجموعات كبيرة لا تكاد تفترق، الأمر الذي يجعل فزعها يحدث ضجة ويثير غبارا ناقعا، وهنا تكمن بلاغة الصورة التشبيهية لهذه اللفظة (حمر) المستنفرة وبخاصة إذا كان مُستنفِرها أسدا يريد افتراسها، والشئ الذي نستشفه من معنى هذه اللفظة هو الخوف والهلع الذي يرتاب هذا النوع من الحيوانات رغم ضخامة جثتها وكثرة عددها، وهذه الحالة من أبلغ درجات الخوف والجبن، كما نلمح أيضا من معاني هذه اللفظة بأجزائها المكملة لها

(+) اللسان - المصدر السابق - م 4 - مادة (عير) ص 620

(1)(2) الجمعة آية 5

(3) مجمع الأمثال - المصدر السابق - م 1 - ص 262

(4) المدثر آية 49، 50

معنى التفرقة بعد الإجتماع أو التجمع، إذ كل فرد من أفرادها لا يهمه في هذه الآونة إلا نفسه ؛ فهو يجري في كل اتجاه طلبا للنجاة؛ ولعل هذه الصفة هي التي تتفق مع حالة المشبهين من الكفار والمشركين في إعراضهم عن ذكر الله.

ومما يطالعنا أيضا من ألفاظ الحيوانات - في النماذج التشبيهية التي بين أيدينا - لفظة (الكلب)إذيعد من الحيوانات الأليفة التي صاحبت الإنسان في حله وترحاله، في سلمه وحربه ، في جده وهزله، وبخاصة البدوي منه؛ فقد جاء في كتاب الحيوان على لسان صاحب الكلب: {{لو اعترضت جميع أهل البدو في جميع الآفاق من الأرض أن تصيب أهل خيمة واحدة ليس عندهم كلب واحد فما فوق الواحد لما وجدته..}}(1). ودور الكلب في لحياة الإنسان بعامة والعربي بخاصة هو الحراسة بالدرجة الأولى كما ورد في، جياة الحيوان النميري (+). ومن هذه المعاشرة القريبة بين الإنسان والكلب، تعرف الإنسان على كثير من خصائص هذا الحيوان الأليف؛ فمنها ماهو حسن، ومنها ماهو قبيح، فمن جملة محاسن الكلب ومناقبه ما عدده صاحب الكلب بقوله : {{..حكينا قول من عدد محاسنها ووصف مناقبها. وذكر كسبها وحراستها، ووفاءها وإلفها وجميع منافعها، والمرافق التي فيها، وما أودعت من المعرفة الصحيحة والفطن العجيبة والحس اللطيف والأدب المحمود ..وذكر صبرها على الجفا، واحتمالها للجوع ..وذكر يقظتها وقلة غفلتها..}}(2). وأصبحت بعض هذه الخصال مضربا للمثل. فإنك تسمع قولهم: أنت كالكلب في حفظ الود. فهذه بعض الصفات التي تعد محمدة للكلب، غير أنه عرف أيضا بصفات أخرى قبيحة تعد مذمة عليه؛ ومن جملة هذه الصفات (اللؤم، والجبن، الضعف، والشره، والغدر، والبذاءة، والجهل، والتسرع، والنتانة، والقذارة، وسماجة نباحها، وكثرة أذاها ، وأكلها لحوم الناس).(+) وغدت بعض هذه الصفات الذميمة في (الكلب) ميدانا للشتم ومضربا للمثل، فقال أحد الشعراء:

سرت ما سرت من ليلها ثم عرّست   على رجل بالعرج ألأم من كلب (3)

---

(1) الحيوان - المصدر السابق - م 2 ص 192

(2) الحيوان - المصدر السابق - ج 1 ص 222 - 223

(+) (أنت كالكلب في حفاظك للود)الديوان - علي بن الجهم - تحقيق خليل مردم 1895 هـ 1959م - ط 2- ص 117

(+) الحيوان - المصدر السابق - ج 1 ص 222

(3) المصدر نفسه - ج 1، ص 266

فلفظة (الكلب) هنا وُظفت للدلالة على أعلى درجات اللؤم، كما توظف هذه اللفظة أيضا للدلالة على أسما درجات البخل فيقال في المثل: {{أبخل من كلب على جيفة}}(1). ومن الصفات الأخرى التي اشتهر بها (الكلب) صفة اللهث أو اللهاث، وهي: {{حر العطش في الجوف}}(2). وهذه الصفة هي التي عناها القرآن الكريم من توظيفه لهذه اللفظة (الكلب) في قوله تعالى واصفا المنسلخ عن آيات الله تعالى، فمثله: [[كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث]](3). وعلى العموم فإن لفظة (الكلب) مطلقة تحمل معنى الشتيمة والهجاء، فإن أردت أن تشتم إنسانا فعليك أن توظف هذه اللفظة منفصلة عن أي صفة أخرى التي عُرف بها. ويمكننا أن ندرك هذا من قول الشاعر:

من يجمع المال ولا يثب به ويترك المال لعام جدبه
يهن على الناس هوان كلبه (4)

يجعل الشاعر في هذين البيتين روح (الكلب) أرخص الأرواح فقتلها لا يثير أدنى اهتمام ويؤكد هذا المعنى قول الشاعر:

فإن امرأ أنتم حوله تحفون قبته بالقباب
يهين سراتكم جاهدا ويقتلكم مثل قتل الكلاب (5)

نريد القول من هذا كله أن القرآن الكريم عندما وظف هذه اللفظة في الصورة التشبيهية اعتمد على ما تعارف عليه الناس واتضح لديهم من أن (الكلب) حيوان خسيس حقير رغم ما له من فوائد سبق ذكرها؛ فالآية الكريمة كما قيل: (+) وظّفت أخس شيء في أخس أحواله، لأنه مضرب للمثل ومصدر للشتم والذم.

إذا كانت جل الحيوانات السابقة أدرجناها تحت عنصر (ألفاظ الحيوان) فهل باستطاعتنا أيضا أن ندرج باقي الحشرات والهوام في هذا العنصر؟ فإذا ما اعتمدنا لفظ (الحيوان) بصفته معنى عاما، فإنه يجوز لنا ذلك مثلما فعل الجاحظ في كتابه الحيوان إذ وضع تحت هذا

(1) الحيوان - المصدر السابق - ج 1 ص 227

(2) اللسان - المصدر السابق - م 2 - مادة (لهث) ص 184

(3) الأعراف آية 176

(4) الحيوان - المصر السابق - ج 1 ص 254

(5) المصدر نفسه - ج 1 - ص 257

(+) التشبيهات القرآنية والبيئة العربية - المصدر السابق - فصل 5 - ص 176

المصطلح جميع دواب الأرض والبحر وطيور السماء، ويبدو ذلك في قوله: {{والحيوان على أربعة أقسام: شيئ يمشي، وشيئ يطير وشيئ يسبح وشيئ ينساح...}}(1) ومثلما فعلته واجدة مجيد الأطرقجي في رسالتها (التشبيهات القرآنية) حيث صنفت كلا من (الجراد والعنكبوت والغراب) ضمن ألفاظ الحيوان التي عالجتها في الفصل الخامس من الرسالة نذكر منها على سبيل المثال : {{...والجراد من الحيوانات التي يعرفها العربي معرفة الساخط الناقم...وشُبه بالعنكبوت وبيته في وهن ما يعتمد عليه الكفار من أولياء، وليس في بيوت الحيوان ما هو أوهن من بيوت العنكبوت}}(2). وأما إذا اعتمدنا الدقة في التصنيف والتقسيم فإننا سنفرد محورا خاصا نتناول فيه هذا النوع من الكائنات الحية.

خامسا: ألفاظ الحشرات والهوام:

يقال أن: {{الحشرة واحدة صغار دواب الأرض كاليرابيع والقنافذ والضباب ونحوها، وقيل الحشرات هوام الأرض ما لا اسم له}}(3). لم نعثر لهذا الصنف إثر تقصينا لتشبيهات القرآن الكريم إلا على ثلاث حشرات هي (الجراد والفراش والعنكبوت)، وقد وردت هذه الحشرات في ثلاث صور تشبيهية: إثنتان منها تعلقتا بحالة الناس يوم قيام الساعة، والثالثة وصفت حالة الكفار والمشركين في اتخاذهم الأولياء من دون الله؛ ففي الحالة الأولى: نجد كلا من لفظتي (الجراد والفراش)، فالأولى تبيِّن لنا حالة الناس يوم خروجهم من القبور وهم منتشرون في كل حدب وصوب: [[كأنهم جراد منتشر]](4)، وأما اللفظة الثانية فتصف لنا وضعية الناس يوم الحشر وهم يتراكمون فوق بعضهم بعض من: {{كثرة الإكتظاظ على الأرض}}(5) فهم [[كالفراش المبثوث]](6). إذا نظرنا نظرة عابرة وجدنا أن معنى هاتين الصورتين واحد فـ(الجراد المنتشر والفراش المبثوث) يصوران وضعية هذه الحشرات فوق الأرض، وبالتالي وضعية الناس يوم الحشر فوق الأرض. ولكن إذا امعنا النظر قليلا وجدنا أن لفظة (الجراد)

---

(1) الحيوان - المصدر السابق - ج 1 - ص 27

(2) التشبيهات القرآنية والبيئة العربية - المصدر السابق - ف 5 ص 173

(3) اللسان - المصدر السابق - م - مادة (حشر) ص 151

(4) القمر آية 7

(5) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 30 ص 512

(6) القارعة آية 3

المتبوعة بصفة (الإنتشار) المسبوقة بفعل الخروج: [[يخرجون من الأجداث]](1) تعطينا - إلى جانب الكثرة المعروف بها الجراد - الحركة المصحوبة بالصوت أو الخشخشة القوية التي يحدثها هذا النوع من الحشرات أثناء إنتشاره فوق البسيطة. وأما لفظة (الفراش) المتبوعة هي الأخرى بصفة الوضعية (المبثوث) والمسبوقة بفعل الكينونة: [[يكون الناس]](2)، فتعني إلى جانب الإنتشار المصحوب بالإكتظاظ قلة الحركة، لأن حشرة الفراش بعد انتشارها فوق الأرض، أو فوق أي شئ من الأشياء تقل حركتها ويزداد سكونها وركودها .

وبعد هاتين الحشرتين (الجراد والفراش) نتناول حشرة (العنكبوت) التي وظفها القرآن الكريم في صورة تشبيهية واحدة لتدل على ضعف الملجإ الذي اعتصم به الكفار والمشركون من دون الله، فحالتهم هذه تشبه حالة: [[...العنكبوت اتخذت بيتا]](3)، فلفظة (العنكبوت) هنا في هذه الصورة ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي وسيلة للدلالة على غاية، فالغاية هي (البيت) لأنها تقابل (الأولياء) الذين لجأ إليهم الكفار بينما (العنكبوت) تقابل الكفار والمشركين: [[الذين اتخذوا من دون الله أولياء]](4)، فضعف بيت العنكبوت يقابل ضعف أولياء الكفار والمشركين، وهذا ما نرجحه ليكون هدفا لرسم هذه الصورة التشبيهية، ودليلنا في ذلك التأكيد الذي جاء في آخر هذه الآية: [[...وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون]](5). وهذا لا يمنعنا من أن نستشف هدفا آخر تؤديه لفظة (العنكبوت)، ويتمثل في كون هذه الحشرة ضعيفة فسيولوجيا ثم تحتمي ببيت ضعيف هو الآخر، إذاً ضعيف يحتمي بضعيف فبئس الملجأ. وهو ما يمكن نقله عن طريق القياس التشبيهي إلى الكفار والمشركين الذين هم ضعاف ولجأوا إلى ضعاف أمثالهم من البشر والحجر وغيرها من باقي المخلوقات التي عبدوها ، وتركوا اللجوء إلى خالق هؤلاء جميعا. وهذا القياس في نظرنا يزيد في قوة الصورة التشبيهية وتأثيرها البياني

لم تنته الألفاظ التشبيهية في القرآن الكريم عند ألفاظ (الحشرات والهوام)، بل تعدتها لتشمل عدة عناصر طبيعية أخرى منها هذا العنصر الذي أطلقنا عليه مصطلح (السوائل) والذي

---

(1) القمر آية 7

(2) القارعة آية 3

(3)(4)(5) العنكبوت آية 41

(6) الديوان - الأعشى الكبير - شرح وتعليق محمد محمد حسين - المكتب الشرقي للنشر والتوزيع بيروت لبنان ص 219

ستتناوله ضمن ألفاظ العنصر الموالي:

سادسا: ألفاظ السوائل:

ونقصد بها المواد التي توفرت فيها خاصية السيلان، أثناء استخدامها في رسم الصورة التشبيهية، حتى وإن كان أصلها جامد كالمعادن وغيرها. ولفظة (السوائل) معروفة قديما فقد ذكرت في أشعار العرب في مثل قول الشاعر:

فليتك حال البحر دونك كله وكنت لقى تجري عليك السوائل (1)

وأكثر هذه (السوائل) شيوعا وأهمها في الطبيعة (الماء)، فلقد جعل الله سبحانه وتعالى من الماء كل شيئ حيا، فكل الكائنات الحية التي سبق ذكرها في ألفاظ القرآن التشبيهية تحيا جميعا بالماء. والقرآن الكريم مليئ بألفاظ (الماء)، وبخاصة في تشبيهاته الفنية التي تبين لنا علاقته الوطيدة بالحياة التي تؤول بدونه إلى الموت، ويظهر لنا ذلك جليا في أمثلة تشبيهية محسوسة نشاهدها في حياتنا اليومية أساسها الماء. والماء في تشبيهات القرآن الكريم ورد في ألفاظ مختلفة فهو إما باللفظة الصريحة (ماء)وإما بلفظة (الصيّب) وإما بلفظة (الغيث)، وإما بلفظة (الحميم). وجل هذه الألفاظ تعني على العموم سائلا واحدا هو (الماء)، إلا أنها قد تعني معاني جزئية أخرى، كمثل لفظتي (الصيّب والغيث) فهما نوعان من أنواع المطر، وكذا لفظة (الحميم) التي تعني صفة الماء عند ما يكون ساخنا. وإذا أخذنا لفظة (الماء) بلفظته الصريحة (ماء) وجدناه ورد ثلاث مرات في ثلاث آيات قرآنية؛ ففي اثنتين منها ورد متصلا بأداة التشبيه (الكاف)(+)، وليس المقصود منه حسب المعنى أنه هو المشبه به، بل حسب بعض التفاسير أنه جزء من باقي الأجزاء الأخرى التي تشكل في مجملها صورة المشبه به، ولكنها تعد نقطة الإنطلاقة لأنها أساس حياة نبات الأرض الذي يؤول بعد نضارته وبهجته حطاما ويصير حصيدا(+). وأما اللفظة الثالثة فإنها لم تتصل بأداة التشبيه كسابقتيها بل إنها وردت مجردة منها بهذا اللفظ (ماء)(+)، وورودها بهذا الشكل سمح لها أن تكون هي

---

(1) الديوان ـ الأعشى الكبير ـ شرح محمد محمدحسين ـ المكتب الشرقي للنشر والتوزيع بيروت لبنان ص 219

(+) الرعد آية 19 ـ الكهف آية 44

(+) (شبهت حالة الحياة في سرعة تقضيها وزوال نعيمها بعد البهجة به، وتزايد نضارتها، بحال نبات الأرض في ذهابه حطاما ومصيره حصيدا) التحرير والتنوير ـ المصدر السابق ـ ج 11 ـ ص 141

(+) (ضرب تبارك وتعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء ...) تفسير ابن كثير ـ المصدر السابق ـ م 2 ـ ص1413

الشطر الأول من الصورة .فـ(الماء) الصافي الذي يمكث في الأرض وينفع الناس هو الجانب الخيِّر فيها، وأما (الغثاء) الذي يصطحبه الماء فهو الشطر القبيح على كل الوجوه هو الذي يحركها ويعطيها الإبانة والظهور.

وأما عن ورود الماء بلفظة (الغيث والصيب) فقد حدث هذا في آيتين اثنتين وفي صورتين تشبيهيتين مختلفتين؛ فلفظة (الغيث) وردت هي الأخرى للدلالة على نفس المعنى الذي دلت عليها اللفظتان السابقتان للماء، وهو كونه وسيلة طبيعية لإحياء النبات وهيجانه الذي ينتهي به فيما بعد إلى الحتمية التي لا بد منها لكل كائن حي، وهي حتمية الزوال والفناء . فهو في هذه الوضعية استخدم رمزا للدلالة على الحياة التي تحمل في طياتها الفناء.

وأما لفظة (الصيب)- التي تعني نوعا من الماء المنزل من السماء - فإنها لم توظف كسابقاتها من الألفاظ، بل وُظفت توظيفا مغايرا، فهي هنا ليست أداة للحياة، وإنما هي أداة لإنتشار الظلام وعصف الرعود ولمعان البروق، فموقعها في قوله تعالى: [[أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق..]](1). يؤدي معنى الخوف والهلع، لا معنى الإحياء والنماء.

وأما اللفظة الأخرى (للماء) والتي صرح بها القرآن الكريم في لفظة (الحميم) في قوله عز وجل مُشبِّهاً غليان طعام الأثيم: [[كغلي الحميم]](2). فالحميم كما جاء في اللسان يعني: {{ الماء الحار}}(3). أو الساخن، فهي تعني صفةً للماء بلغ درجة عالية من الحرارة والسخونة، وفي نفس الوقت يمكن أن نلتمس من هذه اللفظة عدم الإستطاعة والقدرة والتحمل، لأن الماء إذا بلغ ذروته سواء كان باردا أم ساخنا يكون بالنسبة للإنسان صعب الإحتمال. ولكن هذه اللفظة (حميم) لم تأت منفردة، بل سبقت بلفظة أخرى هي (الغليان) إذاً فـ(الماء +الغليان) يعطينا - زيادة على الحرارة الشديدة - الشكل الذي يكون عليه الماء أثناء الغليان، وتعني بذلك الحركة المستمرة للماء أثناء غليانه، لأن الماء قد يكون ساخنا وفي نفس الوقت راكدا، وشكله في هذه الحالة يكون أقل تأثيرا على النفس من صورته وهو ساخن في حركة غليان، فلا شك أن المنظر الأول يكون أقرب إلى طبيعة الماء من المنظر الثاني، وهذا ما أعطى الصورة التشبيهية في هذه الآية القوة على التأثير والبلاغة في التعبير.

---

(1) البقرة آية 19

(2) الدخان آية 18 ـ 19

(3) اللسان ـ المصدر السابق ـ م 12 ـ مادة (حمم)ص 153

وآخر ألفاظ (السوائل) ورودا في تشبيهات القرآن الكريم لفظة (المهل)؛ لقد وردت هذه اللفظة ثلاث مرات في ثلاث آيات قرآنية، اثنتان منها في وصف شراب وطعام أهل النار ، الأولى في قوله تعالى: [[وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل]](1)، والثانية في قوله عز وجل : [[إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل تغلي في البطون]](2). وأما اللفظة الثالثة فيختلف موضوعها عن موضوع اللفظتين السابقتين، فقد وُظّفت للتعبير عن حالة السماء وشكلها أثناء قيام الساعة فهي: [[...كالمهل]](3) ولفظة (المهل) تعني في اللغة عدة معان فهي إما: {{صديد الميت أو إسم يجمع معدنيات الجواهر، أو هو مذاب من صفر أو حديد، أو هو دردري الزيت}}(4). وهذا المعنى الأخير هو الذي ذهب إليه صاحب التحرير والتنوير - أثناء تفسيره لمعنى الآيات السابقة - : {{والمهل بضم الميم دردري الزي والتشبيه به في سواد لونه وقيل في ذوبانه}}(5). وإذا كان هذا المعنى للفظة (المهل) هو المقصود في هذه الآيات، فإن وجه الشبه الذي ذهب إليه صاحب التحرير والتنوير يبتعد نوعا ما عن بلاغة الصور التشبيهية التي تؤديها هذه اللفظة؛ فهو إذا اقترب من صفة السماء - في اللون أو الذوبان - فهو لا يقترب من صفة الماء وشجرة الزقوم، لأن هذا المعنى لا يتلاءم مع الألفاظ التي تلت هذه اللفظة (المهل) في سياق الآيتين: فلفظتا (يشوي، الوجوه) في وصف حالة الماء تدل على أن (المهل) سائل مذاب يمتاز بالسخونة الشديدة، وهذه السخونة تقطع أمعاء أهل النار. وكذلك الأمر بالنسبة للفظتي (يغلي في البطون) في وصف شجرة الزقوم تؤديان نفس المعنى السابق والمتمثل في السيولة المصحوبة بالسخونة الشديدة التي تجعل طعام أهل النار لا يستساغ.

ومن الألفاظ الأخرى غير (السوائل) التي اعتمد عليها القرآن الكريم في تشكيل صُوّره التشبيهية بعض ألفاظ الظواهر الطبيعية التي يراها الإنسان أمامه في حياته اليومية ، والتي سيكون كلامنا عنها في العنصر الموالي.

سابعا: ألفاظ بعض الظواهر الطبيعية:

1 - لفظة السراب: تشتق هذه اللفظة من سرب يسرب سروبا أي يجري جريا (+) وشكله

(1) الكهف - آية 29

(2) الدخان/الآية43-45

(3) المعارج آية 8

(4) اللسان - المصدر السابق - م 11 - مادة (مهل) ص 633 - 634

(5) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 25ص 634

معروف فهو يجري على وجه الأرض يتراءى للناظر بتموجاته على أنه ماء، وعادة ما يكون وقت الظهيرة عندما يشتد الحر، وأما موقعه فيكون في الأراضي المنبسطة وبخاصة الصحراوية. والقرآن الكريم قد وظّف هذه اللفظة (سراب) في آيتين اثنتين تشتركان في المعنى العام وتختلفان في المعنى السياقي الخاص بكل منهما؛ فنجد مثلا اللفظة الأولى من قوله تعالى: [[...كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء]](1). قد دلت على المعنى العام الذي تحمله هذه اللفظة وهو الشكل المعروف به، كما أنها دلت على المعنى الخاص الذي حددته وظيفتها داخل إطار الآية مع جملة الألفاظ التي تلتها؛ فألفاظ (بقيعة +يحسبه +الضمآن +ماء) بينت أن علاقة (السراب) في هذه الآية علاقة متصلة اتصالا وثيقا بالماء الذي تنبني عليه حياة كل كائن حي وأما اللفظة الثانية لـ(السراب) فقد وردت منفصلة عن أداة التشبيه وجاءت في آخر الصورة التشبيهية نعتا للجبال يوم قيام الساعة: [[...فكانت سرابا]](2). فإذا ما جردنا هذه اللفظة عن سياق الآية، فلا شك أنها تحمل المعنى العام للسراب كسابقتها، ولكن إذا ما ربطناها بالمعنى الخاص للآية وجدناها تنحو نحو معنى الحقيقة الزائفة، فالجبال يراها الناظر من بعيد فيظنها حقيقة، ولكنها في واقع الأمر ليست كذلك: {{لِتَفتُّتِ أجزائها وانبثاثها}}(3). ولفظة (السراب) لها معان كثيرة بالنسبة للإنسان بعامة والعربي بخاصة، فإلى جانب حقيقتها الزائفة والمتمثلة في معنى (لا شيء) قد تعني لديه (الخداع والمغالطة)، كما يمكن أن تحمل لديه معنى (الموت والهلاك) لأن الجري وراء السراب دون فائدة يؤدي إلى زيادة في التعب والعطش، وهذا يؤدي إلى النهاية المشؤومة التي كثيرا ما حدثت في حياة العرب في صحرائهم القاحلة. كما يمكن أن ترمز لديه أيضا إلى (الأمل الضائع) لأن عدم إدراك الحقيقة التي يمثلها (السراب) أمل ضائع. ولهذا أصبح (السراب) مضربا لكل من يسعى وراء أي شيء يستحيل تحققه في الواقع. وبهذا يمكن القول: إن توظيف القرآن الكريم لهذه اللفظة (سراب) - في تشبيهاته الفنية - لم تخرج عن المعنى الإجتماعي الذي يحمل شحنات نفسية معينة تزداد كلما كان الشعور الجمعي أقرب إلى إدراك حقيقة (السراب) ومدى تأثيره في نفسيةالإنسان

(+) اللسان - المصدر السابق - م1 - مادة (سرب) ص 465 - + - الجامع لأحكام القرآن - المصدر السابق - ج 12 ص 282

(1) النور آية 38

(2) النبأ آية 30

(3) تفسير البيضاوي - المصدر السابق - ص 780

حينما يكون في أمس الحاجة إلى الماء وبخاصة في الصحراء القاحلة ولكن يتحول هذا الماء إلى (سراب) أي إلى لا شيء وبالتالي إلى الهلاك المحتوم.

2 ـ ألفاظ الليل والظلام والسحاب:

يقال أن: {{الليل عقيب النهار ومبدؤه من غروب الشمس}}(1) وهو: {{ضد النهار}}(2)، ويمثل الظلام، بينما يمثل النهار الضياء.(+) والظلمات: مفردها ظلمة وهي خلاف النور وهي الظلماء ، فيقال ليلة ظلماء أي مظلمة: {{و (الظلام) إسم يجمع ذلك كالسواد ولا يُجمع يجري مجرى المصدر}}(3). والسحاب: الغيم وهو جمع سحابة وهو ألوان، أشهرها الأبيض والأسود

نفهم مما تقدم أن (الليل) مصطلح يدل على الزمن الذي يلي النهار، وأن الظلمات صفة تعني السواد وهو الوجه المظلم لهذا الزمن والذي عادة ما يكون بالليل وهو على أنواع، سواد كثيف أو خفيف أو غيره من الصفات الأخرى، فالليل والظلمات يشتركان في صفة السواد بل أن الظلمات هي السواد في حد ذاته. وعلاقتهما بالليل علاقة وطيدة. وأما السحاب فهو الغلاف الذي يغطي صفحة السماء، ويشترك مع الليل والظلمات في حجب أشعة الشمس وتغطيتها. فإذا ما كان كثيفا اشترك معهما في السواد أو في اللون بصفة عامة. وأما إذا كان خفيفا اشترك معهما في التغطية.

لقد وردت لفظة (الليل) في تشبيهات القرآن الكريم الفنية في آية واحدة في وصف أوجه الكفار والمنافقين يوم القيامة في قوله تعالى: [[قطعا من الليل مظلما]](4). إن توظيف لفظة (الليل) في هذه الآية لم يكن مفردا مطلقا بل كان مقيدا بالظلام؛ فـ(الليل) وحده كما سبق قد يكون غير مظلم، كأن يكون مقمرا مثلا أوحوه، فالظلام شرط يقيد الليل في هذه الآية حتى تكون صورته أشد ظلمة وبالتالي يكون مدلولها في رسم الصورة أكثر قوة وأشد تأثيرا في النفس.

وأما عن لفظة (الظلام) فلم نعثر عليها ـ ضمن تشبيهات القرآن الكريم ـ إلا في آية واحدة سورة النور، وقد ذكرت بعد أداة التخيير (أو) في صدارة الصورة التشبيهية، ولم تكن هي الصورة ذاتها رغم احتلالها مكانة الصدارة والتصاقها بالأداة: [[...أو كظلمات]](5). إذ أن

(1)(2) اللسان ـ المصدر السابق ـ م11 ـ مادة (ليل) ص 607

(+) المصدر نفسه ـ م 12 ـ مادة (ظلم) ص 377ـ378

(3) المصدر نفسه ـ م 12 ـ مادة (ظلم) ص378

(4) يونس آية 27

(5) النور آية 39

الألفاظ التي تلتها تتآلف جميعا في رسم الصورة العامة المراد توضيحها مثل ألفاظ (البحر +اللجي + الموج + السحاب). وإذا أردنا أن نلتمس تفسيرا لتقديم القرآن الكريم لهذه اللفظة (ظلمات) عن باقي الألفاظ الأخرى التي تلتها وجعلها المحور الأساسي لهذه الصورة التشبيهية لوجدنا أن المعنى العام الذي تذهب إليه الآية الكريمة هو (الظلمات) حسب تقدير أحد المفسرين في قوله: {{...والتقدير والذين كفروا أعمالهم كظلمات}}(1). وهذا ما يبدو واضحا من خلال لفظة (البحر) جئ بها داخل (الظلمات) في قوله تعالى: [[في بحر لجي]](2). وكذلك لفظة (السحاب) التي أدخلت هي الأخرى في (الظلمات) فوق البحر في قوله عز وجل: [[من فوقه سحاب]](3). والذي يؤكد هذا المعنى أكثر الألفاظ الأخيرة من الصورة التشبيهية: [[ظلمات بعضها فوق بعض]](4). فقد بدأت بالظلمات وانتهت بها. إذاً فالمعنى المقصود هنا هو (الظلام) مع اشتداد هوله بالبحر والسحاب حتى يتعاظم الخوف والهلع في نفوس الكفار لما للبحر من أهوال وأخطار وبخاصة في الظلمات التي تنعدم فيها الرؤيا. زيادة على ذلك تكاثف السحب إلى درجة تجعل الجو مظلما ظلاما حالكا. فهكذا أعمال الكفار في ميزانه تبارك وتعالى.

وأما لفظة (السحاب) فإنها حضيت هي الأخرى في تشبيهات القرآن الكريم باستخدامين اثنين وبلفظتين مختلفتين لفظا ومعنى جزئيا خاصا بكل لفظة؛ فالأولى استخدمت باللفظ الصريح (السحاب) في وصف سير الجبال في قوله تعالى: [[تمر مر السحاب]](5). وأما اللفظة الثانية فقد وردت بهذا الشكل (الظلل) في فوصف الموج في قوله تعالى: [[في موج كالظلل]](6).

لقد دلت كل من لفظتي (السحاب والظلل) على المعنى العام وهو الغيم لأن (الظلة) كما جاء في اللسان هي: {{أول سحابة تظل}}(7). إذاً فالسحاب أو الظلة أو الظلل شئ واحد مع اختلاف في الكم والهيئة فقط. وإذا نظرنا إلى وظيفتهما في هاتين الصورتين التشبيهيتين فإننا نلاحظ اختلافا دلاليا. فوقوع لفظة (السحاب) في الآية الأولى دلت على الوظيفة الحركية

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 18 ص 255
(2)(3)(4) النور 39
(5) النمل آية 90
(6) لقمان آية 31
(7) اللسان - المصدر السابق - مادة (ظلل) ص 416

التي يتميز بها، ولم تدل على الجانب الشكلي الذي يعرف به والمتمثل في وظيفة التغطية . بينما نجد العكس في لفظة (الظلل) التي وُظِّفت للدلالة على الجانب الشكلي المتمثل في عملية التغطية، فشكل الغمامة أو الظلة هو المقصود لتوضيح صورة الموج المرتفع فوق السفين.

3 ـ لفظ الريح:

مما لاشك فيه أن ظاهرة (الريح) قد أثارت اهتمام الإنسان وانشغاله منذ القديم، فاستعان بها أحيانا، وعانى منها أحيانا أخرى؛ والقرآن الكريم المنزل من لدن العزيز العليم أولى اهتماما كبيرا للرياح فأعطى محاسنها ومثالبها بالنسبة للإنسان؛ فمن محاسنها ما جاء في قوله تعالى: [[حتى إذا كنتم في الفلك وجرينا بهم بريح طيبة]](1)، فالريح الطيبة هنا هي منجاة لراكبي البحر. ومن محاسنها أيضا عملية الإخصاب استنادا إلى قوله تعالى: [[وأرسلنا الرياح لواقح]](2)، فعملية التلقيح هذه تحمل للإنسان الخصب والنماء، لأن الكثير من النباتات المثمرة يلقح بعضها البعض الآخر بواسطة الريح. ومن مثالب (الرياح) أنها جُعلت وسيلة للانتقام من البشر بعد كفرهم وعصيانهم مصداقا لقوله تعالى: [[وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية]](3) والآيات حول هذا المعنى كثيرة ومتنوعة. وفي هذا الإطار الأخير لوظيفة (الريح) التخريبية، نجد القرآن الكريم يوظف هذه اللفظة مرة واحدة في تشبيهاته الفنية لما أراد أن يبين حقيقة إنفاق الكافرين لأعمالهم التي يحسبون أنهم يحسنون بها صنعا، فمثلها: [[كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته]](4). إن الملاحظ في هذه الصورة التشبيهية هو أن لفظة (الريح) لم تكن هي المشبه به المقصود لذاته، بل كانت هي المحور أو الأداة التي اعتمدها القرآن الكريم في تحريك الصورة ورسمها، فـ(الريح) هي التي حملت (الصِرّ) وهي التي قامت بفعل الحركة التي دمرت الزرع وأهلكته.

هذه إذاً ألفاظ بعض الظواهر الطبيعية التي وظفها القرآن الكريم في تشبيهاته الفنية لتوضيح المعاني وتبيانها. وليست هي آخر ألفاظ القرآن التشبيهية، بل هناك ألفاظ أخرى لم يأت ذكرها بعد، ومن هذه الألفاظ ما يتعلق بالأشياء الطبيعية الجامدة التي تمثل جزء بارزا

---

(1) يونس آية 22

(2) الحجر آية 22

(3) الحاقة آية 5

(4) آل عمران آية 116

في بيئة الإنسان الطبيعية. وهذا ما ستتعرف عليه من خلال معالجتنا لألفاظ العنصر الموالي

ثامنا: ألفاظ بعض العناصر الطبيعية:

والعناصر الطبيعية الجامدة التي استخدمها القرآن الكريم في تشبيهاته الفنية أربعة عناصر هي: (الجبال - الحجارة - الهباء - الكواكب).

أ - الجبال: لقد أخذت المكانة الأولى في ألفاظ هذه المجموعة من تشبيهات القرآن الكريم إذ وُظّفت أربع مرات في أربع صور تشبيهية، واحدة منها بنفس اللفظ (الجبال) في وصفه تعالى لموج البحر: [[وهي تجري بهم في موج كالجبال]](1). والثانية بلفظ (الطود) حينما ضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر فانفلق فوصف لنا القرآن الكريم ذلك بقوله: [[كل فرق كالطود العظيم]](2).

إذا تأملنا لفظتي (الجبال والطود) في التشبيهين السابقين وجدناهما تؤديان معنى واحدا وهو: الشكل المصحوب بالعظم والقوة؛ فالأمواج تشبه الجبال شكلا في تموجاتها، كما تشبهها عظما وقوة في ارتفاعها، كما أن الفِرْق يشبه الطود - الذي هو الجبل - في الشكل المرتفع عن سطح البحر في العظم والقوة. وأما عن الإستخدام المتبقي للفظة (الجبال) فإنه ورد في آيتين وبنفس اللفظ (الأعلام) وبنفس المعنى المتمثل في الهيئة أو الشكل، إذ يصف لنا القرآن الكريم (الجواري)- وهي السفن - بـ(الأعلام) التي - هي الجبال كما ورد في اللسان (+)- فالسفن تشبه الجبال في شكلها الخارجي وهي منتشرة فوق سطح البحر، كما يمكن أن تشبهها في العظم والقوة، غير أن الناظر إلى السفن من بعيد وسط البحر لا يراها - رغم عظمها وقوتها - تصل إلى عظم الجبال وارتفاعها، لأن الرؤيا قد تمت من بعيد، بعكس صورة الموج بالنسبة للناظر من قريب وهو داخل السفين يراه مرتفعا ارتفاعا شاهقا مثلما جاء في الصورة السابقة إذاً فلفظة (الجبال) كما سبق استخدمت للدلالة على العظم والقوة، وكذا على الشكل المتمثل في التنوءات والإنحناءات المتتالية والمتناسقة ارتفاعا وانخفاضا في مقابل الأشياء الأخرى.

ب - الحجارة: تطلق لفظة (الحجارة) عموما على الصخور كما ورد في المعجم: {{الحجرة: الصخرة

(1) هود آية 42

(2) الشورى آية 30

(+) اللسان - المصدر السابق - م 12 - مادة (علم) ص 420

وتجمعها أحجار وحجار وحجارة}}(1) وعلى العموم فإن الحجارة - التي هي الصخور بأنواعها المختلفة تعني بالنسبة لحياة الإنسان الشئ الكثير، فهي إما مواضع للسكن كما جاء في الحديث: <<تبعه أهل الحَجر وأهل المَدَر، يريد أهل البوادي>>(2) أو هي مثل للخيبة والخسران كما قال عليه الصلاة والسلام: <<الولد للفراش وللعاهر الحَجَر: أي الخيبة>>(3)، وتستخدم في الغالب الأعم للدلالة على الصلابة والقوة فيقال: {{رُمِيَ فلان بحَجَرالأرض إذا رمي بداهية الرجال}}(4)، أي بأصلبهم عودا وأشدهم بأسا. وهذا المعنى هو الذي ذهب إليه القرآن الكريم في وصفه لقلوب بني إسرائيل الذين أمروا بذبح البقرة وشاهدوا إحياء الميت، ولكن قلوبهم بقيت على حالها من القساوة، فشبهها بقساوة الحجارة، فقال تعالى: [[...فهي كالحجارة]](5)، ثم عقبتها أداة التخيير (أو) لتكون هذه القلوب أكثر درجة في القسوة من الحجارة: [[أو أشد قسوة]](6). ومن الحجارة ما هو أملس فيقال له: {{...صفواء وصفا وصفوان}}(7) وكل ورد في كلام العرب، فمن الأول قول الشاعر:

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل(8)

ومن الثاني: اسم لأحد الجبلين بمكة وهو (الصفا)، ومن الثالث قول أوس ابن حجر:

على ظهر صفوان كأن متونه علِلن بدهن يزلق المتنزلا (9)

إذاً فالميزة التي يتمتع بها هذا النوع من الحجارة هي النعومة، وهي الخاصية الحجرية التي اعتمدها القرآن الكريم في توضيح خيبة أمل أعمال المرائين من الكفار والمنافقين يوم تنفع الناس أعمالهم، وهم يجنون الخيبة والخسران بدلا من الفوز والفلاح لأن نفقاتهم كما قال تعالى: [[...كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا]](10). لقد ذكرت لفظة (الصفوان) في أول الصورة التشبيهية لأنها هي المكان الذي يوضع عليه (التراب) ثم جيئ بـ(الوابل) الذي هو المطر في آخر هذه الصورة ليكون العنصر المحرك لها، فهو الماحي

---

(1) اللسان - المصدر السابق - م4 - مادة (حجر) ص 165

(2)(3)(4) المصدر نفسه - مادة (حجر) ص 166

(5)(6) البقرة آية 73

(7) اللسان - المصدر السابق - مادة (صفا) ص 464

(8) الديوان امرؤ القيس - المصدر السابق - ص 83

(9) الديوان - أوس بن حجر - تحقيق محمد يوسف نجم - دار بيروت للطباعة والنشر 1980 ص 86

(10) البقرة آية 263

والمزيل لذرات التراب المستقرة فوق (الصفوان) تلك الصخرة الملساء لأنها أصلح وأنجع لتبيان علامة الزوال والمسح النهائي لجزيئات التراب، فلو كانت الصخرة غير ملساء لما زال التراب نهائيا لأن بها نتوءات تجعله يستقر في بعض منها.

والقرآن الكريم إذ يوضح هذه المادة الحجرية الطبيعية في تشبيهاته ينطلق من خبرة الناس الطويلة والمعمقة لهذه المادة وإلى ما تحمله هذه المادة من دلالات حسية وأخرى معنوية في نفسياتهم وبخاصة العرب، لأنهم كانوا ينحتون منها آلهتهم التي كانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى، ولا شك أنهم كانوا يدركون طبيعة الصخور وصلاحياتها باختلاف أحجامها وأنواعها، لأنها كانت مادتهم الأولى في تجسيد ما يعبدون من أصنام، وما يستخدمون من أدوات منزلية حجرية.

ج - الهباء: لاحظنا فيما سبق أن القرآن الكريم قد استخدم الجبال للدلالة على الهيأة والعظم والقوة، وأنه وظف الحجارة لتفيد معنى الصلابة والقسوة والنعومة: ثم يوظف (الهباء) - الذي هو سواء ذرات التراب أو الغبار أو ذرات الرماد أو أي جسم دقيق -(+) للدلالة على دقة الشيئ وخفته، فالذرة كما نعلم هي أصغر شيئ يقاس عليه بالنسبة للعين المجردة وهي عبارة عن جزيئات صغيرة وخفيفة:{{لا ترى إلا في أشعة الشمس المنحصرة في كوة أونحوها تلوح كأنها سابحة في الهواء وهي أدق من الغبار}}(1). ويعبر القرآن الكريم أيضا بلفظة (الهباء) عن الوجود غير المفيد فذرات الغبار رغم انتشارها وكثرتها في الهواء فإن الفائدة منها منعدمة بالنسبة للإنسان العادي، فكذا الأمر بالنسبة للكفار والمنافقين فإن أعمالهم موجودة في الدنيا ولكنها غير نافعة لهم في الآخرة فكلها عبارة عن: {{...هباء}}(2) لا قيمة له في ميزان العدل الإلهي يوم يقوم الأشهاد.

د - الكواكب: تمثل الكواكب بالنسبة للإنسان منذ القديم إلى يوم الناس هذا اللغز المحير وذلك لبعدها عنه، ولأشكالها المختلفة والمتنوعة، فكان ولايزال يحاول التعرف عليها بشتى وسائل المعرفة، إلا أن الشيئ المحسوس الذي تعارف عليه الناس قديما وحديثا هو أن لبعض هذه (الكواكب) نورا ينبعث منها كما هو الحال بالنسبة لكوكب الشمس، وأن البعض الآخر

(+) اللسان - المصدر السابق - مادة (هبا)ص 350

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 19 - ص 8

(2) (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)الفرقان آية 23

الآخر منها مظلم يمتلك خاصية إنعكاس النور عليه كما هو الحال مع كوكب القمر؛ والقرآن الكريم يختار من بين هذه الكواكب الكوكب الذي يمتاز بالإنارة ويوظفه في صورة تشبيهية فريدة من نوعها وذلك في جزء من صورة تشبيهية مركبة ليوضح حالة صفاء الزجاجة المنبعث منها النور: [[...كأنها كوكب دري]](1). فلفظة (الكوكب) هنا لم تستخدم للدلالة على عظم الحجم الذي عرفت به الكواكب، بل استخدمت للدلالة على الإنارة الثاقبة الصافية، ولذلك قُيِّدت بلفظة (الدري) بمعنى: {{...الثاقب المنير}}(2)، وذلك تقريب لصفاء نوره تعالى ولله المثل الأعلى. بهذا القدر من الأمثلة حول ألفاظ (الكواكب) ننهي حديثنا حول ألفاظ العنصر التاسع لننتقل إلى معالجة ألفاظ العنصر العاشر من هذا الفصل، والذي خصصناه لمجموعة من الألفاظ التشبيهية المتنوعة، والتي أطلقنا عليها العنوان التالي:

تاسعاً: بعض الألفاظ التشبيهية الأخرى:

إن هذه الألفاظ التشبيهية المتبقية التي لم تصنف ضمن العناصر الأساسية السابقة تمتاز بعمومية معانيها واشتراكها بين كثير من مخلوقات الله وهذا ما ستتعرف عليه من خلال الألفاظ الآتية:

أ - لفظة الأم : لو أخذنا هذه اللفظة مستقلة عن أي دلالة سياقية لوجدناها عنصرا مشتركا بين جميع الكائنات الحية، ولا يمكن بحال من الأحوال أن ننسبها إلى الإنسان وحده أو الحيوان أو النبات. وأما إذا أخذناها ضمن سياق الآية - التي تقول عن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بأنهن أمهات المسلمين في قوله عز وجل: [[...وأزواجه أمهاتهم]](3). لوجدناها تعني الإنسان دون غيره من الكائنات الأخرى، ولكن رغم هذا فإن لفظة (الأم) تبقى جزء مشتركا بين الجميع لما لها من معاني كثيرة؛ فهي مصدر للخصب والنماء والحياة لجميع الكائنات الحية، وهي أيضا تعني لديهم منتهى الحب والدفء والحنان، كما ترمي أيضا هذه اللفظة إلى معنى الغريزة التي بثها الله تعالى في الكثير من خلقه. والعودة إلى لفظة (الأم) في سياق الآية الكريمة نجد مدلولها حسب بعض التفاسير(+) يعني إلى جانب التقدير والتعظيم معنى التحريم تحريم النكاح، وهو المعنى الأساسي الذي وُظِّفت من أجله هذه اللفظة.

---

(1) النور آية 35

(2) اللسان م 4 - مادة (درر) ص 282

(3) الأحزاب آية 6

(+) ((أي منزلات منزلة أمهاتهم في تحريم النكاح واستحقاق التعظيم وأما فيما عدا ذلك من النظر إليهن والخلوة بهن وارثهن ونحو ذلك فهن كالأجنبيات)) روح المعاني - المصدر السابق - م 7 - ج 21 - ص 151

ب ـ ألفاظ الأخوة والولاء واللهو واللعب : وعلى منوال لفظة (الأم) يمكن أن تتناول هذه الألفاظ. فلو أخذنا صفة (الأخوة)(+) كلفظة مستقلة عن سياق الآية لأفادت العموم دون الخصوص وكذا صفة (الولاء)(+) التي تكون من الإنسان والحيوان على السواء. وأما لفظتا (اللهو واللعب) فقد وردتا بصيغة العموم إذ لم تقتصر على كائن بعينه، وكان ذلك في آيتين اثنتين في وصف موضوع واحد وهو الحياة الدنيا؛ الأولى في قوله تعالى من سورة العنكبوت: [[إما هذه الحياة الدنيا إلا لعب ولهو]](1)، والثانية في قوله تعالى في سورة محمد: [[إنما الحياة الدنيا لعب ولهو]](2). إن (اللهو واللعب) من الأفعال التي تشترك بين الإنسان والحيوان وعالم الجن ؛ فهذه المخلوقات باستطاعتها أن تلهو وتلعب، ولذلك فلا نستطيع حصر هذين العمليتين في دائرة الإنسان فقط. إلا أن الشائع والواضح عندنا هو لهو الإنسان ولعبه لأن صورته واضحة فبإمكان أي إنسان أن يقوم بتجربة اللهو واللعب ليعرف قيمة الوقت الذي يضيعه فيقدرعاقبة لعبه ولهوه في نهاية التجربة دون أن يحصل على فائدة ترجى، وهنا تكون بلاغة التشبيه .

ج ـ لفظة البيض: وردت هذه اللفظة في آية واحدة في وصف حور أهل الجنة من قوله تعالى: [[كأنهن بيض مكنون]](3)؛ فالمعروف عن (البيض) أنه يمتاز بالرخاوة والليونة وهذا هو الشائع فيقال للإنسان الرخو: كأنك بيضة. ويقال للذي يمشي الهويتاء: كأنك تمشي على البيض وإلى غير ذلك من الأمثلة الشائعة. ولكن هل هذا هو المعنى الذي ترمي إليه هذه اللفظة التشبيهية داخل سياق الآية الكريمة ؟ لو وُظِّفت هذه اللفظة مفردة دون لفظة (مكنون) يكاد المعنى يكون مماثلا للأمثلة السابقة ولكن اقترانها بلفظة (مكنون) التي تعني المستور جعلتها تبتعد عن المعنى العادي الذي يعرف به البيض، وتقترب مما تعارفعليه العرب قديما في صحرائهم من أن البيض يمتاز بالبياض الناصع وبخاصة بيض النعام إذا كان محفوظا. وقد وقد اتخذه الشعراء مصدرا للتشبيه، فقال الشاعر:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها ... تمتعت من لونهاغير معجل (4)

(+) ((إنما المؤمنون إخوة))الحجرات آية 10

(+) إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)) فصلت آية 33

(1)العنكبوت آية 64

(2)محمد آية 37

(3)الصافات آية 49

(4) ديوان امرئ القيس ـ المصدر السابق ـ ص 70

فاللون الأبيض الناصع هو الذي أراده الشاعر من توظيفه للفظة (البيض)، وهذا هو الذي يرجح ليكون مدلول هذه اللفظة داخل إطار الآية التشبيهية السابقة.

د ـ ألفاظ الرميم والمعلقة والصريم: فإذا تناولنا كل لفظة على حده وجدناها تحمل في حد ذاتها معاني مختلفة؛ فمثلا لو أخذنا لفظة (الرميم) فإنها تعني لغة: {{الخلق البالي من كل شيء}}(1)، ولكن هذا الشيئ قد يكون نباتا فيقال زرع بالي وبلي الزرع، وقد يكون عظاما، قال تعالى: [[من يحيي العظام وهي رميم]](2). والكشف عن تحديد معنى هذه اللّفظة (الرميم) في قوله تعالى: [[وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيئ إلا جعلته كالرميم]](3) يبقى صعب المنال، لأن بعض المفسرين يرى أن معنى: {{كالرميم: كالرماد من الرم والبلى والتفتت}}(4). وأما البعض الآخر فيرى أن معناها: {{كالشيئ الهالك البالي وهو نبات الأرض إذا يبس وديس وقيل الرميم العظم البالي السحيق}}(5). والشيئ الذي نرجحه لتفسير مدلول هذه اللفظة داخل سياق الآية هو معنى العموم دون الخصوص، وهذا ما ذهب إليه صاحب اللسان قبل قليل في تفسير لفظة (الرميم) منفصلة عن معنى الآية. والسبب في ذلك هو أن كل شيئ يمكن أن يصير رميما، فلا يستلزم حصره في شيئ بعينه،إلا إذا أردنا أن نميل إلى ما هو شائع ومنتشر بين الناس وهو (النبات) لأنه أقرب صورة وأوضحها أمام الإنسان.

وبهذه الكيفية يمكننا أن نتناول اللفظتين المتبقيتين، فلفظة (المعلقة) التي استخدمت في آية واحدة في قوله تعالى ناهيا الرجل عن معاملة زوجته معاملة قاسية حينما يهجرها هجرا كليا فيتركها: [[...كالمعلقة]](6) التي تعني: {{الشيئ المعلق بين السماء والأرض}}(7). والشيئ المعلق غير معروف أو مُعرَّف، وما أكثر الأشياء المعلقة بين السماء والأرض.

وأما لفظة (الصريم) التي وُظّفت هي الأخرى في آية واحدة في قوله تعالى واصفا الحالة

---

(1) اللسان ـ المصدر السابق ـ م 12 ـ مادة (رمم) ص 253

(2) يس آية 77

(3) الذاريات آية 41 ـ 42

(4) تفسير البيضاوي ـ المصدر السابق ـ ص 622

(5) مجمع البيان ـ المصدر السابق ـ م 6 ـ ج 26 ـ ص 19

(6) النساء آية 128

(7) صفوة التفاسير ـ المصدر السابق ـ م 1 ـ ص 308

التي آلت إليها جنة الظالمين من البشر لأنفسهم: [[فأصبحت كالصريم]](1) فإنها تضمنت دلالات متنوعة، ولعل هذا ما جعل المفسرين يختلفون في تبيان معناها داخل إطار الآية؛ فصاحب روح المعاني يدرج تفسيرات مختلفة لها، فعنه: {{أنها كالبستان صرمت ثماره}}(2)، وعنه أيضا عن ابن عباس: {{...كالرماد الأسود}}(3)، أو أنها: {{رملة باليمن معروفة لا تنبت شيئا}}(4) وعنه عن منذر والفراء وغيرهما أن: {{الصريم: الليل والمراد منحرقة تشبه الليل في السواد}}(5) وعنه عن الثور: {{كالصبح من حيث ابيضت كالزرع المحصود}}(6). نفهم من هذه التفسيرات المختلفة أن لفظة (الصريم) لا يمكن حصرها في مدلول واحد داخل سياق واحد لما لهذه اللفظة من ظلال معنوية يمكن لأي محلل أن يستظل دون أن يحيد عن جادة الصواب.

هـ.نماذج استثنائية:

وقبل أن نختم هذا الفصل يجب أن نشير إلى بعض التشبيهات التي لم نستطع أن ننتقي منها لفظة بعينها لتكون هي المشبه به. ويكون هذا في الصورتين المفردة والمركبة؛ ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن التشبيه في هذه الصور يقوم بين حالة وأخرى، أي أنه يستنتج ويستخلص بعد التأويل، والأمثلة التي سنوردها توضح ذلك؛ فلو أخذنا على سبيل المثال قوله تعالى في وصف قوم شعيب بعد هلاكهم: [[فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها]](7). فلو بحثنا عن لفظة بعينها تكون هي المشبه به لما وجدناها لأن عبارة (لم يغنوا فيها) هي الطرف المقابل لحال القوم بعد هلاكهم، وهي تمثل حالة المكان الذي لم يسبق للقوم أن أقاموا به و بالتالي فمجمل معنى الآية هو: {{تشبيه حالة استئصالهم وعفاء آثارهم بحال من لم تسبق لهم الحياة.}}(8)

وعلى غرار هذا المثال يمكننا تحليل الصور التشبيهية المتبقية في مثل قوله تعالى: [[وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها]](9) وقوله أيضا: [[إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها(10).

---

(1) القلم آية 20

(2)(3)(4)(5)(6) روح المعاني - المصدر السابق م 10 - ج 29 - ص 37

(7) الأعراف آية 91

(8) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 9 - ص 14

(9) لقمان آية 6

(10) النازعات آية 45

ففي ظاهر الآية الأولى نجد أن المشبه والمشبه به واحد، ولكن مع تغيير في حاسة السمع لا غير. وإذا ما نظرنا إلى ما وراء ظاهرها لوجدنا أن المشبه هو الإنسان الذي تظاهر بعدم السمع، سماع آيات الله تتلى عليه، وذلك من خلال تكبره وتجبره رغم كونه يمتلك حاسة السمع عندما تليت عليه هذه الآيات. وهذه الحالة كلها تضاهي حالة الإنسان الذي لم يسمع فعلاً سواء كان عديم السمع، أو أنها لم تتل عليه، وهذا ما يؤكده صاحب التحرير بقوله: {{وشُبِّه في ذلك بالذي لا يسمع الآيات التي تتلى عليه ووجه الشبه هو عدم التأثر}}(1).

ونفس الملاحظة يمكننا أن نطبقها على الآية التشبيهية الثانية، لأن لفظتي (العشي والضحى) لا يمكن الإكتفاء بهما للتدليل على المشبه به، كما أن لفظة (يلبثوا) لا تستقل لذاتها، لأن الأمر يتعلق بالفعل (لبث) والفاعل ضمير(هم) الدال عليه واو الجماعة في (لبثوا)، وكذلك يتعلق بلفظة (العشية) المخيَّرة بـ(أو ضحاها). ولهذا فإن مجموع عناصر هذه الصورة التشبيهية هو الذي يعطينا تفسيرا لها، ولعل هذا ما يؤكده تفسير هذه الآية: {{...فهو تشبيه حالهم بحالة من لم يلبث إلا عشية}}(2).

بهذه الأمثلة بينا موقفنا من عدم تصنيف هذه الصور ضمن المحاور السالفة الذكر، لأنها - كما بينا - تحتاج إلى تأويل المعنى للوقوف على الحالة التي يريد القرآن أن يجعلها طرفا مقابلا لطرف المشبه في توضيح العلاقة الرابطة بينهما.وعلى أي حال فقد حاولنا في هذه السريعة أن نتناول معظم الألفاظ التي وظفها القرآن الكريم في تشبيهاته الفنية التصويرية بصفتها وسائل إيضاح في تمريره للمبادئ الإسلامية السمحة التي تنبني عليها حياة الإنسان الدينية والدنيوية.

ووصولا إلى هذه النوعية من الصور التشبيهية نكون قد أتينا على نهاية هذا الفصل - الذي صدرناه بألفاظ التشبيه في القرآن الكريم - وعلى نهاية بحثنا هذا برمته.

---

(1) النازعات - آية45

(2) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج 21 - ص 144

(3) المصدر نفسه - ج 30 - ص 48

الخاتمة

الخاتمة

إذاأردنا أن نعطي في الختام لمحة مختصرة لأهم القضايا التي طرحها هذا البحث من خلال المنهج العام المتبع فنقول :إن أول ما يمكننا لفت الإنتباه إليه هو مصطلح(الصورة)- الذي وردَ في العنوان، والذي طبق في الجانبين النظري البلاغي، والتطبيقي في القرآن الكريم - لأن مفهومها عند الكثير قد ارتبط بالجانب الأدبي؛ فقد ألفت كتب ورسائل جامعية تضمنت عناوينها الصورة الأدبية بعامة، والشعرية بخاصة. بينما تناول هذا البحث في عنوانه الصورة في إطارها الضيق المحدود، ضمن مجمل الصور البلاغية التي، تمثل فيها صور التشبيه الجزء الهام الذي شد انتباه الأدباء والنقاد قديما وحديثا، وقد بينا هذا الإهتمام في عنصر التمهيد. ولهذا فإن طرح مثل هذه القضية - بصفتها عنوانا رئيسيا - يعد نوعا مغايرا لما ألفناه من العناوين التي تناولت التشبيه بالبحث والدراسة. وهذا ما حاولنا توضيحه من خلال ما تطرقنا إليه من جهود سبقت هذا البحث.

وإلى جانب هذه القضية هناك، قضية أخرى طرحها هذا البحث تتمثل في مصطلح (التشابه) الذي حظي بفصل مستقل لذاته، والذي تناولنا فيه الجانب النظري البلاغي والتطبيقي القرآني. وطرح هذه القضية بهذه الكيفية نعتقد أنها مبادرة لم يسبق لها مثيل في ميدان الدراسة البلاغية القرآنية على حد معلوماتنا، على الرغم من وجود إشارات عابرة سبق ذكرها عند علماء البلاغة قديماأمثال الرماني والعسكري. إلا أن توظيف هذا المصطلح (تشابه) بهذه الكيفية لم يطرح عند هؤلاء العلماء، فهم كما سبق القول أشاروا إلى الفرق بين نوعين من التشبيه: تشبيه حقيقي متطابق العناصر، وتشبيه مجازي تختلف فيه بعض العناصر عن بعضها البعض في إحدى الصفات التي تجمع بينها قوة وضعفا. بينما ضم هذا المصطلح (تشابه) ما هو متطابق قولا وفعلا وبين ماهو غير متطابق قولا وفعلا، وذلك عن طريق الأساليب الخبرية والإنشائية المختلفة مثل: التقرير، والطلب، والإنكار وغيرها من الأساليب القرآنية التي يرد فيها عنصر التشابه عن طريق تواجد أدوات التشبيه المتنوعة.

وقد حاول هذا البحث أن يفرق بين النماذج القرآنية التي يكون فيها عنصر التشبيه مبنيا على الجانب التقريري التطابقي، سواء كان عن طريق التطابق القولي والفعلي معا، أو عن طريق التطابق القولي دون الفعلي في الماضي، والحاضر ، والمستقبل. وانضوى تحت

هذا النوع جل النماذج التي تنتمي إلى النوع الأول التصريري. وقد كان الإعتماد الكبير في عملية فرز هذه النماذج - كما مر معنا- على القواعد البلاغية للتشبيه وكذا على تخريجات المفسرين.

ومن جملة القضايا التي عالجها هذا البحث قضية الفوارق التنظيرية بين أقسام التشبيه وأنواعه. فبعد مناقشة طويلة لجهود علماء البلاغة في هذا الشأن خلص إلى القول بانعدام وجود فوارق دقيقة وبيّنة في الجانب العملي التطبيقي. وعليه تم اختيار مصطلح (الصورة) بدل (الأقسام)، على أن تكون الأنواع بمثابة شكل من الأشكال التي تبرز فيها هذه الصورة. وبناء على هذا الإختيار تم إعطاء رسم بياني يوضح وضعية كل صورة من الصور الأربعة التي تم تبنيها من ثمانية صور التي اعتمدها الخطيب القزويني مراتب للتشبيه.

واعتماد البحث على هذه الصور الأربعة بدل الأقسام جعل الكثير من المعطيات تتغير؛ فمن جملة المتغيرات التي حدثت لقواعد التشبيه،انمماج كل من التشبيه (البليغ) والتشبيه (الضمني) تحت غطاء الصورة الرابعة في الجانب الشكلي، وذلك لاتحادهما في خاصيتين اثنتين هما: حذف الأداة ووجه الشبه، مع وجود فوارق بينهما في الجانب البياني الفني. كما تم دمج التشبيه (التمثيلي) - الذي كان يُدرس دراسة مستقلة عن التشبيه (المركب). تحت نوعية (التركيب)، على أن يُفرّق بينه وبين النوع المركب الآخر، في كون أحدهمامركبا تركيبا مزجيا، والثاني مركبا تركيبا تقابليا. وقد أدرجت في هذا الشأن نماذج كثيرة ومتعددة في الجانب النظري والتطبيقي.

ومما لا شك فيه أن طرح هذه القضايا بهذه الأوجه الجديدة يثير عدة تساؤلات واستفسارات، يمكن أن تكون في المستقبل ميادين للبحث والدراسة الأكاديمية الجادة.

وإلى جانب هذه القضايا- التي تعد أهم التغييرات التي حدثت على مصطلحات التشبيه في هذا البحث - هناك بعض الملاحظات التي استخلصت بعد الدراسة التطبيقية لصور التشبيه الأربعة في القرآن الكريم في نهاية الفصل الثالث، والتي نوجزها في ما يلي:

1- ندرة نماذج الصورة الأولى في تشبيهات القرآن الكريم، وذلك لاعتمادها - كما سبق ترجيحه - على التفصيل بذكر أركان التشبيه الأربعة.

2 - قلة نماذج الصورة الثانية في تشبيهات القرآن الكريم، وذلك لعدم ابتعادها على شكل الصورة الأولى، إلا في حذف أداة التشبيه، ويبقى دائما وجه الشبه الذي يبعد الصورة

عن الجانب التركيبي، الذي يكسبها جمالا بيانيا أكثر.

3 - شيوع نماذج الصورة الثالثة، وتصدرها المرتبة الأولى في جل النماذج القرآنية التي تم الوقوف عليها.

4- احتلال الصورة الرابعة المركز الثاني بعد الصورة الثالثة، وبخاصة في النماذج القرآنية التي تم حصرها في البحث.

ولكون الصورة الثالثة كانت هي الغالبة على نماذج القرآن الكريم التشبيهية، فقد حظيت بدراسة مطولة تناولت أهم أدوات التشبيه التي استخدمت فيها مثل (الكاف، ومثل، وكأن...) كما تضمنت هذه الدراسة قضيتين نقديتين هما (الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية)، وذلك في التشبيهات المركبة التي تمتاز بكثرة العبارات والجمل المُكوِّنة باتحادها الصورة التشبيهية التامة.

كما حظيت الصورة الرابعة بدراسة مطولة، وذلك لكثرة النماذج القرآنية التشبيهية، التي تتداخل فيها الحقيقة مع المجاز، والإستعارة مع التشبيه، وذلك بسبب تنوع الأساليب التي تضمنتها هذه النماذج، الأمر الذي تطلب عرضها على قواعد التشبيه، ثم على آراء المفسرين المختلفة، ثم الخروج بنتيجة بترجيح رأي على آخر في نهاية المطاف.

وإلى جانب هذا كله، فقد تطرق هذا البحث إلى معظم العناصر والأدوات التي وظفها القرآن الكريم بصفتها ألفاظا تشبيهية، في شكل وسائل إيضاح وتصوير تقريبية لكثير من قضايا الحياتين الدنيوية والأخروية. كما حاول في نفس الغرض أن يلتمس تفسيرات مختلفة لاستخدام القرآن الكريم لبعض هذه الألفاظ: مع تبيينه لبعض الدلالات المعنوية وأبعادها بالنسبة لحياة الإنسان بعامة والعربي منه بخاصة، وذلك انطلاقا من أن القرآن الكريم نزل على سكان البيئة العربية.

وأهم ما يمكن قوله في هذا الغرض أن القرآن الكريم قد استخدم في تشبيهاته الفنية ألفاظا كثيرة ومتنوعة شملت معظم العناصر الطبيعية، مثل: عنصر (الإنسان)- بحواسه الفسيولوجية وأدواته الحضرية ومواقفه الحياتية الأخرى - وكذا عنصر (الجن والشياطين) - وما تعلق بهما من انطباعات الإنسان في حياته اليومية - وكذا عنصر (النبات) - بصفته الجزء الأساسي الذي لا يتجزأ من حياة الإنسان - كما أنه لم يغفل عنصر (الحيوان) - على أعتبار أنه الملازم الرئيسي للانسان في حله وترحاله، في بدوه وحضره، فهو العمود الفقري لرحلة حياته

الطويلة إلى الأبد - ولم يستثن في ذلك أبسط (الحشرات والهوام) شيوعا في الطبيعة مثل (الجراد والعنكبوت والفراش) - كما أنه لم يغفل بعد هذا كله أن يوظف عنصر (السوائل)، وعلى رأسها (الماء)، الذي وُظّف في معظم الأحيان بمثابة عنصر أساسي في تحريك الدورة الطبيعية للنبات، التي تقابل عادة دورة الحياة الطبيعية للإنسان.

ولم تخل تشبيهات القرآن الكريم من عناصر أخرى لبعض الظواهر والأجزاء الطبيعية، مثل: (السراب، السحاب، الريح، الليل، الظلام، الجبال، الكواكب، الهباء) وغيرها.

وما يمكن إجماله في هذا الصدد، هو أن الدارس لتشبيهات القرآن الكريم يجد في كل جزء من أجزاء الطبيعة الواسعة الأطراف عنصرا يمثله في مجمل الصور التشبيهية، سواء كان مفردا مستقلا، أو جزء ملتحما مع أجزاء أخرى داخل السياق العام لكل صورة تشبيهية.

وأخيرا نقول أن هذا البحث وما طرحه من قضايا، وما أثاره من تساؤلات جديدة وقديمة، يمكن أن يكون بمثابة حافز للدراسات أخرى متطورة، في المجال النظري البلاغي بصفة عامة، والتطبيقي القرآني بصفة خاصة. وذلك تكملة لما توصلت إليه الدراسات السابقة، لأنه لا يعقل أن يتوقف الفكر البشري عند قوالب وقواعد مضت عليها عقود من الزمن لم تتغير فكما حرّكت جهود الشعراء والنقاد قوالب مماثلة في ميدان الشعر، فيمكن لجهود موازية أن تحرك هذه القوالب البلاغية، وعلى رأسها قوالب التشبيه المتوارثة إلى يومنا هذا ولكن شريطة أن يكون التطوير في الفروع مع المحافظة على الأصول.

ونرجو أن تكون هذه المبادرة إحدى المساهمات الأولى المتواضعة في هذا الدرب الوعر المسالك، الذي لا يشق عبابه إلا متمرس متمكن من ناصية العلوم والمعرفة.

والله نسأل أن يسدد خطانا ويوفقنا إلى ما فيه خير البلاد والعباد

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

1 - القرآن الكريم - رواية ورش - شركة ومطبعة عبد الرحمان محمد - 1383 هـ - 1964 م

2 - الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي - دار المعارف بيروت لبنان

3 - أساس البلاغة - الزمخشري - تحقيق عبد الرحيم محمود - دار المعرفة بيروت لبنان - 1402هـ - 1982 م

4 - أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجاني - تحقيق عبد المنعم خفاجي - مكتبة القاهرة - 1399 هـ - 1979 م

5 - إعجاز القرآن - الباقلاني - تحقيق أحمد صقر - دار المعارف مصر - ط 3

6 - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صادق الرافعي - دار الكتاب العربي بيروت لبنان - 1393 هـ - 1972 م - ط 9

7 - الأمثال القرآنية - عبد الرحمان حسن حنبكة الميداني - دار القلم دمشق 1400 هـ 1980م ط 1

8 - الإنسان والحضارة في العصر الصناعي - فؤاد زكريا - مركز كتب الشرق الأوسط

9 - الإيضاح في علوم البلاغة - الخطيب القزويني - شرح وتعليق وتنقيح عبد المنعم خفاجي - دار الفكر دمشق - 1405 هـ - 1985 م - ط 2

10 - بديع القرآن - ابن أبي الإصبع المصري - تحقيق محمد شرف - مكتبة نهضة مصر الفجالة

11 - البرهان في علوم القرآن - محمد بن عبدالله الزركشي - تحقيق محمد أبو الفضل - دار الفكر - 1400 هـ 1980 م - ط 3

12 - البلاغة الإصطلاحية - عبد العزيز قليقلة - دار الفكر العربي القاهرة - 1407 هـ - 1987 م

13 - البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البيان) - بكري شيخ أمين - دار العلم للملايين بيروت لبنان - 1982 م

14 - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان

15 - تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة - شرح أحمد صقر - المكتبة العلمية المدينة المنورة - 1401 هـ - 1981 م - ط 2

16 - التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية للنشر - المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر - 1989 م

17 - التشبيهات القرآنية والبيئة العربية - واجدة مجيد الأطرقجي - منشورات وزارة الثقافة والفنون - الجمهورية العراقية - سلسلة دراسات - 1978 م

18 - تفسير البيضاوي - دار الفكر بيروت لبنان

19 - التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن - حنفي أحمد - دار المعارف مصر

20 - التفسير الكبير - الرازي - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان - 1403 هـ - 1983 م

21 - التلخيص في علوم البلاغة - القزويني - طبع وشرح عبد الرحمان البرقوقي - دار الكتاب العربي بيروت لبنان

22 - تهذيب اللغة - الأزهري - تحقيق عبد المنعم خفاجي ومحمد فرج عقدة - الدار المصرية للتأليف والترجمة

23 - جامع البيان في تفسير آي القرآن - ابن جرير الطبري - دار الفكر - 1405 هـ - 1985 م

24 - الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان

25 - الجمان في تشبيهات القرآن - ابن ناقيا البغدادي - تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي - دار الجمهورية بغداد - 1387 هـ - 1968 م

26 - الجمان في تشبيهات القرآن - ابن ناقيا البغدادي - تحقيق مصطفى الصاوي الجويني منشأة المعارف مصر

27 - جمهرة أشعار العرب - ابن أبي الخطاب القرشي - دار المسيرة بيروت لبنان - 1398 هـ - 1978م

28 - الحماسة - أبو تمام - تحقيق عبد الله بن عبد الرحيم عسقلان - إشراف ونشر دار الثقافة والنشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - المملكة السعودية - 1401 هـ 1981 م

29 - الحيوان - الجاحظ - تحقيق وشرح عبد السلام هارون - دار إحياء التراث العربي

30 - الخصائص - ابن جني - تحقيق محمد علي النجار - دار الهدى للطباعة والنشر بيروت - ط 2

31 - خليل مطران شاعر القطرين - إيليا الحاوي - دار الكتاب اللبناني بيروت - 1978 م - ط 1

32 - دراسات الحضارة الاسلامية - أحمد ابراهيم الشريف - دار الفكر العربي

33 - ديوان الخوارج - تحقيق إحسان عباس - دار الشروق بيروت - 1402 هـ - 1982 م - ط 4

34 - الديوان - ابن الرومي - شرح محمد شريف سليم - دار إحياء التراث العربي بيروت

35 - الديوان - ابن المعتز - دار بيروت للطباعة والنشر - 1400 هـ - 1987 م

36 - الديوان - أبو تمام - إيليا الحاوي - دار الكتاب اللبناني بيروت - 1981 م - ط 1

37 - الديوان - أبو القاسم الشابي - دار العودة بيروت - 1972 م

38 - الديوان - أبو فراس الحمداني - دار بيروت للطباعة والنشر - 1399 هـ - 1979 م

39 - الديوان - أبو الطيب المتنبي - شرح ناصيف اليازجي - دار بيروت للطباعة والنشر - 1401 هـ

40 - الديوان - الأعشى - شرح وتعليق محمد محمد حسين - المكتب الشرقي للنشر والتوزيع بيروت لبنان - 1968 م

41 - الديوان - إمرؤ القيس - ابن أبي شنب - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - 1394 هـ - 1974 م

42 - الديوان - أوس بن حجر - تحقيق - حمد يوسف نجم - دار بيروت للطباعة والنشر - 1980 م

43 - الديوان - بشار بن برد - تحقيق محمد الطاهر بن عاشور - الشركة التونسية للتوزيع الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع - 1972 م

44 - الديوان - البحتري - تحقيق حسن كامل الصيرفي - دار المعارف بمصر - ط 2

45 - الديوان - علي بن الجهم - تحقيق مردم بك - لجنة التراث العربي - 1401 هـ - 1981 م - ط 2

46 - الديوان - الفرزدق - دار بيروت للطباعة والنشر - 1400 هـ - 1980 م

47 - الديوان - مجنون ليلى - تحقيق عبد الستار أحمد فرج - دار مصر للطباعة

48 - الديوان - النابغة الذبياني - دار بيروت للطباعة والنشر - 1402 هـ - 1982 م

49 - روح البيان - إسماعيل حقي - دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان - 1405 هـ - 1985 م

50 - روح المعاني - محمد الألوسي البغدادي - دار الفكر بيروت لبنان - 1403 هـ - 1983 م

51 - سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجي - دار الكتب العلمية بيروت لبنان - 1402 هـ - 1982 م

52 - سلسلة الأحاديث النبوية الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة - محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي بيروت لبنان - 1328 هـ - ط 4

53 - الشابي - حياته وشعره - أبو القاسم محمد كرو - منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان - 1979 م

54 - شرح ديوان أبي تمام - إليا الحاوي - دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان - 1981 م - ط 1

55 - الشعر والشعراء - ابن قتيبة - دار إحياء العلوم بيروت لبنان - 1986 م - ط2

56 ـ الصحاح ـ الجوهري ـ تحقيق عبد الغفور عطار ـ دار القلم للملايين بيروت لبنان 1319 هـ ـ 1979 م

57 ـ الصناعتين ـ أبو هلال العسكري ـ تحقيق مفيد قميحة دار الكتب العلمية بيروت ـ 1401 هـ ـ 1981 م ـ ط3

58 ـ الصورة بين البلاغة والنقد ـ أحمد بسام الساعي ـ المنار للنشر والطباعة والتوزيع ـ 1404 هـ ـ 1984 م

59 ـ الطراز ـ يحي بن حمزة العلوي اليمني ـ منشورات مؤسسة النصر تهران مطبعة المقتطف مصر 1332 هـ ـ 1914 م

60 ـ عالم الجن والشياطين ـ عمر سليمان الأشقر ـ دار الشهاب للطباعة والنشر باتنة

61 ـ عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ـ بهاء الدين السبكي ـ مطبعة السعادة مصر ـ 1342 هـ ط 2

62 ـ علوم البلاغة (البيان ـ المعاني ـ البديع) أحمد مصطفى المراغي ـ دار القلم بيروت لبنان ـ 1984 م

63 ـ العمدة ـ ابن رشيق ـ تحقيق وشرح مفيد قميحة ـ دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1402 هـ 1982 م ط3

64 ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ دار المعرف بمصر ـ ط 2

65 ـ الفكر البلاغي عند العرب ـ حمادي صمود ـ منشورات الجامعة التونسية ـ 1401 هـ ـ 1981 م

66 ـ فن التشبيه ـ (بلاغة ـ أدب ـ نقد) علي الجندي ـ مكتبة الإنجلو المصرية ـ 1386 هـ ـ 1966 م ط 6

67 ـ في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ دار الشروق ـ 1406 هـ ـ ط 11

68 ـ القاموس المحيط ـ الفيروزبادي ـ دار العلم للجميع بيروت لبنان

69 ـ القرآن والصور البيانية ـ عبد القادر حسين ـ دار النهضة مصر للطباعة والنشر الفجالة القاهرة

70 ـ الكامل ـ المبرد ـ مكتبة المعارف بيروت لبنان

71 ـ كتاب التشبيهات ـ ابن أبي عون ـ تصحيح عبد المنعم خان ـ مطبعة جامعة كمبردج ـ 1369 هـ ـ 1950 م

72 ـ كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ـ محمد بن الكتاني الطبيب ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار الشروق ـ 1401 هـ ـ 1981 م ـ ط 2

73 ـ الكتاب ـ سيبويه ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ 1977 م ـ ط 2

74 ـ الكشاف ـ الزمخشري ـ دار الفكر للطباعة والنشر بيروت لبنان

75 ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار صادر للطباعة والنشر بيروت لبنان

76 ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ ابن الأثير ـ تقديم وتحقيق وشرح أحمد الحوفي وبدوي طبانة ـ منشورات دار الرفاعي الرياض ـ 1403 هـ ـ 1983 م

77 ـ مجاز القرآن ـ أبو عبيدة ـ عارضه بأصوله وعلق على حواشيه محمد فؤاد سزكين ـ مؤسسة الرسالة ـ 1401 هـ ـ 1981 م ـ ط 2

78 ـ مجمع فتاوى ابن تيمية ـ جمع وترتيب عبد الرحمان بن محمد بن قاسم مكتبة المعارف المغرب

79 ـ مجمع الأمثال ـ الميداني ـ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان ـ ط 2

80 ـ مجمع البيان في تفسير القرآن ـ أبو علي بن الحسن الطبرسي ـ دار مكتبة الحياة بيروت لبنان

81 ـ المخصص ـ ابن سيده ـ تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ـ دار الآفاق الجديدة بيروت لبنان

82 ـ معاني ـ القرآن ـ الفراء ـ تحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي ـ 1403 هـ ـ 1983 م ط 3

83 ـ معجم مقاييس اللغة ـ ابن فارس ـ تحقيق وضبط عبد السلام هارون ـ دار الفكر

84 ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الفكر بيروت لبنان ـ 1401 هـ ـ 1981 م ـ ط 2

85 ـ مفتاح العلوم ـ السكاكي ـ ضبط وشرح نعيم زرزور ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ 1403 هـ ـ 1983 م ـ ط 1

86 ـ منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ـ محمد سعيد رمضان البوطي ـ دار الفكر دمشق ـ 1400 هـ ـ 1980 م ـ ط 1

87 ـ نقد الشعر ـ قدامى بن جعفر ـ تحقيق عبد النعم خفاجي ـ دار الكتب العلمية بيروت

88 ـ النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) الرماني ـ دار الكتب العلمية بيروت

89 ـ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ـ فخر الدين الرازي ـ تحقيق وتقديم بركات أبو علي ـ دار الفكر للنشر والتوزيع عمان الأردن ـ 1989 م

90 ـ وحي القلم مصطفى صادق الرافعي ـ دار الكتاب العربي بيروت لبنان ـ

فهرس الآيات

الأعراف :

آية : 26 ـ ص :184 ـ آية : 91 ـ ص : 262 ـ آية : 169 ـ ص : 43 ـ 44 ـ آية : 171 ـ ص : 15 ـ آية : 175 ـ 176 ـ ص : 169 ـ آية : 175 ـ 176 ـ ص : 147 ـ آية : 176 ـ ص : 175 ـ 246 ـ آية : 179 ـ ص : 127 ـ 129 ـ 132 ـ 133 ـ 241 ـ

الأنفال :

آية : 6 ـ ص : 152 ـ 176 ـ 231 ـ آية : 31 ـ ص : 43

التوبـة :

آية : 19 ـ ص : 60 ـ 67 ـ 160 ـ آية : 28 ـ ص : 179 ـ آية : 31 ـ ص : 181 ـ 187 ـ آية : 36 ـ ص : 47 ـ آية: 61 ـ ص: 180 ـ آية : 104 ـ ص : 180

يـونـس :

آية : 19 ـ ص : 142 ـ آية : 22 ـ ص : 255 ـ آية : 24 ـ ص : 9 ـ 29 ـ 148 ـ 177 ـ آية : 27 ـ ص : 141 ـ 253 ـ آية : 38 ـ ص : 74 .

هـود:

آية : 24 ـ ص : 144 ـ 167 ـ 220 ـ آية : 42 ـ ص : 256 ـ آية : 100 ـ ص : 182 .

يوسـف :

آية : 64 ـ ص : 64 .

الرعد :

آية : 4 ـ ص : 71 ـ آية : 15 ـ ص : 150 ـ 221 ـ آية : 17 ـ ص : 59 ـ 62 ـ آية : 18 ـ ص : 58 ـ آية : 19 ـ ص : 156 ـ 171 ـ 249

إبراهيم :

آية : 14 ـ ص : 158 ـ آية : 18 ـ ص : 14 ـ 147 ـ آية : 21 ـ ص : 173 ـ 227 ـ آية : 26 ـ 27 ـ ص : 149 ـ آية : 26 ـ 27 ـ 28 ـ ص : 170 ـ آية : 26 ـ 27 ـ ص : 236 ـ آية : 26 ـ ص : 151 ـ آية : 28 ـ ص : 151 ـ 238 ـ آية : 28 ـ ص : 151 ـ آية : 45 ـ ص : 192 .

الحـجر :

آية : 22 ـ ص : 255

ع

النمـل :

آية : 9 ـ ص : 215 ـ آية : 10 ـ ص : 138ـ 141ـ 162 (2) آية : 77 ـ ص : 129 ـ آية : 90 ـ ص : 87ـ 109 ـ 193ـ 254 ـ اية : 96 ـ ص : 193

القصص :

آية : 18 ـ ص : 43 ـ آية: 31 ـ ص : 234 ـ آية: 77 ـ ص : 46 ـ 49

العنكبوت :

آية : 41 ـ ص : 127ـ ص: 131 ـ ص: 132 ـ 248 ـ آية: 64 ـ ص : 201 ـ 260

الروم :

آية : 27 ـ ص : 65 ـ آية: 58 ـ ص: 40

لقمان :

آية: 6 ـ ص: 262 ـ آية ـ ص : 31 ـ ص : 138ـ 165 ـ 254

السجدة :

آية : 18 ـ ص : 54

الأحزاب :

آية : 6 ـ ص : 259 ـ آية: 19ـ ص : 231 آية: 32 ـ ص: 160 ـ آية: 40 ـ ص : 88 ـ آية: 45ـ 46 ـ ص: 197 ـ آية: 46 ـ ص : 215ـ 225

سبأ:

آية : 13 ـ ص : 8 ـ 230

فاطر :

آية : 21 ـ ص : 72 ـ آية : 22 ـ ص : 72

يس :

آية : 38 ـ ص : 15 ـ 236 ـ آية : 77 ـ ص : 261

الصافات :

آية : 49 ـ ص : 260 ـ آية : 61 ـ ص : 51 ـ آية : 65 ـ ص : 141ـ 234

ص :

آية : 27 ـ ص : 56ـ 160

الزمر :

آية : 10 ـ ص : 80

غافـــــر :

آية : 64 ـ ص : 214ـ 224

فصلــــت :

آية : 12 ـ ص : 42ـ آية : 33 ـ ص : 66 ـ 166ـ 170

الشـــورى :

آية : 1 ـ ص : 40 ـ آية : 9 ـ ص : 69 ـ آية : 30 ـ ص : 256

الزخرف :

آية : 9ـ ص : 186 آية : 18 ـ ص : 184 ـ آية : 56 ـ ص : 4 ـ آية : 59 ـ ص : 4

الدخان :

آية : 18 ـ 19 ـ ص: 250 ـ آية : 41 ـ 42 ـ ص : 165 ـ آية : 42 ـ 43 ـ ص : 139 ـ آية : 43 ـ ص : 140 ـ آية :
43 ـ 44 ـ 45 ـ ص: 251

الجاثية :

آية : 20 ـ ص : 59 ـ آية : 22 ـ ص : 212

الأحقاف :

آية : 24 ـ ص : 41

محمد:

آية: 13 ـ ص: 139ـ 140ـ 167ـ 241 ـ آية: 16 ـ ص: 4 ـ 55 ـ آية: 21 ـ ص : 206ـ 231 ـ آية: 36 ـ ص : 201 ـ
آية: 37 ـ ص : 169 ـ 260 ـ آية: 39 ـ ص : 68

الفتح :

آية : 28 ـ ص : 236

الحجرات :

آية : 2 ـ ص : 73 ـ آية: 10 ـ ص : 180ـ 190

الذاريات :

آية : 21 ـ ص : 219 ـ آية: 23 ـ ص : 141 ـ 166ـ 220ـ آية: 41 ـ 42 ـ ص : 261

الطور :

آية : 22 ـ ص : 163 ـ 229 ـ آية: 31 ـ 32 ـ ص : 75

القمر :

آية : 7 ـ ص : 142ـ 163 ـ 247 ـ 248 ـ آية: 19 ـ 20 ـ ص: 142 ـ آية: 20 ـ ص : 236 ـ آية: 31 ـ ص: 237 ـ

آية: 50 ـ ص : 161 ـ 221

الرحمن :

آية : 10 ـ ص : 237 ـ آية: 12 ـ ص : 230 ـ آية: 55 ـ56 ـ 57 ـ ص : 230 ـ آية: 56 ـ 57 ـ 58 ـ ص : 144

الواقعة :

آية : 5ـ 6 ـ ص : 196 ـ 215 ـ آية: 25 ـ ص : 229 ـ آية: 57 ـ 58 ـ ص : 215 ـ آية: 58 ـ ص : 194ـ 242

الحديد :

آية : 10 ـ ص : 67 ـ آية: 19 ـ ص : 149 ـ 169ـ 174ـ 198 ـ 201 ـ آية: 20 ـ ص : 14

المجادلة :

آية : 16 ـ ص : 188

الحشر :

آية : 11 ـ 12 ـ 13 ـ 14 ـ 15 ـ 16 ـ 17 ـ ص : 155 ـ آية : 16 ـ ص : 234 ـ آية : 20 ـ ص : 67

الصف :

آية : 4 ـ ص : 224

الصف :

آية : 4 ـ ص : 224 ـ آية : 14 ـ ص : 49

الجمعة : ٤٤٠٦٩٠

آية : 5 ـ ص : 244

المنافقون :

آية : 4 ـ ص : 237

القلم :

آية : 1 ـ ص : 228 ـ آية : 20 ـ ص : 262 ـ آية : 35 ـ ص : 159ـ60

الحـاقة :

آية : 5 ـ ص : 255 ـ آية : 6 ـ ص : 236

المعارج :

آية : 8 ـ ص : 138ـ 165 ـ 251 ـ آية : 9 ـ ص : 227 ـ آية : 43 ـ ص : 152ـ 162ـ 232

نـــوح :

آية : 16 ـ ص : 186ـ 214 ـ 225 ـ آية : 19 ـ ص : 186 ـ 214

الجن :

آية : 11 ـ ص : 178ـ 195

المزمل :

آية : 13 ـ ص : 195

المـــدثر :

آية : 49 ـ 50 ـ ص : 152 ـ 244

الإنسان :

آية : 15 ـ 16 ـ ص : 196 ـ 230 ـ آية : 19 ـ ص : 229 ـ آية : 28 ـ ص 43

المــرسلات :

آية : 32 ـ ص : 164 ـ 225 ـ آية : 33 ـ ص : 242

النـــبأ :

آية : 4 ـ ص : 237ـ آية : 6 ـ ص : 214 ـ آية : 6 ـ 7 ـ ص : 186ـ آية : 10 ـ ص : 186ـ 227 ـ آية : 19 ـ ص :
189 ـ آية : 20 ـ ص : 189ـ آية : 30 ـ ص : 252

النازعات :

آية : 30 ـ ص : 185 ـ آية : 45 ـ ص : 262 ـ 263

عبـس :

آية : 34 ـ 35 ـ 36ـ37 ص : 162

الأعلـــى :

آية : 19 ـ ص : 228

فهرس الموضوعات